



جامعة القدس المفتوحة

فنون النثر العربي القديم

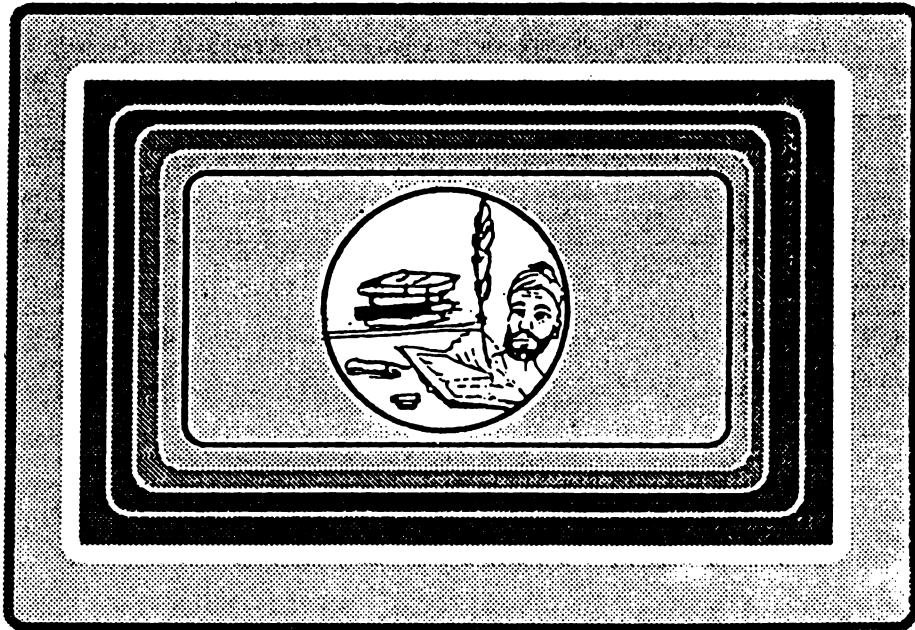
5240

حقوق الطبع محفوظة

2007

برنامج التربية

فنون النثر العربي القديم



رقم المقرر: 5240

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المقرر

عزيزي الدارس !

مرحباً بك إلى هذا المقرر من مقررات اللغة العربية ، وهو خاص بفنون النثر القديم ، وإن من الضروري لدارس اللغة العربية وآدابها أن يحيط علماً بماضيها وحاضرها فماضي الأدب هو كجذور الشجرة وأصلها ، ولذا فإن ما يلزمك أن تطلع على ما وجد من فنون نثرية في تاريخنا الأدبي ، وما تميّزت به من خصائص ، وما طرأ عليها من تطور أو تغيير ، وذلك بدراسة نصوص تمثل أبرز الكتاب في كل فن ، وبالرجوع إلى عدد من المراجع والمصادر المتصلة بهذه الفنون ، لتزداد معرفة وإطلاعا ، ولتعرف وجهات نظر متعددة تكوّن من دراستك لها وجهة نظرك الخاصة بك .

إننا نعلم أن الدراسة عن بعد ، عبر الجامعة المفتوحة تختلف عن الدراسة المنتظمة في الجامعة ، فلكلّ منهما خصائصها وأسلوبها والواجبات الملقاة على عاتق الطالب فيها ، ولقد حرصنا على أن نعدّ لك هذا المقرر ليتوافق مع كونك دارساً عن بعد ، ونرجو أن نكون قد وفّقنا في ذلك .

الأهداف العامة للمقرر

يتوقع بعد أن تفرغ من دراسة هذا المقرر وتنفيذ جميع الأنشطة والتدريبات الواردة فيه أن تكون قادراً على أن :

1. تعرف مراحل تطور فنون النثر المختلفة: الأمثال والوصايا ، والرسائل والترقيعات ، والخطب والمناظرات ، والقصص والمقامات .
2. تحدد أنواع الرسائل من ديوانية وإخوانية وأدبية .
3. تعرف الأمثال العربية : خصائصها ودلالاتها .
4. أن تتبيّن نشأة فن المقامات وتطوره .
5. تستخرج ملامح فن القصص عند العرب .
6. تتبيّن فن المناظرة : نشأته وتطوره وخصائصه .
7. محلل نصوصاً من الفنون النثرية المختلفة تحليلاً منهجياً .
8. تعرف أبرز أعلام النثر العربي والمدارس التي ينتمون إليها .
9. تعرف أهم مصادر التراث الأدبي النثرية وكيفية الاستفادة منها .

وقد سعينا إلى تصميم المقرر ليحقق هذه الأهداف ، وهو يتألف من ثماني وحدات دراسية تشتمل على المادة العلمية ، والأنشطة المتنوعة ، من تقويم ذاتي ، وتدريبات وتعيينات . ووحدات المقرر هي :

الوحدة الأولى : النشر العربي قبل الإسلام .

الوحدة الثانية : الرسائل والتوقيعات .

الوحدة الثالثة : الخطابة .

الوحدة الرابعة : المناظرات .

الوحدة الخامسة : القصص .

الوحدة السادسة : المقامات .

الوحدة السابعة : مدارس النشر الفني .

الوحدة الثامنة : من أعلام النشر الفني .

ولعلك تلاحظ الحرص في وحدات المقرر لتقديم صورة متكاملة عن النشر العربي القديم بمختلف فنونه . وفي كل وحدة من الوحدات ستجد حديثاً مفصلاً عن نشأة الفن النثري وتطوره ، ومراحل ازدهاره ، وأبرز أعلامه ، وفماذج تمثله في مختلف مراحلها . وقد وجدنا من الضروري أن نقف في نهاية المقرر على الصورة العامة للنشر العربي من خلال النظر في الاتجاهات العامة التي يندرج تحتها ، وذلك بالوقوف على مدارس النشر الفني التي عُرفت من قبل أو رصدها الدارسون المحدثون .

وفي الوحدة الأخيرة لك وقفة مع عدد من أعلام النشر الفني ، تعرف من خلالها ملامحهم وأبرز آثارهم ، وخصائص أسلوبهم ، وتطلع على المصادر التي تعينك على طلب المزيد عنهم .

وقد حرصنا على أن نضع بين يديك الخطوات التي لا بدّ منها إذا أردت أن تكتب عن شخصية ما .

وستجد أن كل وحدة من وحدات المقرر قد زُودت بعدد من أسئلة التقويم الذاتي والتدريبات التي يُقصد منها تعميق صلتك بالمادة العلمية ، وحفزك على التفكير والتدبّر ، وتوسيع دائرة معرفتك بعدم الاكتفاء بما هو بين يديك في صفحات هذا المقرر ، بل بالانطلاق إلى المراجع المختلفة التي حرصنا على تزويدك بأسمائها ، من خلال القراءات المساعدة المقترحة ، ومن خلال قائمة المصادر والمراجع التي تلي كل وحدة .

إننا نأمل أن نكون قد وفقنا في عملنا هذا وقرّنا إليك المادة العلمية في أسلوب ميسر ، وفتحنا لك أبواباً إلى المعرفة .

والله الموفق

الوحدة الأولى

النشر العربي قبل الإسلام

المحتويات

الصفحة	الموضوع
5	1. المقدمة
5	1.1 التمهيد
5	2.1 الأهداف
6	3.1 أقسام الوحدة
6	4.1 قراءات مساعدة
6	5.1 الوسائط المساندة
7	6.1 ما تحتاج إليه في دراسة هذه الوحدة
8	2. العرب والكتابة
11	1.2 دواعي الكتابة
14	2.2 أدوات الكتابة
17	3. موضوعات النشر الفني
17	1.3 الرصايا
20	2.3 الخطابة
23	3.3 الأمثال
25	4.3 سجع الكهان
27	4. من أعلام النشر الفني في الجاهلية :
27	1.4 أكثم بن صيفي
28	2.4 قس بن ساعدة الإيادي

30 الخلاصة
31 لمحة مسبقة عن الوحدة التالية
32 إجابات التدريبات
34 المصادر والمراجع

1.1 التمهيد

عزيزي الطالب ، أرحب بك وأدعوك إلى دراسة الوحدة الأولى من مقرر ، فنون النشر القديم " وموضوعها : النشر العربي قبل الإسلام .

ولعلك تعلم أن ما وصل إلينا من نثر الجاهلية الفني قليل إذا ما قيس بالشعر ، وأن من هذا القليل ما لا يوثق بصحته ؛ فهو من وضع متأخر . ولكن هذا الوضع مبني ، في مجمله ، على تصور لما كان عليه النثر في الجاهلية .

وقد تُشاركني القول : إن دراسة النثر الجاهلي من جوانبه المختلفة مهمة ، لأنه يمثل الحلقة الأولى في سلسلة تطور النثر العربي ، ولأنه ، من ناحية أخرى ، يُعين على فهم أعمق لطبيعة حياة القوم في أبعادها المختلفة . وباختصار ، فهو وليد مرحلة من مراحل حضارتنا الممتدة التي يحسنُ بنا أن نعي جوانبها المختلفة.

وأظنك على علم بموضوعات النثر قبل الإسلام ؛ فهي لا تكاد تتجاوز الوصايا والحكم والمعاهدات والخطب والأمثال وسجع الكهان . ولكل منها خصائصه التي تميزه ، على الرغم من وجود بعض الخصائص المشتركة . وللنثر الجاهلي أعلامه ، ومن منا لا يذكر قسّ بن ساعدة ، وأكثم بن صيفي فهما من أظهر أعلام النثر الفني في الجاهلية .

2.1 الأهداف

ونتوقع منك ، أخي الطالب ، بعد دراسة هذه الوحدة ، وتنفيذ ما يطلب إليك فيها ، أن تصبح قادراً على أن :

1. تكون فكرة عن الكتابة عند العرب في العصر الجاهلي .
2. تكون فكرة واضحة عن حالة النثر الفني قبل الإسلام ، وحالته بعد ظهور الإسلام .
3. تتعرف أساليب التعبير العربية قبل الإسلام .
4. تقرأ النصوص العربية قبل الإسلام وتستوعبها .

3.1 أقسام الوحدة

تتكون هذه الوحدة من ثلاثة أقسام : أولها مخصص للكتابة عند العرب في الجاهلية من حيث بدايتها ودواعيها وأدواتها ومدى انتشارها . وثانيها في موضوعات النثر الفني قبل الإسلام ، كالوصايا والخطب وسجع الكهان وغيرها ، وثالثها مخصص لبعض أعلام النثر الفني الجاهلي .

4.1 قراءات مساعدة

- ويحسن بك أن ترجع إلى كتاب من الكتب التالية التي تشمل نثراً جاهلياً في موضوعات مختلفة :
- البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، ج1 ص 306 - 309 ، 359 - 362 .
 - العقد الفريد ، لابن عبد ربه : تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت 1982 ، ج3 ص 69 - 80 .
 - مجمع الأمثال ، للميداني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بمطبعة السنة المحمدية ، بيروت 1955 .
 - جمهرة خطب العرب ، جمع أحمد زكي صفوت ، مطبعة الباهي الحلبي ، القاهرة ، 1933 . وتقرأ فيه بعض خطب الجاهلية .

5.1 الوسائط المساندة

6.1 ما تحتاج إليه في دراسة هذه الوحدة

لا تحتاج في دراسة هذه الوحدة إلا إلى استيعاب ما ورد فيها من أفكار . والتأمل فيما ورد فيها من نصوص ، والقيام بما يقتضيه ذلك من إجابة أسئلة التقويم الذاتي والتدريبات والرجوع إلى المراجع المقترحة ، مستعيناً في ذلك بخبراتك السابقة ، وتوجيه مرشدك .

2. العرب والكتابة

ليس من شأننا ، هنا استقصاء صورة الخط العربي وتطورها عبر الزمن ، كما أننا لا نستطيع أن نحدد ، بالقطع ، بداية للكتابة العربية . ويحسن بنا أن نكتفي بالقول إن الخط العربي الذي وصل إلينا ، عبر النقوش العربية الشمالية ولا سيما النبطية منها (مأخوذ من الخط النبطي) ، ومن يستقرئ هذه النقوش يثبت لديه ما ثبت للدكتور ناصر الدين الأسد من أن العرب كانوا يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون (الأسد ، 1966 : ص 33) . ولكن ، هناك من القدماء والمحدثين من يُنكر أن يكون العرب ، قبل الإسلام ، يعرفون القراءة والكتابة . ولعل أظهر ما يستدلون به على ما ذهبوا إليه أن العرب وُصفوا في القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوي الشريف بالأمية التي قد يبدو معناها ، في النظرة العجلى ، الجهل بالكتابة والقراءة . نعم ، لقد وصف القرآن الكريم العربي في جاهليتهم بأنهم أميون . وقد جاء ذلك في ثلاثة مواضع ، هي قوله تعالى : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أناسلمتم . » (آل عمران : 20) ، وقوله تعالى متحدثاً عن حياة اليهود : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » (آل عمران : 75) ، وقوله تعالى : « هو الذي بعث في الأسيين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (الجمعة : 2) . ومن الحديث الشريف ، ما روي عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، عن النبي (ص) أنه قال : « إنا أمة أمية : لا تكتب ولا تحسب . الشهر هكذا وهكذا . يعني مرة تسعة وعشرين ، ومرة ثلاثين » (العسقلاني ، د.ت.ج 4 : 126) .

وقد اختلف في معنى الأمية لغة واصطلاحاً على هذا النحو :

أولاً (الأمي الذي لا يكتب) (الدينوري ، ج 1 ، ص 384 ، القرطبي ، ج 18 ، ص 9) وعليه ، فقد فسّر بعضهم الأمي بمن لا يحسن أن يكتب ولكنه يعرف الكتابة لأنه يقرأ (الشوكاني ، ج 1 ، ص 106) .

ثانياً : الأمي الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب (الطبري ، ج 2 ، ص 257 ، الراغب الأصفهاني ، ص 23) . وعلى هذا التفسير حدّ ابن تيمية أمية النبي (ص) بقوله : « باعتبار أنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب ، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ » (ابن تيمية ، ج 17 ، ص 34 - 36) .

ثالثاً : الأمية الغفلة والجهالة ! ومن لا يقرأ ولا يكتب داخل في ذلك لقلّة المعرفة كما قال الراغب الأصفهاني . وقال الفيروزآبادي في القاموس : الأمي الغبي ، وتعقّب الزبيدي بقوله : كذا في النسخ - أي نسخ القاموس - وصوابه العبي : أي الجلف الجاني القليل الكلام . ويبدو لي أن

تفسير الزبيدي لا يدخل في معاني الأمية ؛ فقد يكون الرجل غير أمي ويكون عيباً ، وقد يكون العيب ظريفاً كثير الكلام .

ويدخل في هذا الباب تفسير الفقهاء للأُمِّي وتعريفهم له ، يقول ابن تيمية : الأُمِّي في اصطلاح الفقهاء خلاف القارئ وليس هو خلاف الكاتب ويعنون به في الغالب من لا يُحَسِّنُ الفاتحة . وعلى هذا المعنى يُفسَّرُ قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون » (البقرة : 78 ، 79) . وهنا فالأمي ، كما يقول ابن تيمية ، غير العارف بمعاني الكتاب يعلمها حفظاً وقراءة بلا فهم ولا يدري ما فيه . وهكذا فغير الفاهم للكتاب أمي وإن قرأ وكتب . وجدير بالذكر أن هذه الآية الأخيرة في وصف فريق من أهل الكتاب . وواضح من هذه الآية أن الأمية لا تعني الجهل بالكتابة ؛ لأن الله تعالى أخبر مرتين أنهم يكتبون بأيديهم ، ولذا قال ابن عباس ، رضي الله عنهما ، : " الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ، ولا كتاباً أنزله الله فكتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : هذا من عند الله " (ابن كثير ، ج 1 ، ص 116) .

وباختصار ، فالكتابة لا تحول دون الأمية ، والأمية لم تكن مقصورة على العرب دون غيرهم ، وهي ، في الأغلب ، أمية دينية ، أي أنهم لم يكونوا أصحاب دين ساري قبل بعث محمد (ص) .

وأما الحديث النبوي الشريف الذي ذكرناه سابقاً فلا يتعارض مع ما ذهبنا إليه ؛ فهو يشير إلى ضرب خاص من الكتابة والحساب ، هو حساب سير النجوم . وهو ينفي أن تكون الكتابة وأن يكون الحساب نظاماً عاماً في كل الشؤون عند العرب ، وقد جاء في تفسير ابن كثير تعليقا على الحديث المذكور قوله : " أي لا نفتقر في عبادتنا ومواقبتها إلى كتاب ولا حساب " (ابن كثير ، ج 1 ، ص 16) . وكان ابن كثير لم ينف معرفة العرب بالكتابة والحساب ، بل قرر أن واقعهم لا يحتاجون معه في عباداتهم إلى التقاويم وحساب حركات النجوم ، لأن جل اعتمادهم في توقيتهم على الأهلة رؤية ومعاينة لا رصداً وتدويناً كما كانت تفعل الأمم الأخرى .

وفي كتب القدماء ورواياتهم ما يدل على معرفة الجاهليين بالكتابة وانتشارها فيهم بشكل أو بآخر ؛ فهذا ابن حبيب يعقد في كتابه " المحبر " فصلاً خاصاً بأسماء بعض المعلمين في الجاهلية والإسلام . ومن هؤلاء المعلمين في الجاهلية : بشر بن عبد الملك السكوني ، أخو أكيدر صاحب دومة الجندل ، ومغيا بن أمية ابن عبد شمس ، وعمرو بن زرارة بن عدس بن زيد (ابن حبيب ، ص 475) . ويُذكر ابن جنيب - وكان نصرانياً من أهل الحيرة ظنراً لسعد بن أبي وقاص - أقدمه للصلح الذي كان بينه وبينهم ، وليعلم بالمدينة الكتابة (الطبري ، تاريخ ، ج 5 ، ص 42) . كما يُذكر أن الكتاب في الأوس والخزرج كان قليلاً ، وكان

بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول ، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون (البلاذري ، 1901 ، ص 479) .

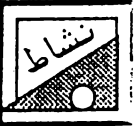
ويبدو أن الكتابة كانت منتشرة في قريش ، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا انتشار التجارة فيهم . ويروي أن رسول الله (ص) قال : : قريش أهل الله . وهم الكتبة الحسبة ، ملح الأرض " (الصولي ، 1341 ، هـ ، ، ص 28) . كما يبدو أن الكتابة انتشرت في الطائف أيضاً حتى قيل : " كانت الكتاب في العرب من أهل الطائف ، تعلموها من رجل من أهل الحيرة ، وأخذها أهل الحيرة عن أهل الأنبار " (ابن منظور : " أمم ") . وقد ورد عن ~~عمر بن الخطاب~~ ، رضي الله عنه ، قوله : " لا يخطون في مصاحفتنا إلا غلمان قريش وثقيف " ، كما طلب عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، من جمعة القرآن أن يجعلوا " الخطي من قريش والكتاب من ثقيف " (ابن فارس ، 1910 ، ص 41) . ومعروف أن أهل يثرب كانوا من الأوس والخزرج الذين ينحدرون من الأزدي ، وسكن معهم في يثرب بعض اليهود " فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون " (البلاذري ، 1901 ، ص 583) .

وفي الأخبار ما يؤيد وجود الكتابة في البرادي ؛ فقبيلة إباد ، مثلاً ، بدوية ومنها الشاعر لقيط الذي كان ينزل الحيرة حين وجه كسرى إلى قبيلته إباد جيشاً يبغى هلاكهم ؛ فكتب لقيط قصيدة وأرسلها إلى قومه ، وفيها ينذرهم عاقبة الغفلة عما يُدبر لهم بليل . وهذيل قبيلة بدوية كذلك ، وقد كثر في شعر شعرائها وصف الكتابة أو ما يتعلق بها كالخط وأدواته .

منه كتاب ليروي
① سيده ريلاد
لغيره
② قبيلة هزيل

نشاط

أخي الطالب ، اقرأ قصيدة لقيط الأيادي المذكورة فهي في ديوانه . وابحث في ديوان الهذليين عن بعض الأبيات التي ذكرت فيها الكتابة أو ما يتعلق بها .



وبحسن بنا ، أخي الطالب ، أن نختم القول في الكتابة عند عرب الجاهلية بما ذهب إليه ابن فارس من القدماء ، حين قال :

« فإننا لم نزع من أن العرب كلها ، مدرأ وورأ ، قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم ؛ فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة " (ابن فارس ، 1910 ، ص 8 - 11) ، وما ذهب إليه ~~جوان~~ ، من المحدثين ، الذي خصص المجلد الثامن من كتابة المعروف " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام " للكتابة عند العرب في الجاهلية ، حين قال يرد على من رأى أن العرب كانوا

يجهلون القراءة والكتابة: " ودعوى أن الجاهليين كانوا أميين وعلى الفطرة والبديهة ، لا يحسنون كتابة وقراءة خلا نفر بمكة وأشخاص بيثرب ، دعوى باردة سخيفة ، لا يمكن لمن له إلمام بأحوال الجاهلية أن يصدق بها ، (علي ، 1971 ، ج 8 ، ص 141) .

سؤال التقويم الذاتي (1)



وصف القرآن الكريم العرب في جاهليتهم بالأمية في ثلاث آيات ، اذكر اثنتين منها .

تدريب (1)



اذكر ثلاثة أدلة على معرفة الجاهليين الكتابة .

1.2 دواعي الكتابة

فإذا جئنا إلى دواعي الكتابة وموضوعاتها في الجاهلية ، وجدناها كثيرة مرتبطة بأمور حياتهم وجوانبها المختلفة . وليس من شك في أن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا نشيطين دينياً : يكتبون كتبهم وينشرونها بينهم وفي بعض القبائل . وفي أخبار ورقة بن نوفل ، الذي هجر عبادة الأوثان ، أنه " تنصّر واستحكم في النصرانية ، وابتغى الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب " (ابن كثير ، 1384 هـ ، ج 3 ، ص 120) . ومع أن هذا النص يشير صراحة إلى أن التوراة والإنجيل كانا مكتوبين بالعبرية أو السريانية ، وأن بعض العرب كان يقرأهما بهذه اللغة ، فإنه - مع ذلك لا ينفي أن هذين الكتابين كانا يكتبان بالعربية ، وأن بعض العرب كان يقرأهما بهذه اللغة ، لأن في أخبار بعض قبائل العرب ما يدل على انتشار اليهودية والنصرانية فيها (الأسد ، 1966 ، ص 61 - 62) ، ويُذكر أن أحد بني شيبان قال:

وما ذنبنا في قومنا غير أننا زكا وسطنا زرع المسيح بن مريم

(الأمدى ، 1982 ، ص 113) .

كما انتشرت النصرانية في بني تميم اللات وفي بني عجل وغيرها من القبائل ، ولذا ، فمن الحق أن نفترض أن هؤلاء كانوا يقرأون كتبهم الدينية بلغتهم العربية بعد أن ترجمت إليها هذه الكتب . وهناك شواهد

كثيرة على ذلك منها حديث سويد بن الصامت الذي قال لرسول الله (ص) : " لعل الذي معك مثل الذي معي؛ فقال : وما الذي معك ؟ قال سويد : مجلة لقمان - يريد كتاباً فيه حكمة لقمان . فقال رسول الله (ص) : اعرضها علي . فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى ، هو هدى ونور " (ابن هشام ، 1375 هـ ، ج 1 ، ص 427) . وقال عمر بن الخطاب للنبي (ص) : " إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، افتري أن نكتب بعضها : فقال : امتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ " (الزمخشري ، 1945 ، ج 33 ، ص 218) . وليس من شك في أن حديث سويد يحمل في أطوائه أن من العرب من استعمل العربية في كتابة الكتب الدينية ؛ لأنه لا يُعرف عن الرسول (ص) أنه كان يعرف غير العربية من اللغات ، وهو قد استمع إلى ما في مجلة لقمان واستحسنه وفضل القرآن عليه ؛ فلا بد أن يكون ما في المجلة المذكورة مكتوباً باللغة العربية . ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار الرسول (ص) في أن يكتب أحاديث يسمعا من اليهود تعجبه فلم يرافقه الرسول (ص) على ذلك . ومعروف أن عمر ، رضي الله عنه ، كان يكتب بالعربية .

وثمة دواعٍ أخرى وموضوعات للكتابة أجملها الجاحظ في قوله : " لولا الخطوط لبطلت العهد والشروط والسجلات والصكوك ، وكل إقطاع ، وكل إنفاق ، وكل أمان وكل عهد وعقد ، وكل جوار وحلف ، ولتعظيم ذلك ، والثقة به والاستناد إليه ، كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة : تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان ، ولذلك قال الحارث بن حلزة ، في شأن بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قُدِّم فيه ، العهد والكفلاء

حَلَزَ الجَوْرَ والتَّعَدِيَّ وهل ينقُض ما في المهارق الأهواءُ

والمهارق ، ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولا يُقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهد ، وميثاق ، وأمان (الجاحظ ، 1969 ، ج 1 ، ص 69 - 70) . ويشير الشاعر درهم بن زيد الأوسي إلى ما بين قومه والخزرج من أحلاف وعهود ومواثيق باستعماله كلمة « الصحف » في قوله :

وإن ما بيننا وبينكم حين يُقال : الأرحامُ والصُّحفُ

(الأسد ، 1966 ، ص 66)

أما الصكوك ، التي يذكرها الجاحظ ، فتحتمل ما كانوا يكتبونه من حساب لتجارتهم ، وما لهم أو عليهم من دين . فإذا علمنا انتشار التجارة في غير بيئة من بيئات العرب قبل الإسلام ، توقَّعنا كثرة هذا الضرب من الكتابة ، ويشير علياء بن أرقم بوضوح إلى هذا الضرب من الكتابة بقوله :

أَخَذْتُ لِذَيْنِ مطمئن صعيبةً وخالفتُ فيها كُلُّ من جار أو ظلمُ

(الأصمعي ، 1902 ، ص 63)

ولما كان الشعر ديوان العرب ، فقد حرصوا على كتابة بعضه ، وهناك شواهد كثيرة تؤيد ذلك ، ومنها ما يذكره ابن سلام أن شعر العرب " قد كان عند النعمان بن النذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته به ، فصار إلى بني مروان ، أو صار منه. " (الجمحي ، 1974 ، ص 25) . وقد يُضطر الشاعر إلى كتابة قصيدة وإرسالها إلى قومه ، ومن شواهد ذلك ما كان من لقيط بن يعمر الإيادي ، الذي عمل كاتباً في بلاط الفرس ، وكاتن قبيلته تنزل سندان ونواحيها بالقرب من الكوفة ، ثم نزلت أرض الجزيرة ، وأخذت تُغير على ما يليها من أرض السواد ؛ فأغضب فعلها كسرى ووجه إليهم جيشاً كبير العدد ، فبلغ الخبر لقيطاً وكان ينزلة الحيرة ، فأرسل إلى قبيلته إياد صحيفة بدأها بقوله :

سلام في الصحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من إياد

(الدينوري ، 1977 ، ص 205 ، الأصفهاني ، ج 22 ، ص 358) .

وختما بقوله من قصيدة :

هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمِنْ سَمَعَا

(الأصفهاني ، ج 22 ، ص 358)



نشاط

أخي الطالب ، اقرأ قصة لقيط في " الشعر والشعراء " وفي " الأغاني " .

* وحينما علم كعب بن زهير بإسلام أخيه بجير ، كتب إليه أبياتاً أولها :

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة فهل لك فيما قلت بالخيف هل لك أ

ولما تسلّم بجير الكتاب رد على أخيه بأبيات أولها :

من مبلغ كعباً فهل لك في التي تلوم عليها باطلاً وهي أحزم

(ابن زهير ، 1950 ، ص 3 - 4)

اقرأ قصة كعب وأخيه واستخلص ما فيها من الدلالة على وجود الكتابة عند العرب في الجاهلية .

أسئلة التقويم الذاتي (2)



1. اذكر ما يثبت أن الكتابة كانت متشرة في أوساط أهل الكتاب من يهود ونصارى .
2. اذكر أربعة من موضوعات الكتابة في العصر الجاهلي .
3. ما الفرق بين المهراق والصكاك ؟

2.2 أدوات الكتابة الرق

وفي الشعر الجاهلي - إشارات كثيرة إلى أدوات الكتابة سواء ما كانوا يكتبون عليه أو ما كانوا يكتبون به ؛ فمما كانوا يكتبون عليه الجلد بأنواعه أو الرق والأديم وغيرها ؛ يقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلاً ونزواً مهدياً كحظك في رِقِّ كتاباً مُنمنا

(الطائي ، 1872 ، 23)

ويقول المرقش الأكبر :

الدار قفر والرسم كما رِقش في ظهر الأديم قلم

(الأصفهاني ، ج6 ، ص 127 ، الجاحظ ، ج1 ، ص 375) .

والتماش ، ومنه المهراق جمعه مهراق ، معرّب عن الفارسية ، يُصقل بالصمغ ويكتب عليه ؛ يقول سلامة بن جندل :

لمن طلل مثل الكتاب المنمق خلا عهده بين الصليب مُنطرق
أكبّ عليه كاتبٌ بدواته وحادثه في العين جدّة مُهراق

(ابن جندل ، 1968 ، ص 155)

والحجارة ، وما يكتب عليها يسمى الوحي ، يقول لبيد بن ربيعة .

فمدافع الرّيسان عُري رسما خلّقاً كما ضمّن الوحي سلامها

(ابن ربيعة ، ص 297)

والوحي جمع مفردا وحي . وهو الكتابة . والسلام مفردا سلمة ، ومعناها الحجارة .
ويذكر أن آيات القرآن الكريم كانت تكتب ، على عهد الرسول (ص) ، على حجارة رقيقة . فحين

أمر أبو بكر ، رضي الله عنه ، زيد بن ثابت أن يجمع القرآن قال زيد : " فجعلت أتبعه من الرقاع والعصب واللخاف " (الزمخشري ، 1945 ، ج 2 ، ص 150) . واللخاف حجارة بيض رقان ، وأحدثه : كخفة .
وسعف النخل وهو العصب مفردا عسيب . وهي جريدة النخل إذا يبست وكُشط خصوصها ، يقول امرؤ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب اليماني

(الكندي ، 1906 ، ص 85)

والورق الذي ذكره حسان بن ثابت في قوله :

عرفت ديار زينب بالكثيب كحظ الوحي في الورق القشيب

(الأنصاري ، 1966 ، ص 70)

وأما ما يكتب به ، فمنه القلم والدواة والحبر . وقد ذكر عدي بن زيد العبادي القلم غير مرة في شعره :
ومنه قوله :

ما تبيّن العين من آياتها غير نوي مثل خط بالقلم

(الأصفهاني ، ج 2 ، ص 103)

ولعبد الله بن عتمة بيت ذكر فيه الدواة والحبر ؛ وهو قوله :

فلم يبق إلا دمنة ومنازل كما رد في خط الدواة مداها

(الضبي ، 1920 ، ص 743)

ومجدهم يطلقون على المواد المكتوبة وما كتب عليها أسماء مختلفة ، منها : الصحيفة والكتاب . ولعل من أشهر الصحف التي كتبت في الجاهلية صحيفة طرفة وصحيفة المتلمس . ومعروف أن المتلمس ألقى صحيفته في نهر الحيرة بعد أن علم أن فيها مقتله ، ونصح طرفة أن بلقي هو الآخر صحيفته فرفض ؛ فكان فيها مقتله ، وفي ذلك يقول المتلمس :

من مبلغ الشعراء عن أخونهم نبأ ، فتصدّقهم بذاك الأنفس

أودى الذي علّق الصحيفة منها ونجا حذار حياته المتلمس

ألقى صحيفته ونجى كورة وجنأ مجرّة المناسيم عرّيس

أُطْرِفَتْ بِنِ الْعَبْدِ إِنَّكَ حَائِنٌ أَبْسَاحَةَ الْمَلِكِ الْهَمَامِ تَمَرُّسٌ

الْحَبَاءِ الصَّحِيفَةِ لَا أَبَالِكَ إِنَّهُ يُخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الْحَبَاءِ النَّقْرَسُ

(الدينوري ، 1977 ، ص 185 - 186 ، البغدادي ،

1977 ، ص 346 ، المرتضى ، ج 1 ، ص 184) .

نشاط

ابحث في أحد قواميس اللغة عن معاني الكلمات الآتية :

الحبَاء ، الكور ، الرجاء ، مُجَمَّرَةٌ ، النَّقْرَس .



ويبدو أن لفظة "الكتاب" أكثر استعمالاً في الشعر الجاهلي من لفظة "الصحيفة" . وهي أكثر استعمالاً في القرآن الكريم وفي كتب رسول الله "ص" . ومن أمثلة ورودها في الشعر الجاهلي ، قول زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة :

يُوْخِرُ فَيُوضِعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ لِيَوْمِ حِسَابٍ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْتَمِ

(ابن أبي سلمى ، 1944 ، ص 15)

وقول عبيد بن الأبرص :

لَمِنَ السَّادِ أَقْفَرَتْ بِالْجَنَابِ غَيْرَ نُؤْيِي وَدَمْنَةٍ كَالْكِتَابِ

(ابن الشجري ، 1306 هـ ، ص 105)

تدريب (2)

اذكر ثلاثاً من أدوات الكتابة في العصر الجاهلي ، ثم استعن بالشعر لتثبت ما يزيد استعمالها آنذاك .



3. موضوعات النشر الفني

ونعني بالنشر الفني ذلك النشر الذي يدخل في باب الأدب الحق . وهو النشر الذي يوليه صاحبه عناية خاصة من حيث الصياغة والأداء الجميل ، فيكون له بذلك أثر في نفوس المتلقين أو السامعين . وهو بذلك مختلف عن النشر العادي المستعمل في الأحاديث التي يتخاطب بها الناس .

1.3 الوصايا

يقال في اللغة أوصى الرجل ووصاه أي عهد إليه . ويمكن أن تعد الوصية خلاصة فكرية يكتبها المرء من تجاربه في بيئته ومجتمعه . وهي تشبه الحكمة والمثل من هذه الناحية ؛ بل قد تتكون منهما . وفي الغالب ، يرتبط استعمال الوصية بإرادة الخير ، والتوجيه إلى ما هو واجب من فضائل النفس والسلوك . ويمكن أن تلقي الوصايا ضروماً مهماً على العلاقات الاجتماعية السائدة ، وعلى تطور القيم والأفكار في مجتمع بعينه .

وقد حفظت لنا كتب القدماء كثيراً من وصايا العصر الجاهلي ؛ وهي في مجملها ، تصور نظاماً اجتماعياً يقوم على وحدة القبيلة وعلى ترابطها . ويمكن قسمة هذه الوصايا إلى قسمين بالنظر إلى من صدرت عنهم :

أولاً : وصايا الحكماء والمعمرين لبني قورهم ؛ ومن هؤلاء أكثم بن صيفي ، وقس بن ساعدة الإيادي ، والأفوه الأودي . ومما جاء في إحدى وصايا الأفوه لقومه ، قوله :

"كونوا من الفتن على حذر ، ولا تأمنوا على أحسابكم من السفهاء ، ولا تشركوهم في سرهم ، فإنهم كالضأن في رعيتها ، كلامهم ذعر ، وفعلهم عسر ، لا يستحيون من دناءة ، ولا يراقبون محرماً ... وإن حارتم فاتخذوهم حشواً فيما بينكم فإن النظر قبل اللقاء حزم ، ولا حزم بعد الندامة ، فإذا اقتادكم امرؤ فوقروه بالإجلال والمناصحة تبلغوا بذلك من العدو ، وتناولوا به المحامد ، فإن لقدراً أمراً ، والأيام دُول ، فتأهبوا وتصنعوا لخلولها ، وليكن جلساؤكم أهل المروءة والطلب لها ، وإياكم ومجالسة الأشرار ، فإنها تعقب الضغائن ، والرفض لهم من أسباب الخير .

وفي ترك المرء راحة للبدن ، فليُنظر كل رجل منكم إلى جهته ، فإن العجب كبير ، والكبير قائد إلى البغض ، واشتأوا البغي ، فإنه المرعى الوخيم ، واستصلحوا الخلل ، وتحاموا الذل " .

(السجستاني ، 1353 هـ ، ص 130 - 131) .

لعلك ، أخي الطالب ، تلحظ حرص الأنوفه على قبيلته ووجدتها إن في سلمها أو في حربها . كما تلحظ حرصه على بقاء قيم بعينها في قومه . وهو قد ساق ذلك في عبارات بعيدة عن التكلف والتعقيد . وإن ظهر بعض السجع في هذه الرصية فهو سجع غير متعمد ، وغير مقصود لذاته ؛ بل جاء وكأن الفكرة تستدعيه ، والمعنى يطلبه .

ثانياً : **وصايا الآباء للأبناء** ؛ وأكثر هذه الوصايا قالها أصحابها في أواخر حياتهم أو عندما حضرتهم الوفاة ؛ ولذا فهي تتضمن خلاصة تجاربهم تساق في حكم ومواعظ . وكثيراً ما كان الأبناء يلتزمون بهذه الوصايا ؛ فيذكر أن معبد بن زرارة لما أسر لم يفده أخوه لقيط الذي التزم برصية والده ، ومنها : " لا تزاكوا العرب أنفسكم ، ولا تزيدو بفدائكم على فداء رجل منكم فيدرب بكم ذؤبان العرب ، ويكون على أهل بيتكم سنة سيكاً " وواضح من هذا القول أن زرارة يرصي أولاده ألا يدفعوا فدية الملوك إذا أسروا وأن يكتفوا بدفع الفدية التي يدفعها العامة ، وهي : مئة بعير . وقد روي أن لقيطاً لم يخرج عن ذلك عندما طلب معبد فدية نفسه وكان موسراً ؛ ولذا مات في الأسر (الأصفهاني ، ج 11 ، ص 138) .

ولعل من أشهر الوصايا من هذا الضرب **وصية ذي الإصبع العدواني** ، حوثان بن الحارث ، لما احتضر لابنه أسيد :

" أبي بني ، إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، وإني مرصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغت ، فاحفظ عني : ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط وجهك لهم يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسؤدوك ، وأكرم صفارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويكبر على مردتك صفارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع إلى النهضة في الصريخ فإن لك أجلاً لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد ، فبذلك يتم سؤدوك :

أسيد إن مالاً ملكت	فسر به سيراً جميلاً
أخ الكرام إن استطعت	إلى إخوانهم سبيلاً
واشرب بكأسهم وإن	شربوا به السمّ الثميلاً
أهن اللثام ولا تكن	لإخوانهم جماً ذلولاً

(الأصفهاني ، ج 3 ، ص 98 - 99)

من وصايا الحمار والعريه
من وصايا الربيع بن زياد

أخي الطالب :

تبدأ هذه الوصية - كما ترى - بإبراز بعد نفسي عاطفي مهم يحرص عليه ذو الإصبع ، ونلاحظه من قوله : " يا بني ، إن أباك قد فني وهو حي " . وهي بداية تتكرر في غير وصية من هذا الضرب من الوصايا . ومن ذلك ، مثلاً ، وصية أكنم بين صيفي الذي جمع بنيه ، فبدأ وصيته لهم بقوله : " يا بني ، قد أتت عليّ مئتا سنة ... " وكانني بالموصي يريد ، من خلال هذا التعبير وأمثاله ، أن يلفت الابن إلى دفء العلاقة الحميمة التي تربط بينهما ، وإلى عمق تجربة الأب وتنوعها ؛ مما يجعله يصغي إلى الوصية ، ويلتزم بتطبيقها . ثم تأخذ الوصية تتحرك في أفق أوسع يدور حول علاقة الابن - الذي سيخلف والده في تحمّل أعباء الزعامة - بالقبيلة التي ينتمي إليها ؛ ولذا جاءت العبارة الأولى تبين سياسته الواجبة في قومه : " ألن جانبك لقرمك يحبوك " . ثم تمضي الوصية في بيان أوجه هذه السياسة . وما دام الأمر كذلك - فمن الطبيعي إبراز بعض القيم القبلية كمنصرة الجار ، والإسراع إلى النجدة ، والكرم ... ويلفت الانتباه في هذه الوصية دقة الملاحظة وعمقها في دعوة ذي الإصبع ابنه إلى إكرام الصغار ، وعدّ ذلك سبيلاً لأن يرد الكبار الجميل ، وأن يكبر الصغار على مودة رئيسهم ، وبذلك يزداد تلاحم أبناء القبيلة على اختلاف أعمارهم ؛ فتُحفظ وحدة القبيلة مستقبلاً .

ونلاحظ أن ذا الإصبع ختم وصيته بشعر ذي علاقة واضحة بما جاء فيها من أفكار ، ففيه تكرار واضح للمعاني التي دارت حولها الوصية . ولعل سبب ذلك راجع إلى عمق إيمان ذي الإصبع بمقولته ، وإلى حرصه على الأثر الجميل الذي يتركه الشعر في نفس المتلقي .

سؤالان للتقويم الذاتي (3)

1. يمكن قسمة الوصايا في العصر الجاهلي قسمين ؛ اذكرهما واستشهد ببعض الجمل على كل منهما .

2. ما الوصية لغةً واصطلاحاً ← على كرمهم نزلت الوصايا لا بد من قلوبهم
على كرمهم نزلت الوصايا لا بد من قلوبهم

تدريب رقم (3)

ركّز ذو الإصبع العدواني في وصيته لابنه على العلاقة بين الفرد والجماعة ، بين ذلك .

2.3 الخطابة

توافرت للخطابة أسبابها ودواعيها في العصر الجاهلي ، ومن ذلك كثرة الخصومات وما تنتهي إليه من حرب أو سلم ، ووجود الأسواق يلتقون فيها فيتفاخرون ويتباهون بأنسابهم وأحسابهم ، وقد يدخل بعضهم في منافرة مع غيره ، وقد يسفر بعضهم في أمر ما . وفوق ذلك كثرت الوفادة على أمراء الغساسنة والناذرة . ولقد اشتهر بعض سادة العرب بالوفادة والسفارة حتى قرنتا بأسمائهم ؛ ومن هؤلاء عروة بن عتبة ابن جعفر بن كلاب الذي سمي " عروة الرخال " لكثرة وفادته على الملوك (الميداني ، 1955 ، ج 2 ، ص 88) . وكان هاشم بن عبد مناف وإخوته كشيبي الوفاة على الملوك وأحياء العرب للتجارة . وربما أتبرى خطيب في أحد الأسواق ينصح الناس ويرشدهم على نحو ما هو معروف عن قُص بن ساعدة وخطبته بسوق عكاظ ، وكان من عادة العرب في الجاهلية أن يتقدم لخطبة المرأة نيابة عن الراغب في زواجها سيداً من عشيرته ؛ فيعده مآثر الخطاب ، ويجيبه رجل من رهط المرأة بمثل مقاله . وتروي لنا كتب الأدب والسيرة خطبة أبي طالب حين أراد محمد (ص) الزواج من السيدة خديجة بنت خويلد ، رضي الله عنها ، ويذكر الجاحظ أنه كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يُطيل الخطاب ، ويتصرّ المجيب (الجاحظ ، ج 1 ، ص 166) ، ويذكر صورة خطبة قريش في الجاهلية ، وهي " باسمك ، ذكرت فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت " (الجاحظ ، ج 1 ، ص 408) .

بحريره قومه من قتال الفرس في يوم ذي قار
ولعل من أشهر خطب الحضر على القتال خطبة هاني بن قبيصة الشيباني التي يحرض فيها قومه على قتال الفرس في يوم ذي قار (القالي ، ج 1 ، ص 167) . كما أن خطبة قبيص بن خارجة التي قالها إثر حرب داحس والغبراء تعد من أشهر خطب إصلاح ذات البين ، ويروى أنه ظل يخطب إلى الليل . وقد سماها العرب " العنبر " لأنه كان أبا عذرها (الجاحظ ، ج 1 ، ص 348) . ولم تصل إلينا هذه الخطبة ، شأنها في ذلك شأن كثير من الخطب المشهورة . ولعل أبا هلال العسكري يشير إلى هذه الخطبة وأمثالها حين يذكر أن الخطباء كانوا يميلون إلى الإطالة إذا خطبوا في الصلح بين العشائر (العسكري ، 1952 ، ص 192) .

نشاط

أخي الطالب ، اقرأ خبر حرب داحس والغبراء في كتاب " أيام العرب في الجاهلية "



وإذا كان الشاعر لسان قبيلته في العصر الجاهلي ، فعالباً ما كان الخطيب ، آنذاك ، سيد قومه أو أحد

حكماهم ، ويوازن أبو عمرو بن العلاء بين الشاعر والخطيب : فيقول : " كان الشاعر في الجاهلية يُقدّم على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيّد عليهم مآثرهم ويُفخم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورجعوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر " (الجاحظ ، ج 4 ، ص 83) . ويبدو أن الجاحظ أخذ بهذا الرأي ؛ فقال : " وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم . فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر (الجاحظ ، ج 1 ، ص 241) .

وكان للخطباء تقاليد جروا عليها ، فكانوا يخطبون على رواجلهم ويلوثون العمامة في المواسم العظام ، وكانوا يتخلنن المخاصر ويعتمدون على الأرض بالقسي ويشيرون بالعصا . وفي " البيان والتبيين " يُطيل الجاحظ الوقوف عند عادة الإشارة بالعصا ، ويرد على الشعورية الذين عابوا على خطباء العرب اتخاذهم المخاصر والعصي (الجاحظ ، ج 3 ، ص 5 وما بعدها) . ويذهب الجاحظ إلى القول : " إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة ، والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومتصور عليهم ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر في أيديهم إلفاً لها وتوقّفاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها " (الجاحظ ، ج 3 ، ص 17) .

والآن ، هيا ، أخي الطالب ، نختار خطبتين من خطب الجاهلية ، أوردتهما بعض كتب القدماء ، حتى نستطيع استقراء أهم خصائص الخطابة آنذاك ، وأظنك تعلم أن كثيراً من خطب الجاهلية التي وصلت إلينا قد نجد مجالاً للشك فيها ، غير أن علينا أن نتذكّر أن الذين وضعوا هذه الخطب على لسان الجاهليين لم يرغب عن بالهم محاكاة النماذج الأصلية .

أما الخطبة الأولى التي نختارها ، فهي خطبة قيس بن ساعدة الإيادي ، التي ألقاها بسوق عكاظ حيث كان يجتمع غير قليل من الناس من قبائل مختلفة ، وهي تسير على النحو التالي :

" أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهو ، وبحار تزخر ، وجبال رُساء ، وأرض مُدحاة ، وأنهار مُجداة . إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تُركوا فناموا ؟ يتقسم قُسن بالله تسمأ لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى له ، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكراً :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الأكاير والأصاغر
لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صانر

(صفت ، 1933 ، ج 1 ، ص 38 - 39)

وأما الخطبة الثانية ، فهي خطبة هاني بن قبيصة الشيباني يحرض قومه يوم ذي قار :

" يا معشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا يُنجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الذنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن في ثغر النحور ، أكرم منه في الأعجاز والظهور ، يا آل بكر ، قاتلوا فما للمنايا من بُد " .

(صفت ، 1933 ، ج 1 ، ص 37)

أخي الطالب ، لعلنا نتفق بعد قراءة هاتين الخطبتين ، أن خطب الجاهلية كانت ، بشكل عام ، قصيرة إن هي قيست بخطب العصور اللاحقة كالعصر الإسلامي ، والعصر الأموي ، والعصر العباسي ، ويبدو أن سبب هذه الظاهرة يكمن في أن العرب كانوا بطبعهم مفطورين على أداء أفكارهم بعبارات موجزة . وما ظهرت الإطالة والإطناب في النثر العربي إلا حين أخذ العرب يخالطون الأعاجم . كما نلاحظ أن الخطبة تبدأ بالفرض الذي دعا إليها من غير أن يعمد صاحبها إلى تمهيد ، كما لا يعمد إلى خاتمة بتكليفها ، أو يلخص فيها أهم ما جاء في الخطبة . ويبدو أنهم أذكوا ما للشعر من أثر في نفوس المستمعين : فعمدوا إليه بزئنون به حُطِّبهم .

وأظن ، أخي الطالب ، أن هاتين الخطبتين ، وأمثالهما لم تكن خطب أرحجال ، بل لقد أعد لها أصحابها إعداداً ؛ ولذا بدا التائق واضحاً ، والضعف ظاهرة . ولعل السجع من مظاهر ذلك كله كما هو واضح في الخطبتين اللتين أمامك . ولعلك تشاركني القول إن الأفكار في هاتين الخطبتين مستوحاة من التجربة والمشاهدة ؛ فهما خلاصة تجارب جاءت على شكل حكم وأمثال من غير أن يعمد قائلها إلى إيراد الدليل لإثبات صحتها ؛ لأن الخطيب الجاهلي كان يؤثر أن يسلك في خطابته سبيل التمثيل وإيراد الحكم ليؤثر في مستمعيه بدلاً من أن يسلك سبيل الجدل المنطقي والبراهين العقلية ؛ فذلك شأن خطب بعض الأسم الأخرى ، كاليونان مثلاً . ومعروف أن أدب الجدل قد ازدهر أيما ازدهار على أيدي المعتزلة فيما بعد .

أسئلة التقويم الذاتي (4)



1. اذكر ثلاثة من دواعي الخطابة في العصر الجاهلي .
2. ما صورة خطبة قريش في الجاهلية إذا تقدّم أحدهم لخطبة امرأة ؟
3. لماذا قُدّم الخطيب على الشاعر في الجاهلية حسب رأي أبي عمرو بن العلاء ؟
4. بين رأي الجاحظ في اتخاذ العرب المخاصر والعصي إذا خطبوا .

تدريب (4)



اذكر ثلاثاً من خصائص خطب العصر الجاهلي .

3.3 الأمثال

أسباب إهمال الأمثال

قد لا نذهب بعيداً إذا قلنا إننا نطمئن إلى كثير من الأمثال التي تنسب للجاهليين ، ولهذا أسباب منها أن المثل قصير موجز في العادة ، وأنه لذلك يدور على الألسنة بسرعة ، ونادراً ما يمسه التغيير . ثم إن الأمثال وجدت من يُعنى بها ويُدون بعضها منذ زمن مبكر ؛ إذ يُذكر أن ~~صاحب~~ ~~العبيد~~ ، أحد النسابين أيام معاوية بن أبي سفيان ، وعبيد بن شربة الجرهمي ، الذي يقال إن معاوية بن أبي سفيان أحضره من الرقة إلى دمشق ليقص عليه قصص الأملين ، وعلاقة بن كُرشم (كريمة) الكلابي ، الذي تولى الكتابة ليزيد بن معاوية ، وكان رابرة ثقة ، قد ألفوا كتباً في الأمثال . ويظهر أن مؤلفات هؤلاء وأمثالهم قد فقدت . ولا يُبعد أن تكون بعض كتب الأمثال اللاحقة قد اعتمدت بعض هذه الكتب ، فإين التديم يذكر أنه رأى كتاب علاقة بن كُرشم وأنه في نحو خمسين ورقة (ابن النديم ، 1971 ، ص 102) . وفي القرن الثاني الهجري ، ازداد التأليف في الأمثال . (ولعل أول كتاب وصل إلينا من هذا القرن كتاب (الأمثال) للمفضل الضبي صاحب كتاب " المفضليات " المشهور . ومن ألف في الأمثال في القرن الثالث الهجري أبو عبيد القاسم بن سلام (ت : 224 هـ) . وعن أبي عبيد وكتابه ، يقول ابن درسنويه الذي عاش في بغداد ، وتوفى سنة 347 هـ : " وقد سبقه إلى ذلك جميع البصريين والكوفيين ، الأصمعي ، وأبو زيد ، وأبو عبيدة ، والنضر بن شميل ، والمفضل الضبي ، وابن الأعرابي ، إلا أنه جمع رواياتهم في كتابه ، ويوه أبواباً ، فأحسن تأليفه " . وقد ألف أبو عبيد البكري كتاباً شرح فيه كتاب " الأمثال " لأبي عبيد القاسم بن سلام وسماه : " فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام " . وتتوالى المؤلفات في الأمثال حتى يؤلف أبو هلال

العسكري (ت 395 د) كتابه " جمهرة الأمثال " ثم يؤلف الميداني كتابه " مجمع الأمثال " الذي يتدرج في مقدمته إنه اعتمد فيه على ما يروى على خسين كتاباً .

ويلاحظ أن كتب الأمثال تُعنى بذكر المثل رقصته . ونحن وإن كنا نطمئن إلى صحة كثير من الأمثال فإننا لا نستطيع الاطمئنان إلى القصص التي يبدو أنها من وضع متأخر ، وأن خيوطها قد نسجت في ضوء الأمثال . كما يلاحظ أن هذه الكتب ترتب الأمثال على الحروف كالمعاجم اللغوية ؛ ولذا يصعب تحديد عصر المثل . وقد يصح الاعتماد على بعض القرائن لتحديد المثل الجاهلي ، كأن يأتي المثل في سياق قصة جاهلية ، أو يروى على لسان أحد الجاهليين ، أو يرتبط بحادثة وقعت في العصر الجاهلي ؛ ومن ذلك ، مثلاً قصة المثل " ~~جاء سنار~~ " فقد زعم أن النعمان بن امرئ القيس اللخمي ابنتى قصرأ له بُسم الخورنق بناء له رومي اسمه سنمار ، فلما أتمه قال له سنمار : إنني أعرف موضع آجرة لو زالت سقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا ، فقال : لا جرم لأدعئها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فُرْمي من أعلى القصر إلى أسنله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سنمار .

ومعروف أن كثيرين اشتهروا في الجاهلية بالحكمة وضرب الأمثال ؛ ومنهم أبكم بن صيفي ، وربيعة بن حظار ، وهرم بن قطبة ، وعامر بن الظرب ، ولبيد بن ربيعة . ومن الحكم والأمثال التي تنسب لأبكم بن صيفي : " رب عجلة تهب ريثاً . أمراً الآداب سرعة العقاب . ليس من العدل سرعة العذل . الخُرُّ وإن مسه الضر . المرء يعجز لا محالة " . ومن أمثال الجاهليين " تجوع الحرة ولا تأكل بثديها . من استرعى الذئب ظلم هدنة على دخن . المنية ولا الدنية ، رمثني بدائها وانسلت . إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه . مقتل الرجلين بين فكَّيه " .

ولعل أهم ما تمتاز به أمثال الجاهليين أنها ^① موجزة محكمة الصياغة ، وقد تعتمد إلى ضرب من التنعيم الآتي من السجع ، وأنها كثيراً ما تُجسم المعنى حين تعتمد إلى ضرب من الأخيلة . " والحق أن كل شيء يؤكد أن العرب في الجاهلية عُنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا ... ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول (ص) على صدق رسالته معجزة بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هي القرآن الكريم " (ضيف ، 1960 ، ص 409) .

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1. لماذا نطمئن إلى صحة كثير من الأمثال التي تنسب للجاهليين ؟
2. كيف يمكن معرفة أن مثلاً ما قيل في العصر الجاهلي ؟
^① ارتباطه بحادثة وقعت في العصر الجاهلي ، أو يروى على لسان أحد الجاهليين ، أو يرتبط بحادثة وقعت في العصر الجاهلي .
3. ما أهم ما تمتاز به أمثال الجاهليين ؟
^① موجزة محكمة الصياغة
^② تعتمد إلى ضرب من التنعيم
^③ تجسم المعنى





4.3 سجع الكهان

يُستدل مما رواه القدماء أن أسلوب السجع ارتبط بالحياة الدينية وبالكهانة في العصر الجاهلي . ومن فرائد هذا الأسلوب أنه يُسهل عملية الحفظ . وقد يبدو أن من أهم ما يميز الكاهن عن الشاعر في العصر الجاهلي أن الأول يعتمد دائماً إلى السجع . ومن الدارسين من يذهب إلى أن الشعر تطور عن السجع الذي يتوسط بين الشعر والنثر العادي ، وهو لا شك مرحلة سابقة الرجز . ويلحظ أن أكثر ما وصل إلينا من سجع الكهان والحكماء في الجاهلية مكون من جمل قصيرة حافلة بالمعاني . وقد يعتمدون إلى الفاظ وتعبيرات مبهمة يمكن تأويلها على غير وجه . ويذكر أن الرسول (ص) نهى عن السجع في الكلام والدعاء ؛ لمشاكلته كلام الكهنة وسجعهم في ما يتكهنون . ويذكر أن حديث الرسول (ص) : "إياكم وسجع الكهان" قيل حين قضى في جنين امرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتاً بغرة على عاقلة الضاربة ، فقال رجل منهم : "كيف ندي من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، ومثل دمه يُطل" ، فقال الرسول (ص) : "أسجع كسجع الجاهلية" (الجاحظ ، ج 1 ، ص 287 ، ابن منظور "سجع") .

وفي أثناء كلامه على السجع وسبب ما نُقل من حديث تحريمه ، يقول الجاحظ : "والذي كره الأسجاع بعينها أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منها رنباً من الجن كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ... قالوا : فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم" (الجاحظ ، ج 1 ، ص 289 - 290) .

ويبدو أن منزلة الكهان في الجاهلية كانت كبيرة ؛ إذ كانوا يعتقدون أنه يُوحى إليهم ، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها " (ضيف ، 1960 ، ص 420) . ويذكر القدماء أسماء بعض كهان الجاهلية ، وبعض سجعهم ؛ يقول الجاحظ ، مثلاً : "أكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبي حبة ، وهو الذي يُقال له عُزى سلمة" (الجاحظ ، ج 1 ، ص 358 ، من سجعه ، قوله : والأرض والسماء ، والعقاب والضعفاء ، واقعة ببلقاء ، لقد نَفَر المجد بني العُشراء للمجد والسناء" (الجاحظ ، ج 1 ، ص 290) . ومن كهانهم المشهورين شق بن الصعب وسطيح بن ربيعة الذئبي ، اللذين رُسمت لكل واحد منهما صورة من نسيج الخيال ، فشق كان شطر إنسان له عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة . أما سطيح فلم يكن فيه عظم سوى جمجمته ، ولم يكن له عنق ، وكان وجهه في صدره .

ومن كاهنات الجاهلية الشعشاء ، وورقهاء بنت زهير كاهنة تنوخ ، وزيراء كاهنة بني رثام التي ذكر أنها أنذرت قومها غارة ، فقالت : " واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوداق ، إن شجر الوادي ليأدو ختلا ويحرق أنياباً عصلا ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلا" (القالي ، ج 1 ، ص 125) .

ويلحظ مما تتقدم من أمثلة على سجع الكهان أنهم كانوا يعمدون إلى القسم ببعض أشياء الطبيعة ومظاهرها ، " وفي ذلك ما دل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية ، ومن أجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين " (ضيف ، 1960 ، ص 423) . كما يلحظ قصر الجمل وتقليب المعنى على غير وجه ، واللجوء إلى نقل الخبر ببعض أساليب التوكيد .

أسئلة التقويم الذاتي (6)

1. ما أهم ما يميز الكاهن عن الشاعر ؟
2. لماذا نهى الرسول (ص) عن السجع ؟
3. اذكر أسماء ثلاثة من كهان الجاهلية وكاهناتهم .



تدريب (6)

لماذا كان يعمد الكاهن في سجعه إلى القسم ببعض أشياء الطبيعة ؟



4. من أعلام النثر في الجاهلية

1.4 أكثم بن صيفي :

هو أكثم بن صيفي بن رباح التميمي . ويُعد أكثم من أشهر حكام العرب في الجاهلية وحكامهم وخطبائهم . ويُذكر أنه أدرك الإسلام ، ويُقال إنه أسلم ، وإن الآية : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » نزلت فيه ومن تبعه من قومه . (السجستاني ، 1961 ، ص 33) .

كان أكثم من أشرف قومه ، ومن أكثر الناس معرفة بالأنساب ، وأقدرهم على ضرب الأمثال . وكان صاحب رأي سديد . ويُذكر أن النعمان بن المنذر أرسله على رأس وفد إلى كسرى ، فأعجب به كسرى وقال له: لو لم يكن للعرب غيرك لكتّيتي . وأكثم مقلّ في الشعر ، ومنه قوله :

وإن امرأً قد عاش تسعين حجةً إلى مئة لم يسأم العيش جاهل

(العسقلاني ، 1328هـ ، ج 1 ، ص 112)

ومن الخطب التي تروى له ، خطبته أمام كسرى ، وهي تسير على النحو التالي :

" إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، والصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطيء . آفة الرأي الهرى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير لها . شر الملوك من خافه البريء . المرء يعجز لا محالة . أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يُراء بالنصيحة . أحق الجنود من حسنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شر سماعه . الصمت حكم وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدّد نأراً ومن تراخى تألف " (صفوت ، 1933 ، ج 1 ، ص 21 - 22) .

ويُلاحظ أن هذه الخطبة أو مجموعة الأمثال والحكم الوصايا إنما هي نتاج خبرة واسعة ، وتجارب خصبة متنوعة عاشها صاحبها . فأنت تلاحظ أن صاحبها يعلم كيف يخاطب السلطان ؛ فقوله : " إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم " يستتبع الفهم بأن أفضل الناس ملوكهم . ثم قال " وأفضل الملوك أعمها نفعاً " وفي ذلك حصر وتقييد للجملتين أو للقضيتين السياقتين ، فإذا كان الملوك يُفضّلون الناس ، فهم يتفاضلون فيما بينهم بمقدار ما يعم نفعهم الناس .

وأنت تلحظ أن أكثم ، هنا ، يعتمد إلى الجملة القصيرة لا يبرحها . وجمله تستقل كل واحدة منها بمعناها . وهي جمل خبرية تقريرية وراها تجربة واسعة تستقريء بعض شؤون الحياة وأحوالها كما تلحظ أن هذه الخطبة ~~مفتوحة~~ - إن صح التعبير - من جميع أطرافها : الأمر الذي قد يجعلها عرضة للتزبد والوضع ، وللتقديم أو التأخير ، وخصوصاً أنه ينتقل انتقالاً مفاجئاً من فكرة إلى أخرى ؛ أي أن وحدة الموضوع لا تنقطعها .

2.4 قس بن ساعدة الإيادي

أخبار قس بن ساعدة في كتب القدماء موجزة مُعادة . وهي لا تخلو من بعض الاضطراب والاختلاف ، فقد قيل إنه مات قبل البعثة النبوية ، وعدّه بعضهم من الصحابة ؛ أي أنه شهد البعثة النبوية فأسلم (انظر الجاحظ ج 1 . ص 308 - 309 ، الأصفهاني ، ج 15 ، ص 246 وما بعدها ، العسقلاني ، 1328 هـ ، ج 3 ، ص 279 ، البغدادي ، 1979 ، ج 2 ، ص 89 - 91) . والأرجح أنه عاش طويلاً في الجاهلية وامتد به العمر حتى شهد البعثة النبوية . ويوصف بأنه " خطيب العرب وشاعرها ، وحليمها وحكيمها في عصره " (الأصفهاني ، ج 15 ، ص 246) . وتضاف إليه طائفة من الأوكيات ؛ كالقول : إنه " أول من قال في كلامه: أما بعد ، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا ، وأول من تأله من العرب - أي تعبد - ، وأول من آمن بالبعث في الجاهلية ، وأول من كتب من فلان إلى فلان " (السجستاني ، 1961 ، ص 87 ، الأصفهاني ، ج 15 ، ص 246) .

ويروى أنه لما قدم وفد إياد على النبي (ص) قال : ما فَعَلَ قُسُّ بن ساعدة ؟ قالوا : مات يا رسول الله ، قال : " كأنني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدني أحفظه " فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله . قال : كيف سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : " أبها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ... الخ " (الأصفهاني ، ج 15 ، ص 246) .

وقيل : إن العرب كانت تعظمه . وقد ضربت به شعراؤها الأمثال ؛ ومن ذلك قول الخطيب:

وأقول من قس وأمضى كما مضى من الرمح إن مسّ النفوس نكالها

وقول لبيد :

وأخلف قساً ليتنسي ولعلني وأعيا على لتمان حكم التدبر

وأشار بذلك إلى قول قس بن ساعدة :

وما قد تولّى فهو قد فات ذاهباً فهل ينفعني ليتني ولعلني

ومما يُنسب لقس قوله :

يا ناعي الموت والأموات في جدّثٍ عليهم من بقايا بزهم فرق

دعهم فإن لهم يوماً يُصاح بهم كما يُنبئه من نوماته الصّعق

(انظر هذه الأبيات في العسقلاني ، 13285 ، ج 3 ، ص 279) .

ولم يحفظ لنا القدماء من نشر قس إلا خطبته ، التي مرّت بك في باب الخطابة ، وبعض أقواله ، ومنها : " أفضل العتل معرفة المرء بنفسه ، وأفضل العلم وقوف المرء عند علمه ، وأفضل المروءة استبقاء الرجل ماءً وجهه ، وأفضل المال ما قُضي به الحقوق " (القالي ، ج 2 ، ص 36) . وهي ، كما ترى ، حكم أو أمثال لا يجمعها إلا كونها أعالي بعض الأشياء ، وإلا ما زُعم في مناسبتها من أنها إجابات على بعض أسئلة قيصر ، ملك الروم ، الذي كان يفد عليه قس ويزوره .

ومهما يكن ، ففي قول الخطيئة " أقول من قس " ، وفي بيت لببدا ما يدل على أن قساً كان حكيماً فظناً من المعدودين في فن القول ؛ غير أنه لم يصل إلينا من ذلك إلا أقله .

سؤالان التقويم الذاتي (7)

1- مرّت بك خطبة لأحثم بن صيفي ، وبيّن خصائصها من حيث المعنى والمبنى .

2- اذكر دليلين على ضياع أكثر ما قاله قس بن ساعدة .



5. الخلاصة

أخي الطالب ،

لعله قد ثبت لك ، بعد قراءة هذه الوحدة ، أن العرب في العصر الجاهلي عرفوا الكتابة ووظفوها في كثير من شؤون حياتهم ، وقد جاء في شعرهم وفي أخبارهم ما يؤيد هذه المقولة .

وإذا كان الجاهليون لم يعرفوا الرسائل الأدبية المميّزة ، فإنهم عرفوا الأمثال والخطابة وسجع الكهان وخلفوا لنا طائفة من الوصايا ، وقد عرضت الوحدة لذلك كله ، وقدّمت أمثلة على كل واحد من هذه الموضوعات ودرستها . ولا شك أن الخطابة قد ازدهرت فيهم ، وهم قد اصطلحوا فيها على طائفة من السنن والتقاليد التي بقي بعضها يُراعى في العصور اللاحقة . وكان كهانهم يحرصون على التأثير في نفوس سامعيهم ، فعمدوا إلى السجع والأيمان ؛ بل إن كلامهم الذي وصل إلينا مسجوع كله .

وهكذا ، لم تقف عناية الجاهليين عند شعرهم ، بل تعدته إلى نثرهم . ووجد منهم من شُهر بذلك كأكثم بن صيفي ، وقُص بن ساعدة الإيادي .

6. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية :

سنلتقي في الوحدة الثانية ، وموضوعها " الرسائل والتوقيعات " . وفيه نقرأ طائفة من الرسائل الفنية من عصور مختلفة ؛ فنستطيع ، بذلك تلمس تطور هذا الفن ، ونميز بين أنواع الرسائل وموضوعاتها ، ونتبين أثر الإسلام في ازدهار فن الرسالة ؛ فإلى الوحدة الثانية .

7. إجابات التدريبات

تدريب (1)

- 1) في كتب القدماء ورواياتهم ما يدل على معرفة الجاهليين بالكتابة : فهذا ابن حبيب يعتقد في كتابه " المعبر " فصلاً خاصاً بأسماء بعض المعلمين في الجاهلية والإسلام . ومن هؤلاء المعلمين في الجاهلية : سفيان بن أمية ، وعمرو بن زرارة وغيرهما .
- 2) يذكر الطبري أن جفنية - وكان نصرانياً من أهل الحيرة ظنراً لسعد بن أبي وقاص - أقدمه للصلح الذي كان بينهم وبينهم ، وليعلم بالمدينة الكتابة .
- 3) يروى أن رسول الله (ص) قال : " قرش أهل الله . وهم الكتبة الحسبة " ، كما ذكر أن كعب الأبحار قال : إنا لنجد قرشاً في الكتاب : الكتبة الحسبة ، ملح الأرض " .

تدريب (2)

من أدوات الكتابة :

1) الرق : يقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالاً ونؤيا مهدياً كخطك في رق كتاباً مئماً

2) القماش ، ومنه المهرق جمعه مهارق : يقول سلامة بن جندل :

لمن طلل مثل الكتاب المنق خلا عهده بين الصليب فمطرق

3) سعف النخل وهو العصب مفرداً عسيب ، وهي جريدة النخل إذا يبست وكُشط خوصها ؛ يقول

امرؤ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب اليماني

تدريب (3)

بعد أن لفت ذو الإصبع العدواني ابنه إلى العلاقة الحميمة التي تربط بينهما ، وإلى عمق تجربة الأب

وتنوعها وذلك في قوله : " يا بني ، إن أباك قد فني وهو حي " ، تحركت وصيته إلى أمور أوسع تدور حول علاقة الابن بالقبيلة ، ولذا جاءت العبارة الأولى بين سياسته الواجبة في قومه لأنه سيخلف والده في الزعامة: "ألن جانبك لقومك يحبوك " . ثم تعمن الوصية في بيان أوجه هذه السياسة فتبرز بعض القيم العقلية كنصرة الجار والإسراع إلى النجدة والكرم وغير ذلك . كما تركز الوصية على مبدأ التلاحم القبلي حين يدعو ذر الإصبع ابنه إلى إكرام الصغار وبعد ذلك سبباً لأن يرد الكبار الجميل وأن يكبر الصغار على مودة رئيسهم . أي أن أفراد القبيلة يتحلقون جميعاً حول زعيمهم ، فتحفظ وحدة القبيلة مستقبلاً .

تدريب (4)

من خصائص خطب العصر الجاهلي :

أولاً : أنها ، بشكل عام ، قصيرة إن هي قيست بخطب العصور اللاحقة .

ثانياً : أنها تبدأ بالفرض الذي دعا إليها من غير تمهيد أو خاتمة تلخص أهم ما جاء في الخطبة .

ثالثاً : أنها تتضمن ، في الغالب ، أبياتاً من الشعر لها علاقة دينية بموضوع الخطبة ويفكرتها الرئيسة .

تدريب (5)

من كتب الأمثال :

أولاً : كتاب " الأمثال " ، للمفضل الضبي .

ثانياً : كتاب " جمهرة الأمثال " ، لأبي هلال العسكري .

ثالثاً : كتاب ، منجم الأمثال ، للميداني .

تدريب (6)

يُلاحظ أن الكهان كانوا يعمدون في سجعهم إلى القسم ببعض أشياء الطبيعة ومظاهرها ، وفي ذلك دليل على اعتقادهم في هذه الأشياء ، وأن بها قوى وأرواحاً خفية مستورة ؛ ولذا فهم يحلفون بها ، ليؤكد كلامهم ، وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس مستمعينهم الوثنيين الذين كانوا شديدي الشقة بمؤسسة الكهانة الدينية .

8. المصادر والمراجع

- الأمدي ، الحسن بن بشر ، المؤلف والمختلف ، تحقيق كرنكو ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1982 .
- الأسد ، ناصر الدين ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، القاهرة : دار المعارف ، 1966 .
- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ، الأغاني ، القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية .
- الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، الأصمعيات ، برلين ، 1902 .
- الأنصاري ، حسان بن ثابت ، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، تصحيح عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت : دار الأندلس ، 1966 .
- البغدادي ، عبد القادر بن عمر ، خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1979 .
- البلاذري ، أحمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، مصر ، 1901 .
- ابن تيمية ، أحمد عبد السلام ، الفتاوى ، الرياض : الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين .
- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت : المجمع العلمي العربي الإسلامي .
- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت : المجمع العلمي العربي الإسلامي ، 1969 .
- الجمحي ، محمد بن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة : مطبعة المدني ، 1974 .
- ابن حبيب ، أبو جعفر محمد ، المحجّر ، تحقيق ايلزه شتيتير ، بيروت : دار الآفاق الجديدة .
- الدينوري ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة : دار التراث العربي ، 1977 .
- الدينوري ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، غريب الحديث .

- الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، بيروت : دار المعرفة .
- الزمخشري ، محمود بن عمر ، الكشاف ، بيروت : دار الفكر : 1979 .
- ابن زهير ، كعب ، شرح ديوان كعب بن زهير ، القاهرة : دار الكتب المصرية ، 1950 .
- السجستاني ، أبو حاتم سهل بن محمد ، المعرّون والوصايا ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، 1961 .
- ابن الشجري ، هبة الله بن علي بن محمد ، مختارات شعراء العرب ، المطبعة العامرة ، 1306هـ .
- صفوت ، أحمد زكي ، جبهة خطب العرب ، القاهرة : مطبعة البابي الحلبي ، 1933 .
- الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى ، أدب الكتاب ، القاهرة : المطبعة السلفية ، 1341 .
- الضبي ، المفضل بن محمد ، تحقيق ليال ، بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين ، 1920 .
- ضيف ، شوقي ، العصر الجاهلي ، القاهرة : دار المعارف ، 1960 .
- الطائي ، حاتم ، ديوان حاتم الطائي ، لندن ، 1872 .
- الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة : دار المعارف .
- الطبري ، محمد بن جرير ، جامع البيان في تفسير القرآن .
- العامري ، لبيد بن ربيعة ، ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، تحقيق إحسان عباس ، الكويت ، مطبعة حكومة الكويت ، 1962 .
- العسقلاني ، أحمد بن علي المعروف بابن حجر ، الإصابة في تمييز الصحابة ، مصر : مطبعة السعادة ، 1328 هـ .
- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله ، كتاب الصناعيين ، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، 1952 .
- علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت : دار العلم للملايين ، 1971 .
- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد ، مصر : المكتبة السلفية ، 1910 .

- القالي ، اسماعيل بن القاسم ، الأمالي ، بيروت : دار الحكمة .
- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن ، بيروت : دار الكتاب العربي .
- الكندي ، امرؤ القيس بن حجر ، ديران امرئ القيس الكندي ، طبعة هندية ، 1906 .
- ابن منظور ، محمد بن مكرم ، لسان العرب ، بيروت : دار صادر ودار بيروت ، 1968 .
- الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد ، مجمع الأمثال ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت : مطبعة السنة المحمدية ، 1955 .
- ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب ، الفهرست ، تحقيق رضا - مجدّد ، طهران ، 1971 .
- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك ، السيرة النبوية ، القاهرة : مطبعة الحلبي ، 1375 هـ .

الوحدة الثانية

الرسائل والتوقيعات

المحتويات

الصفحة	الموضوع
41	1. المقدمة
41	2.1 التمهيد
41	3.1 أقسام الوحدة
42	4.1 القراءات المساعدة
42	5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة
43	2. الرسائل : نصوص ودراسة
43	1.2 الرسائل في العهد النبوي :
	رسالة نبوية
47	2.2 الرسائل في العهد الراشدي
48	من رسائل عمر بن الخطاب
51	3.2 الرسائل في العهد الأموي
51	من رسائل عبد الحميد الكاتب
56	4.2 الرسائل حتى منتصف القرن الرابع
57	1.4.2 * من رسائل الجاحظ
61	2.4.2 * من رسائل ابن العميد
68	5.2 الرسائل بعد القرن الرابع الهجري
69	من رسائل القاضي الفاضل
77	3. التوقيعات
	نشأتها - خصائصها - نماذج منها

83	4. الخلاصة
84	5. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية
85	6. إجابات التدريبات
89	7. المصادر والمراجع

1.1 التمهيدي

عزيزي الدارس

أهلاً بك ، وأرجو أن نقضي معاً وقتاً ممتعاً ومفيداً في دراسة هذه الوحدة ، التي سندرس فيها الرسائل والتوقيعات . ومن خلال دراستنا لنماذج من الرسائل ، بدءاً بعصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وانتهاءً بالعصر الأيوبي ، سنقف على أبرز القضايا ذات الصلة بهذا الفن ، فنرى أثر الإسلام فيه ، وما المجالات التي استعملت فيها الرسالة في صدر الإسلام وعصر بني أمية ، وفي العصر العباسي حتى نهاياته ، وما أبرز خصائص كل مرحلة ، وما طرأ على هذا الفن من تطورات . وسنتبين من خلال النصوص أنواع الرسائل من ديوانية وإخوانية وأدبية ، ثم نقف بعد ذلك مع التوقيعات ، وقفة قصيرة - هذا الفن الموجز الخفيف ، ندرس نماذج منه ، ونرى أبرز خصائصه ومجالات استعماله .

والأمر يحتاج منك إلى تنبه ومتابعة ، وقد نترك بعض ما ينبغي تبينه ، نستشير بذلك ذهنك ، وندفعك إلى المزيد من الدراسة والبحث والتنقيب ، فإن العلم لا يتم تحصيله من صفحات محدودة معدودة ، بل من الصلة الدائمة بالكتب والمكتبة والتفكير والتدبر .

2.1 أهداف الوحدة

أرجو أن تكون ثمرة دراستك لهذه الوحدة اكتسابك القدرة على أن :

1. تعرف تطور فن الرسالة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأيوبي .
2. تميز أنواع الرسائل وموضوعاتها وعصورها التاريخية التي تنتمي إليها .
3. تتمكن من قراءة نصوص الرسائل القديمة قراءة سليمة واستيعابها .
4. تحلل الرسائل القديمة تحليلاً منهجياً .

3.1 أقسام الوحدة

تتضمن هذه الوحدة دراسة عدد من النصوص التي سنتعرف من خلالها إلى فن الرسالة والتوقيعات ، وتطور فن الرسالة على وجه الخصوص ، فمن خلال دراستنا رسالة من رسائل النبي صلى الله عليه وسلم سنعرف خصائص الرسالة في العهد النبوي وموضوعاتها .

وسنأخذ من دراستنا لرسالة من رسائل عمر بن الخطاب مدخلاً إلى معرفة حال فن الرسائل في عهد الراشدين وموضوعات وخصائص وتطور .

وكذلك الحال مع العصر الأموي الذي سنطلع على فن الرسائل فيه من خلال رسالة من رسائل أبرز كتابه عبد الحميد .

وسيكون لنا مع العصر العباسي ثلاث وقفات : الأولى مع الجاحظ ، والثانية مع ابن العميد ، والثالثة مع القاضي الفاضل .

وسنفرد للتوقيعات قسماً خاصاً في نهاية الوحدة .

4.1 القراءات المساعدة

يحسن أن تطلع على الصفحات المشار إليها من الكتب التالية :

1. ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط 10 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1983 . ص :

90 - 120 ، 160 - 188 ، 208 - 212 ، 368 - 315 .

2. القلقشندي ، صبح الأعشى ، ط وزارة الثقافة ، القاهرة ، ج 6 : ص 315 -



5.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

لا تتطلب دراسة الوحدة إلا دراسة المقرر ، والقيام بما يرد فيه من التدريبات والتقييم الذاتي ، وإجابة التعيينات والأنشطة التي تطلب فيها .

2. الرسائل : نصوص ودراسات

1.2 الرسائل في العهد النبوي

ظهرت الحاجة إلى الرسائل في العهد النبوي بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، حيث صار للمسلمين دولة ، وصار الرسول صلى الله عليه وسلم هو رئيسها .

ولعلك إذا رجعت إلى تلك الرسائل تجد أنها تندرج تحت أصناف :

1. رسائل من النبي صلى الله عليه وسلم إلى ~~معهنهم~~ الذين أرسلهم إلى أطراف الجزيرة للدعوة أو في سرايا ..

2. رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى غير المسلمين من زعماء العرب يدعوهم إلى الإسلام .

3. رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى غير العرب من زعماء العالم يدعوهم إلى الإسلام .

ولنرى الأسلوب النبوي في الرسائل ندرس معاً رسالة من رسائله التي بعث بها إلى كسرى . حيث بعث

عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى أبرويز ملك الفرس ، وبعث معه كتاباً جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من أتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم الجوس » .

فلما قرأ كسرى الكتاب غضب وهرقه وقال : يكتب إليّ هذا وهو عبدي ، فقال صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك : ~~مؤي منكم~~ .

(جمهرة رسائل العرب - 1 : 40)

لننظر في هذه الرسالة مستكشفين مضمونها وأسلوبها ، ومستخلصين خصائصها .

أقسام الرسالة :

لعلك تلاحظ أن الرسالة مكوّنة من أربعة أقسام هي :

1. البسمة .

2. ذكر المرسل والمرسل إليه مع بيان صفة كل منهما :

محمد : رسول الله .

كسرى : عظيم فارس .

3. السلام ونلاحظ أنه استخدم سلاماً خاصاً بغير المسلمين ، وهو السلام الذي ورد على لسان موسى عليه السلام حين خاطب فرعون (والسلام على من أتبع الهدى) ، ولعلك تلاحظ أنه جرى استطراد بعد السلام ذو صلة بمضمون الرسالة .

4. الموضوع الرئيس في الرسالة وهو : دعوة كسرى إلى الإسلام .

ولعل من يلفت نظرك أن الرسالة لم تختتم بالسلام .

نظرات في الرسالة :

1. هذه الرسالة سياسية ذات مضمون ديني . فهي سياسية لأنها موجهة من رأس الدولة الإسلامية

(الرسول صلى الله عليه وسلم) ، إلى رأس الدولة الفارسية - كسرى .

2. الرسالة خالية من المقدمات المطولة - فالبسمة ثم المرسل والمرسل إليه ، فالسلام المرتبط بمضمونها .

3. الرسالة موجزة ، لم يتجاوز حجمها أسطراً معدودة ، مع أنها موجهة إلى شخص كبير (زعيم

دولة) ، في موضوع عظيم (تغيير دين الحاكم ودين شعبه) . ويبدو أن المقصود بها هو فتح باب الحوار ، وكأنها قرعُ باب ! أو إعلام بظهور النبي عليه الصلاة والسلام .

4. ألفاظ الرسالة مألوفة بعيدة عن الغراب ، وقصاؤها واضحة ، ذلك أنها موجهة إلى إنسان غير

عربي ، وسيلته إلى إدراك مضمونها الترجمة ، ولتكون الترجمة مؤدية للغرض المقصود ، جاءت الألفاظ واضحة ، تعين المترجم على إيصال معانيها .

5. خلو الرسالة من الصور البيانية باستثناء الصورة الواردة في (لأنذر من كان حياً) كناية عن

قابليته للإيمان ، وهي مستمدة من القرآن الكريم (لينذر من كان حياً) .

6. الأسلوب السائد في الرسالة هو الخبري ، باستثناء جملة واحدة : أسلم تسلم . وهذا متفق مع

طبيعتها في كونها رسالة : إعلام ودعوة .

7. يتضح مما سبق أن الهدف الوظيفي هو الذي يظهر في الرسالة ، حيث لم يكن وراءها هدف فني بإظهار أساليب البيان . أي أنه لم يكن من هدف النبي صلى الله عليه وسلم حين أملى الرسالة أن يورد أساليب فنية تظهر بلاغته ؛ وإن تجلّت هذه البلاغة في الإيجاز - بتضمين دعوة عظيمة في كلمات قليلة .

إن من المهم أن نُشير إلى أن هذا الأسلوب الذي رأيناه في هذه الرسالة هو الغالب على الرسائل النبوية ولكن علينا أن نتنبه إلى أن الأمر يختلف قليلاً عندما يتجه الخطاب إلى العرب .. واقراً هذا النص من الكتاب الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجر الحضرمي وقومه ، إذ يقول :

« من محمد رسول الله ، إلى الأقبال العباهلة من أهل حضرموت ، بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، في التبعة شاة ، والتيمة لصاحبها ، وفي السبوب الخمس ، لا خلاط ولا وراط ، ولا شناق ولا شعار ، فمن أجبى فقد أرى ، وكل مسكر حرام . »

لعل من الواضح أن الذي اختلف في هذه الرسالة عن سابقاتها هو الألفاظ ، مع بقاء السمات الأخرى التي ذكرناها .

ولعل من المفيد - حتى تكتمل الصورة لديك - أن تقرأ النص التالي الذي لخص فيه القلقشندي في صبح الأعشى أساليب في الكتب الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« كان صلى الله عليه وسلم يفتتح أكثر كتبه بلفظ :

(١) من محمد رسول الله إلى فلان .

وربما افتتحها بلفظ : أما بعد ،

وربما افتتحها بلفظ : هذا كتاب ،

وربما افتتحها بلفظ : سلّم أنت ،

(٢) وكان يصرح في الغالب باسم المكتوب إليه في أول المكاتبات .

وربما اكتفى بشهرته . فإن كان المكتوب إليه ملكاً كتب بعد ذكر اسمه : عظيم القوم الفلانيين .

وربما كتب : ملك القوم الفلانيين .

وربما كتب : صاحب مملكة كذا .

وكان يعبر عن نفسه صلى الله عليه وسلم في أثناء كتبه بلفظ الأفراد :

أنا ، ولي ، وجاءني ، ووقد عليّ ، وما أشبه ذلك :

وربما أتى بلفظ الجمع ، مثل : بلغنا ، وجاءنا ، ونحو ذلك .

وكان يخاطب المكتوب إليه عند الأفراد بكاف الخطاب مثل :

لك ، وعليك . وتاء المخاطب ، مثل : أنت قلت كذا ، وفعلت كذا . وعند التثنية بلفظها مثل :

أنتما ، ولكما ، وعليكما . وعند الجمع بلفظ ، مثل : أنتم ، ولكم وعليكم . وما أشبه ذلك . وكان يأتي في صدور كتبه بالسلام ، فيقول في خطاب المسلم :

سلام عليك . وربما قال : السلام على من آمن بالله ورسوله .

وفي خطاب الكافر : سلام على من اتبع الهدى .

وربما أسقط السلام من صدر الكتاب .

وكان يأتي في صدور الكتب بالتحميد بعد السلام فيقول :

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

وربما تركه . وقد يأتي بعد التحميد بالتشهد ، وقد لا يأتي به .

وكان يتخلص من صدر الكتاب إلى القصد ، تارة بأمّا بعد . وتارة بغيره . وكان يختم كتبه بالسلام

تارة ، فيقول في خطاب المسلم : والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وربما اقتصر على السلام . ويقول في خطاب الكافر : والسلام على من اتبع الهدى . وربما أسقط

السلام من آخر كتبه .

(الفلقشندي ، 6 : ص 365 - 367)

نشاط (1)

ارجع إلى كتاب جمهرة رسائل العرب واستخرج منه رسالة من رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووازن بينها وبين الرسالة التي درستها .





2.2 الرسائل في العهد الراشدي

استمرت الحاجة إلى الرسائل . بل زادت في العهد الراشدي . وأظنه لا يخفى عليك أن ذلك راجع إلى امتداد رقعة الدولة الإسلامية ، بانطلاق جيوش الفتح إلى الشام والعراق ، وحاجة الفاتحين إلى إخبار الخليفة بأحوالهم ، وتلقي الأوامر والتعليمات منه . هذا فضلاً عن الرسائل التي كانت تمثل دستوراً للولاة في أعمالهم ، ونستذكر هنا رسالة عمر الشهيرة إلى أبي موسى الأشعري في القضاء . ولم يكن الصحابة الفاتحون يبخلون على الخليفة برسائل النصح .

وعندما وقعت في الفتنة بين المسلمين وبخاصة في عهد علي رضي الله عنه ، وقع التراسل بينه وبين الفريق الأموي .

كل هذا يدل على ازدياد الحاجة إلى المراسلة ، وإلى تنوع موضوع المراسلات . هذه المراسلات الرسمية التي اصطلاح على تسميتها من بعد بالرسائل الديوانية ، وذلك بعد ظهور ديوان الرسائل في عهد معاوية . فهل كانت الرسائل مقصورة على هذا اللون ؟

ورد عن عمر رضي الله عنه ، أنه كان إذا قدم الرسل من جيهاات المعارك توجه إلى منازل من غاب عنهن أزواجهن ، من نساء المجاهدين وسلمهن رسائل من أزواجهن وقال : أزواجكن في سبيل الله ، وأنتن في بلاد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إن كان عندكن من يقرأ ، وإلا فأقرين من الأبواب حتى أقرأ لكن ثم يقول : " الرسول يخرج يوم كذا وكذا ، فاكتبن حتى نبعث بكتبكن " . ثم يدور عليهن بالقرطاس والدواة ، يقول : " هذه دواة وقرطاس ، فادنين من الأبواب حتى اكتب لكن " . ويبعث بتلك الرسائل إلى أزواجهن . (الطنطاوي ، 1983 ، ص 339) .

ولنأخذ فكرة عن الرسائل في العهد الراشدي ، ونكون نصوراً عما طرأ على هذا الفن ننظر في رسالة من رسائل عمر بن الخطاب كتبها إلى أبي عبيدة ، بعد وفاة أبي بكر الصديق ، وتوليّه الخلافة ، ينعى فيها الخليفة الراحل ، ويولي أبا عبيدة على جند المسلمين .

كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة

في رواية : أن أبا بكر تُوِّفِي ، وخالد بن الوليد على حصار دمشق ، فكتب عمر إلى أبي عبيدة بنعي أبي بكر ، واستعماله أبا عبيدة ، وعزله خالدًا .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن أبا بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تُوِّفِي ، فإننا لله وإننا إليه راجعون ، ورحمةُ الله وبركاته على أبي بكر الصديق العامل بالحق ، والأمر بالقسط ، والآخر بالعُرف ، اللين السْتِير الوادع ، السهل القريب الحكيم ، نحتسب مصيبتنا فيه ومصيبة المسلمين عامةً عند الله تعالى ، وإننا نرغب إلى الله في العصمة برحمته من كل معصية ، ونسأله العمل بطاعته ما أحيانا ، والحلول في جنته إذا توفّقنا ، إنه على كل شيء قدير .

وقد بلغنا حصاركم لأهل دمشق ، وقد وليتك جماعة المسلمين فبثّ سراياك في نواحي أهل حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام ، وانظر في ذلك برأيك ، ومن حضرك من المسلمين ، ولا يحملنك قولِي هذا على أن تغري عسكرك فيطمع فيك عدوك ، ولكن من استغفنت عنه فسیره ، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبس ، ولكن فيمن يُحتبس خالد بن الوليد ، فإنه لا غنى بك عنه ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(صفوت ، د . ت . 1 : 146 - 147)

أقسام الرسالة :

لعله يتبين لك من النظر الأولي في الرسالة أنها مكونة من الأقسام التالية :

1. البسمة .
2. تحديد اسم المرسل والمرسل إليه .
3. السلام .
4. حمد الله عز وجل .
5. كلمة الفصل : أما بعد .

6. نص الرسالة الذي هو موضوعها .

7. السلام الختامي .

نظرات في الرسالة

1. مما جدّ في الرسائل في عهد عمر بن الخطاب هذا الأسلوب في الحديث عن نفسه ، حيث كتب قبل اسمه : عبد الله ، وبعد اسمه : أمير المؤمنين . ولا يخفى عليك ما في هذه الصفة من حب التواضع ، لله ، عز وجل ، ومن التواضع للمسلمين . ولئن كان عمر أميراً للمؤمنين ، فإنه لا ينسى أنه عبد لله ، يقوم له بما ينبغي .

2. حافظ عمر في رسالته على مطالع الرسائل التي كانت قبله ، من البسمة ، وحمد الله ، وكلمة الفصل أما بعد .

3. تلحظ في الرسالة موضوعين : الأول : هو الإخبار بوفاة أبي بكر والإفاضة في الحديث عنه . وقد انساق عمر وراء عاطفته في حديثه عن أبي بكر ، فهو لم يكتب بإخبار أبي عبيدة بموته فحسب ، بل سار على النحو التالي :

الإخبار بالوفاة ، ثم تصوير المصيبة التي حلت بالمسلمين بذلك ، مع ترديد قول المؤمنين : (إنا لله وإنا إليه راجعون) . ثم الترحم على أبي بكر وذكر جملة طويلة من صفاته ، حيث ذكر له تسع صفات ، ثم احتساب المصيبة عند الله ، ثم الدعاء إلى الله بالعصمة من الذنوب ، والعون على العمل بطاعة .

والموضوع الثاني في الرسالة هو حديث عن شؤون المسلمين التي تخص أبا عبيدة ، وقد سار حديث عمر عنه على النحو التالي :

بيان ما عنده من علم بشؤون الفاتحين : حصار دمشق .

ثم إصدار أمر بتوليته على جماعة المسلمين .

ثم توجيه له ببث سرايا إلى حمص ونواحيها .

ثم تفويض له باتخاذ ما يراه مع استشارة من حضره من المسلمين .

ثم تحذير من تصرف بغري العدو به مع التوجيه إلى التصرف السليم .

ثم حديث خاص عن خالد بن الوليد القائد المعزول ، ليستعين به لأنه لا غنى له عنه .

4. لغة الرسالة بعيدة عن التأنق ، يغلب عليها الاستعمال الوظيفي للغة . فقد كان هدف عمر توصيل الفكرة ووضوحها لدى المتلقي ، أكثر من حرصه على إظهار قدرته البيانية .

5. الإيجاز هو السمة الغالبة على الرسالة ، وعلى الرغم من إيراد عمر لكل هذا الحشد من الصفات في حديثه عن أبي بكر فإن ذلك لم يُخرج أسلوبه عن الإيجاز ، فكل صفة منها تختلف عن الأخرى .

6. نلاحظ في هذه الرسالة تأثير عمر بالأسلوب القرآني في عدة مواضع ، أوضحها التأثر المعنوي واللفظي بقوله : **إنا لله وإنا إليه راجعون** . فهو استجابة للأمر الإلهي بترديد هذا القول عند نزول المصيبة . وكذلك في قوله : **رحمة الله وبركاته على أبي بكر** ، تأثر بقوله تعالى (**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد**) .

عزيزي الدارس :

لعلك تلاحظ أن الرسالة قد جرت على المنهج النبوي في الرسائل ، ولكن علينا أن نتنبه إلى أن طول الرسالة أو قصرها تابع لموضوعها ، فرسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، طويلة نسبياً إذا قيست برسائل أخرى لا تتجاوز الأسطر المحدودة .

وقد تحدّث القلقشندي عن الكتب الصادرة عن الخلفاء الراشدين فقال : **" يُقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما صارت إليه الخلافة بعد أبي بكر كان يكتب في كتبه :**

من عمر بن الخطاب ، خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان . فلماً تلقب بأمير المؤمنين أثبت هذا اللقب في كتبه ، وزاد في ابتدائها لفظ عبد الله قبل اسمه .

فكان يكتب : من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى فلان ، وباقي الكتاب على ما مرّ في كتب النبي صلى الله عليه وسلم والصدّيق بعده ، في التصدير والتعبير عن نفسه بلفظ الأفراد ، وعن المكتوب له بكاف الخطاب ، وعنوتها : من عبد الله فلان أمير المؤمنين في الجانب الأيمن ، ثم إلى فلان الفلاني في الجانب الأيسر .

نشاط (2)

ارجع إلى جمهرة رسائل العرب واستخرج رسالة من رسائل عمر بن الخطاب ، ووازن بينها وبين هذه الرسالة التي درستها .



3.2 الرسائل في العهد الأموي

أوجد معاوية ديواناً خاصاً للرسائل ، وكان العاملون فيه هم الذين يكتبون الكتب على لسان الخليفة أو الوالي . وقد كانوا يُختارون من الفصحاء ، وكان كلٌّ منهم يحاول إظهار قدراته البيانية حتى ينال حظوة لدى من يعمل معه . وقد أدى هذا إلى ظهور طبقة من الكتاب المحترفين . (ضيف ، العصر الإسلامي ، 465 - 466) ولهذا لم تعد كتابة الرسائل مقتصرة على الأداء الوظيفي بل صارت مقترنة بغايات بلاغية فنية تختلف من كاتب إلى آخر .

وقد كان الخلفاء في أول العصر الأموي يُملنون على الكتاب نص الرسالة ، ثم اختلف هذا الأمر في أواخر هذا العصر ، حيث صار الكاتب هو الذي يُعد الرسالة ثم يعرضها على الخليفة ، وقد أدى هذا الأمر إلى تغيير صبغة الرسالة ، فلم يعد ضمير المتكلم هو السائد فيها ، بل أصبح ضمير الغائب . فالكاتب يقول في بداية رسالة : بلغ أمير المؤمنين كتابك " (السابق ، 471)

ومن أشهر كتاب الرسائل في العصر الأموي سالم مولى هشام بن عبد الملك ، وتلميذه عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور .

رسالة عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد ، المعروف بالكاتب ، عالم بالأدب ، من أئمة الكتاب ، يضرب به المثل في البلاغة ، وعنه أخذ المترسلون واختص بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية ، وبقي ملازماً له حتى قتل معاً في بوسير في مصر . (الزركلي ، 1990 ، 3 : 289 - 290) وهو أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب ، وهذا نموذج من تحميداته .

« الحمد لله الناشر لدينه وأوليائه وخلفائه ، المظهر للحق وأهله ، والمذلّ لأعدائه أهل البدعة ، والضلالة الذي لم يجمع بين حق وباطل ، وأهل طاعة ومعصية ، إلا جعل النصر والفلج والعاقة لأهل حقه وطاعته... الخ » (صفوت ، 1 : 469) .

وكتب رسائل سياسية ، كما كتب رسائل إخوانية ، ورسائل أدبية ، ومن أشهر رسائله الأدبية رسالة إلى

الكتاب . ويرى الدكتور شوقي ضيف أن النثر تطور على يده تطوراً واسعاً حيث تحوكت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية ، وصار التفنن في القول وتشعيب المعاني من أسس كتابتها .

(ضيف ، العصر الإسلامي ، 478)

وسأضع بين يديك رسالة إخوانية من رسائله ندرسها ونحللها ، ثم أترك لك المجال لتدرس رسالة ديوانية.

(وقد بعث بهذه الرسالة إلى أخ له رزق أول مولود)

أما بعد ، فباني ما أتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بمزيتها وأصفيت بخصيصاها كانت أسرى من هبة الله لي ولداً سميتهُ فلاناً ، وأمّلت ببقائه بعدي حياة ذكري ، وحسن خلافتي في حرمي ، وإشراكه إياي في دعائه ، شافعاً لي إلى ربه عند خلواته في صلواته وحجّه وكلّ موطن من مواطن طاعته ، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك لي وجدي وظهر به سروري ، وتعظفت عليه مني أنسة الولد ، وتولت عني به وحشة الوحدة ، فأنا به تجدل في مغيبتي ومشهدي ، أحاول مسّ جسده بيدي في الظلم ، وتارة أعانقه وأرشفه ، ليس يعدله عند عظيّمات الفوائد ولا منفسات الرغائب ، سرّني به وأهبه لي على حين حاجتي ، فشدّ به أزرّي وحملني من شكره فيه ما قد أدني بشقل حمل النعم المساقاة إليه به ، المقرونة سرازها في العجب بتارات ما يدركني طيه من رقة الشفقة مخافة مجاذب المنايا إياه ووجلاً من عواطف الأيام عليه ، فيما يعتلج لي وعليّ بالمسرور والمحذور ، فإن يدفع الله عن حوائثه بالتباسي العافية فيه ، ويصرف جوالب الأقدار ومكاره السوء عنه ، فنعمة رادفة تشاكل البادية الموصولة بالتالية ، أضافها الممتنّ بالمواهب إلى ما ابتدأ من مننه ، وأعطى من فضله ، وذلك أملنا منه في بلوغ مناوق الأنفس من طول المدة ، مقرون تواليها بمواضي خواليها .

أسأل الله الذي امتنّ علينا بحسن صنعته في الأرحام وتأديته بالزكاء ، وحرسه بالعافية أن يرزقنا شكر ما حملناه فيه وفي غيره ، وأن يجعل ما وهب لنا من سلامته ولمدة في عمره ، موصولاً بالزيادة ، مقرونناً بالعافية ، محوطاً من المكروه ، فإنه المثنان بالمواهب ، والراهب للمنى لا شريك له .

حملني على الكتاب إليك بعلم ما سررت به علمي بحالك فيه ، وبشركتك إياي في كلّ نعمة أسداها إليّ والي النعم ، وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله ، والسلام .

أقسام الرسالة :

1. أول ما يلفت نظرنا هو غياب مطلع الرسالة بما فيه من البسمة وتحديد المرسل والمرسل إليه والتحميدات والسلام . وهذا القسم لا شك أنه كان موجوداً ، ولكن يبدو أن الرواة أو الكتّاب قد حذفوه ، وبدلّ عليه كلمة الفصل أمّا بعد .
2. كلمة الفصل : أمّا بعد .
3. صلب الرسالة .
4. ختام الرسالة بالسلام .

نظرات في الرسالة

1. الرسالة شخصية يغلب عليها الأسلوب العاطفي ، وهذا ناتج عن طبيعة موضوعها ، وهو ولادة أول مولود له ، ولعله لا يخفى عليك أن لأول مولود في نفس الوالدين ما لا يكون لغيره الحداثة التجريبية بكل جوانبها .
 2. تدور الرسالة حول المحاور التالية :
 - 1.2 بيان عظم نعمة الله على الكاتب بالولد .
 - 2.2 بيان الأسباب التي جعلته ينظر إلى الولد هذه النظرة : بقاء الذكر بعده - حسن الخلافة في حرمة - إشراكه إياه في دعائه وصالح عمله .
 - 3.2 بيان مشاعر الوالد تجاه الولد ، وهنا يسجل الكاتب دقائق خلجاته تجاه ولده ، ويقدم لنا صورة في غاية الروعة ، " فإذا نظرت إلى شخصه تحرك لي وجدي ، وظهر به سروري ، وتعطفّت عليه مني أنسة الولد ، وتولت عني به وحشة الوجد ، فأنا به جذل في مغيبتي ومشهدي " . ثم ينتقل من وصف الشاعر إلى ما ينشأ عنها من صلة مباشرة بين الوالد وولده :
- « أحاول مسّ جسده بيدي في الظلم ، وتارة أعانقه وأرشفه »
- 4.2 الموازنة بين نعمة الولد وسائر النعم :
- " ليس يعدله عندي عظيما الفوائد ، ولا منفسات الرغائب " .

5.2 بيان أثر هذه النعمة عليه :

" سرّني واهبه لي على حين حاجتي ، فشده به أزري ، وحملني من شكره فيه ما قد أدني بثقل حمل النعم المساقاة إليّ به ...

6.2 بيان وقوعه بين الإحساس بالنعمة ، والخوف على الولد من الموت وما تحمل الأيام من المصائب ..

الخ ..

7.2 اعتباره أن نجاحه مما يخاف عليه نعمة جديدة تضاف إلى نعمة الله عليه به ، وهو ما يأمله .

8.2 بيان السبب الذي دفعه إلى الكتابة لأخيه ، لأنه يشاركه في سروره .

3. أسلوب الرسالة يكشف عن كاتب لا يكتب ليوصل الفكرة أو يبلغ المعلومة فحسب ، وإنما يضاف

إلى ذلك رغبته في إظهار قدرته الأدبية . فإلى جانب تأنقه في أسلوب نجد لديه القدرة على تشويق المعاني ، استمع إليه في مطلع رسالته :

" إني ما اتعرّف من مواهب الله نعمة خُصّصت بمزيتها ، وأصغيت بخصيصاها "

فهو يستخدم لفظة مواهب ، ثم لا يقول : موهبة ، بل يعدل عنها إلى لفظة مرادفة : نعمة . ثم يقول : خصّصت بمزيتها ، ويقلب الكلام ليقول : وأصغيت بخصيصاها . وانظر إليه كيف يشقّ الكلام في حديثه عن السبب في رغبته في الولد .. وكذلك في حديثه عن صلته به ، وفي تلوّن مشاعره بين السرور به ، والخوف عليه .

وانظر إليه في تأنقه في الأسلوب حتى كأنك أمام صانع يجدلّ عقداً من لؤلؤ ، أو سلاسل من ذهب ، في جملة طريفة متداخلة :

سرّني به واهبه لي على حين حاجتي ، فشدّ به أزري وحملني من شكره فيه ما قد أدني بثقل حمل النعم المساقاة إليّ به ، المقرونة سراًؤها في العجب بتارات ما يدركني طيّه من رقة الشفقة مخافة مجاذب المنايا إياه ، ووجلاً من عواطف الأيام عليه ، فيما يعتلج لي وعلي بالمسرور والمحذور . "

ولعلك بتأملك لهذه العبارة تدرك كيف تتداخل الجمل ، وتتولد المعاني في هذه الصورة المعجبة !

4. وما يلفت النظر في أسلوب عبيد الحميد هذا الحرص على الشراء الموسيقي الذي من عناصره :

الموازنة بين الجمل مع استخدام السجع على قلة ، مع الحرص في الغالب على قصر الجمل . وقرأ على مهل هذه الجمل :

وأملت ببقائه بعدي حياةً ذكري ، وحسن خلافتي في حُرْمِي ، وإشراكه إياي في دعائه ، شافعاً لي إلى ربه عند خلواته ، في صلواته ، وحججه ، وكل موطن من مواطن طاعته . فإذا نظرت إلى شخصه تحرك لي وجددي ، وظهر به سروري ، وتعطف عليه مني أنسة الولد ، وتولت عني وحشة الوجد .

لاحظ تلوين الجمل بين الطول والقصر ، الذي يُسهم في هذا الشراء الموسيقي ، وبما يسهم فيه كذلك إكثاره من الكلمات المشددة مع تكرار بعض الحروف بما فيها من صفير أو همس ، كالسين والصاد والشين والزاي والذال . وانظر إلى هاتين الظاهرتين في النص من خلال تتبعك لما أشرت إليه .

5. وقد لا يخفى عليك أن في رسالة عبد الحميد ألواناً من الطباق واضحة :

أنسة الولد - وحشة الحد / مغيبي - مشهدي / لي - علي / المسرور - المحذور .. الخ .

نشاط (3)



قد يكون من المفيد وقد اطلعت على رسالة إخوانية أن تطلع على رسالة من الرسائل الديوانية وتقيم موازنة بين الرسالتين .

وكتب إلى هشام في القدرية :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين كان وجه معي بنفر من القدرية في الجند الذي كان أمدني بهم ، وإنه قد ظهر منهم من النية والقول منازعة لله في رزقه ، وشركة لله في الأمر ، يرغمون من ليس على رأيهم تولي ما هم عليه ، حتى ظهر ذلك وانتشر ، وكرهت القدوم عليهم بالمطالبة دون إعلام أمير المؤمنين حالهم ، وإنما رأيهم الذي ارتأوه ، طائفة من رأي النصارى ، فيتشعب لهم فيه فنون الكلام إلى توهين سلطان الرب وتضعيف قدرته ، ونقضهم من دين الإسلام وثائق عراه ، وقد علا ذلك ، فمنعتهم بالتهديد لهم ، وأنا معاجلهم بالعقوبة إن عادوا لتصغير شيء مما عظم الله . إن الشيطان إنما استدعاهم بصغار الأمور ليرفعهم إلى كبارها ، وإنما رغبتهم ليقع بهم ثم يقع بهم ويتخلى عنهم . وأنت - أمير المؤمنين - من الله بمكان من حقّ عليه النكير عليهم والعقوبة لهم . وأرجو أن يري الله أمير المؤمنين في الإسلام وأهله أحسن ما عليه نيته وهمته ، وألا يبتلي أمير المؤمنين بمكرهه في خاصّ أمر ولا عامة ، فإنه وليه وولي ما غاب عنه ، والسلام .

(عباس ، 1988 ، 207)



1. ما القيمة الإنسانية لرسالة عبد الحميد إلى أخيه ؟

2. ما دلالة هذه الرسالة على شخصيته ؟

4.2 الرسائل حتى منتصف القرن الرابع

نشطت الكتابة في العصر العباسي نشاطاً واسعاً ، وازدادت الحاجة إليها باستقرار الدولة واتساعها وكثرة ولايتها . وكانت الكتابة جسراً إلى أرفع المناصب ، وكان من يريد أن يدخل ديوان الرسائل يمتحن امتحاناً عسيراً ، لأنه لا بد له من إتقان صناعة الكتابة ، التي تتضمن إتقان اللغة والأسلوب ، بالإضافة إلى علم الفقه وشؤون الخراج ، وعلم الحساب ، والإلمام بالكيمياء والطب والنجوم والفلسفة والمنطق . وهذا يعني أنه لا بد للكاتب من ثقافة لغوية وأدبية وتاريخية وسياسية ، هذا فضلاً عن الثقافة الأساس وهي الثقافة الدينية .

وكانت الرسائل الديوانية تتناول أعمال الدولة كلها من تولية الولاة وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهد ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان ، وأخبار الولايات من مطر وخصب وجدب . وكان من أبرز الكتاب في هذا العصر يحيى البرمكي وابنه جعفر ، والفضل بن سهل وأخوه الحسن ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة ، والحسن بن وهيب ، وإبراهيم بن العباس الصولي وسعيد بن عبد الملك ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد .. وغيرهم كثير ممن كانوا منتشرين في أنحاء العالم الإسلامي .

(ضيف ، العصر العباسي الأول ، 465 - 490) ، العصر العباسي الثاني ، 550 - 562)

وكما نمت الرسائل الديوانية نمت كذلك الرسائل الإخوانية بما تتضمن من عواطف ومشاعر ، من رغبة ومدح وهجاء ، وعتاب واعتذار .. وهي بذلك دخلت فيما كان من موضوعات الشعر في العصر الأموي ، ولم يترك الكتاب فناً من فنون الشعر إلا كتبوا فيه محاولين بكل ما استطاعوا أن يظهرُوا القارئ على براعتهم وتفننهم . (ضيف ، العصر العباسي الأول ، 491 - 506 ، العصر العباسي الثاني ، 562 - 573) .

رسائل ديوانية
أهل البيت
وغيرهم

وقد نمت كذلك الرسائل الأدبية التي هي أشبه ما تكون بالمقال الطويل أو البحث في عصرنا ، وقد تطول بعض هذه الرسائل لتصبح كتاباً . ولك أن تراجع رسائل الجاحظ ورسالة بشر بن المعتز في البلاغة ، وغيرها . ونضيف إليها رسالة المتوابع والزواج لابن شهيد ، ورسالة الغفران للمعري ..

ولنقف على فن الرسائل في هذا العصر ندرس نماذج من رسائل الجاحظ وابن العميد .. اللذان هما من أبرز كتاب هذا العصر .

1.4.2 من رسائل الجاحظ

الجاحظ كبير كتاب العصر العباسي ، بصري المولد والوفاء ، اسمه عمرو بن بحر بن محبوب ، أبو عثمان ، معتزلي المذهب ، تتلمذ على النظام ، من شيوخ المعتزلة . وقد امتلك الجدل والفصاحة والبيان ، ولقي العناية من كبراء ، فكافؤوه على أعماله بكثير من المال الذي كفاه الحاجة ، وجعله يتفرغ للكتابة .

وقد ألف الجاحظ كتباً ورسائل كثيرة في موضوعات شتى ، وعمر حتى بلغ الثمانين والتسعين من عمره وتوفي سنة 255 هـ . (الزركلي ، 1990 ، 5 : 74) .

وإذا كنت ستطلع في الوحدة الخامسة على نموذج من قصص الجاحظ في كتاب البغلاء ، فإننا سنطلع على نموذج من رسائله .

كتب عمرو بن بحر الجاحظ إلى بعض إخوانه في ذم الزمان :

بسم الله الرحمن الرحيم . حفظك الله حفظ من وفقه للقناعة ، واستعمله بالطاعة كتبتُ إليك وحالي حال من كثفت غمومه ، وأشكلت عليه أموره ، واشتبه عليه حال دهره ، ومخرج أمره ، وقلّ عنده من يثق بوفائه ، أو يحمّد مغبّة إخوانه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أزداننا ، وقديماً كان من قدّم الحياء على نفسه ، وحكّم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أمره ، ونبذ المشتبهات عليه من شؤونه . تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظّ العافية ، وحصد مغبّة مكروه العاقبة ، فنظرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتحركت دولته . فوجدنا الحياء متصلاً بالحرمان ، والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استعمال القحة وإخلاق العرض من طريق التوركل دليلاً على سخافة الرأي ؛ إذ صارت الحظوة الباسقة والنّعمة السابغة في لزوم النية ، وتناول الرزق من جهة محاشاة الوقار ، وملابسة معرفة العار .

ثم نظرنا في تعقّب المتعقّب لقولنا ، والكاشر لحجتنا ، فأقمنا له علماً واضحاً ، وشاهداً قائماً ، ومناراً بيناً ؛ إذ وجدنا من فيه السفولية الواضحة ، المثالب الفاضحة ، والكذب المبرّح ، والخلف المصرّح ، والجهالة المفرطة ، والركاكة المستخفة ، وضعف اليقين والاستيثاب ، وسرعة الغضب والخفة ، قد استكمل سروره ، واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والحظّ الأوفر ، والقدر الرفيع ، والجواب الطائع ، والأمر النافذ ، إن زلّ قبيل حكم ، وإن أخطأ قبيل أصاب ، وإن هذى في كلامه وهو بقظان قبيل رزيا صادقة في سنة مباركة .

فهذه حجتنا - أبقاك الله - على من زعم أن الجهل يخفض ، وأن الحق يضع وأن النوك يُردى وأن الكذب يضر ، وأن الخلف يُزري .

ثم نظرنا في الرِّفَاء والأمانة ، والنبل والبراعة وحسن المذهب ، وكمال المروءة ، وسعة الصدر ، وقلة الغضب ، وكرم الطبيعة ، والفائق في سعة علمه ، والحاكم على نفسه ، والغالب لهواه ؛ فوجدنا فلان بن فلان ، ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه ، ولا قام له بوظائف فرضه ؛ ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة به . فهذا دليل على أن الطلاح أجدى من الصّلاح ، وأن الفضل قد مضى زمانه وعفت آثاره ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده ؛ ووجدنا العقل يشقى به قرينه ، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان ، ومعرباً عن الأيام ، حيث يقول :

تَحَامَقَ مع الحَمَقَى إِذَا مَا لَقِيَتَهُم وَلَا قِيَهُمُ بِالْجَهْلِ فَعَلَّ أَخَى الْجَهْلِ
وخلَطَ إِذَا لاقِيَتْ يوماً مُخلَطاً يُخلَطُ في قولٍ صحيحٍ وفي هزلٍ
فإني رأيتُ المرءَ يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعدُ بالعقلِ

فبقيت أبقاك الله مثل من أصبح على أوفاز ، ومن النقلة على جهاز ، لا تسرع له نعمة ولا يطعم عينيه غمضة ، في أهاويل يباكره مكروها وتراوحه عقابيلها فلور أن الدعاء أجيب والتضرع سمع ، لكانت الهده العظمى ، والرجفة الكبرى ؛ فليت الذي يا أخي ما أستبطئه من النفخة ، ومن فجأة الصيحة ، قُضِيَ فحان ، وأذن به فكان ؛ فوالله ما عذبت أمةً برجفة ولا ربح ولا سخطة ، عذاب عيني برؤية المغايظة المضنية ، والأخبار ، كان الزمان توكل بعذابي ، أو انتصب لإيلامي " فما عيش من لا يسر بأخ شقيق ، ولا خدن شفيق ، ولا يصطبح في أول نهاره إلا برؤية من تكره رؤيته ، ونعمة من تغمه طلعته فبدل الله لي - أي أخي - بالمسكن مسكناً ، وبالربع ربعا ؛ فقد طالت الغمة ، وواطنت الكربة ، وأدلهمت الظلمة ، وخمد السراج ، وتباطأ الانفراج ، والسلام .

(ابن عبد ربه ، ج : 166 - 168)

أقسام الرسالة

1. البسمة .
2. مقدمة دعائية قصيرة خص بها المرسل إليه .
3. الموضوع الأساس وهو شكوى الزمان .

4. جملة دعائية لنفسه بطلب الفرج - في ختام الرسالة .

5. السلام الختامي .

نظرات في الرسالة :

1. واضح أن الرسالة من الرسائل الإخوانية التي ارتفعت فصارت قطعة أدبية إنسانية ، لا تعالج

مشكلة فرد بل تعالج قضية كثر حديث الأدباء : شعراء وكتاب عنها .

2. تدور الرسالة حول المعاور التالية :

1.2 وصف حاله عند كتابة الرسالة : الهم والغم وقلة الثقة بمن حوله .

2.2 الموازنة بين الماضي وزمنه :

في الماضي : فضائل الأخلاق - تؤدي إلى السلامة ونيل المراد .

في الحاضر : فضائل الأخلاق سبب البلاء وضياح الحق .

3.2 الرد على من خالفه في رأيه من خلال النظر في واقعه ، فمن جمع مساوئ الأخلاق استكمل

سروره ، واعتدلت أموره ، ونال مراده ، ولقي الحظوة . ومن جمع مكارم الأخلاق لم يُنصف ولم

ينل حقاً .

4.2 استخلاص قاعدة مستمدة من واقعة :

الصلاح من الصلاح والفضل قد مضى زمانه ، والعاقلة يشقى بعقله ، والجاهل الأحقق مُنعم .

5:2 عودة إلى وصف حاله وضيقة بالحياة ، وتقنيه قيام الساعة ، وانقضاء العمر ..

3. يظهر في منهج الجاحظ في عرض فكرته الميل إلى الإطناب وتفصيل القول في المسألة ، وعرضها

من وجوهها المختلفة بما يكفل بياتها ، وإقناع القارئ بحجته . ومن مظاهر هذا المنهج عرض المتضادات .

وانظر في هذه الفقرة وقس عليها أشباهها في الرسالة :

"وقدماً كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وأثر الحق في أموره ، ونبذ

المشبهات عليه من شؤونه / تمت له السلامة ، وفاز بوفرة حظ العافية ، وحمد مغفبةً مكرره العاقبة "

هذا ما كان في الماضي ، وانظر إليه كيف يعرض الحاضر مفصلاً لبيوازه بالماضي ، ويقنع القارئ

برجعة نظرة :

" فنظرنا إذا حال عندنا حُكمه ، ومحوكت دولته ، فوجدنا الحياء متصلاً بالحرمان ، والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استعمال القحة وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلاً على سخافة الرأي ، إذ صارت الخطوة الباسقة ، والنعمة السابغة في لؤم النية ، وتناول الرزق من محاشاة الوقار ، وملابسة معرفة العار "

أرأيت كيف يعرضُ لك العرضُ المفصلُ ، مع المقابلة التي لا تدع لقائل مزيداً . ولا يكتفي بهذا ، بل يعرض حجج من خالفه في رأيه مستشهداً بالواقع .

وانظر كيف يطنب في بيان حجته بقوله .

فأقمنا له علماً واضحاً ، وشاهداً قائماً . ومناراً بيناً "

ألا ترى أن الجاحظ قد عبر عن معنى واحد في صور ثلاث ؟ وهذا من منهج الجاحظ الجدلي القائم على محاولة إقناع الخصم أو القارئ إقناعاً مفحماً .

4. لغة الجاحظ تلفت النظر ، فأنت أمام كاتب يمتلك ناصية اللغة ، أدرجها بين جنبيه فلا يُعيبه أن يعبر عن المعنى الواحد في صور متعددة . انظر في هذه الفقرة :

« إذ وجدنا من فيه السفولية الواضحة ، والمثالب الفاضحة ، والكذب المبرح ، والحلف المصرح ، والجهالة المفرطة ، والركاكة المستخفة ، وضعف اليقين والاستيثاب ، وسرعة الغضب والخفة ، قد استكمل سروره ، واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والحظ الأوفر ، والقدر الرفيع ، والجواب الطائع والأمر النافذ »
أرأيت كيف عبر عن معنى محدد .. في هذه الصور اللغوية المتعددة ؟ وهل تراه كان يستطيع هذا لو لم تكن لديه الذخيرة اللغوية الثرية ، والقدرة على الاختيار المناسب ؟ ولاحظ أنه لم يلجأ إلى الغريب من الألفاظ ، مع كونه به خبيراً ، وله حافظاً ، ذلك لأنه أديب يعرف المعاني وما يصلح لها من ألفاظ ومتى يستعملها .

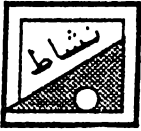
5. ولأسلوب الجاحظ حلاوة تتمثل في هذا الإيقاع الموسيقي النابع من قصر جملة ، ومن الموازنة بين أجزاء بعض هذه الجمل ، وقد أوردَ في أسلوبه من فنون البديع ما لم يشته بل زاده جمالاً ، وزاد في إيقاعه الأسر . اقرأ هذه الجمل القصيرة ، أو أشباه الجمل ، كيف يوردها إيراداً يسهم في إبراز هذا الإيقاع :

« فبقيت أبقاك الله مثل من أصبح على أوفاز ، ومن الثقلة على جهاز ، لا تسوغ له نعمة ، ولا يُطعم عينيه غمضة ، في أهويل يباكره مكروهها ، وتراوحه عقابيلها ، فلو أن الدعاء أجيب ، والتضرع سُمع ، لكانت الهدية العظمى ، والرجفة الكبرى ، فليت الذي يا أخي ، ما استبطنه من النفخة ، ومن فجأة الصيحة ، قُضيَ فحان ، وأذن به فكان »

لعلك تلاحظ السجع ، ولكنه غير ملتزم ، وتلاحظ الترادف الذي ينسجم مع منهجه الجدلي الذي أشرنا إليه من قبل .

6. بقيت كلمة حول تجربة الجاحظ في هذه الرسالة ، إن الجاحظ ليس حجاباً لغيره ، فالأفكار أفكاره ، والمشاعر مشاعره والأسلوب أسلوبه . وليس حاله كحال من يكتب على لسان غيره ، يحاول تمثّل تجربته والتعبير عنها . إنك تحسّ الحرارة في كل كلمة والضيق في كل فقرة . ولعلك تلاحظ ذلك في تصاعد المشاعر من بداية الرسالة إلى نهايتها ، حيث يتمنى قيام الساعة وانقضاء العمر ، ليرحل عن هذه الدنيا ، ويرتاح من عنائها .

نشاط (4)



ارجع إلى كتاب " رسائل الجاحظ " وأختر منه رسالة ادرسها دراسة أدبية .

سؤال التقويم الذاتي (1)



لخص أبرز خصائص رسالة الجاحظ التي درستها .

تدريب (4)



1. لماذا يذم الجاحظ الزمان كما هو ذم لاهوتهم
2. أيهما أفضل في عين الجاحظ : الحاضر أم الماضي ؟ ولماذا ؟ ^{للماضي}
3. ما ملامح نسبة الجاحظ كما تتجلى في الرسالة ؟ ^{علم ، نظم ، لحن ، صنعة ، لجزء}

2.4.2 من رسائل ابن العميد

أبو الفضل بن العميد : محمد بن الحسين العميد بن محمد ، وزير من أئمة الكتاب ، كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم ، ولقّب بالجاحظ الثاني ، وفي أدبه وترسله ، قال الشعالي : بدئت الكتابة بعميد الحميد ، وختمت بابن العميد !! ولي الوزارة لركن الدولة البويهى ، وكان حسن السياسة ، خبيراً بتدبير الملك ،

كريمياً بمدوحاً ، قصده جماعة من الشعراء مادحين فأجزل لهم العطاء . ومن مدحه المختنبي . له مجموعة من الرسائل في مجلد ضخم وله شعر رقيق . قال ابن الأثير : كان أبو الفضل من محاسن الدنيا . اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حسن التدبير ، وسياسة الملك ، والكتابة التي أتى فيها بكل بديع ، مع حسن خلق ، ولين عشرة ، وشجاعة تامة ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات ، وبه تخرج عضد الدولة (أي تتلمذ على بديه) ، ومنه تعلم سياسة الملك ، ومحبة العلم والعلماء ، وكانت وزارته أربعاً وعشرين سنة ، وعاش نيافاً وستين سنة . ومات بهمدان سنة 360 (الزركلي ، 1990 ، 6 : 98)

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري :

وقفت على ما وصفت من بز مولانا الأمير لك ، وتوقره بالفضل عليك ، وإظهار جميل رأيه فيك ، وما أنزله من عارفة لديك ؛ وليس العجب أن يتناهى مثله في الكرم إلى أبعد غاية ، وإنما العجب أن يقصر شيء من مساعيه عن نيل المجد كله ، وحياسة الفضل بأجمعه ؛ وقد رجوت أن يكون ما يغرسه من صنيعه عندك أجدر غرس بالزكاء ، وأضمنه للربيع والنماء ؛ فارع ذلك ، واركب في الخدمة طريقة تبعدك من الملل ، وتوسطك في الحضور بين الإكثار والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ؛ فلأن تدعى من بعيد خير من أن تقصى من قريب ، وليكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل ومن الإسهاب ، ولا يعجبك تأتي كلمة محمودة فيلج بك الإطناب توقعاً لثقلها ؛ فربما هدمت ما بنته الأولى ؛ وبضاعتك في الشرف مزجاة ، وبالعقل يزوم اللسان ، وما يرام السداد ، فلا يستفزنك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك ؛ والشفاعة لا تعرض لها فإنها مخلقة للجاه ؛ فإن اضطرت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها ، وتطالع موضعها ؛ فإن وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الإسعاف هشة ، فأظهر ما في نفسك غير محقق ، ولا توهم أن عليك في الرد ما يوحشك ولا في المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دُفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ، ولا يثقل على سامعه منك . أقول ما أقول غير واعظ ولا مرشد ، فقد جعل الله خصالك وحسن خلالك ، وفضلك في ذلك كله ؛ لكنني أنبه تنبيه المشارك لك ، وأعلم أن للذكرى موضعاً منك لطيفاً .

(الحصري ، 1064 - 1065)

أقسام الرسالة :

لا نجد فيما وقع تحت يدنا من رسائل ابن العميد مطالع تمكنا من معرفتها ، ومنها هذه الرسالة ، فلا نجد بضمنها أو حمداً لله عزوجل ، ولا ذكراً لاسم المرسل إليه ، ولا تسليماً ، إنما نجد الكاتب قد دخل في موضوعه مباشرة . ولا نجد ختاماً للرسالة أو تسليماً في نهايتها .

نظرات في الرسالة

1. هذه رسالة إخوانية صادرة عن ابن العميد إلى صديق له ، وهي إلى جانب هذه الصفة يمكن أن تكتسب صفة أخرى فهي دستور لمن أراد أن يتقرب إلى صاحب سلطان كيف يسلك بين يديه ، فهي رسالة إخوانية فكرية سياسية .

2. الرسالة ، كما يبدو من مطلعها - ردّ على رسالة من صاحبه ، أو فيها تعقيب وتوجيه ، وتتضمن:

1.2 اطلاع ابن العميد على الرسالة وما فيها من خير أصاب صاحبه .

2.2 رد ابن العميد عجب صاحبه من تقرب الأمير له وإحسانه إليه .

3.2 رجاء ابن العميد أن يكون صاحبه أهلاً لما ناله من الأمير .

4.2 توجيهات من ابن العميد لصاحبه ليدوم عليه ما ناله من الأمير .

* حفظ ماء وجهه بالتوسط في الحضور بين القلة والكثرة .

* حفظ كلامه والتحرّز مما يقول بين يدي الأمير .

* ترك الإطناب في الكلام .

* ترك التغيير إذا لم تحقق حاجته بل ذلك بانطلاق الوجه .

5.2 اعتذار عن أن يكون كلامه وعظماً اكتفاءً بما لديه من جميل الصفات .

3. لعلك تلاحظ أن ابن العميد قد لجأ إلى الإيجاز في رسالته وعليك أن تنتبه إلى أن الإيجاز أو

الإطناب يكونان محمودين حيث يلزمان ، فلا ينبغي أن توجز حيث يحسن التفصيل ، أو تطول

حيث يجمل الاختصار ، ولعلك لاحظت أن ابن العميد نفسه قد وجّه إلى صاحبه نصيحة بهذا

المعنى بقوله :

« وليكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل ومن الإسهاب ، ولا يعجبنيك تأتي كلمة محمودة ، فيلج بك الإطناب توقعاً لمثلها ، فربما هدمت ما بنته الأولى » .

وهذا يعني أن الكلام لدى ابن العميد يجب أن يكون موزوناً وألاً يلقى بغير حساب .

4. لقد تحدث دارسو الأدب العربي عن ابن العميد باعتباره علماً من أعلام الكتابة في القرن الرابع

الهجري .

(ضيف ، عصر الدول والرمات ، الجزيرة العربية - العراق - إيران ، 655) .

(مبارك ، 2 : 245) .

وردوا الكلمة المشهورة : بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد . وهذه الكلمة على ما فيها من المبالغة فهي ذات دلالة على منزلة ابن العميد في هذا المضمار . ويرى شوقي ضيف أنه هو الذي أعطى الكتابة في عصر الدول والإمارات طبيعتها التي ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها ، وهي صبغة قامت على أساسين كبيرين :

أولهما : السجع ، وقد كان السجع معروفاً من قبله في دواوين الكتاب ، ولكنه أدخل عليه ضرورياً من الموازنة في السجعتين المتوالتين بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه .

والأساس الثاني : هو استخدام المحسنات البديعية مع السجع ، فالسجع وحده لا يكفي ، بل لا بد أن تضاف إليه ألوان البديع من الجناس أو الطباق .. (ضيف ، عصر الدول والإمارات ، جزيرة العرب ، العراق ، إيران ، ص 656 - 657) .

ويرى شوقي ضيف كذلك أن من خصائص ابن العميد أنه يعمد إلى تقصير عباراته ، وهذا من الفروق بين شجعه وسجع أصحاب الدراوين من قبله . وهو يوازن بين كل نقطة وقرينتها في العبارتين المتجاورتين . بل يرى أنه تعامل مع الكتابة تعامل صانع السجاد مع فنّه .

فلننظر في النص الذي بين أيدينا لنرى إن كانت هاتان الظاهرتان موجودتين فيه ، ولنرى قانون السجع - إن صح التعبير .

لعل أول ما يلفت نظرك أن السجع غير ملتزم في الرسالة التزاماً تاماً ، ولننظر في سجع مرتبة حسب تشابهها أو تقاربها :

- لك - عليك - فيك - لديك .

- غاية .
- كله .
- الزكاء - النماء .
- إملال - الإقلال - الاسترسال .
- قريب .
- الإسهاب - الإطناب .
- مثلها .
- الأولى .
- مزجاة .
- اللسان .
- السداد .
- تمييزك .
- للجاء .
- مرقعها - وزنها - موضعها .
- سمحة - هشة .
- محقق .
- يروحشك ، يغيظك - يدك - كلامك - منك .
- مرشد .
- خصالك - خلالك .
- كله .
- لك .

- لطيف .

لعلك تلاحظ أن الموازنة بين السجعات الواردة في هذا النص ، وهي غير كثيرة ، ولا ملتزمة فيه كله-
تتسم بمحاولة الموازنة بين ألفاظها ، لاحظ : عليك - لديك ، الزكاء - النماء ، إملال ، الإقلال ، الإسهاب -
الإطناب ، موقعها - موضعها .. وهكذا .

ارجو أن تعينك هذه الطريقة لتبينّ السجع وألوانه وطريقته فيما يقع بين يديك من النصوص .

ومع السجع نجد ألواناً من البديع ، فلديه الطباق :

لك - عليك .

الإكثار - الإقلال

هدّمت - بنته

والمقابلة :

لأن تُدعى من بعيد ، خير من أن تُقصى من قريب

وفي النص بعض الصور البيانية كقوله :

وقد رجوت أن يكون ما يغرسه من صنيعه عندك أجدر غرس بالزكاء . وأضمن للربيع والنماء .

ففي هذه الصور استعارة وكناية .

وفي قوله : بضاعتك مزجاة . كناية .

وفي قوله : مخلقة للجاه . استعارة .

وهكذا ..

ولكن عليك أن تنتبه إلى أن هذه الرسالة بعيدة عن تعقيد الصنعة التي أشار إليها الدكتور شوقي
ضيف . وهذا يدل على أن الكاتب وإن كان صاحب طريقة ، فإنه لا يلتزم هذه الطريقة في كل ما يصدر عنه .
ولعل كونها رسالة شخصية هو الذي دعا إلى هذا الأسلوب .

ولتكتمل الصورة لدينا عن أسلوب ابن العميد ، ونرى بعض الخصائص التي أشار إليها دارسوه نقرأ
النص التالي ، وهو رسالة من ابن العميد إلى عضد الدولة يهنئه بولدين رُزقهما :

وله إلى عضد الدولة يهنئه بولدين :

أطال الله بقاء الأمير الأجلّ عضد الدولة ، دام عزّه وتأييده ، وعلوّه وتمهيده ، وسطته وتوطيده ، وظاهر له من كل خير مزیده ، وهنّاه ما اختصّه به على قرب الميلاد ، من توافر الأعداد ، وتكثر الأمداد ، وتثمر الأولاد ، وأراه من النجابة في البنين والأسباط ، ما أراه من الكرم في الآباء والأجداد ، ولا أخلى عينه من قرّة ، ونفسه من مسرّة ، ومتجدّد نعمة ، ومستأنف مكرمة ، وزيادة في عدده ، وفسح في أمدّه ، حتى يبلغ غاية مهله ، ويستغرق نهاية أمله ، ويستوفي ما بعد حسن ظنّه ؛ وعرفه الله السعادة فيما بشر عبده من طلوع بدرين هما اتبعثا من نوره ، واستنارا من دوره ، وحقاً بسريره ، وجعل وفودهما متلامين ، وورودهما توأمين ، بشيرين بتظاهر النعم ، وتواتر القسم ، ومؤذنين بترادف بنين يفضّ بجمعهم منخرق الفضاء ، وبشرق بنورهم أفق العلاء ، وينتهي به أمد النماء ، إلى غاية تفوت غاية الإحصاء ، ولا زالت السبل عامرة ، والمناهل غامرة ، يصفاح صادرهم بالبشر الوارد وآملهم بالنيل القاصد .

(الحصري ، 1120 - 1121) .

لعلك تلاحظ أن السمات التي تحدث عنها شوقي ضيف أظهر في هذا النص ، فالسجع منتظم في أغلب الجمل مع تنوعه ، وهو مع السجع حريص على التوازن بين كثير من جمل رسائله ، بما يولده ذلك من حسن الإيقاع الموسيقي ، فلو وزنت كثيراً من هذه الجمل أو خواتيمها على وجه الخصوص ، لوجدت التشابه واضحاً فيها . وانظر قوله :

وزيادة في عدده - وفسح في أمدّه ،

حتى يبلغ غاية مهله ، ويستغرق نهاية أمله ،

هما اتبعثا من نوره ، واستنارا من دوره ، وحقاً بسريره .

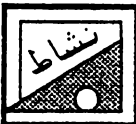
وجعل وفودهما متلامين ، وورودهما توأمين

بشيرين بتظاهر النعم - وتواتر القسم ..

وهكذا .. مما يمكن أن تتابعه وتلاحظه .

نشاط (5)

1- ارجع إلى كتاب يتيمة الدهر للثعالبي ، واستخرج رسالة من رسائل ابن العميد وادرسها دراسة أدبية .



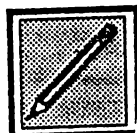
أسئلة التقويم الذاتي (2)

لخص أبرز خصائص الرسالة لدى ابن العميد



تدريب (5)

وازن بين رسالة عبد الحميد الكاتب التي بعث بها إلى أخيه يخبره بالمولود الذي رزقه ، ورسالة ابن العميد في تهنئة عضد الدولة .

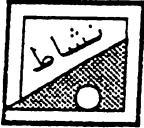


5.2 الرسائل بعد القرن الرابع

ليس من السهل الإشارة إلى فن الرسائل وما أصابه من تطور في قرون عديدة ، وديار متباعدة ، وليس من هدفنا في هذا المقرر أن ندرس تاريخ الأدب ، بل همنا الأول متوجه إلى النصوص ، ومن خلال النصوص ندرك بعض ما أصاب فنون النثر من تطور ، وما تحمله من خصائص .

لقد بقي ديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء من الدواوين المهمة في عاصمة الخلافة في بغداد ، وفي سائر العواصم الإسلامية . وبقي مطمح أنظار النابهين ، المتطلعين إلى التقرب من أولى الأمر . ويحفل كتاب صبح الأعشى للقلقشندي بأسمائهم وفماذج من إنشائهم ، مع تتبع أساليبهم في البدء والختام ، وطريقتهم في صياغة الرسائل . ومن أشهر من كتب الرسائل " أبو اسحاق الصابي ، والعلاء بن الموصلايا ، وضياء الدين بن الأثير ، والعماد الأصبهاني ، والقاضي الفاضل ، ومحبي الدين بن عبد الظاهر ، وابن فضل الله العمري . وشهاب الدين محمود الحلبي ، وصلاح الدين الصفدي ، وابن حجة الحموي .

وبقي حال الرسائل الشخصية في ازدهار ونماء ، وتنوعت استخدامات كما رأينا من قبل . واشتهر من كتابها : أبو العلاء المعري ، وابن أبي الشخاء ، وابن تيمتي ، وفخر الدين بن مكاس .



يمكنك أن تطلع على تفصيل ما أشرنا إليه برجوعك إلى كتابي الدكتور شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات الأول : الخاص بمصر والشام والثاني الخاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران . حيث خصص للرسائل وكتابتها فصلاً . وإذا كان الولوج بالسجع والإقبال على فنون البديع قد شاع في القرون السابقة وبخاصة في العصر العباسي ، فإن من غير المستهجن أن يزداد ذلك في هذه القرون ، وأن يسعى الكتاب إلي التفنن فيه .. ادعاء بأن ذلك مما تركه الأول للآخر . وسنقف على نموذج من رسائل القاضي الفاضل ، أحد أبرز الكتاب الذين ظهروا بعد القرن الرابع الهجري ، فهو ممثل جيد لما نريد .

من رسائل القاضي الفاضل

القاضي الفاضل هو عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي ، وزير من أئمة الكتاب ، ولد بعسقلان بفلسطين ، وانتقل إلى الاسكندرية ثم إلى القاهرة . وتوفي فيها . وكان من وزراء السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ومن مقربيه ، وكان صلاح الدين يقول : لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل . وكان سريع الخاطر في الإنشاء ، كثير الرسائل ، قيل إنها لو جمعت لبلغت مئة مجلد . وله ديوان شعر . (الزركلي ، 1990 ، 3 : 346) وقد عرف له معاصروه ومن جاء بعده قدره في الإنشاء ، ومما جاء في ذلك ما قاله النوري : " إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذود الفضائل واعترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها .. الخ .. وقال ابن حجة : " ولعمري إن الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية ، والأيام العباسية نسي وألغى بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية ، والمعاني المقترحة ، والأنواع البديعة .. " .

(سلام ، 1983 ، ص 202) .

رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يخبره بوصول ملك الألمان والقتال الذي دار مع الصليبيين حول عكا ويطلب النجدة بالحاح ويشرح الوضع الصعب حول عكا ، وهي من إنشاء القاضي الفاضل :

أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي الإمامي الشريف الناصري ، ومدد على الأمة ظليلاً ، وجعل الأنوار عليه دليلاً ، وحاطه بلطفه وتقبل أعماله بقبول حسن وأنبتهها ، وأرغم أعداءه وكبتتها ، ومشها بعذاب من عنده وسحتتها ، ولا زالت رايته السوداء بيضاء الخبير ، محمرة المخبر في العداة . مسودة الأثر .

وردّ على الخادم ما كوتب به من الديوان العزيز رائداً في استخلاصه ، مبرهنأ عن اختصاصه ، مطلقاً في الشكر للسانه ، وفي الحرب لعنانه ، ومقتضياً لأمنية كان يتهيبها ، ومضيفاً لمكرمة لو سمت نفسه إليها كان يتهمها ، فله هو : من كتاب كانه سورة ، وكل آية منه سجدة ، قابله بالخشوع كأنما قلب الكاتب القضيبي وطرسه البردة ، وتلاه على من قبله من الأولياء مسترهفاً به لعزائمهم ، مستجزلاً به لمغانمهم ، مستثبتاً به للازمهم ، مستدعيأ به الخدمة للوازمهم ، مرهفاً به ظباهم في القتال ، فاسحأ به خطاهم يوم النزال ، فأثر فيهم كالاقتداح في الزند ، وكالانبجاس من الصلد ، وكالاستلال من الغمد ، فشم من كان قد أسبل وانتهى من كان قد أجبل ، وكأنما أعطوا كتاباً من الدهر بالأمان ، أو سمعوا منادياً ينادي للإيمان ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، وعلينا من الخدمة ما استطعنا . هذا مع كونهم أنضاء زحوف وأشلاء حتوف ، وضرائب سيرف ، وقد وسمت وجوههم علامات الكفاح ، وأحالت عرضهم أقلام الرماح ، صابرين مصابرين مكاثرين مكابرين ، مناظلين مناظرين ، قد قاموا عن المسلمين بما قعد عنه سائرهم ، ونزلوا بقارعة القراع ، فلا يسير عليها سائرهم ، وسدت كعوبُ الرماح أنفهم ، وأثبتوا في معترك الموت أرجلهم ، كل ذلك طاعة لله ولرسوله ولخليفتهما ، وإذا رموا فأصابوا قالوا : ولكن الله رمى .

ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمرٌ من أجاجه . قد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة منهم طائفة ، ويقلدوا لهم من كل قرن يعجز بالكرة واصفة ، فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه ألفاً ، وإذا ذهب بالقتل صف منهم أخلف بدله صفأ ، فالزرع أكثر من الجداد ، والثمرة أئمى من الحصاد ، وهذا العدد المقاتل - قاتله الله - قد زر عليه من الخنادق أدرعاً متينة ، واستجن من الجنويات بحصون حصينة ، مصحراً وممتنعاً ، وحاسراً ومتدرعاً ، ومواصلأ ومنقطعاً ، وكلما أخرج رأساً قد قطعت منه رؤوس ، وكلما كشف وجهاً كُشفت من غطاء أجسادها نفوس . فكم من يوم أرسلوا أعنة السوابق فذاقوا عقى إرسالها ، وكم من ساعة قضوا فيها أفعال الخنادق ، فأفضى بهم البلاء عن فض أفعالها ، إلا أن عددهم الجم قد كاثرت القتلى ، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل لشدة ما قطعها النصل . ومن قبل الخادم من الأولياء قد أثرت المدة الطويلة والكلف الثقيلة في استطاعتهم لاطاعتهم ، وفي أحوالهم لا في شجاعتهم ، فالبرك قد أنفوه ، والسلاح قد أخفوه ، والدرهم قد أنفوه ، وكل من يعرفهم من أهل المعرفة ويراهم بالعين فما هم مثل ما يراهم بالصفة ، يناشد الله المناشدة النبوية في الصيحة البدرية في : اللهم إن تهلك هذه العصابة ، ويخلص الدعاء ويرجو على يد أمير المؤمنين

الإجابة . هذا والساحل قد تماسك وما تهالك ، وتجلد وما تبلد ، وشجعتهها مواعد النجدة الخارجية ، وأسلته عن مصارع العدة الدارجة فكيف به إذا خرج داعية الألمان وملوك الصليبان وجموع ما وراء البحر وحشود أجناس الكفر ؟ وقد حرم باباهم - لعنة الله عليهم وعليه - كل مباح ، واسخرج منهم كل مذخور ، وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة ويعيدوا القمامة (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) .

اللهم اخفر جواره ، واصرف جوره ، واخلف وعده ، واكسر ضمانه وانكصه على عقبه ، وعجل في الدنيا والآخرة منه تبابه ، وما بدلنا به من نعمتك فلا تقطعه ، وما وهبتنا من نصرك فلا تسلبه ، وما سترته من عجزنا فلا تهتكه ، وفي دون ما الدين مستقبله ، وعده - خذله الله - يؤمله ، ما يستفرغ عزائم الرجال ويستنفذ خزائن الأموال ، ويوجب لإمام هذه الدولة أن يحفظ عليها قبلتها ، ويزيح في قتل عدوها علتها . ولولا أن في التصريح ما يعود على عدالته بالتجريح ، لقال ما يبكي العين ، وينكي القلوب ، وتنشق له المرائر ، وتُشَقُّ الجيوب ، ولكنه صابر محتسب ، منتظر لنصر الله مرتقب ، قائم من نفسه بما يجب : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، وها هو قد هاجر إليك هجرة يرجوها عندك مقبولة ، وولدي ، وقد أبرزت لعدوهم صفحات وجوههم رهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم . ونقف عند هذا الحد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن لم يشتك الدين إلى " ناصره " والحق إلى من قام بأوله إلى اليوم الآخر يقوم بآخره ، فإلى من يششتكى البث ؟ وعند من يُتفرج بالنفث ؟ ومنفعة الفوت قبل العطب ، والنجاء قبل أن يصل الحزام الطبيين ، والبلاغ قبل أن يصل السيل الزبي .

فيا عصابة محمد صلى الله عليه وسلم أخلفه في أمته بما تطمئنن به مضاجعه ، ووقه الحق فينا ، فإتنا وإن المسلمين عندك ودانعه . وما مثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة من وقف بالباب ضارعا ، وناجى بالقول صادعا . ولو رفعت عنه العوائق لهاجر ، وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر ، ولو أمن عدو الله أن يقول : فرّ ، لسانر . وبعد ففيه ، وإن عض الزمان بقتية ، وقبّله وإن تدارأت الشهادة درية ، فلا يزال قائما حتى ينصر أو يعذر ، فلا يصل إلى حزم ذرية أحمد صلى الله عليه وسلم من ذرية أيوب واحد يذكر .

أنجز الله لأمير المؤمنين مواعد نصره ، وقم مساعدة دهره ، وأصنى موارد إحسانه ، وأرسي قواعد سلطانه ، وحفظه وحفظ به ، فو خير حافظ ، ونصر على يديه فهو أقوى ناصرا إن شاء الله تعالى .

(حمادة ، 1980 ، ص 193 - 196)

أقسام الرسالة :

1. مقدّمة : هي دعاء للخليفة في صورة تغلب عليها المبالغة .
2. صُلب الرسالة ويتضمن المحاور التالية :
 - 1.2 ذكر كتاب ورد من ديوان الخلافة ، وما كان من قراءته على المجاهدين ، ووصف أحوالهم .
 - 2.2 ذكر أخبار الصليبيين في عكا ، وحال المسلمين معهم والاستغاثة بالخليفة لنصرتهم .
 - 3.2 الشكوى من حال المسلمين في مواجهتهم للفرنجية الكفار ، وقلة الناصر لهم ، وطلب العون من الخليفة .
 - 4.2 ختام بالدعاء .

نظرات في الرسالة

1. هذه الرسالة ديوانية ، فهي موجهة من السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر في بغداد ، ولا بد أن نشير إلى وضع الخلافة في هذا العصر ، فلم يعد للخليفة سلطان فعلي إلا على العراق ، وأما بقية بلاد المسلمين فقد تغلب عليها حكام وسلطين كانت صلتهم بالخلافة قائمة على الدعاء للخليفة على المنابر ، واستصدار كتب النيابة عنه في حكم البلاد ، وتقديم الهدايا له .
2. موضوع الرسالة هو بيان حال المسلمين في حربهم مع الصليبيين وبخاصة عكا ، التي كانت ميناءً مهماً لهم بآتيهم المدد عن طريقها ، واستنفار خليفة المسلمين لنصرتهم ، حيث إن مسؤولية الدفاع عن الأرض المقدسة ليست مقصورة على من أقام فيها ، أو ولي أمرها فحسب ، بل مسؤولية كل مسلم .
3. حرص القاضي الفاضل على وصف حال المجاهدين ، وكيف كان أثر كتاب الخليفة عليهم من إثارة همّتهم وحميتهم ، مع كونهم في غاية الجهد والتعب من لقاء العدو ، وفي هذا استشارة لهمة الخليفة.
4. يصف القاضي الفاضل تكالب الكفار وتدافعهم على بلاد المسلمين ، على الرغم من جهاد المسلمين لهم ، وهم مصممون على تحقيق ما جازوا من أجله ، ويصف ذلك بقوله " حرم باباهم - لعنة الله عليهم وعليه - كل مباح ، واستخرج منهم كل مذخور ، وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الخداد ، وحكم عليهم الأ يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة ، ويعيدوا القمامة .

5. يلجأ الكاتب إلى أمرين في رسالته :

كثرة الدعاء ، وشدة الإلحاح في طلب النصرة من الخليفة .

6. نفتقد في الرسالة البسمة والتحميد ، كما نفتقد التصريح باسم المرسل والمرسل إليه ، كما نفتقد السلام ، وبديل هذا كله الدعاء المطول والتكنية عن الخليفة بهذا الوصف :

" الديوان العزيز النبوي الإمامي الشريف الناصري " وبدلاً من ذكر اسم المرسل يقول :

" ورد على الخادم " أي صلاح الدين .

ونلاحظ هنا كيف تظهر شخصية الكاتب في نيابته في الكتابة عن ولي الأمر .

7. المبالغة سمة واضحة في الرسالة ، سواء في ذلك الحديث عن الخليفة في المقدمة ، أو عن كتابه وأثره في نفوس المجاهدين ، لاحظ قوله :

" فله هو من كتاب كأنه سورة ، وكل آية منه سجدة " وتأمل قوله في أثر الرسالة على قلوب

المجاهدين :

" وتلاه على من قبله من الأولياء مسترهفاً به لعزائمهم ، مستجزلاً به لمغانهم ، مستثبناً به لملازمهم ، مستدعياً به الخدمة للوازمهم " .

ولعله لا يخفى عليك أن المقاتلين في بلاد الشام كانوا محبطين من خذلان إخوانهم لهم في بقية بلاد الإسلام ، وبخاصة الخليفة ، فهل تتصور أن يكون أثر رسالة الخليفة على المجاهدين كما وصفه ؟

ولكن ربما أراد من هذا أن يقول للخليفة هكذا كان أثر كتابك ، فكيف لو جاءهم منك مدد ؟!

8. أسلوب القاضي الفاضل هو امتداد لأسلوب المنعة الذي ساد في عصره والذي قبله منذ البصر العباسي الثاني ، ومن خصائص هذا الأسلوب التي تبدو في هذه الرسالة :

1.8 استلهام النص القرآن الكريم والاقتراس منه :

* ومن الاستلهام قوله في مطلع الرسالة :

" أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي الإمامي الشريف الناصري ، ومدّه على الأمة ظليلاً ، وجعل

الأنوار عليه دليلاً " .

استمد هذا من قوله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس

عليه دليلاً) .

وقوله " أو سمعوا منادياً ينادي للإيمان قالوا : سمعنا وأطعنا . وعلينا من الخدمة ما استطعنا " أخذ هذا من قوله تعالى (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا) وقوله (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .
* ومن الاقتباس إبراد الآية :

(وإذا زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنني جار لكم) .
ومن مظاهر التأثير بالقرآن الكريم استخدام بعض المصطلحات القرآنية وهذا وارد في حديثه عن كتاب الخليفة الذي قرئ على المجاهدين :

" فله هو من كتاب كأنه سورة ، وكل آية منه سجدة "

2.8 ومن خصائص الأسلوب التأثير بالحديث النبوي مع ربطه بالحدث الذي قيل فيه ، وهذا واضح في قوله : " يناشد الله المناشدة النبوية ، في الصيحة البدرية ، في : اللهم إن تهلك هذه العصابة " .

3.8 ولدى الكاتب ميل إلى استخدام ألوان البيان من تشبيه واستعارة وكناية .

فمن التشبيه قوله :

- فله هو من كتاب كأنه سورة

وكل آية منه سجدة

- كأنما قلب الكاتب القضيبي وطرسه البردة .

- فآثر فيهم كالاقتداح في الزند .

وكالانبجاس من الصلد .

وكالاستلال من الغمد .

والى جانب التشبيه لمجد الكناية ، وهي كثيرة لديه :

- قاموا عن المسلمين بما قعد عنه سائرهم .

- نزلوا بقارعة الطريق ، فلا يسير عليها سائرهم ، وسدت كعوب الرماح أنفهم ، وأثبتوا في معترك الموت أرجلهم .

وقد كُنَى بهذه الصور عن جهادهم المستمر .

وتأمل كيف كنى عن كثرة الفرنجية بهذه الصور .

- إذا قتل المسلمون واحداً في البرّ بعث البحر عوضه ألفاً .

- إذا ذهب بالقتل صف منهم أخلف بدله صفاً .

- فالزرع أكثر من الجداد .

- والشجرة أنمى من الحصاد .

وهناك أمثلة أخرى يمكنك استكشافها .

يضاف إلى هذا حرص الكاتب على تقديم المعاني في لوحات تصويرية يستطرد في رسم دقائقها .

وانظر في هذا مطلع الرسالة وحديثه عن الديوان ثم لوحة كتاب الخليفة وأثره على المجاهدين ، واللوحة التي صور فيها كثرة الفرنجية وتحصنهم .

4.8 والسجع سمة بارزة من سمات أسلوب القاضي الفاضل . ولكنه ليس السجع الثقيل المتكلف .

وقد يتفق السجع مع الجناس في بعض الكلمات مثل :

هذا مع كونهم أنضاء زحوف

وأشلاء حتوف

وضرائب سيوف

- وقد رسمت وجوههم علامات الكفاح .

وأحالت عرضهم أقلام الرماح .

صابرين مصابرين .

مكاثرين مكابرين .

9. لعله لا يغيب عن بالك أننا لا نستطيع استخلاص أسلوب الكاتب من خلال نص واحد ، وبخاصة

في الرسائل ، فإذا أردت أن تعرف أسلوبه حق المعرفة فعليك بقراءة بعض ما ورد من النصوص في صيغ

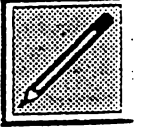
الأعشى ، وغيره من الكتب التي أوردت رسائله ، وكذلك الرجوع إلى ما كتب عنه من دراسات في كتب

تاريخ الأدب .

ولعله لا يغيب عن بالك أيضاً أن الكاتب في هذه الرسالة - وإن لم يغيب عنه الوعي الفني المتفق مع ذوق عصره - فإنه بقي واعياً لصدقه الذي كتب من أجله الرسالة ، وهو إثارة همّة الخليفة العباسي لتجديد العون إلى المسلمين المجاهدين في بلاد الشام ، ولذلك لم تفرق المعاني في أصداف الألفاظ بل بقيت واضحة بينة مؤثرة معبرة .

تدريب (6)

ادرس ظاهرة السجع في رسالة القاضي الفاضل .



سؤال التقويم الذاتي (3)

اذكر أبرز خصائص رسالة القاضي الفاضل التي وردت في هذا القسم من الوحدة .



3. التوقيعات

هي عبارات موجزة بليغة تعود ملوك الفرس ووزرائهم أن يكتبوها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد وشكاواهم ، وقد انتشر هذا الفن في العصر العباسي فكثر من الخلفاء والوزراء . ويبدو أنها عرفت قبل العصر العباسي حيث نجد في كتب الأدب توقيعات لبعض الخلفاء الراشدين ، ولخلفاء بني أمية .

وقد كانت هذه التوقيعات تشيع في الناس ، ويكتبها الكتاب ويحفظونها ، وقد سميت الشكاوى المقدمة بالقصص ، لأنها تحكي قصة الشاكي ، وسميت بالرقاع تشبيهاً لها برقاع الثياب ؛ ودارت في الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أثرت عن كل خليفة عباسي ، وعن كل وزير كبير . ومن أبرز الوزراء الذين رويت توقيعاتهم جعفر بن يحيى البرمكي .

وبين يديك نماذج من التوقيعات أرجو أن تعينك على تمثّل صورة هذا الفن ، ومحاولة إدراك خصائصه .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كتب إليه سعد بن أبي وقاص في بنيان يبنيه ، فوَقَّع في أسفل كتابه : ابن ما يُكَنُّكَ من الهواجر وأذى المطر .

ووقع إلى عمرو بن العاص : كن لرعيّتك كما تحبُّ أن يكون لك أميرك .

عثمان بن عفان رضي الله عنه

وقع في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بوجء أعناقهم : (فإن عصوك فقل إنني بريء بما تعملون) .

ووقع في قصة رجل شكّا عبيلة عليه : قد أمرنا لك بما يُقيمك ، وليس في مال الله فضل للمسرف .

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

وقع إلى طلحة بن عبيد الله : في بيته يؤتى الحكم .

ورقع في كتاب جاءه من الحسن بن علي رضي الله عنه : رأيُ الشيخ خير من مشهد الغلام.

ورقع في كتاب سلمان الفارسي - وسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة ؟ - : يحاسبون كما يرزقون ..

عبد الملك بن مروان

ورقع في كتاب أتاه من الحجاج [يشكو إليه نفرأ من بني هاشم ويُغريه بهم] جنّبي دماء بني عبد المطلب ، فليس فيها شفاءً من الطلب .

وكتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم ، ويستأذنه في قتل أشرفهم ، فوقع له : إن من يُمن السائس أن يأتلف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون .

ورقع في كتاب الحجاج يخبره بقوة ابن الأشعث : بضعفك قوي ، ويخرقك طلع .

سليمان بن عبد الملك

كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان يتهدّده بالخلع ، فوقع في كتابه :
زعم الفرزدق أن سيقتلُ مرّعا * أبشر بطول سلامة يا مرّعا
ورقع في كتابه أيضاً : العاقبة للمتقين .

عمر بن عبد العزيز

كتب بعض العمال إليه يستأذنه في مرمة مدينته ، فوقع أسفل كتابه : ابنها بالعدل ، ونقّ طرفها من الظلم .

وإلى بعض عماله في مثل ذلك : حصّنها ونفسك بتقوى الله .

وإلى رجل ولاه الصدقات ، وكان دميماً فعدل وأحسن : (ولا أقولُ للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً) .

وكتب إليه صاحب العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها ، فوقع له : أرض لهم ما ترضى
لنفسك ، وخذ بجرانهم بعد ذلك .

والى عدي بن أرطاة في أمر عاتبه عليه : إن آخر آية أنزلت (واتقوا يوماً ترجعون فيه
إلى الله) .

السفاح

كتب إليه جماعة من أهل الأنبار يذكرون أن منازلهم أخذت منهم وأدخلت في البناء الذي
أمر به ولم يُعطوا أثمانها ، فوقع : هذا بناء أسس على غير تقوى ثم أمر بدفع قيم منازلهم
إليهم .

ودقع في كتاب أبي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط : إن حلمك أفسد علمك ،
وتراخيك أثر في طاعتك ، فخذلي منك ، ولك من نفسك .

ودقع إليه في ابن هبيرة بعد أن راجعه فيه غير مرة : لست منك ولست مني إن لم تقتله .

أبو جعفر

ودقع في كتابه إلى عبد الله بن علي عمه : لا تجعل للأيام في وفيك نصيباً من حوادثها .

ودقع إليه أيضاً : (ادفع بالتي هي أحسن فإن الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما
يلقأها إلا الذين صبروا وما يلقأها إلا ذو حظ عظيم) فاجعل الحظ لك دوني يكن لك .

ودقع إلى عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت فاشكبناك ، وعتبت فاعتبناك ، ثم خرجت
عن العامة فتأهب لفراق السلامة .

والى أهل الكوفة وشكوا عاملهم : كما تكونون يؤمر عليكم .

والى قوم تظلموا من عاملهم : (لا ينال عهدي الظالمين) .

وفي قصة رجل شكوا عيلة : سل الله من رزقه .

وفي قصة رجل سأله أن يبني بقره مسجداً فإن مصلاه على بعد : ذلك أعظم لشوابك .

- وفي قصة رجل قطعت عنه أرزاقه : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما
يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) .
- وفي قصة رجل شكى الدين : إن كان ديتك في مرضاة الله قضاء .

هارون الرشيد

1. وقع إلى صاحب خراسان : داو جرحك لا يتسع .
2. وإلى عامله على مصر : احذر أن تخرب خزانتي وخرانة أخي يوسف فيأتيك مني ما لا
قبَل لك به ، ومن الله أكثر منه .
3. ووقع في قصة رجل من البرامكة : انبته الطاعة وحصدته المعصية .
4. وإلى عامله على فارس : كن مني على مثل ليلة البيات .
5. وإلى عامل خراسان : إن الملوك يؤثر عنهم الخزم .
6. وإلى خزيمة بن خازم إذ كتب إليه أنه وضع السيف حين دخل أرض أرمينية : لا أم لك!
تقتل بالذنب من لا ذنب له ؟
7. وفي قصة محبوس : من لجأ إلى الله نجى .
8. وفي قصة متظلم : لا يجاوز بك العدل ، ولا يقصر بك دون الإنصاف .
9. وإلى صاحب السند إذ ظهرت العصبية : كل من دعا إلى الجاهلية تعجل إلى المنية .

جعفر بن يحيى

1. وقع في قصة محبوس : (لكل أجل كتاب) .
2. وفي مثله : العدل يؤتق ، والثروة تطلقه .
3. وفي قصة متنصح : بعض الصدق قبيح .
4. وفي رجل شكى بعض أعماله : قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ؛ فإمّا عدلت ؛ وإمّا
اعتزلت .

5. وفي قصة رجل شكا بعض خدمه : خذ باذنه ورأسه فهو مالك .
6. وإلى عامل فارس في رجل كتب إليه بالوصاة : كن له كأبيه لو كان مكانك .
7. وإلى عامل مصر في رجل من بطانته يوصي : إنه رغب إلى شعيبك فارغب في اصطناعه.
8. وفي قصة متظلم من بعض عماله : إنني ظلمتك دونه .
9. وفي قصة محبوس : الجناية حبسته والتربة تطلقه .
10. وإلى قوم : عين الخليفة تكلؤكم ونظره يعمكم .
- (ابن عبيد ربه ، 4 : 256 - 270)

1. لعلك تلاحظ أن أبرز صفة للتوقيعات هي :

1) الإيجاز .

2) الوضوح .

2. بعض التوقيعات يسير بين الناس مثلاً ، وقد يكون كاتب التوقيع هو صاحبه ، أو مستخدماً له .

ومن ذلك :

علي - رأي الشيخ خير من مشهد الغلام .

ابراهيم - كما تكونون يؤمر عليكم .

علاء ربه - من لجأ إلى الله نجأ .

3. كثير من التوقيعات آيات أو بعض آيات ، وفيما أوردته لك من التوقيعات نماذج كثيرة .

4. استخدم الشعر في التوقيعات .

5. يلاحظ أن التوقيع محكم السبك ، لا تكاد تستغني عن كلمة من كلماته ، وهو يجري من غير

تكلف في الأسلوب ، وبدل على حضور البديهة ، وبقظة الذهن ، وبراعة التعبير .

6. إذا طال التوقيع ظهر في بعضه السجع :

- إن من يمن السانس أن يأتلف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون .

- شكوت فأشكيناك ، وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت عن العامة ، فتأهب لفرار السلامة .

عسى
برحمتي
- قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما عدلت وإما اعتزلت .

7. لا يخفى عليك أن التوقيع الناجح هو الذي يدل على استيعاب كاتبه للقضية ، وإجابته عنها

الإجابة الوافية الشافية .

نشاط

ارجع إلى كتاب العقد الفريد ، واستخرج أمثلة أخرى من التوقيعات ينجلي فيها ما يلي :

أ- استخدام الشعر .

ب- استخدام جمل هي أمثال أو حكم .

ج- استخدام جمل يتجلى فيها السجع .



أسئلة التقويم الذاتي (4)

عرف بالتوقيعات واذكر أبرز خصائصها .



أرجو أن تكون قد تبينّت من درساتك لهذه الوحدة أن الرسائل ثلاثة أنواع :

- 1) رسالة ديوانية : تصدر عن ديوان الرسائل ، في موضوعات تتصل بالدولة وشؤونها .
- 2) رسالة شخصية : تصدر من شخص إلى شخص آخر لا تربطه بها علاقة رسمية ، ويكون موضوعها ذا علاقة بما بينهما من صلة صداقة أو قرابة . وقد ترتقي الرسالة لتصبح نصاً أدبياً يرتفع عن خصوصية العلاقة إلى عمومية الآفاق الإنسانية .
- 3) رسالة أدبية : وهي رسالة يكتبها شخص ما في موضوع محدد ، لا تتسع لتصبح كتاباً كبيراً ، فهي أشبه بالمقالة أو البحث القصير .

كما أرجو أن تكون قد تبينّت أن فن كتابة الرسائل قد تطور تطوراً واسعاً منذ العهد النبوي حتى القرن السابع الهجري . فقد بدأت موجزة بعيدة عن الزخارف البديعية ، وذلك لتأدية المعنى الذي كان له الموقع الأعلى في ذهن كاتب الرسالة . ثم أخذ الأمر يتطور ليبدى كل كاتب قدرته الذاتية ، وتميّزه عمّن سواه من الكتاب وكان الأمر البارز في تطور كتابة الرسائل هو التطور في شكل الرسالة ، وفي أسلوبها وبخاصة في مجال البديع وألوانه .

كذلك لعله لم يغيب عن بالك أن الرسالة قد تنوّعت موضوعاتها وبخاصة في مجال الرسالة الشخصية التي تناولت كثيراً من موضوعات الشعر .

5. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية

ستدرس في الوحدة التالية فناً آخر من فنون النشر القديم ، هو فن الخطابة . وستتعرف من خلال ذلك تطور فن الخطابة عند العرب عبر مختلف العصور من حيث الموضوعات وعوامل ازدهاره ، وأشهر نصوصه وأبرز الخطباء . وكما كانت الحال في دراستنا للرسائل سيكون الأمر في دراسة الخطابة ، من خلال النصوص التي ستكون مفتاحاً لمعرفة كل ما ينبغي معرفته بشأن الفن النثري .

6. إجابات التدريبات

تدريب (1)

أبرز الخصائص في الرسالة النبوية :

- 1) غلبة الهدف الوظيفي على الهدف الفني .
- 2) الإيجاز والبعد عن المقدمات المطوّلة .
- 3) الوضوح ، حيث غلب على الرسائل النبوية استخدام الألفاظ المألوفة ، إلا ما ندر .
- 4) تنوع أساليب الافتتاح في الرسائل النبوية ، حسب المرسل إليه ، وكذلك السلام الختامي .

تدريب (2)

أبرز خصائص الرسالة العمرية :

- 1) المحافظة على مطلع الرسالة كما كان في العهد النبوي .
- 2) ظهور مصطلح جديد في مطلع الرسالة :
- من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .
- 3) الإيجاز مع إعطاء المعاني حثها .
- 4) التأثر بأسلوب القرآن الكريم لفظاً ومعنى .
- 5) البعد عن التأنق اللفظي مع كون الأسلوب مشرقاً معبراً مؤثراً .

تدريب (3)

القيمة الإنسانية لرسالة عبد الحميد إلى أخيه :

1. هذه الرسالة فريدة في بابها ، ومن النصوص الأدبية القليلة التي تصوّر مشاعر الآباء تجاه الأبناء .

فهي وثيقة إنسانية ترتقي من خصوصية الحالة إلى عموم الموقف . فلعل كل والد رزق ببيكره يجد فيها صورة من مشاعره تجاه الولد ، من حيث بيان سبب الرغبة في الولد وأثره في حياته ، حيث يأنس به ، وتتولى عنه الوحشة ، ويحسّ بامتداد الوجود ، ويكفي أنه ذكر أن نعمة الولد أعظم نعم الله عليه .

ويصور لنا ما يحس به كل أب من مشاعر الخوف على الطفل الرضيع ، وهو لم يقو عوده بعد .. وهو عرضة لما يُلم بالأطفال من الأمراض .

ويصور لنا لهفة الوالد على ولده في لمسه وشمه وضمه .

إن هذه الرسالة كما ذكرت وثيقة إنسانية يجد فيها كل أب صورة نفسه ، ومشاعره تجاه ولده .

2. دلالة الرسالة على شخصيته

هذه رسالة كاتب مقرب من خليفة ، فهر في موقع عالٍ من مواقع المسؤولية . ومن عادة أصحاب المراكز العالية الظهور أمام الناس في صورة بعيدة عن البوح بالمشاعر ، أو كشف المكنون في الصدر وبخاصة في النشر . وهذه الرسالة تكشف لنا الوجه الآخر لعبد الحميد الكاتب ، وجه الإنسان الأب بكل لواعجه وعواطفه ، وضعفه وخوفه ، إننا نقترّب منه ويقترب منا ، ونحسّ أننا نقف على صعيد واحد . على عكس ما يحدث عندما نقرأ كثيراً من الرسائل الدبلوماسية المصنوعة ، التي نحسّ بيننا وبينها فاصلاً .. ومن خلال هذا النص وما أشبهه نستكشف الصورة الحقيقية للإنسان .

تدريب (4)

1. ذم الجاحظ للزمان هو في الحقيقة ذم لأهله ، فالزمان هو وعاء الأحداث ، التي هي أفعال البشر . إن اختلال الأحوال ، وانقلاب الموازين ، وضعف الأخلاق ، كل ذلك دفع الجاحظ إلى ذم الزمان .
2. ذم الزمان لدى الجاحظ ليس على إطلاقه ، ففي الوقت الذي نجده بذم زمانه نجده يمدح الماضي ، حيث كانت الأخلاق مفتاح كل خير ، فصارت في زمانه الأخلاق السيئة أو الطلاح مفتاح النجاح ! ويبدو أن الجاحظ بلغ به الضيق حداً جعله ينظر إلى واقعه نظرة سوداء ، وإلى الماضي غير المحدد لديه نظرة مشرقة . ولكن عليك أن تتنبه إلى أن الحاضر مهما يكن فيه من سوء فلا يخلو من خير ، وأن الماضي مهما يكن خيراً فلم يخل من شر وسوء .

3. الصورة التي ترسم لدينا عن شخصية الجاحظ أو نفسيته صورة في غاية الضيق ، أو الأزمة .
إننا أمام إنسان ضاقت به الدنيا ، فلم يعد يرى فيها شيئاً مريحاً ، وأن الموازين كلها فيها مقلوبة .
وهو في موازينه الجدلية بين الماضي والحاضر يقنع نفسه ويحاول إقناع قارئ رسالته . ولكنه يتخلى
عن هذه النزعة العقلية ليقع في قاع الأزمة ، عندما يتمنى أن تقوم الساعة ، وتنتهي الدنيا ،
ويتمنى الرحيل عنها . إنها صورة بعيدة عن صورة الجاحظ المرح الخفيف الظل التي تتجلى في
بعض نتاجه وبالذات في كتابه البخلاء . ولعله كتبها في أواخر عمره ، عندما تكاثرت عليه
الأمراض وضاقت به الدنيا ، فانعكست حاله في رسالته .

تدريب (5)

الموازنة بين رسالتي عبد الحميد الكاتب وابن العميد :

1. من حيث الموضوع : موضوع الرسالتين يدور حول حدث الولادة ، ولكن من زاويتين مختلفتين .
أما رسالة عبد الحميد فهي صادرة عن الوالد الذي رزق الغلام بعد طول انتظار ، فهو يصور لنا
مشاعره ، ويكشف لنا عن مكنون نفسه . وأما ابن العميد فإنه المهني بولادة توأمين ! ونحس بأن
المجاملة بالعبارات المنمقة هي المسيطرة على رسالته . ونراها تنصب على مدح عضد الدولة الذي
رزق بالمولودين .

2. من حيث الأسلوب : نلاحظ أن التكلّف والصنعة طاغية على رسالة ابن العميد ، فالمعاني
محدودة ، والعواطف محصورة ، ولذلك نراه يفرق في التلوين اللفظي .

" وعرفه الله السعادة فيما بشر عبده من طلوع بدرين ، هما انبعثا من نوره ، واستنارا من دوره ،
وحقاً بسريره " فالحديث هنا عن عضد الدولة أكثر من كونه حديثاً عن الولدين ، ثم تأمل الصورة نجد أنها
متكلفة بعيدة عن حرارة الشاعر التي نلمسها لدى عبد الحميد ، في كل جملة من جملة ، أو صورة من
صوره .

تدريب (6)

ظاهرة السجع في رسالة القاضي الفاضل

يبدو أن المتأخرين من الكتاب قد وجدوا مجالاً للإبداع في مجال البديع .. ومن أبرز مظاهره السجع .
وإذا وقفنا عند الفترة الأولى - نموذجاً لما يمكن أن يكون في دراسة الفقرات الأخرى - وجدنا ما يلي :

1. يغلب على السجع أن يكون ثنائياً : أي يكون بين جملتين : مثلاً (مطلقاً في الشكر لعنانه ، وفي الحرب للسانه)
2. وردت ثلاث سجعات في عدد من المواضع :
" فآثر فيهم كالاقتداح في الزند ، وكالانبجاس من الصلد ، وكالاستدلال من الغمد " .
3. وردت أربع سجعات :
" .. مسترهناً به لعزائمهم ، مستجزلاً به لمغانهم ، مستثبتاً به لملازمهم ، مستدعياً به الخدمة للموازمهم .
4. من ظواهر السجع في الرسالة : لزوم ما لا يلزم ، كأن يكون السجع في عدة حروف من الكلمات ، كما هو واضح في المثل الوارد في الفقرة الثالثة وفي مثل السجعات التالية :
أسبيل - أجيل - الأمان - الإيمان ، أطعنا ، استطعنا .
5. في سجعه محاولة للموازنة - توفيراً لجوّ إيقاعي خاص ، من خلال الموازنة بين الجمل أو أجزائها الأخيرة .
- انضاء زحرف ، أسلاء حتوف ، ضرائب سيرف "
6. استخدم القاضي الفاضل الجناس مع السجع في بعض المواضع .
" صابرين مصابرين ، مكائرين مكابرين ، مناضلين مناظرين " .
" قد قامرا عن المسلمين بما قعد عنه سائرهم ، ونزلوا بقارعة القراع فلا يسير عليها سائرهم " .

7. المصادر والمراجع

1. الحصري ، أبو اسحاق : إبراهيم بن علي ، زهر الآداب ، دار الجليل ، بيروت .
2. حمادة ، محمد ماهر حمادة ، وثائق الحروب الصليبية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1986 .
3. الزركلي ، خير الدين ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1990 .
4. سلام ، محمد زغلول ، الأدب في العصر الأيوبي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1983 .
5. صفوت ، أحمد زكي ، جمهرة رسائل العرب ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان .
6. ضيف ، شوقي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة .
7. ضيف ، شوقي ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف القاهرة .
8. ضيف ، شوقي ، العصر العباسي الثاني ، دار المعارف ، القاهرة .
9. ضيف ، شوقي ، عصر الدول والإمارات ، الجزيرة العربية ، العراق ، إيران ، دار المعارف ، القاهرة .
10. ضيف ، شوقي ، عصر الدول والإمارات ، مصر - الشام ، دار المعارف ، القاهرة .
11. ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف ، القاهرة .
12. الطنطاوي ، علي وناجي ، أخبار عمر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1983 .
13. عباس ، إحسان ، عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، دار الشروق ، عمان ، 1988 .
14. ابن عبد ربه ، أحمد ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت .
15. التلقشندي ، صبح الأعشى ، منشورات وزارة الثقافة بمصر ، القاهرة ، 1963 .
16. مبارك ، زكي ، النثر الفني في القرن الرابع ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت .

الوحدة الثالثة

الخطابيّة

المحتويات

95 المقدمة	1.1
95 التمهيد	1.1.1
95 الأهداف	2.1
96 أقسام الوحدة	3.1
96 قراءات مساعدة	4.1
96 وسائل مساندة	5.1
97 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة	6.1
98 الخطابة في صدر الإسلام	2.
99 1.2 موضوعات الخطابة وأنواعها	
100 1.1.2 الخطب الدينية	
102 2.1.2 خطب التذب للجهاد	
103 3.1.2 الخطب السياسية	
105 4.1.2 خطب المحافل والوفود	
106 2.2 أشهر خطباء صدر الاسلام	
111 3. الخطابة في العصر الأموي	
111 1.3 عوامل ازدهارها	
115 2.3 أبرز موضوعات الخطابة في العصر الأموي	
115 1.2.3 الخطابة السياسية	
121 2.2.3 الخطابة الدينية	
124 3.3 أعلام الخطابة في العصر الأموي	

124 1.3.3 زياد بن أمية
127 2.3.3 الأحنف بن قيس
128 3.3.3 الحسن البصري
131 4. الخطابة في العصر العباسي
131 1.4 موضوعات الخطابة
131 1.1.4 الخطابة السياسية
133 2.1.4 الخطابة الحفلية أو خطابة الرفادة
134 3.1.4 الخطابة الدينية
135 4.1.4 خطب الجهاد
136 2.4 الخصائص الفنية للخطابة في العصر العباسي
137 3.4 أسباب ضعف الخطابة العباسية بعد المئة الأولى
138 4.4 أشهر الخطب والخطباء في هذا العصر
142 5. الخطابة في عصر الحروب الصليبية
142 1.5 موضوعات الخطابة في هذا العصر
142 7.1.5 المواعظ والابتهالات
143 2.1.5 خطب الجهاد
144 3.1.5 خطب تخليد الانتصارات وتمجيدها
153 6. الخلاصة
154 7. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية
155 8. إجابة التدريبات
159 9. المصادر والمراجع

1.1 التمهيدي

عزيزي الطالب، أنت، الآن، مدعو إلى دراسة الوحدة الثالثة من مقرر « فنون النثر العربي القديم » ، وموضوعها « الخطابة » ، بعد أن كنت فرغت من دراسة الـوحدتين السابقتين من المقرر . ولا أظن أننا بحاجة إلى تكرار ما قلناه في الوحدة الأولى عن الخطابة في العصر الجاهلي . فما عليك إلا أن تعود إليه حتى تستطيع الوقوف على تطور هذا الفن النثري عبر العصور الأدبية المختلفة إن من حيث الموضوع أو من حيث الشكل والبناء . وإخالك تعلم أن الخطابة في صدر الإسلام وما تلاه من عصور قد أصابها تطور ابتعد بها في بعض الأوجه عما كانت عليه في العصر الجاهلي ؛ وذلك نتيجة طبيعية لعوامل موضوعية ستلم بها في ما سيأتي من هذه الوحدة ، إن شاء الله .

ولعلك ، أخي الطالب ، تتفق معي في القول : إن دراسة الخطابة من جوانبها المختلفة مهمة ؛ لأنها تطلعننا على كثير من جوانب تجليات الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والأدبية في العصور المختلفة ؛ الأمر الذي يجعلنا أكثر وعياً بحركة الحضارة العربية الإسلامية التي نسعى إلى فهمها ، لأنها تسهم في تشكيل حضارتنا الحالية .

2.1 الأهداف

وأنتوقع منك ، أخي الطالب ، بعد دراسة هذه الوحدة ، وتنفيذ ما يُطلب إليك منها أن تصبح قادراً على أن :

1. تتعرفُ تطور فن الخطابة عند العرب عبر العصور المختلفة .
2. تتعرفُ تقاليد فن الخطابة عند العرب .
3. تكونُ فكرة واضحة عن عوامل ازدهار الخطابة أو ضعفها في العصور التاريخية العربية .
4. تتعرفُ أهم موضوعات الخطابة عند العرب .
5. تقف على أظهر نصوص الخطب عند العرب .
6. تتعرفُ على أشهر خطباء العرب في العصور المختلفة .
7. تقف على عدد من عيون الخطب العربية .
8. تتأثر بما في هذه الخطب من فصاحة وبيان .

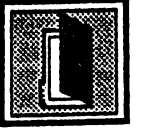
3.1 أقسام الوحدة

وقد جاءت هذه الوحدة موزعة على الأقسام التالية :

1. الخطابة في صدر الإسلام من حيث عوامل ازدهارها ، وموضوعاتها ، وأشهر أعلامها .
2. الخطابة في العصر الأموي : عوامل ازدهارها ، وموضوعاتها ، وأشهر أعلامها .
3. الخطابة في العصر العباسي : موضوعاتها وخصائصها وأشهر أعلامها .
4. الخطابة في عصر الحروب الصليبية : موضوعاتها وخصائصها وأعلامها .

4.1 قراءات مساعدة

ويحسن بك ، أخي الطالب ، أن ترجع إلى غير كتاب من الكتب التالية التي تشمل خطباً في موضوعات مختلفة :



- 1 - البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .
- 2 - العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، شرحه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري .
- 3 - جمهرة خطب العرب ، لأحمد زكي صفوت .
- 4 - الخطابة العربية في عصر الذهبي ، للدكتور إحسان النص .
- 5 - العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف .
- 6 - العصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف .

5.1 وسائل مساندة

6.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

تحتاج في دراسة هذه الوحدة إلى استيعاب ما ورد فيها من القضايا والأفكار بعد أن تديرها في ذهنك وتحسن مناقشتها وتقبلها أو إبداء الرأي فيما لم تقتنع به . ويعينك على ذلك تدبر النصوص ، والرجوع إلى المراجع المقترحة ، والقيام بحل أسئلة التقويم الذاتي والتدريبات ، مستعيناً بخبرة مرشدك .

2. الخطابة في صدر الإسلام

ليس في تاريخ العرب الطويل حدث أبعد أثراً من ظهور الإسلام ؛ لأنه حمل مفاهيم جديدة جعلت العرب ينظرون إلى الحياة بشكل مختلف عما ألفوه في جاهليتهم . فبالإسلام توحد العرب دينياً وسياسياً وأصاب التطور الهائل حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والعقلية . وطبعي أن يتأثر الأدب شعره ونثره بالإسلام وحياته الجديدة . ويُلاحظ أن مظاهر التطور في النثر أظهر منها في الشعر وأوضح . ولعل تطور الخطابة فاق تطور غيرها من فنون النثر؛ لأسباب منها أن الرسول (ص) اتخذ الخطابة أداة للدعوة إلى الإسلام قبل الهجرة وبعدها . وأن الإسلام فرض بعض الخطب كخطب الجمع والأعياد . ومعروف أن الخطابة وسيلة مثلى للاتصال بالناس الذين يُراد استمالتهم والتأثير فيهم ؛ إذ طالما استعان بها الأنبياء والدعاة إلى المذاهب الجديدة . وقد سار الخلفاء الراشدون على نهج الرسول (ص) ؛ فاتخذوا الخطابة وسيلة للاستمالة والإقناع في كثير من المواقف ، ومن ذلك خطبة أبي بكر حين انتقل الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى ، وموقفه يوم السقيفة إذ استطاع في الموقفين أن يرأب الصدع الذي كاد يودي بوحدة الأمة . وسبقه بذلك ، وموقفه من حركة الردة حين أصر على قتال المرتدين ، وخطب في الناس وانتدبهم إلى الجهاد .

ومن يقرأ تاريخ صدر الإسلام ، يلحظ كثرة الأحداث التي تبعث على القول وتدعو إلى الخطابة ؛ ومن ذلك مغازي رسول الله (ص) ، وحركة الردة ، وفتنة عثمان ، واختلاف المسلمين بعد مقتله إذ انقسموا مذاهب وأحزاباً يريد كل منها الخلافة لنفسه ؛ فكانت معركة الجمل ثم كانت معركة صفين . وشهدت هذه الحقبة الزمنية عدداً كبيراً من الخطباء المفوهين . ومن يقرأ أخبار هاتين المعركتين في تاريخ الطبري ، أو في « وقعة صفين » ، أو في كتاب « الفتوح » لابن أعثم ، يلحظ دور الخطابة المهم في استمالة الناس وفي الحض على القتال أو في الدعوة إلى الصلح . فإذا أضفنا إلى ذلك الفتوح الخارجية التي اتسع نطاقها أيام عمر وعثمان استطعنا تقدير مدى الازدهار والتطور الذي أصاب فن الخطابة في هذا العصر .

ولا شك أن نظام الشورى الذي ساد في صدر الإسلام عملاً بقوله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) ، ويقوله تعالى (وشاورهم في الأمر) مما يعين على ازدهار الخطابة ؛ فقد أتاح هذا النظام لأي فرد أن يناقش الخليفة أو الوالي في أي شأن من شؤون الحياة . وكثيراً ما عمد الرسول (ص) إلى هذا الأسلوب . وكان الخلفاء الراشدون لا يجدون حرجاً حين يخالفهم أحد الرأي ؛ بل كانوا يحضون الناس على محاسبتهم ؛ فهذا أبو بكر يقول في أول خطبة له بعد أن بايعه الناس : « أيها الناس ، إني قد وُلّيت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصبتُه فلا طاعة لي عليكم .. » (الطبري ، 1961 ، ج 2 ، ص 450) . وهذا عمر بن الخطاب يقول

من خطبة له : « أيها الناس ، إن أحسنت فأعينوني ، وإن صدفتم فقوموني » ، فيقوم رجل يقول له : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيفنا » . وقد يدلهم الخطب ، وتحار العقول ؛ فتعتقد مجالس للشورى يتبادل فيها القوم الرأي ، ويكون للخطباء دور بارز في القرار الأخير ؛ ومن أمثلة ذلك ما يذكر من انعقاد مجلس للشورى في الكوفة أيام فتنة معركة الجمل ، وقد خطب في هذا المجلس غير خطيب ، فمنهم من دعا إلى نيل الفتنة واعتزالها كأبي موسى الأشعري ، ومنهم من دعا إلى نصرة علي وقتال أصحاب الجمل كالقنقاع بن عمرو (الطبري ، 1961 ، ج 3 ، ص 393) .

ولا ننسى ، أخي الطالب ، ما للقرآن الكريم من أثر كبير في تطور الخطابة والارتقاء بها إن من حيث الموضوع أو من حيث الشكل والأسلوب ، فبمقدار ما كان الخطيب يستلهم أي الذكر الحكيم ويقترب من الأسلوب القرآني بمقدار ما كانت خطبته أشد وقعاً في النفوس ، وأكثر أثراً في الاستمالة . ومن أجل ذلك ، كانوا يسمون الخطبة التي تخلو من التحميد خطبة بتره ، كما كانوا يسمون الخطبة التي تخلو من اقتباس أي القرآن الحكيم والصلاة على الرسول خطبة شوهاة (الجاحظ ، 1948 ، ج 2 ، ص 6) .

وإذا كنا نشك في كثير مما وصل إلينا من خطب الجاهلية ، فإننا نطمئن إلى كثير مما وصل إلينا من خطب صدر الإسلام وما تلاه من عصور ، على الرغم من بعض الوضع في بعض الخطب التي تُنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

تدريب (1)

اذكر ثلاثة من أسباب تطور فن الخطابة في عصر صدر الإسلام .

1.2 موضوعات الخطابة وأنواعها

أخي الطالب ، تعلم أن الإسلام حارب الروح الجاهلية وما تتمخض عنه من عصبية قبلية ومن منافرات ومناظرات . وعد التقوى مقياساً لكرم الإنسان عند الله ، يقول تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . كما حارب الإسلام مؤسسة الكهانة والكهان الذين كانوا يزعمون علم الغيب . ومن أجل ذلك أخذت بعض موضوعات الخطابة القائمة على الروح القبلية تتلاشى ، كما أخذ سجع الكهان يضمحل حتى انقرض . وأصاب تغيير وتحويل كبيران بعض موضوعات الخطابة التي كانت في الجاهلية . ويمكن قسمة الخطابة من حيث موضوعاتها في صدر الإسلام إلى الأقسام التالية :

- موضوعات الخطابة في صدر الإسلام
- ① خطب دينية
 - ② خطب نداء
 - ③ خطب سياسية
 - ④ خطب حماسية
 - ⑤ خطب تحذيرية

1.1.2 الخطب الدينية

مرَبنا ، عزيزي الطالب ، أن الجاهليين عرفوا ضرباً من الخطابة يقصد به الوعظ والإرشاد . وقد درسنا في « الوحدة الأولى » خطبة قُس بن ساعدة الإباضي ممثلة لهذا الضرب من الخطابة . وفي صدر الإسلام ، غلب الطابع الديني على الخطب . ولو رجعنا إلى خطب الرسول (ص) وإلى خطب خلفائه الراشدين ، لوجدنا غلبة الطابع الديني عليها ؛ فجلها في هداية المسلمين ووعظهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح أمرهم في الدنيا والآخرة . وليس غريباً أن تسود الخطب الدينية في هذا العصر ؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بالدين الجديد فهم بحاجة إلى من يبين لهم أحكامه وشرائعه .

ولم يقف هذا الضرب من الخطب في هذا العصر عند الجزيرة العربية ، بل تعدى ذلك فأخذ يحل مع المسلمين في كل بلد فتحوها ، وكان ذلك من عوامل ازدهار هذا الضرب من الخطابة ونموه . وكان الخلفاء يتفننون في صياغة الخطبة مستلهمين القرآن الكريم ومسترشدين بخطابة الرسول الكريم (ص) ، ومن ذلك ما أثار عن عبد الله بن مسعود في إحدى خطبه يعظ أهل الكوفة ، ومنها قوله : « أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملّة إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وأحسن السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم . وشرا الأمور محدثاتها ، وخير الأمور عزائمها .. سباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية .. أحسن الهدى هدى الأنبياء ، أقيح الضلالة الضلالة بعد الهدى ، أشرف الموت الشهادة . من يعرف البلاء يصبر عليه . من لا يعرف البلاء ينكره » (المحافظ ، 1948 ، ج 2 ، ص 56 - 57) . ومنه ما أثار عن عتبة بن غزوان بعد فتح الأبلّة ، إذ قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي (ص) ثم قال : « أما بعد ، فإن الدنيا قد تولت حذاء مديرة ، وقد أذنت أهلها بصرم ، وإنما بقي منها صبابة كصبابة الإناء يصطبها صاحبها . ألا وإنكم منقولون منها إلى دارٍ لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى في النار من شفيرها فيبهري سبعين عاماً لا يدرك لها مقراً . والله لتُسلن . أفعجبتم ولقد ذكر لنا أن بين مصراعين من الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه وقت وهو كظيظ بالزحام . ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما لنا إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا .. فما أصبح اليوم أحدٌ منا حياً إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار . وإني أعوذ بالله من أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً .. » (صفوت ، 1933 ، ج 1 ، ص 232) .

أرأيت ، أخي الطالب ، إلى خطبة هذا الفاتح العظيم كيف تستلهم المعاني الإسلامية وتتعلمها ، فهو المنتصر يُذكر جُنده ألا يُؤخذوا بروعة النصر وغنائه ، وألا تكون الدنيا أكبر همهم ، فعليهم أن يستشعروا الآخرة دائماً ، فالباقي من الدنيا صبابة كصبابة الإناء ، إذا ما قيس بالآخرة التي لا زوال لها . وهو لا يربأ بنفسه عن تذكيره جنده ونفسه بما كان عليه أمره قبل أن يعز الإسلام . فها هو وصحبه بعد أن كانوا مع رسول الله (ص) لا يجدون غير ورق الشجر أصبحوا الآن أمراء على الأمصار المفتوحة ؛ غير أن هذا التحول الهائل

الذي أصابهم لم يلههم عن التقوى ، ولم يُعم بصائرهم عن كونهم صغاراً أمام عظمة الله : « وإني أعوذ بالله من أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً » . وكأني به بحث جنده أن يستصغروا أنفسهم ، دائماً ، أمام عظمة الله ؛ وبذلك يكون همهم الأول رضى الله وتقواه ؛ فلا يُؤاخذون بعزة النصر ، ولا يجزعون من ذل الهزيمة ما داموا يتبعون هدى الله ورسوله . ولعلك ، أخي الطالب ، تلحظ أن هذه الخطبة تدور حول فكرة واحدة يحشد لها صاحبها ما يؤكدها ، مستغلاً مناسبة النصر والفتح .

ومن الخطب الدينية المهمة خطب أيام الجمع والعيدين ثم مواسم الحج . وهي خطب أصبحت لها تقاليد وأصول مقررة ، إذ هي فرض مكتوب على المسلمين أينما كانوا . ومن هذه الأصول أن خطبة الجمعة تسبق الصلاة ، وأن الصلاة تسبق خطبة العيدين . ومن تقاليد هذه الخطب التي أرساها الرسول (ص) أن الخطيب ينف ، في العادة ، على منبر أو نشز من الأرض وقد اعتمد على خوس أو سيف أو عصا ، ويُقبل على الناس مسلماً . وتبدأ الخطبة الأولى في الجمع بحمد الله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ويذكر ابن قتيبة أنه تتبع خطب الرسول (ص) فوجد أوائل أكثرها : « الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسها ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » (الدينوري ، 1925 ، ج 2 ، ص 231) . ومعروف أن خطبة الجمعة خطبتان . وفي العادة ، يتلو الخطيب في الخطبة الأولى شيئاً من القرآن الكريم له علاقة بموضوع الخطبة . وإذا انتهى الخطيب يجلس قليلاً ، ثم يقوم للخطبة الثانية التي يكثر فيها من الدعاء . ويُذكر أنه كان آخر دعاء أبي بكر ، في الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم لقاك » ، كما يذكر أن آخر دعاء عمر كان : « اللهم لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني في غرة ، ولا تجعلني مع الغافلين » (ابن عبد ربه ، 1982 ، ج 3 ، ص 222) . أما خطب العيدين ، فلا تُفتتح بالحمد لله ، إنما تُفتتح بالتكبير ، فيكبر الخطيب في أولها سبع تكبيرات ، وفي ثانيتهما خمس تكبيرات .

سؤال التقويم الذاتي (1)

اذكر بعض التقاليد التي أرساها الرسول (ص) للخطب الدينية

تدريب (2)

اذكر الفكرة الرئيسة في خطبة عتبة بن غزوان بعد فتح الأبلّة .

2.1.2. خطب الندب للجهاد والحض على القتال

مُربك ، أخي الطالب ، في الوحدة الأولى ، أن الجاهليين عرفوا الخطب التي تحض على القتال . ولعلك حفظت شيئاً من خطبة هانيّ قبيصة الشيباني يحرض قومه على القتال يوم ذي قار . ومعروف أن خطب الجاهلية في الحض على القتال اقتصرت بمصلحة القبيلة وعلاقاتها بغيرها من القبائل أو الممالك المجاورة . فقد تُغير قبيلة على أخرى لسبب أو لآخر كطلب ثار ، أو تنازع على رياسة ، أو على موارد عيش؛ مما يدعو إلى الخطابة قبل الغارة أو في أثنائها أو بعدها .

أما في الاسلام ، فكان الجهاد وهو مبدأ عام يعني الانتصار لدين الله ، والقتال في سبيله . وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة إن وُطئت أرض المسلمين .

ولما بدأت الفتوح الاسلامية وضرب الاسلام بجرائه كان لا بد من الخطابة ، فبرز خطباء يحثون المسلمين على الجهاد في سبيل الله ، ويرغبونهم في قتال المشركين ابتغاء الثواب والنصر . « ولا نغلو إذا قلنا إن بلداً من بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يُفتح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد القواد ، كخطبة المغيرة بن شعبه في القادسية ، وخالد بن الوليد في اليرموك ، وعتبة بن غزوان في فتح الأبلّة » (ضيف ، 1963 ، ص 108) . وكثيراً ما كان الخلفاء الراشدون والولاة يخطبون في الحض على الجهاد : ومن ذلك خطبة أبي بكر التي قالها حين ندب الناس لفتح الشام ، ومنها : « ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله ، كما ينبغي للمسلم أن يُحب أن يُخصّ به ، هي التجارة التي دلّ الله عليها ، ونجى بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة » (صفوت ، 1933 ، ج 1 ، ص 189) . وخطب عمر يوم ندب الناس لفتح بلاد فارس ، ومن خطبته هذه قوله : « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطّراء المهاجرون عن موعود الله ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، أين عباد الله الصالحون ... » ؟ (صفوت ، 1933 ، ج 1 ، ص 222 - 223) .

ولما تشعب الأمر بالمسلمين عقب مقتل عثمان واشتدت الفتن فكانت معركة الجمل ثم معركة صفين أو التحكيم ، أخذ خطباء كل فريق يحثون أتباعهم على قتال الفريق الآخر ، وكلُّ يرى أنه على الحق أو الأقرب إليه ؛ وهذا عدواً قتال خصومهم ومخالفهم جهاداً في سبيل الله . وسنأتي بأمثلة على ذلك في البابة التالية المخصصة للخطب السياسية .



حاول أخي الطالب ، أن تتبين الفروق بين خطب الجاهلية وخطب عصر صدر الإسلام في الحوض على القتال .

3.1.2 الخطب السياسية

عزيزي الطالب ،

لما جاء الإسلام ، أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحل محلها فخر الأمة ، (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ؛ ولذا أصبح للعرب دولة منظمة يعلن فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي وعلى التحالفات القبلية ، وعلى كل شيء . وكان على رأس هذه الدولة حاكم واحد يبعث الولاة والعمال إلى الأمصار المختلفة ، ويسير أمور الدولة إن في سلمها أو في حربها . وكان الرسول (ص) مؤسس هذه الدولة؛ أرسى قيمها الروحية ، وقواعدها الاجتماعية ، ومبادئها الإنسانية . وكان من عادة خلفائه وولاتهم أن يستهل كل واحد منهم حكمه بخطبة توضح معالم السياسة التي سيتبعها في تدبير أمور الرعية ؛ « فكانت هذه الخطب الصورة الأولى للخطابة السياسية عند العرب » (النص ، 1963 ، ص 38) .

ويعيد وفاة الرسول (ص) ، اختلف المسلمون حول الخلافة فيمن تكون ؛ أفي المهاجرين أم في الأنصار؛ فكانت خطب السقيفة من أوائل الخطب السياسية التي تعالج ، بشكل أو بآخر ، بعض شؤون الحكم والخلافة . وانتهى الأمر بأن تكون الخلافة في قريش وأن يتولى أبو بكر أمرها . ولكن كثيراً من العرب ارتدوا وامتنعوا عن أداء الزكاة ؛ فكانت حركة الردة باعثاً قوياً على القول ، فكم من خطيب وقف يحرض قومه على الثورة أو يحضهم على الطاعة .

وفي الفتنة التي أودت بحياة عثمان ، كثرت الخطب المؤيدة أو المعارضة . ويتولى علي الأمر فيقضي جل سنوات خلافته القليلة في محاربة منائيه ؛ فمن معركة الجمل إلى معركة صفين فالتحكيم ، ثم إلى منازلة الخوارج . وينتهي الأمر بمقتل علي غيلة على يد رجل من الخوارج ، ثم يتنازل الحسن بن علي عن الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ؛ فيبدأ العصر الأموي . وينقسم المسلمون أحزاباً وطوائف يدعي كل منها أنه صاحب الحق في الخلافة . وفي كل ذلك ، تسير الخطب السياسية جنباً إلى جنب مع قعقة السلاح . وتختلط في هذه الخطب ، المعاني السياسية بالمعاني الدينية . وكل فرقة يستلهم خطبائها أي الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف لتأكيد حقها السياسي في الخلافة وتولي الأمر .

وستقرأ معاً ، أخي الطالب ، خطبة ممثلة للخطب السياسية ، هي خطبة علي بأخرة من حياته حين رأى

تقاعس بعض جنده أمام غارات جنود معاوية على أطراف العراق ؛ وهي تسير على النحو التالي كما جاءت في كتاب « البيان والتبيين » :

« أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ؛ فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولتي واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، حتى شئت عليكم الغارات . هذا أخو غامد من قد وردت خيله الأنبار ، وقتل حسّان - أو ابن حسّان البكري - ، وأزال خيلكم عن مسالحها ، وقتل منكم رجالاً صالحين ، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المسلمة والأخرى المعاهدة ، فينزع حجلها وقليبها وزعاتها ثم انصرفوا وافرین ، ما كُلم رجل منهم كلمة ، فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان عندي به ملوماً ، بل كان به عندي جديراً . فيا عجيباً من جدّ هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلهم عن حَقِّكم . فقبحاً لكم وترحاً ، حين صرتم هدفاً يُرمى ، وفيئاً ينتهب ، يغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزون ، ويُعصى الله وترضون ، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم : حَمارة القيظ ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم : أمهلنا ينسلخ عنا القَر . كل ذا فراراً من الحر والقَر . فإذا كنتم من الحر والقَر تفرّون ، فأنتم والله من السيف أفرّ ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام الأطفال وعقول ربّات الحجال ، وددتُ أن الله قد أخرجني من بين ظهرائكم وقبضني إلى رحمته من بينكم . والله لو ددّتُ أني لم أركم ولم أعرفكم . معرفةً والله جرّتُ ندماً . قد ورثتم صدري غيظاً ، وجرّعتُموني الموت أنفاساً ، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش : ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم ، وهل منهم أحد أشدُّ لها مراساً أو أطول لها تجرية مني ؟ لقد مارستها وما بلغتُ العشرين ، فهأنذا قد نيّفت على الستين ولكن لا رأي لمن لا يُطاع » (الجاحظ ، 1948 ، ج 2 ، ص 53 - 55).

ولعلك تلاحظ ، أخي الطالب ، بلاغة علي الخطابية ، وقدرته على الإقناع في لفظ جزل وعبارة فصيحة من غير قصد إلى التكلف ، بل جرياً مع الطبع والفترة . كما تلاحظ فهماً عميقاً لمفهوم الجهاد . والخطبة تمثل صرخة رجل خبر الحروب ومارسها ، وضجّ من تقاعس أصحابه عنها وخذلانهم إياه ؛ ولذا لجأ إلى التأنيب والتقرّيع وضرب الأمثلة المأخوذة من واقع الحال ليؤكد ما ذهب إليه من رأي فيهم . كما أنه لجأ إلى الموازنة بين أصحابه وأصحاب خصمه من الجدّ والطاعة . وهي موازنة تشد من أزر الفكرة التي تدور حولها الخطبة .

اذكر ثلاث حوادث كانت سبباً في كثرة الخطب في صدر الإسلام .

4.1.2 خطب المحافل والوفود

عرف العرب في جاهليتهم هذا الضرب من الخطب وخصوصاً في بلاط المناذرة والغساسنة حيث كانت تتردد وفود العرب فيلقي الشعراء والخطباء نثراً بين يدي الأمراء . كما كانت الوفود تسعى للسلم بين القبائل المتناصرة ؛ فيقال الشعر وتلقى الخطب .

وفي الإسلام ، كشرت موجبات هذا الضرب من الخطبه ؛ إذ كانت القبائل تبعث وفودها إلى الرسول (ص) وخلفائه ، فيخطب خلفاؤها معلنين إسلامهم ، أو مفاخرين ، أو مهينين ، أو معزّين ، أو مادّين يد النصره . وقد عرف عن عمر بن الخطاب أنه فسح لخطابة الوفود في مجالسه تذكراً حاجتها وحاجة قومها . وكثيراً ما كان الخطيب سيد قومه أو من رؤسائهم . وفي كتاب « البيان والتبيين » أن هلال بن وكيع والأحنف ابن قيس وزيد بن جبلة وفدوا على عمر رحمه الله ، فقال هلال بن وكيع : « يا أمير المؤمنين ، إنا لباب من خلفنا ، وغرة من وراءنا من أهل مصرنا ، وإنك إن تصرفنا بالزيادة في أعطيائنا ، والفرائض لعيالاتنا ، يزد ذلك الشريف منا تأميراً ، وتكن لذوي الأحساب أباً وصولاً ... » . وقام زيد بن جبلة فقال : « يا أمير المؤمنين ، سوّد الشريف ، وأكرم الحسيب . وازرع عندنا من أباديك ما نسدُّ به الخصاصه ، ونطردهُ به الفاقة ، فإنا بقف من الأرض ، يابس الأكناف ، مقشعر الذروة ، لا شجر فيه ولا زرع » . وقام الأحنف فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن مفاتيح الخير بيد الله ، والحرص قائد الحرمان . فاتق الله فيما لا يُغني عنك يوم القيامة قبلاً ولا قالاً ، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف سبباً يكفيك وفادة الوفود ، واستماعة المحتاج .. » (الجاحظ ، 1948 ، ج 2 ، ص 144) .

هذه ، أخي الطالب ، هي أهم ضروب الخطابة في عصر صدر الإسلام . وهناك ضروب أخرى أقل أهمية ومنها خطبة النكاح . ومن سننها ، كما عرفت ، أن يطيل الخطيب ويقصر المجيب . وقال الهيثم بن عدي : « لم تكن الخطباء تخطب قعوداً إلا في خطب النكاح » (الجاحظ ، 1948 ، ج 1 ، ص 118) .

تدريب (3)

اذكر أهم ضروب الخطابة في عصر صدر الإسلام .

2.2 أشهر خطباء صدر الإسلام

عززي الطالب ،

يقف الرسول (ص) على رأس أرباب الخطابة ؛ فقد أوتي جوامع الكلم « وكأنما كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصغي له الأئنفدة » (ضيف ، 1963 ، ص 115) . وشيد كثير من البلغاء بفصاحة الرسول (ص) وبلاغته وحسن بيانه ، وقد أجاد الجاحظ وأحسن في قوله يصف بلاغة الرسول (ص) في كلامه وخطبه ، وذلك قوله : « وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) . فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التعقيب ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد خُفَّ بالعصمة ، وشُيد بالتأييد ، وسُرَّ بالتوفيق . وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإنهام ، وقلته عدد الكلام ، مع استغنائاه عن إعادته ، وقله حاجة السامع إلى معارده . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، ولا بارت له حُجَّة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذُ الخطب الطوال بالكلم القصار ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل الموازية ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقِعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنىً ، ولا أبين في فحوى ، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً » (الجاحظ ، 1948 ، ج 2 ، ص 17 - 18) .

نشاط ذاتي :

انظر معاني الكلمات التالية في أحد قواميس اللغة :

التشديق ، التعقيب ، الفلج ، الخِلافة ، الهمز ، اللمز ، الحصر .



وسنختار لك ، أخي الطالب ، إحدى خطب الرسول الكريم ، وهي خطبته في حجة الوداع ؛ وهي تجري على النحو التالي كما جاءت في « جمهرة خطب العرب » مجموعة من غير رواية :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات

أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو
خير ، أما بعد : أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم ، فإني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي
هذا . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وفي شهركم
هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن
ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ،
وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة
والسقاية ، والعمد قود ، وشبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر وفيه مئة يعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك
مما تُحقرّون من أعمالكم ، أيها الناس : إنما النسيءُ زيادة في الكفر يضلُّ به الذين كفروا يُحلّونه عاماً
ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ،
وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ،
ثلاثة متواليات ، وواحد فرد : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان ، ألا هل
بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا
يُدخلن أحداً تكةونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن
وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن
بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ،
فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئٍ مالٌ أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟
اللهم اشهد ! فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم
تضلوا بعده ، كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ،
وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! قالوا نعم . قال : فليبلغ الشاهد
الغائب .

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز لوارث وصية ، ولا يجوز وصية
في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه

لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقبل منه صرف ولا عدلٌ والسلام عليكم ورحمة الله « (صفوت ، 1933 ، ج 1 ، ص ص 155 - 158) .

نشاط ذاتي

انظر معاني الكلمات التالية في أحد قواميس اللغة :

الاستفتاح ، القُود ، العضل ، العانية ، الصُرف ، العدل .



لعلك تلاحظ ، أخي الطالب ، روعة انتقال الرسول الكريم من قسم إلى آخر في هذه الخطبة ؛ فمن فاتحة الخطبة المخصصة للحمدلة والشهادة والوصية بتقوى الله إلى الوعظ إلى التشريع الذي يبطل بعض ما كان عليه العرب في جاهليتهم من عادات وقيم ؛ فجعل الثأر لدم القتيل من شؤون الدولة ولذا أسقط الثأر القديم وحرّم النهب والسلب ، كما حرم دماء المسلمين وأموالهم . وطالب برد الأمانات إلى أصحابها ، وأن يرضى المسلم أخاه في ماله فلا يحل له منه شيء إلا بالحق . وحرّم الربا ، وضرب مثلاً رائعاً حين أسقط ربا عمه العباس بن عبد المطلب ، الذي كان تاجراً موسراً . كما أسقط دم أحد أقربائه ، عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . ولم يُبق من مآثر الجاهلية إلا ما يتفق ودعوة الإسلام ومبادئه كالسدانة وسقاية الحج .

ويلفت الرسول (ص) المسلمين إلى الشيطان فيحذرهم غواياته ، محرّماً انتهاك الأشهر الحرم ، واضعاً تقريباً قريناً من اثني عشر شهراً منها أربعة حرم . وينبه على تماسك الأسرة فيرفع من شأن المرأة ، ويحدد علاقتها بزوجها ؛ فلها حقوق وعليها واجبات ، وللزوج حقوق وعليه واجبات ، وصلاح ذلك كله تقوى الله . ثم ينتقل الرسول (ص) إلى علاقة الفرد بالجماعة فيقرر مبدأ دستورياً يصلح به الأمر كله : « إنما المؤمنون إخوة » . وما دام الأمر كذلك ، فلا اعتداء بينهم على الأموال والأنفس . ولا وجود لتعصب قبلي مقيت . ولم يعد التفاضل بالحسب والنسب ، وإنما بالتقوى والقرب من الله . وينبه الرسول (ص) على ما قرره القرآن في الميراث ، فللمورث ألا يوصي بأكثر من ثلث ماله . وتحرم نسبة الابن إلى غير أبيه ؛ وحتى أولئك الذين تلهم العواهر لا تجوز نسبتهم إلى غير آبائهم ، وهو بذلك يهدم تقليداً جاهلياً في نسبة هؤلاء إلى غير آبائهم أو في عدم نسبتهم .

ومن يقرأ ما وصل إلينا من خطب الرسول (ص) ، يلحظ أنها في رسم حدود الحياة الإسلامية وما ينبغي للمسلم أن يأخذ به نفسه إن في علاقته بأسرته أو بجماعته أو بالأمة . وأنها في وعظ المسلمين وإرشادهم ؛ وبذلك تتضح واجبات الفرد وحقوقه إن في محيطه الخاص أو في محيطه العام ، كما تتضح علاقته بخالقه ؛ وفي ذلك كله صلاح الأمة وتماسكها .

ولعلك ، أخي الطالب ، ^(٢) تلحظ بُعدَ الرسول (ص) عن التكلف والتعقيب . كما ^(٣) تلحظ حسن اختياره أفصح الكلم وأبينه ، ^(٤) وحسن انتقاله من العام إلى الخاص ، أو من الخاص إلى العام . قال محمد بن سلام : قال يونس بن حبيب : « ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم » .

أما الخلفاء الراشدون ، فكانوا جميعاً من الخطباء المفوهين ؛ ولا عجب ؛ فهم قد تأثروا ببيان القرآن الكريم ، وبيان الرسول (ص) . وكانوا للدنيا مذلين بإدبارهم عنها ، وللآخرة مُعزِّين بإقبالهم عليها . وقد أثرت عنهم خطب كثيرة تدل على عميق وعيهم برسالة الإسلام الخالدة ، كما تدل على شدة إحساسهم بمسئولية الحكم والنهوض به ؛ ومن ذلك أنه لما انتقل الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى ، وذهب الناس ، واضطربت أمورهم ، فكذَّب بعضهم بموته ، أقبل أبو بكر رضي الله عنه ، وكشف عن وجه الرسول (صل) ، فقبله ، وقال : بأبي أنت وأمي ، طبت حياً وطبت ميتاً . وخرج من عنده إلى الناس وهم في شديد غمراتهم وشديد سكراتهم ، فقام فخطب خطبة جلها الصلاة على النبي (ص) ، قال فيها : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ... ثم قال : أيها الناس : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، وإن الله قد تقدّم إليكم في أمره ، فلا تدعوه جزعاً ، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه ، وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر ؛ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، ولا يشفلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ويفتننكم عن دينكم ؛ فعاجلوه بالذي تعجزونه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم » (الحصري ، 1972 ، ج 1 ، ص 68) .

وكانت هذه الخطبة جدية بأن تجعل من كذبوا موت الرسول (ص) يثوبون إلى رشدهم ، وهي ، لا شك ، خطبة تستجيب للرزية العظمى ، والمصيبة الكبرى ، وتقدر أثر ذلك في النفوس فتبدأ بتأكيد مبدأ الشهادتين وأن الدين لم يتغير بانتقال الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى . ثم تطمئن المسلمين إلى أن ما عند الله لرسوله الأمين خير مما عندهم له ، وإلى أن كتاب الله باقٍ وسنته فيهم ، وتدعوهم إلى الأخذ بهما ، وتحذروهم مكائد الشيطان ؛ فلا ينبغي أن يفتنهم عن دينهم بموت نبيهم (ص) ما دام موته حقاً . وواضح أن أبا بكر يصدر في هذه الخطبة عن وعي عميق بأي الذكر الحكيم ، وسنة الرسول (ص) وسيرته .

تدريب (4)

اذكر ثلاث أفكار رئيسة جاءت في خطبة الرسول (ص) في حجة الوداع .



سؤال التقويم الذاتي (4)

ما الفكرة الرئيسية التي جاءت في خطبة أبي بكر ، رضي الله عنه ، عندما انتقل الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى ؟



3. الخطاب في العصر الأموي

1.3 عوامل ازدهارها

أخي الطالب ،

ثمة عوامل كثيرة أثرت في الخطاب في العصر الأموي ، وأدت إلى ازدهارها بحيث يمكن عدّ هذا العصر عصر الخطاب الذهبي . ولعل الأحداث السياسية هي أبرز عوامل ازدهار هذا الفن وأظهرها . ومعروف أن العصر الأموي حفل بالصراع المتصل بين الفرق والأحزاب ، وكان الاختلاف منصباً في جوهره حول الإمامة أو الخلافة ؛ فبينما رأى الأمويون أنهم أحق الناس بالخلافة ، ذهب الخوارج إلى القول إنها حق للمسلمين جميعاً يتولاها أتقاهم بغض النظر عن نسبه سواء أكان فرشياً أم غير قرشي ، عربياً أم غير عربي . وانقسم هؤلاء فيما بينهم واختلفوا ، وحارب بعضهم بعضاً . ومن أشهر فرقهم : الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، والنجيدات أتباع نجدة بن عامر الحنفي ، والصفورية أتباع عبد الله بن صفار الذي كان مع ابن الأزرق في بداية عهده ، والأباضية أتباع عبد الله بن أباض على الأرجح .

أما الشيعة ، فرأوا بني هاشم ، ولا سيما أبناء علي ، الأحق بالخلافة . وعلاوة على ذلك ، فقد ظهر حزب الزبيريين برئاسة عبد الله بن الزبير . وكان يدعو إلى أن تعود الخلافة إلى الحجاز ، وأن يتولى أمرها أبناء الصحابة القرشيين . ولكن هذا الحزب لم يدم طويلاً ، فقد انتهى بمقتل عبد الله بن الزبير سنة 73 هـ .

وقد تعددت ثورات الخوارج وثورات الشيعة وكثرت ، واستمرت طوال العصر الأموي ؛ فكانت من أسباب ضعف الدول ثم سقوطها . ولعل أهم ثورات الشيعة في هذا العصر ثورة الحسين بن علي الذي رفض مبايعة يزيد بعد موت معاوية ؛ فأرسل إليه أهل الكوفة يطلبون قدومه لمبايعته ، ولكنهم سرعان ما خذلوه فلم ينضموا إليه ، وبقي في قلة من أصحابه وأهله . ووجه إليه عبيد الله بن زياد ، والي الكوفة ، جيشاً استطاع أن يقتله ، وأن يقتل أكثر من كانوا معه ، وذلك سنة 61 هـ في كربلاء . وقد أعقبت حركة التوابين بالكوفة مقتل الحسين ؛ فقد ندم شيعة الكوفة على ما كان منهم من خذلان الحسين ، ثم اتفقوا على الخروج؛ فبايعوا شيخ الشيعة هناك ، سليمان بن صرد . ولكن جيش الأمويين انتصر عليهم ، وقتل ابن صرد وأكثر أصحابه في معركة عين الوردية سنة 65 هـ . أما من نجا منهم ، فعاد إلى الكوفة لينضم إلى المختار الثقفي الذي ادعى أنه موفد من قبل محمد بن الحنفية ؛ فتكاثر أصحابه وخصوصاً من الموالي الذين كان أكثرهم من أصول فارسية . وأخذ المختار يعمد في كلامه وعظاته وتحريضه إلى ضرور من السجع والكهانة حتى يزداد تأثير دعوته في أصحابه ، بل إنه اتخذ كرسيّاً أضاف إليه القداسة والقدرة على الإتيان بالمعجزات . واستطاع المختار أن يقتل ابن زياد وأن يهزم جيشه في موقعة خازر سنة 67 هـ . غير أن نشوة انتصاره لم تدم طويلاً

فقد أثار العرب وأشرافهم في الكوفة حين ساروا بهم الموالي والعبيد فجعل لهم حظاً من الفيء. وانضم أولئك إلى مصعب بن الزبير حين قدم الكوفة والياً عليها لأخيه عبد الله. وقد استطاع مصعب أن يقتل المختار ويهزم أصحابه سنة 67 هـ.

ومن ثورات الشيعة المهمة، ثورة زيد بن علي بن الحسين سنة 121 هـ بالكوفة، في خلافة هشام بن عبد الملك. وقد قُضي عليه وعلى ثورته ببسر لتفرق أهل الكوفة عنه. واستطاع ابنه يحيى أن ينجو من القتل؛ فلبى إلى خراسان، ثم ثار زمن الوليد بن يزيد، ولكنه ما لبث أن قُتل وهُزم صاحبه سنة 125 هـ.

ولعل آخر ثورات الشيعة المهمة في العصر الأموي ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة سنة 127 هـ؛ غير أنه هُزم هناك فتوجه إلى فارس والمقاطعات الشرقية؛ فغلب على همذان وقم والري وقومس وأصبهان واصطخر وسابور وشيراز وغيرها. وانضمت إليه عناصر يجمعها كره الأمويين كالموالي وبعض الخوارج وبعض العباسيين، ومنهم أبو جعفر المنصور نفسه؛ غير أنه هُزم ثانية؛ فقصد خراسان طمعاً في أبي مسلم الذي كان يدعو إلى الرضا من آل محمد، وهناك لقي ابن معاوية مصرعه على يد أبي مسلم الذي أدرك خطره وخطر دعوته على العباسيين.

أما عن ثورات الخوارج، فهي كثيرة جداً. ولعل أشهرها ثورة الأزارقة الذين كانوا لا يُجيزون القعود عن القتال، وكانوا يسمون مخالفيهم من المسلمين مشركين، ويُعدّون أطفالهم في النار كآبائهم؛ ولذا لم يتورعوا عن قتل الأطفال ويقر بطون الحبالى. وقد بدأت ثورتهم سنة 64 هـ، حين خرج نافع بن الأرق وأتباعه إلى الأهواز؛ غير أن نافعاً قُتل في معركة دولا ب سنة 65 هـ على الرغم من انتصار الخوارج. ثم كثرت الوقائع، وبرزت شخصية القائد المشهور المهلب بن أبي صفرة الذي أبدع في قتالهم ودرهم وإيقاع الهزائم بهم. وقد امتدت ثورتهم حتى حوالي سنة 77 هـ حين استطاع سفيان بن الأبرد، الذي أنفذه الحجاج على رأس جيش من أهل الشام والكوفة لقتالهم، أن يقتل قائدهم عبدة بن هلال، ويقضي على جيشه سنة 77 هـ.

وثورة النجدات أصحاب نجدة بن عامر الحنفي الذي كان مع ابن الأزرقي إلى أن اختلفا؛ فتوجه نجدة إلى اليمامة، ومد نفوذه إلى البحرين وعمان وحضرموت، ثم دب خلاف بينه وبين أصحابه؛ فانحازوا عنه وتحولوا إلى أبي فديك عبد الله بن ثور، فاستخفى نجدة في اليمامة وتوارى؛ غير أن بعض أنصار أبي فديك استطاعوا الظفر به؛ فقتلوه سنة 72 هـ.

وثورة الصُفْرية التي تحركت زمن الحجاج بزعامته صالح بن مسرح التميمي الذي قتله الحجاج سنة 76 هـ، فبايع الصُفْرية شبيب بن يزيد الذي استطاع أن يدخل الكوفة وأن ينتصر على الحجاج في غير وقعة، فاضطر الحجاج إلى الاستعانة بأهل الشام، واستطاع بذلك أن يهزمه فقتلت زوجته غزالة وسقطت فرس شبيب به في نهر دُجَيل يوم الجسر؛ فمات غرقاً سنة 77 أو 78 هـ.

وفي أواخر الدولة الأموية ، استطاع زعيم الصفرية ، الضحاک بن قيس ، أن يهزم جيوش أهل الشام والعراق ، وأن يستولي على الكوفة . وبعد معارك عدة ، استطاع مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية ، أن يتغلب عليه ويقتله سنة 128 هـ . وفي أثناء ذلك ، ظهر خارجي آخر من فرقة الأباضية هو أبو حمزة الشاري الذي استطاع أن يستولي على مكة ، وأن يهزم أهل المدينة في معركة قُديد سنة 130 هـ ، فوجه إليه مروان بن محمد جيشاً قتلته بوادي القرى سنة 130 هـ ، وهزم أتباعه . ثم قُتل زعيم الأباضية عبدالله بن يحيى باليمن . وبعد ذلك بحوالي سنتين ، انهارت دولة بني أمية على يد العباسيين .

وقد كانت ثورات الخوارج الكثيرة العنيفة من أهم الأسباب التي أنهكت الدولة الأموية في المشرق ، وأسّرت في انهيارها .

وإلى جانب ثورات الشيعة والخوارج ، ثار بعض سادة العرب المتحدرون من أسر نبيلة معروفة ، وكانوا يرون أن الخلافة ليست وقفاً على قريش ، بل ينبغي لها أن تُرد إلى العرب قاطبة . ولعل أشهر ثورتين من ذلك ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وثورة يزيد بن المهلب . فلم يكد الحجاج يفرغ من إخماد ثورة الأزارقة والصفرية حتى تعرض سلطانه وسلطان الأمويين لخطر فتنة عظيمة ، حين ثار ابن الأشعث واستطاع أن يضم إليه عدداً ضخماً من المؤيدين . ويذكر الطبري أن الحجاج أرسل ابن الأشعث في جيش من أربعين ألف رجل لقتال رتبيل ، صاحب سجستان . ولما أمره الحجاج بالتوغل في أرض الأعداء ، وهدده بالعزل إن لم يفعل ، خلع الحجاج ، واستجاب له العراقيون وأهل فارس ، ثم ما لبثوا أن خلعوا طاعة عبد الملك وبايعوا ابن الأشعث ، فصالح رتبيل وعاد بجيشه الضخم ؛ ليحتل العراق ، ويطرد الحجاج . وانضم إليه الموالي . وانتهت الوقائع بينه وبين جيش الحجاج بهزيمته يوم الزاوية ويوم دير الجماجم ؛ فلجأ إلى رتبيل الذي أمنه ، ثم ما لبث أن أسلمه لقائد جيش الحجاج ، ولكنه انتحر بأن ألقى بنفسه من فوق سطح ؛ فمات سنة 85 هـ (الطبري ، 1961 ، ج 5 ، ص 140 وما بعدها) .

أما عن ثورة يزيد بن المهلب ، فقد تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ويزيد بن المهلب على خراسان . فكان عمر يكره آل المهلب لتجبرهم واحتيازهم الأموال ؛ فعزل يزيد عن خراسان وحبسه . وفي مرض عمر الأخير ، استطاع يزيد الفرار من محبسه ؛ فلحق بالبصرة وغلب عليها . وتولى يزيد بن عبد الملك الأمر ، فأرسل إليه أخاه مسلمة ، وابن أخيه العباس بن الوليد في جيش من أهل الشام استطاع دحر ابن المهلب وقاتله بالمعقر سنة 102 هـ . ولم يكتف يزيد بذلك ، بل أخذ يطارد المهالبة حتى استأصلهم .

ولا ننسى ، أخي الطالب ، كثرة الفتن القبلية في العصر الأموي ، إذ عادت العصبية القبلية جذعة آنذاك وخاصة تلك التي كانت بين القيسية واليمينية عقب وفاة الخليفة الثاني يزيد بن معاوية إن في الشام أو في العراق أو في الجزيرة الفراتية أو في خراسان . وكان الصراع القبلي مما استغله العباسيون أحسن استغلال فكان من عوامل سرعة سقوط الدولة الأموية .

وعلى الرغم من هذه الحوادث كلها ، فللدولة الأموية أن تفخر بما حققت من فتوحات إن في الشرق أو في الغرب . فقد امتد سلطان الأمويين شرقاً حتى بلاد الهند وحتى ضفاف نهر جيحون في الشمال الشرقي . كما توغلت الجيوش الإسلامية في بلاد الروم حتى أسوار القسطنطينية . وانطلقت الجيوش غرباً حتى تجاوزت حدود البر الإفرقي وبلاد المغرب إلى الأندلس . وقد أنجب العصر الأموي طائفة من القادة الأفاضل ، أمثال مسلمة بن عبد الملك ، والحجاج ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، ويزيد بن المهلب ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد وغيرهم .

ولعلنا ، أخي الطالب ، نكون بهذا قد ألقينا الضوء على أهم الحوادث السياسية التي شهدتها العصر الأموي . وهي ، لا شك ، ذات أثر واضح في الخطابة آنذاك ؛ فكثرت الخطابة السياسية ولعبت دوراً مهماً في الحض على القتال ، وفي استمالة الناس ودعوتهم إلى الطاعة والترغيب فيها والتشجيع على الخصوم ...

وثمة عامل آخر في ازدهار الخطابة في العصر الأموي هو العامل الديني الذي لا نستطيع فصله تماماً عن العامل السياسي ، ما دام اختلاف المسلمين سياسياً ودينياً قد دار حول الخلافة . غير أننا نكتفي بالإشارة هنا إلى أن الإسلام نفسه عامل مهم في ازدهار الخطابة كما مر بنا . ونذكر أن الإسلام أوجد نوعاً جديداً من الخطابة كخطابة الجمع والعيدين . كما كان الإسلام ، فيما بعد ، سبباً في انتشار نزعة الزهد وقصص الوعاظ . وفي القرآن الكريم آيات تحض على كبح جماح الشهوات ، وعلى العمل من أجل حياة أخرى نعيمها دائم (قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون) (القصص : 80) .

وقد اتسعت الفتوح في العصر الأموي وكثرت الغنائم ، وازداد السبي ؛ فأصاب الترف كثيراً من الناس . وكان رد الفعل ظهور طائفة من الناس زهدوا في ذلك كله ، وأنكروا على الناس تهالكهم على الدنيا ولذاتها . وانصرفوا إلى العبادة . وكان من هؤلاء الزهاد فئة تدبت نفسها للوعظ في المساجد ؛ فكان ذلك كله سبباً في شيوع لون من الخطابة الدينية تُعنى بالوعظ والإرشاد . وقد تُعنى بالدعاية السياسية لهذه الفرقة أو لذاك الحزب . ومعروف أن الفرق الإسلامية كان لها أثر بعيد في ازدهار فن الخطابة في العصر الأموي .

ولا ننسى ، عزيزي الطالب ، ما كان للمحافل والوفادات من أثر في ازدهار فن الخطابة في العصر الأموي ، فكثيراً ما كان رجال القبائل وسكان الأمصار يقدون على الحاضرة دمشق لأسباب مختلفة كأن يُدعوا لمبايعة خليفة ، أو لتهنئة أو لتعزية ، أو شكوى . في كل ذلك ، يتقدم رئيس الوفد الذي غالباً ما يكون عميد القوم ؛ فهو ، على حد تعبير ابن عبد ربه ، « واحد يعدل قبيلة ، ولسان يُعرب عن السنة ... ومجمع الشعر والخطابة » (ابن عبد ربه ، 1982 ، ج 2 ، ص 3) .

اذكر ثلاثة من عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي .

سؤال التقويم الذاتي (5)

من الأحق بتولي الخلافة من وجهة نظر الخوارج ، والشبيعة ، والأمويين ؟

2.3 أبرز موضوعات الخطابة في العصر الأموي

يمكن قسمة الخطابة في العصر الأموي من حيث الموضوع إلى ثلاثة أقسام :

من خطباء طينج
زيد بن حارث
عزير بن حارث

1.2.3 الخطابة السياسية

كثرت الخطابة السياسية في العصر الأموي وانتشرت . وتعد كتب الأدب والتاريخ بخطابة المرءين للدولة والمعارضين لها . ومعروف أن ثورات الخوارج استمرت طوال العصر الأموي . وفي كل ذلك كان الخطباء يخطبون ويحرضون على الخروج والثبات . ولكن ما وصل إلينا من خطبهم قليل ؛ لأن الناس كانوا يتحرجون من روايتها ، ولأن الخوارج أنفسهم لم يكونوا حريصين على تسجيل أدبهم وروايته . ومن خطبائهم زيد بن جندب الذي يقول فيه الجاحظ : « وكان زيد بن جندب أشقى أفلح ، ولولا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة » (الجاحظ ، 1948 ، ج 1 ، ص 55) . والشفا ، عزير بن الطالب ، اختلاف نبتة الأسنان بالطول والقصر . أما الفَلَحُ فشقُّ في الشفة العليا .

وفي جندب يقول الشاعر الأشدُّ البكري :

ويل أمه إذا ارتجل ثم أطال واحتفل (الجاحظ ، 1948 ، ج 1 ، ص 42)

ولم يصل إلينا شيء من خطبه .

ومنهم الشاعر عمران بن حطان الذي يقول الجاحظ إنه خطب في حضرة زياد بن أبي سفيان أو ابنه عبيد الله ، فقال بعض من سمعه : « هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن » (الجاحظ ، 1948 ، ج 1 ، ص 118) . ولم يصل إلينا ، كذلك ، شيء من خطب عمران . ومن خطبائهم قطري بن الفجاءة الذي وصل إلينا من خطبه اثنتان فقط (انظر معروف ، 1983 ، ص ص 264 - 268) .

إحداها طويلة مختلف في نسبتها ، إذ يتنازعها علي بن أبي طالب وقطري . ومنهم عبد الله بن وهب الراسبي وقد عرفنا له ثلاث خطب قصار (معروف ، 1983 ، ص ص 256 - 258) . أما أبو حمزة ، فما وصل إلينا من خطبه أكثر مما وصل إلينا من خطب أي خارجي آخر ؛ فقد وصل إلينا خمس خطب له من بينها ثلاث طوال (معروف ، 1983 ، ص ص 283 - 297) .

نشاط ذاتي :

اقرأ ، أخي الطالب ، بعض هذه الخطب ، وحاول التعرف على خصائصها .



ولعل أظهر ما يميز خطب الخوارج التي وصلت إلينا ، ما يلي :

(1) أننا نجد فيها بعض المبادئ التي قام على أساسها حزب الخوارج ؛ ومن ذلك ما جاء في خطبة عبد الله بن يحيى طالب الحق حين استولى على اليمن ، فقد جاء فيها : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ، ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ... مَنْ زنى فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شك في أنه كافر فهو كافر .. » (معروف ، 1983 ، ص 259) .

(2) كما نلاحظ تقدمهم الشديد لخصومهم الأمويين على وجه الخصوص ، يقول أبو حمزة الشاري « يا أهل المدينة ، سألتكم عن ولاتكم هؤلاء ، فأسأتم ، لعمر الله ، فيهم القول . وسألتكم هل يقتلون بالظن ، فقلتم : نعم . وسألتكم هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ، فقلتم : نعم » (معروف ، 1983 ، ص 287) . ويقول من خطبة أخرى : « وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، بطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ... » (معروف ، 1983 ، ص 285) .

(3) ونلاحظ كذلك أنهم كانوا يعمدون إلى الترغيب والترهيب في خطبهم ، كقول أبي حمزة : « ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والقسم بالسوية ، والعدل في الرعية ، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمر الله بها . إننا والله ما خرجنا أشراً ولا بطراً ولا لهواً ولا لعباً ... ولكن لما رأينا الأرض قد أظلمت ، ومعالم الجور قد ظهرت ، وكثر الادعاء في الدين وعُمل بالهوى ، وعُطلت الأحكام ، وقُتل القاتل بالقسط .. » (معروف ، 1983 ، ص 295) .

فإذا جننا إلى خطباء الشيعة فهم كثيرون . وكانوا كالخوارج دائمي التنديد بخصوصهم الأمويين الذين يُصوّرون على أنهم مفتصبو الخلافة من أصحابها الشرعيين ، أبناء علي وأحفاده . وهم يدعون المسلمين في خطبهم إلى نصره أصحاب الحق ، والثورة على بني أمية ، يقول سليمان بن صرد ، رأس التوابين ، يحث أصحابه على الخروج وقتال بني أمية : « إنا كنا نغد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، ونغنيهم النصر ، ونحثهم على القدوم ؛ فلما قدموا وثبنا وعجزنا وأذهنا وتربصنا وانتظرنا حتى قُتل فينا ولدينا ولد نبينا وسلالته وعصارتها وبُذعت من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف فلا يعطاه ، اتخذها الفاسقون غرضاً للنبل ، وذريرةً للرماح ، حتى أقصدوه وعدواً عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخط ريكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تُبَيروا ، ألا لا تهابوا الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل ... » (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص ص 60 - 61) .

وكان خطباء الشيعة يكثرون من التحدث عن مصارع آل البيت ومحنتهم ؛ آملين من ذلك استمالة الناس . وقد ألح خطباء الشيعة على التذكير دائماً بمقتل الحسين ، وتفصيل ذلك والتحريض على الثورة والثأر لآل البيت كما هو واضح من النص الوارد في الفقرة السابقة ؛ وهو من خطبة لسليمان بن صرد . وجاء في خطبة عبيد الله بن عبد الله المري ما يلي : « لله أنتم ! ألم تروا وينلغكم ما اجترم إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وحدته ، وترميلهم إياه بالدم ، وتجراهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً ، فله عينا من رأى مثله ! والله حسين بن علي .. » (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص 63) . ومن خطبة للمسيب بن نجبة قوله : « وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا ، وتقريظ شيعتنا ، حتى بلا الله أخبارنا ، فوجدنا كاذبين في مواطن من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه ، وقدمت علينا رسله .. فبخلنا عنه بأنفسنا ، حتى قُتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بألستنا .. فما عذرنا إلى رينا ، وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قُتل فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله ، لا والله لا عار ، دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه ، أو تُقتلوا في طلب ذلك ؛ فعسى رينا أن يرضى عنا عند ذلك » (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص 59) .

وهكذا ، فخطب الشيعة تدور ، في مجملها ، حول ادعائهم أحقية الخلافة ، ونقمتهم على بني أمية الذين يعدونهم سالبى حقهم ، وسافكي دماء آل البيت .

أما حزب الزبيريين ، فقل خطبأه ؛ لأنه لم يعيش طويلاً . ويعد عبدالله بن الزبير خطيب هذا الحزب . وقد عُرف بفصاحته وبلاغته ، وقدرته الفائقة على التأثير في نفوس مستمعيه . وهو ، فيما وصل إلينا من خطبه ، يحمل على الأمريين ويتهمهم . وأحياناً يستغل مقتل الحسين ليحرض عليهم . ومناظرته مع الخوارج تدل على حدة ذكائه .

نشاط ذاتي :



اقرأ ، أخي الطالب ، هذه المناظرة في كتاب « جمهرة خطب العرب ، ج 2 ، ص 169 وما بعدها » .

عبد الله بن الزبير . ومن خطبه المشهورة ، تلك التي قالها حين جاءه نعي أخيه مصعب ، واستيلاء عبد الملك على العراق ، ومنها : « أما بعد ، فإنه لم يُعز الله من كان الباطل معه ، ولم يذل من كان الحق معه ، وإن كان مفرداً ضعيفاً ؛ ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، فساءنا وسرتنا ، أتانا أن مصعباً قُتل رحمة الله عليه ومغفرته ؛ فأما الذي أحزننا من ذلك ، فإن لفراق الحميم لذعةً ولوعةً يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوي من بعد ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر ، وكريم العزاء . وأما الذي سرتنا فإننا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله في ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى ... فإن يُقتل فقد قُتل أبوه وعمه وأخوه ، وكانوا الخيار الصالحين ، إنا والله لا نموت حتف أنفنا ، ولكن قعصاً بالرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط .. » (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص 175 - 177) .

ولعلك تلحظ ، أخي الطالب ، امتلاك ابن الزبير ناصية البيان ، وموقفه من بني أمية ، ورباطة جأشه.

تدريب (6)



① بيانه مبادئ الحواريين
② نقد لعنصرهم الاثريين
③ زغب و زغب

اذكر فكرتين رئيسيتين أُلحَ عليهما الخوارج في خطبهم .

سؤال التقويم الذاتي (6)



لماذا قل خطباء الحزب الزبيرى ؟

وفي مقابل أحزاب المعارضة المذكورة ، كان يقف الحزب الأموي ، وكان بنو أمية يرون أنفسهم أحبا بالخلافة من معارضيتهم . وخير من يمثل خطباء هذا الحزب خلفاء بني أمية وولاتهم وعمالهم . يقول أحد الشعراء في معاوية :

ركوبُ المنابر وثأبها معنُ بخطبته مجهرُ

تريع إليه هوادي الكلام إذا ضلَّ خطبته المهذَّرُ

ومن خطب معاوية ، خطبته في أهل المدينة عام الجماعة (سنة 41 هـ) :

« أما بعد ، فإنني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرةً لولايتي ، ولكنني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة ، ولقد رضتُ لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَيَات عثمان ، فأبت علي ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإنني خيرٌ لكم ولايةً ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دَبْرَ أذني ، وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله . فاقبلوا مني بعضه ، فإن أتاكم مني خيرٌ فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُثري ، وإذا قَبِلَ أغنى ، وإياكم والفتنة ، فإنها تُفسد المعيشة وتكدر النعمة » (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص 182 - 183) .

نشاط ذاتي :

أخي الطالب ، أعد قراءة هذه الخطبة ، ثم علق من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب .

ولعل أهم موضوع دارت حوله خطابة ولاية بني أمية وعمالهم هو حث الناس على الطاعة والولاء لخلفائهم بالترغيب أو بالوعيد والتهديد . ومن أمثلة ذلك خطبة زياد بن أبيه التي سميت بالبتراء ، وخطبة الحجاج بن يوسف الثقفي حين ولي العراق ، وبعض خطب خالد القسري . وسنكتفي بإيراد خطبة الحجاج حين ولي العراق ، والتعليق عليها :

« أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة ، أما والله إنني لأحمل الشرَّ بحمله ، وأحذره بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإنني لأرى أبصاراً طامحة ، وأعتاقاً متطاولة ، ورؤوساً قد أينعت وحن قظافها ، وإنني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمام واللحي تترقق ، ثم قال :

هذا أوان الشدِّ فاشتدي زِمِّمُ قد لفها الليل بسواقٍ حُطِّمُ

ليس براعي إبل ولا غَنَمُ ولا بجزارٍ على ظَهْرٍ وضمِّمُ

إني والله يا أهل العراق ، ما يتحقق لي بالشُّنَّان ، ولا يُغمز جانبي كتغماز التين ، ولقد فُرت عن ذكاء ، وفتشت عن تجرية ، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كنانته ، بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن ، واضطجعتم في مراقد الضلال ، أما والله لأحوتكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وإني والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، فباي هذه الشفعاء ، والزرافات ، والجماعات ، وقالاً وقيلاً ، وما تقول ؟ وفيم أنتم وذاك ؟ أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبت ماله « (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص ص 289-291) .

نشاط ذاتي :

عُد ، أخي الطالب ، إلى أحد قواميس اللغة لتعرف معاني الكلمات التالية :

وضم ، الشُّنَّان ، عَجَم ، أَوْضِع ، لحا العصا ، المروة ، السُّلْمَة ، الزرافات .



تلحظ ، عزيزي الطالب ، أن اللفظ الغريب كثير في هذه الخطبة « حتى يأخذ الحجاج على سامعيه أنفاسهم . وقد زخرت خطبته بأسلوب تصويري قوي » (ضيف ، 1963 ، ص 420) . ولا عجب ، فالحجاج من الخطباء المعدودين ؛ حتى لقد قال عنه مالك بن دينار : « ما رأيت أحداً أبين من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق ، وصفحه عنهم وإساءتهم إليه ، حتى أقول في نفسي : إني لأحسبه صادقاً ، وإني لأظنكم ظالمين له » (الجاحظ ، 1948 ، ج 2 ، ص ص 268 - 269) .

جاء الحجاج إلى العراق وهو يغلي بالعصبيات القبلية ، والفتن الداخلية ، فاختل الأمن واضطرب ، وكان لا بد من مواجهة ذلك كله بالشدة والحزم إن بالفعل أو بالكلام ، وهذا ما قام به الحجاج ، وهذا ما تمثله خطبته ، إذ نراه يتحدث عن جانب من جوانب شخصية هو جانب الحزم وأخذ أصحاب الفتن بالشدة . وهو يعمد إلى ضرب المثل والمشابهة مستقيماً مادة ذلك من معاني بعض آيات القرآن الكريم ، وهو يعدّ خروج أهل العراق وثوراتهم على بني أمية ضلالاً وكفراً بنعمة الله ، ولذا فهم أشبه بأهل قرية كانت آمنة يأتيها رزقها رغداً فكفرت بأنعم الله ، فنزل عليها غضبه : لباس الذل والجوع .

وفي نهاية الخطبة ، ينذر الحجاج مستمعيه ويهددهم ويتوعدهم ؛ ويحذرهم الفتن والتباطؤ عن اللحاق بجيش المهلب الذي كان يقاتل الخوارج .

ولعلك تلحظ ، أخي الطالب ، شدة إخلاص الحجاج وولائه للخليفة وسياسته . لقد كان الحجاج صاحب حزم وعزم ، استطاع بهما أن يوطئ المنابر لبعض خلفاء الأمويين وأمرائهم .

سؤال التقويم الذاتي (7)

قرأت ، أخي الطالب ، خطبة الحجاج ، حين ولي العراق ؛ علق عليها من حيث المضمون ومن حيث الأسلوب .

2.2.3 الخطابة الدينية

ثمة دواعٍ أدت إلى ازدهار الخطابة الدينية في العصر الأموي ، منها ارتباط ضرب من الخطابة بشعائر دينية مفروضة كصلوات الجمع والأعياد . وكثيراً ما كان الخليفة أو الوالي يقول الخطبة ؛ فيبصر المسلمين بأمر دينهم ، ويدعوهم إلى اتباع سبيل الهداية . وقد يتعرض للأمور السياسية والاجتماعية ؛ فيدعو إلى الطاعة وإلى عدم الولوج في الفتن .

وقد مر بنا ، عزيزي الطالب ، أن العصر الأموي شهد ظهور الفرق الدينية ، وكثرت فيه الثورات ، وقد أدى ذلك كله إلى ازدهار فن الخطابة . وكان خطباء كل فرقة يحرضون على الدعوة إلى مذهبهم ومبادئهم ، وإلى الرد على دعاوى الفرق الأخرى .

ولا تنسَ ، أخي الطالب ، ما لظهور نزعة الزهد في العصر الأموي من أثر في ازدهار الخطابة آنذاك . وموضوع خطب الزهاد يدور حول حث الناس على عدم التهافت على ما في الحياة الدنيا من ملذات ومتاع ، وحول التذكير بالحياة الآخرة الخالدة .

وقد شاع في العصر الأموي ضرب من القصص الديني يعمد فيه صاحبه إلى تفسير الآيات القرآنية عن طريق حشد أخبار الأمم الماضية وقصص الأنبياء والصالحين . وكانوا يستمدون بعض ذلك من مصادر مسيحية وإسرائيلية . وقد يترك الواحد منهم العنان لخياله ، فيأتي بالكاذب والأعاجيب .

وقد يضاف إلى ذلك كله ما كان يقام ، أحياناً ، من مجالس يشترك فيها غير خطيب ، ويحاول كل واحد منهم أن يبرز أقرانه بإظهار قدرته وبراعته . ومن أمثله ذلك اجتماع أربعة من أبرع الخطباء في العصر

الأموي في حفل عند عبدالله بن عمر بن عبد العزيز ، والي العراق ، دُعي إليه عليه القوم والناس ، وهؤلاء الأربعة هم : خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيببة ، والفضل بن عيسى ، وواصل بن عطاء . وقد فاق إعجاب الناس والوالي بواصل إعجابهم بالآخرين حين سمعوا خطبته التي تخلو من حرف الراء ، ولم يكن قد أعدّها من قبل . (انظر هارون ، 1972 ، ج 1 ، ص 127 وما بعدها) .

أهل وإذا كانت الخطابة ، بشكل عام ، في العصر الأموي تستهل بالحمدلة ، والصلاة على الرسول (ص) ، مؤالثناء عليه ، فإن الخطابة الدينية امتازت بالإطالة في ذلك . وتكاد المقدمة الحمديّة في خطبة واصل المذكورة تبلغ نصفها . وهو حمد متأثر بمذهب المعتزلة الذي أسسه واصل ؛ ومنها قوله : « الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي علا في دنوه ، ودنا في علوه ، فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان ، ولا يؤوده حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا مثيل له .. علا عن صفات كل مخلوق ، وتنزّه عن شبه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام .. وأشهد شهادة حق وقول صدق . بإخلاص نية ، وصدق طويّة ، أن محمد بن عبدالله عبده ونبيه ، وخالصته وصفية ، ابتعثه إلى خلقه بالبينات والهدى ودين الحق ، فبلغ مألكته ، ونصح لأمته .. » (هارون ، 1972 ، ج 1 ، ص 134) .

ولعلك تلاحظ ، أخي الطالب ، أن هذا الحديث عن الذات الإلهية يتفق مع مبادئ المعتزلة التي تُلحّ على فكرة وحدانية الله ، وتنفي عنه الصفات ، وكلّ ما من شأنه أن يؤدي إلى القول بالتشبيه والتجسيم .
رئيس
ولعل الموضوع الرئيس الذي تدور حوله الخطابة الدينية هو الإنسان من حيث شهواته وأطماعه ونهايته الملمحة المحتومة ؛ ولذا يكثر الخطيب من التذكير بتقوى الله ، والإكثار من عمل الخير ، والعزوف عن الشر وعن طاعة الشيطان . كما يُذكر بضرورة كبح جماح الشهوة ، ومواصلة تذكر الموت فهو خير واعظ . ومن أشهر خطباء الوعظ في العصر الأموي الحسن البصري . وقد حفظ لنا القدماء بعض خطبه الدينية ، ومن ذلك قوله من خطبة وعظ :

« يا ابن آدم ، بع دنياك بأخرتك تريحهما جميعاً ، ولا تبع أخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا ابن آدم ، إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الثراء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل . يا ابن آدم ، طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك ، واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك . فرحم الله رجلاً نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر .. يا ابن آدم ، اذكر قوله : (وكل إنسان أئتمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) . عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها ، فليس الصفر ما عاد أكدر ، ولا الكدر ما عاد صفواً .. يا ابن آدم ، ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ما قر في القلوب ، وصدّقته الأعمال (الجاحظ ، 1948 ، ج 3 ، ص 132 - 134) .

ونلاحظ ، أخي الطالب ، في هذه الخطبة وأمثالها الأثر الإسلامي واضحاً إن من حيث الفكرة أو الأسلوب . كما نلاحظ بعض السجع والتوازن بين الجمل ، وتكرار المعنى الواحد في صيغ مختلفة ؛ وهو ضرب من الترادف المعنوي يقصد منه التأثير في عواطف المخاطبين .

وبجدر بنا ، أخي الطالب ، أن نذكر ما للوعاظ من منزلة في العصر الأموي ، فكان سلطانهم على الناس قوياً ، وكان الولاة والعمال يحملونهم ، وكان الخلفاء يقربونهم ، فعمرو بن عبد العزيز كان يحرص على سماع مواعظ الحسن البصري ، وكان أبو حازم الأعرج كثيراً ما يزور الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ويعظه .

تدريب (7)



لماذا ازدهرت الخطابة الدينية في العصر الأموي ؟

سؤال التقويم الذاتي (8)



ما خصائص الخطابة الدينية في العصر الأموي ؟ حاول ، أخي الطالب ، أن تدعم إجابتك بأمثلة من بعض الخطب .

ثالثاً : خطابة المحافل والوفود

وهذا اللون من الخطابة عرفه العرب في جاهليتهم ، كما مر بك أخي الطالب ، كتلك الخطب التي كانت تُلقى أمام أمراء الغساسنة والمانذرة ، أو تلك التي كانت تقال في الصلح بين القبائل ، أو في المنافرات .. وبعد فتح مكة ، أخذت الوفود تتوالى على رسول الله (ص) ؛ فيخطب بعضهم بين يديه . وكانوا يخطبون كذلك في وفاداتهم على الخلفاء الراشدين . أما في عصر بني أمية ، فقد نشطت خطابة المحافل وازدهرت ؛ بسبب وجود طائفة من الخطباء المصاقع ، ولأن الأمويين وولاتهم فتحو أبوابهم لوفود العرب التي كانت تؤم حواضر الدولة لإعلان ولاء وطاعة ، أو لتظلم وشكوى . وكان سحبان وائل من الخطباء الذين عرفوا بوفاداتهم على معاوية ، وهو صاحب « الشوهار » ، وهي خطبة سميت بذلك لحسنها ؛ وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ، ولم يخطب خطيب . ومن الخطباء الأحنف بن قيس ، خطيب تميم ، وعبد العزيز بن زرارة الكلامي الذي يذكر الجاحظ أنه لما وصل إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم أزل أستدل بالمعروف عليك ، وأمتطي النهار إليك ، فإذا ألقى بي الليل ، فقبض البصر ، وعني الأثر ، أقام بدني وسافر أمني

والنفسُ تلومُ ، والاجتهاد يعذر، فإذا قد بلغتكَ فَعَطْنِي « (الجاحظ، 1948، ج 2، ص 76). وهي خطبة قصيرة موجزة بليغة، دقيقة التعبير، جميلة التصوير. والمتتبع لخطب المحافل يرى غلبة القصر والإيجاز عليها، وإن خرج بعضهم على ذلك. كما يحس بالتأنق وإجادة الصنعة، ولذا نجد سجعاً في بعضها، ومن ذلك خطبة الأحنف بن قيس التي ألقاها بين يدي معاربة يشكو ما وصلت إليه حال أهل البصرة، ومنها: «يا أمير المؤمنين، أهل البصرة عدد يسير، وعظم كسير ومع تتابع من المحول، واتصال من الذحول، فالمكثر فيها قد أطرق، والمقل قد أملق ..» (صفوت، 1933، ج 2، ص 363).

وقد كثرت الوفادات على عبد المالك بن مروان، ولعل ذلك راجع إلى كثرة الفتن والثورات أيامه. أما الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقد كثرت وفادات الوعاظ على بابه، ومنهم: خالد بن صفوان ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما. ويذكر الجاحظ أنهم «كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع أي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقّة، وسلس الموقع. قال الهيثم بن عدي: قال عمران بن حطان: إن أول خطبة خطبتها، عند زياد: أو عند ابن زياد - فأعجب بها الناس، وشهدها عمي وأبي. ثم إنني مررت ببعض المجالس، فسمعت رجلاً يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن» (الجاحظ، 1948، ج 1، ص 118).

وكان لخطب الوفادات آداب خاصة ومراسم معنية، فينبغي أن يكون المتكلم من ذوي السن والمنزلة في القوم، وأن تكون له هيئة حسنة، وأن يرتبدي ما يليق بمن يمثل بين يدي الخليفة أو الأمير (انظر النص، 1963، ص 224).

سؤال التقويم الذاتي (9)

نشطت خطابة المحافل والوفادات في العصر الأموي، بين سبب ذلك ثم اذكر أسماء ثلاثة خطباء كثرت وفادتهم على الخلفاء.

الأخمين بن يحيى
سبابة وأبى
عمر العزيز بن زبارة



3.3 أعلام الخطابة في العصر الأموي

1.3.3 زياد بن أبيه البراء

ولد زياد في مدينة الطائف قبيل الهجرة لجارية اسمها سمية كانت للحارث بن كلدة الشقي المعروف بطيه. واختلف في والده فعده بعضهم الحارث، ورآه آخرون عبداً رومياً اسمه عبيد. وفي عهد عمرا

استلحقه أبو سفيان ، وادعى أبوته . وفي أيام عثمان ، اتخذه عبدالله بن عامر ، والي البصرة ، كاتباً له . وفي عهد علي ، جعله علي على خراج البصرة ، وأتابه عن ابن عباس ، واليها . ولما خرجت فارس على علي ، أرسله والياً عليها فاستطاع ، بليته ومداراته وحنكته ، أن يرأب الصدع . وبعد مقتل علي ، بقي على عهده لابنه الحسن الذي تنازل لمعاوية ؛ فحاول زياد الاعتصام بفارس ، غير أن معاوية بدهائه ، استطاع أن يدخله في طاعته ، بعد أن وسط لديه المغيرة بن شعبه الثقفي . ثم ولاء معاوية البصرة وخراسان وسجستان سنة 45 هـ . ولما مات المغيرة بن شعبه ، والي الكوفة ، ضمها معاوية لزياد ؛ فأصبح والياً على العراق كله ، وبقي كذلك حتى وفاته سنة 53 هـ .

كان زياد سياسياً بعيد النظر ، حازماً جريئاً حسن التدبير ، قال مرة : « ليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع فيه ، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر أن لا يقع فيه » (ابن عساكر ، 1330 هـ ، ج 5 ، ص 417) . ومما أوصى به الناس قوله : « استوصوا بثلاث فيكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ . فوالله لا يأتيني شيخ بحدثٍ استخفَّ به إلا أوجعته ، ولا يأتيني عالمٌ بجاهلٍ استخفَّ به إلا نكلتُ به ، ولا يأتيني شريفٌ بوضعٍ استخفَّ به إلا ضربته » (ابن عساكر ، 1330 هـ ، ج 5 ، ص 415) .

أما عن منزلته في الخطابة ، فقد نوه بها غير واحد من معاصريه ، ونكتفي بقول الشعبي : « ما سمعتُ متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببتُ أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً » (الجاحظ ، 1948 ، ج 2 ، ص 65) . ولعل من أشهر الخطب في العصر الأموي ، خطبته التي سميت « البتراء » ؛ لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد (الجاحظ ، 1948 ، ج 2 ، ص 6 ، 62) . وقد ألقاها في البصرة بعد الفساد الذي شهدته ، واضطراب الأمن والنظام ؛ وإليك ، عزيزي الطالب ، بعضاً من هذه الخطبة :

« أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغني الموفي بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يُقهر ويُؤخذ ماله .. ألم يكن منكم نهاية ، تمنع الغزاة عن دلج الليل ، وغارة النهار ؟ قرئتم القرابة ، وباعدتم الدين ! ... ما أنتم بالحلما ، وقد اتبعتم السفهاء .. حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإطراقاً .

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف . واني أقسم بالله لاأخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل بالمدير ، والمطيع بالعاصي حتى يلتقى الرجل منكم أخاه فيقول : « انج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لي قناتكم ... وإياي ودلج الليل فإني لا

أوتي بُدْلج إلا سفكت دمه .. وإياي ودعوى الجاهلية ، فإنني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ؛ وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه .. ومن نبش قبراً دفنناه حياً فيه ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم ، أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من أحد منكم ريباً بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ...

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم زادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا . ونذود عنكم بفيء الله الذي حوكننا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكن علينا العدل والإنصاف فيما ولىنا .. فادعوا الله بالصالح لأثمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهنكم الذي إليه تأرون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بفضهم ، فيشتد كذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يعين كلاً على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر ، فأنفذوه على أذلاله ، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي » (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص ص 270 - 274) .

عزيمي الطالب ، تلحظ أن زياداً بدأ خطبته مصوراً الفساد والذي كان عليه الناس في البصرة ، غير غافل عن تعنيف سامعيه حين عدد بعض مثالبهم نتيجة نبذهم كتاب الله ، وإيثارهم الفانية على دار الخلود . وفي الفقرة الثانية ، يبين لهم سياسته التي سيتبعها في الحكم : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف . ويحذرهم من الفتنة وعواقبها ، فهو سيأخذ البريء وبالمتهم ، ويستطيع لسان من يدعو إلى جاهلية . وما ذاك إلا لأنه رأى الفساد عم فيهم وانتشر . ويذكرهم في الفقرة الثالثة ، بحقه وحق المؤمنين في الحكم : فسلطانهم أعظام إياه الله ، وعلى الناس الطاعة ، ومن خرج عن الطاعة فليس له إلا السيف .

هصائص خطبه زياد :-
 (٣) ولعلك تلحظ ، أخي الطالب الحسن تقسيم الخطبة ، فكل ترتبط بأختها . (٤) وأفكاره واضحة مترابطة .
 أما أداؤه ، فموجز مكثف ؛ وتراكيبه متينة فصيحة . والأثر الاسلامي واضح في هذه الخطبة وخصوصاً في صدرها . وهو لا يستشهد في خطبته هذه بشعر ، كما أنه لا يحفل بسجع أو بصنعة متكلفة .

سؤال التقويم الذاتي (10)

اذكر ثلاثة أفكار رئيسة جاءت في خطبة زياد « البتراء » .



2.3.3 الأحنف بن قيس

اختلف في اسمه فقيل صخر ، وقيل الضحاك . لُقّب بالأحنف لحنف كان في رجله ، أي اعوجاج . ولد قبيل السنة الأولى للهجرة . ولا نعرف شيئاً عن نشأته الأولى ، حتى إذا كان عهد عمر بن الخطاب ، وجدناه يشارك في فتوح العراق وفارس بعد أن نزل البصرة مع بعض عشيرته من بني تميم . وقد قدم في وفد أهل البصرة إلى عمر سنة 17 هـ يشكون ما حل بهم بسبب سوء منزلتهم ، وقلة أرزاقهم ، فأعجب عمر بمنطقه ، وسوّده على بني تميم ، فبقيت له السيادة حتى مات (الحصري ، 1972 ، ج 3 ، ص 697 ، وانظر الجاحظ ، 1948 ، ج 1 ، ص 237 ، 254) .

وفي معركة الجمل ، اعتزل الأحنف الفريقين . وبعد انتصار علي ، بايعه الأحنف وقومه ، وبقي على ولائه لعلي حتى انتقل إلى رحمة الله ، فدخل الأحنف فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية . وكان معاوية ، طوال خلافته ، يدينه ويقره منه حين يفد إليه . وفي سنة 55 هـ ، كتب معاوية إلى الأمصار بالوفود عليه من أجل البيعة ليزيد ، فكان الأحنف في وفد أهل البصرة . ولما فرغ الخطباء من الثناء على يزيد ، قال الأحنف : « يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضاً ولهذه الأمة ، فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك ، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » (ابن عبد ربه ، 1982 ، ج 4 ، ص 370) .

وعندما توفي يزيد بن معاوية ، اضطر والي البصرة ، عبيد الله بن زياد ، إلى مغادرتها . وكادت تعصف بالمدينة فتنة قبلية بين الأزدي وقيم ، ولكن الأحنف تدخل فحقن الدماء ، وتحمل ديوات القتلى من الطرفين . ولما خضع العراق لابن الزبير ، دخل الأحنف وقومه في طاعته وقربه مصعب بن الزبير ، والي العراق لأخيه ، وحارب الأحنف معه ضد المختار الثقفي ، ثم لم يلبث أن انتقل إلى رحمة الله حوالي سنة 70 هـ .

لعل ^(١) الحلم أظهر صفات الأحنف حتى لقد ضُرب بحلمه المثل . وفي أخباره ما يدل على اعتزاله الفتنة . وإشارته السلم ، وعلى صراحة في القول . وقد عُرِفَ بفصاحته وقدرته الخطابية . ويُلاحظ أن خطبه كانت قصيرة موجزة ، ولكنه يبلغ فيها ما يريد . ولا نعدم أن نجد قليلاً من خطبه يعمد فيها إلى السجع . ولكنه غالباً ما يلجأ إلى الأسلوب المرسل ، ويعمد إلى التصوير .

ومن خطبه ، تلك التي قالها بعد موت يزيد بن معاوية حين نشبت الفتنة بين الأزدي وقيم في البصرة ، وأتهم التميميون بقتل مسعود بن عمرو الأزدي ، الذي استخلفه عبيد الله بن زياد على البصرة :

« يا معشر الأزدي وربيعة ، أنتم إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الصهر ، وأشقاؤنا في النسب ، وجيراننا في الدار ، وبدنا على العدو ، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام ، فإن استشرف شأنكم ، وأبى حسد صدوركم ، ففي أموالنا ، وسعة أحلامنا ، لنا ولك

سعة « (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص 233) .

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيد بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجاباً به ، فقال : يا أبا بحر ، ما تقول في الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عماد ظهورنا ، وقر قلوبنا ، وقرّة أعيننا ، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلف منا لمن بعدنا ، فكن بهم أرضاً ذليلة ، وسما ظليلة ، إن سألوك فأعظهم ، وإن استعتبوك فأعتبهم ، لا تمنعهم رقدك ، فيملوا قربك ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطنوا وفاتك » . فقال : لله درك يا أبا بحر ! هم كما وصفت . (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص 358) .

سؤال التقويم الذاتي (11)

ما الفكرة الرئيسية التي جاءت في خطبة الأحنف حين نشبت الفتنة بين الأزدي وقيم في البصرة ؟



3.3.3 الحسن البصري

هو أبو سعيد الحسن بن يسار ، كان والده يسار من سبي ميسان ، وقد صار بعد السبي ، مولى للصحابي الجليل زيد بن ثابت ، أما أمه فكانت تسمى « خيرة » وهي من السبايا أيضاً صارت بعد ذلك مولاة لأم سلمة زوج النبي (ص) وفي هذا البيت النبوي الكريم ، ولد الحسن سنة 21 هـ . وكانت أمه على جانب من المعرفة إذ اتصلت بأزواج النبي (ص) ، وكان لذلك أثر كبير في شخصية الحسن وهو كثيراً ما يروي عن أمه عن أم سلمة .

قضى الحسن البصري مرحلة طفولته في المدينة المنورة بين أصحاب رسول الله (ص) ، وكان يتردد على المسجد النبوي ويلتقي ببعض الصحابة ، رضوان الله عليهم ، ويسمع منهم ؛ فحفظ القرآن الكريم وكثيراً من أحاديث النبي (ص) ومن أقوال الصحابة . كما تعلم الكتابة وضبط الحساب ؛ مما أهله لأن يكون ، فيما بعد ، كاتباً للربيع بن زياد الحارثي ، والي خراسان .

انتقل الحسن مع أسرته إلى البصرة في خلافة علي سنة 36 هـ . وقد نأى الحسن بنفسه عن المشاركة في الأحداث السياسية والفتن . وبعد أن آل الأمر إلى معاوية ، خرج الحسن مع جيوش الفتح في الشرق ، وعمل كاتباً لوالي خراسان ، وبقي هناك حوالي عشر سنوات ثم عاد إلى البصرة وظل فيها حتى وفاته سنة 110 هـ وكان في أثناء ذلك قد ندب نفسه للدرس الديني حتى أصبح أكبر واعظ في البصرة زمن الحجاج . « ويكبره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذي لم يكن يتعمّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب

الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية في المدينة دار النبوة ، ومن ثم أخذت الفرق الدينية تتنازعه ، حتى تسوِّغ آراءها في عقول الناس ، فكل فرقة تنسب إليه من عقائدها ما يجعله ينظم بين روادها الأولين ، فالجبرية يقولون إنه كان ينفي حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شيء بقضاء الله ، ويقول القدرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار في أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم » (ضيف ، 1963 ، ص 446) .

والحق أنه كان زاهداً ، وقد تولَّى القضاء للخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ، وكان الحسن بليغ القول ، ينطق بالحكمة : ويُذكر أن الحجاج كان يقول : « أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة ، إذا شاء خطب ، وإذا شاء سكت » (الجاحظ ، 1948 ، ج 1 ، ص 398) .

وتدور عظات الحسن في مجملها على التذكير بحقيقة الموت والتزود للآخرة ، ولذا فكثيراً ما يجنح إلى ذم الدنيا وما فيها من متاع زائل ، كما كان يحرص على تقوية الوازع الديني في الفرد ، وعلى الحث على مكارم الأخلاق ، والحض على التمسك بكتاب الله والعمل به . وطبعي أن يمزج الحسن عظاته بأي الذكر الحكيم ، وبأحاديث رسول الله (ص) . ويرى الدكتور شوقي ضيف أنه « بلا ريب أكبر من ثبُتوا في هذا العصر (العصر الأموي) ذلك الأسلوب الموفق الذي تأثر به عبد الحميد ومن خلفوه من الكتاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة » (ضيف ، 1963 ، ص 450) . وقد مرت بك ، أخي الطالب ، في بابه الخطب الدينية ، خطبة وعظ قالها الحسن البصري ؛ فعد إليها . وإليك ، أخي الطالب ، خطبة أخرى له في الوعظ :

« يا ابن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، مؤمن مهتم وعلج اغتم ، وأعرابي لا فقه له ، ومنافق مكذِّب ، ودنياوي مُترَف ، ونعق بهم ناعقٌ فاتبعوه ، فراش نار ، وذِبَّان طمع . والذي نفس الحسن بيده ، ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن راحةٌ دون لقاء الله . الناس ما داموا في عافيةٍ مستورون ، فإذا نزل بلاء صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه . أي قوم ، إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحةٌ دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همّه » (صفوت ، 1933 ، ج 2 ، ص 490) .

نشاط ذاتي :

أخي الطالب ، أعد قراءة هذه العظة وتبيّن الفكرة الرئيسة فيها ، وعلق على بعض ملامحها الأسلوبية.



سؤال التقويم الذاتي (12)

اكتب ، أخي الطالب ، مقالة قصيرة تتحدث فيها عن الحسن البصري .



4. الخطابة في العصر العباسي

لعلك تدرك ، عزيزي الطالب ، أن الخطابة في بداية العصر العباسي قد بقيت مزدهرة شأنها في ذلك شأن الخطابة في العصر الأموي ؛ ذلك أن جميع عوامل ازدهارها في العصر الأموي كانت ما زالت ماثلة في بداية العصر العباسي . إلا أن ذلك لم يستمر طوال العصر العباسي ، فقد تراجعت الخطابة بصورة عامة ، وتقدمت فنون نثرية تأليفية متعددة ، فلم تبق الخطابة السياسية أو الحفلية أو غيرها تحظى بما كانت تحظى به من قبل .

وقد كان من أهم عوامل ازدهار الخطابة في بداية هذا العصر انتقال الحكم إلى أيدي العباسيين الذين عملوا على كسب التأييد السياسي ، وقام خلفاؤهم الأوائل أمثال أبي العباس السفاح ، وأبي جعفر المنصور ، وهارون الرشيد وغيرهم باستمالة الناس في خطبهم إلى العباسيين بعامية ؛ فعرضوا بحكم بني أمية وفضحوا ممارساتهم في الزمن الذي سبق حكم العباسيين ، كما أخذوا فتننة الشيعة وتصدوا لهم بالسيف واللسان معاً . وجهدوا في بيان الأسس التي سيحكمون الناس عليها .

وتعددت موضوعات الخطابة في العصر العباسي وعلى الأخص في بدايته ، فكانت تشتمل على توطيد ملك بني العباس ، وتأييد حقهم في الخلافة ، ومنها ما كان في الحض على القتال وتحميس الجند ، أو استقبال الوفود ، وغير ذلك . إلا أن فتوراً اعتري تلك الموضوعات بعد استقرار الدولة واختلاط العرب بالعجم ، وبعد أن أسندت الولاية والقيادة إلى عدد من الموالى ، ولهذا ضعف شأن الخطابة ، وحلت محلها الكتابة في كثير من الأحيان .

والآن ، دعنا ، عزيزي الطالب ، نعرض لأهم موضوعات الخطابة في هذا العصر .

1.4 موضوعات الخطابة

1.1.4 الخطابة السياسية

تعلم ، عزيزي الدارس ، أن العباسيين تمكنوا من القضاء على دولة بني أمية مع نهاية الثلث الأول من القرن الثاني الهجري - بمساعدة العلويين أو الشيعة - بقيادة أبي مسلم الخراساني . فلما استقر الأمر لهم نازعهم العلويون أمر الخلافة ، وأخذوا يطالبون بها ، فكانت مهمة العباسيين ، وعلى الأخص ، الخلفاء الأوائل منهم أن يتنبهوا على عدد من المسائل في خطبهم التي ألقوها في المواقف الحاسمة . فقد هدفوا إلى بيان

مساوي بني أمية والظعن عليهم وتجريح مرحلة حكمهم ، وإلى التعريض بالشيعة ، وعلى الأخص ، الغلاة منهم حتى لا يطالبوا بأمر الخلافة ، كما انصبت خطبهم على بيان سياستهم في الحكم .

فهذا أبو العباس السفاح ، أول خليفة عباسي بويح بالخلافة في الكوفة ، يقف خطيباً في الناس على إثر تلك البيعة ، فينهال على ذكر مساوي بني أمية ، ثم يتلو الآيات القرآنية الخاصة بأهل بيت النبوة ، مثل (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) (الأحزاب ، آية رقم 33) . ثم يعرض بالشيعة قائلاً « وزعمت السبيثة الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بم ولم أيها الناس . ونا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم . وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر » (الطبري ، 1961 ، ج 6 ، ص 81) .

فهو يبين حق العباسيين في الخلافة ويدعمه بالآيات القرآنية ، ويظهر مساوي الأمويين في حكمهم ، وفي الوقت ذاته يتهم الشيعة بالغلو ، وتأثرهم بعبد الله بن سبأ وأفكاره . وكان ابن سبأ هذا قد ادعى الوهية علي بن أبي طالب في خلافته .

وقد اشتهر من خطباء بني العباس داود بن علي ، عم السفاح ، وشبيب بن شيبه ولم يكونا خليفتين ، وكانت خطبهما تؤكد ما ذهب إليه الخلفاء من أسس ومبادئ . ويقول الجاحظ عن داود بن علي إنه « كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً ، واقتضاباً للقول ، ويقال إنه لم يتقدم في تحبير خطبة قط ، وله كلام كثير معروف محفوظ فمن ذلك خطبته على أهل مكة ، شكراً شكراً ، أما والله ما خرجنا لنحتفر فيكم نهراً ، ولا نبني فيكم قصراً ، أظن عدو الله أن لن نظفر به أن أرخى له في زمامه ، حتى عثر في فضل خطامه ، فالآن عاد الأمر إلى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوس باربها ، وعادت النبل إلى النزعة . ورجع الحق إلى مستقره ، في أهل بيت نبيكم : أهل بيت الرأفة والرحمة » (الجاحظ ، 1948 ، ج 1 ، ص 331 - 332) .

وهذه خطبة أطول من ذلك وستجدها ، عزيزي ، الطالب ، كاملة في نهاية هذا الفصل ، لأنها تدل على مستوى ما بلغت الخطابة من الناحية الفنية على يدي داود بن علي الذي يعد من أعظم خطباء السياسة العباسية .

وكانت لأبي جعفر المنصور خطب سياسية مماثلة ، ولم يكن في العباسيين أبين منه ولا أخطب . فاستمع إليه وقد خطب في الناس بعد أن قتل أبا مسلم الخراساني ، فقال : « أيها الناس : لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تُسرّوا غش الأئمة ، فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده ، أو فلتات لسانه ، وأبداها الله لإمامه ، لإعزاز دينه وأعلاء حقه . إنا لن نبخسكم حقوقكم . ولن نبخس الدين حقه ، إن من نازعنا عروة هذا القميص أجززناه خبي هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بايعنا ، وبايع الناس لنا ،

على أن من نكث فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمتنا عليه حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له ، من إقامة الحق عليه « (صفوت ، 1934 ، ج 3 ، ص 31) .

فهذه خطبة تبين نهج الخلفاء العباسيين في القضاء على خصومهم باحتجاجهم بأنهم أصحاب الرياسة ، وهم الأئمة فلا يجوز الخروج عليهم ، فالفتك بهؤلاء الخارجين هو مبدأ إقامة الحق .

على أن الخطابة السياسية ضعفت وتراجعت وذلك بعد أن استقر الأمر لبني العباس ، ولاحقوا خصومهم في كل الأماكن وقضوا على المعارضة بأشكالها المتعددة . ولكن « عادت الخطابة السياسية إلى الظهور في فتنة الأمين وحروبه مع أخيه المأمون ، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة في العصر الأموي ، وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه » (ضيف ، د. ت. ، ص 450) .

2.1.4 الخطابة الحفلية أو خطابة الوفادة

لم تعد خطب الوفادة على الخلفاء لها ذلك الرونق وتلك الأهمية التي كنا نجدها في العصر الأموي ؛ فقد ندر أن نجد وفوداً من العرب تأتي إلى الخليفة في المناسبات كما كان الأمر في العصر الأموي . ذلك أن الحجب أسدلت بين الخليفة والرعية فاقتصر الخطابة الحفلية على مناسبات محددة ، ومن ذلك وفود أهل الشام على المنصور بعد استقامتهم (أبو زهرة ، 1980 ، ص 334) . ومن الأمثلة على هذه الخطب قول ابن عتبة للمهدي يهنئه بالخلافة ويعزّيه في أبيه المنصور « أجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا يصيبه أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقبى أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية واحتسب عنده أعظم الرزّة » (الجاحظ ، 1948 ، ج 2 ، ص 192) .

وكانت الخطبة الحفلية عادة تلقى في حفل كبير يحضره القادة وكبار رجال الدولة عند تولي أحد الخلفاء مقاليد الحكم ، ولكن هذا النوع من الخطب أصبح شيئاً نادراً فيما بعد حين ضعف شأن الخلافة وكثرت الدويلات في إطار الدولة العربية الكبرى .

3.1.4 الخطابة الدينية

تدرك ، عزيزي الطالب ، أن الإسلام بتعاليمه وعباراته قد حافظ على خطب دورية مثل خطبة الجمعة أو خطب العيدين ؛ لذلك بقي للخطابة الدينية رونقها على مرّ التاريخ وتتابع الدول .

فقد كان الخليفة في بداية الأمر هو الذي يخاطب بالناس الجمعة والعيدين وربما خطب فيهم خطبة دينية في غير مناسبة ، ففي كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه نجد خطبة دينية للمهدي (ابن عبد ربه ، 1982 ، ج 4 ، ص 101) كما نجد فيه خطبة أخرى رائعة للرشيد يقول فيها : « عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى ، حصّوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له » إنكم سقرٌ مجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالإنابة ، فإن الله ، تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين » (ابن عبد ربه ، 1982 ، ج 4 ، ص 103) . هارون الرشيد الخطيب من سمرقند

إن هذا الخليفة ذاته سن سنة أضعفت الخطابة الدينية على السنة الخلفاء وذلك حين طلب إلى الأصمعي أن يعد لابنه الأمين خطبة يخاطب بها يوم الجمعة . وبعد ذلك ، ضعفت الخطابة الدينية على لسان الولاة والخلفاء لكنها أبنعت في بيئة الرعايا والنساک الذين كانت تزخر بهم المساجد في الحواضر الإسلامية في العصر العباسي .

فقد أنشأ هؤلاء الرعايا والنساک خطباً ومواعظ كانوا يلقونها على الناس وقد يخصون ببعضها الخليفة حتى أصبح بعضهم وعاظاً للخلفاء ، فقد كان عمرو بن عبید المعتزلي الزاهد المشهور واعظ الخليفة المنصور ، وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي ، وابن السماك واعظ الرشيد ، وإليك ، عزيزي الطالب ، طرفاً من مرعظة لابن السماك قالها في حضرة الرشيد وقد قال له يوماً : عظني ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقف غداً بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما : جنة أو نار ، فبكى هارون حتى اخضلت لحبته » (الطبري ، 1961 ، ج 6 ، ص 538) .

ثم تنوعت أشكال هذه المواعظ وأساليبها حتى أصبحت في العصر العباسي الثاني فناً نشراً يميل إلى الكتابة المطولة كما رأينا عند أبي العلاء المعري في « الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ » . وعند أبي حيان التوحيدي في الإشارات الإلهية .

« وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائماً من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول الكريم ، وأقوال الصحابة ومن سبقوهم إلى الوعاظ في العصر الأموي من مثل الحسن البصري . ودائماً تبهرنا مواعظهم لما أشاعوا فيها من إيمان شديد بالدين وثقة وطيدة بأن ما عند الله خير وأبقى مما في أيدي الناس من متاع الحياة الزائل » (ضيف ، د. ت. ، ص 454) .

وتفرع عن هذه المواعظ خطب القصاص أمثال موسى بن سيار الأسواري وصالح المري وأبي العباس الضرير وغيرهم ، ممن كانوا يفيدون من قصص القرآن الكريم وقصص الأولين في مواعظهم تلك .

4.1.4 خطب الجهاد

علمت ، عزيزي الطالب ، أن الخطابة على اختلاف أنواعها ، قد تراجعت في العصر العباسي الثاني لأسباب مختلفة ، ولم يعد بمقدورنا الحديث عن خطب لها شأن كبير إلا ما كان من الخطب الدينية التي لم تسلم هي الأخرى من التكرار والتقليد ، فأصبح بعض الخطباء ، يحفظون خطب الأسلاف ويلفونها استظهاراً في مواقف الجمعة والأعياد .

لكن الخطابة في بلاط سيف الدولة كان لها شأن آخر ؛ إذ وجدنا الحركة الأدبية في بلاطه تبرز في الراجحة بعض الخطباء أمثال ابن نباتة الذي ألهم حماس المسلمين في خطبه الجهادية فجعلهم يلبون داعي الجهاد خلف سيف الدولة ،

حمله ابن نباتة

واستمع ، عزيزي الطالب ، إلى خطبته التي استهلها بالبسملة والتحميد والصلاة على النبي الكريم ، والحديث عن بعثته وأثرها ، وانتهى إلى موضوع الخطبة المتمثل في الدعوة إلى الجهاد ، فقال في بدايتها مذكراً بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم .. » ثم قال « ألا وإن الجهاد كنز وفر الله منه أقسامكم ، وحرز طهر الله به أجسامكم ، وعز أظهر الله به إسلامكم ، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، فانفروا رحمكم الله ، جميعاً وثبات ، وشنوا على أعدائكم الغارات ، وأخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النيات ، فإنه والله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا ، ولا قعدوا عن صون ذمارهم إلا اضمحلوا ، واعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد ، كما لا يصلح السفر بغير زاد .. » .

فإن نباتة يحث الناس على الجهاد ، بأن يوضح لهم شرف قيامهم على أمر هذا الدين ، ودوره في تثبيت عزهم وكرامتهم ، كما يبين لهم أن العزة لا تكون بترك الجهاد بل هي في الخروج إلى الأعداء قبل أن يدهموا المسلمين في ديارهم .



2.4 الخصائص الفنية للخطابة في العصر العباسي

لعلك تدرك ، عزيزي الطالب ، أنه لا يسهل الحديث عن خصائص فنية محددة للخطابة في هذا العصر على امتداده ذلك أن الخطب في بدايته لم تكن تنسج على منوال الخطب المتأخرة فلكل موضوع ، وفي كل مرحلة يبرز أسلوب خطابي وسمات فنية خاصة ، ولكن على الرغم من ذلك نستطيع أن نجمل القول في أظهر الخصائص الفنية للخطابة العباسية ، ومنها :

1 - الأسلوب النمطي : فقد كانت الخطبة ، بعامتها ، تبدأ بالحمد لله والصلاة على الرسول (ص) وذلك من ضمن ديباجة قد تطول وقد تقصر تبعاً للموقف .

2 - الإطناب والتكرار : غلبت هذه السمة على الخطب الدينية على امتداد العصر ، فلم يكن الخطباء الوعاظ في المساجد يميلون إلى الإيجاز بل حَبَدُوا الإطناب والتكرار ، مما أدى إلى كثرة الاستشهاد بالآيات والأحاديث مع الإسهاب بالوعظ ، وقد زاد ذلك كثيراً حتى كتبت خطب طويلة جداً كالتي وجدناها عند الترحيدي في الإشارات الإلهية وعند المعري في الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ وعند الحلّاج في كتابه الطواسين .

3 - استخدام الفنون البديعية بكثرة : فقد امتازت الخطب العباسية ، وعلى الأخص في العهد المتأخرة ، باستخدام البديع كالجئاس والسجع والاقْتباس والتضمين وذلك لمجده عند ابن نباتة وغيره .

4 - أصبحت الخطابة فناً أصيلاً يحتاج إلى تخصص ، فقد كان صاحبها يكتبها ويعيد النظر فيها بدقة قبل الإلقاء . حتى إن كثيرين أصبحوا يحترفون الخطابة فسموا بذلك أمثال الخطيب البغدادي والخطيب التبريزي وابن نباتة الخطيب .

5 - امتازت الخطابة ، وعلى الأخص خطب الجهاد بأثرها الكبير في النفوس ، وعلى امتداد العصر ، فمن خطب الجهاد نعد تلك الخطبة التي ألقاها داود بن علي في بداية الدولة العباسية . وخطب الفاتحين للبلاد الجديدة . ومنها خطب ابن نباتة في بلاط سيف الدولة في حث الجند على الجهاد والدفاع عن حدود الدولة الإسلامية .

وبعد أن استعرضنا الخصائص الفنية للخطابة في هذا العصر يحسن بنا أن نشير إلى أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الخطابة العباسية بعامة وتراجعها .

3.4 أسباب ضعف الخطابة العباسية بعامة

وتراجعها بعد المئة الأولى من حكمهم

تضافرت مجموعة من العوامل والأسباب أدت إلى ضعف الخطابة بعامة في هذا العصر منها :

- 1 - ضعفت الدواعي إلى القول بعد أن ثبتت دعائم دولة بني العباس ، وقامت أركانها قوية ، وقل عدد الخارجين عليها ؛ فقد قضى العباسيون على الأمويين ومن ثم على العلويين ، كما قلّ الخلاف بين العباسيين أنفسهم فلم تعد دواعي الخطابة السياسية قائمة .
- 2 - غلبت على الجند « حماة الدولة » العجمية ، فاعتمد العباسيون على الأتراك والفرس وغيرهم من الأجناس غير العربية ، فلم تبق هناك عصبية قبلية تذكي الحماسة في نفوس أتباعها ، كما أن الجندي غير العربي لم تعد بلاغة الخطباء تعنيه لأنه لا يستطيع التفاعل معها بسهولة .
- 3 - ضعف أمر العرب ، وذهب سلطانهم ، وضاع نفوذهم ، وكادوا ينحازون إلى صحرائهم فلا يتجاوزونها . ويضعف العرب ، وهم أهل الفصاحة والبيان واللسن والارتجال ضعفت الخطابة ؛ لأنهم أقدر الناس على هذا الفن النثري .
- 4 - حلت الكتابة محل الخطابة ، فاتسعت موضوعاتها ، وتعددت أغراضها حتى صار الخليفة أو الوالي أو القائد ، إذا أراد أن يدعو من هم تحته إلى شيء أناب كتابه عن خطابه . فأرسل إليهم كتاباً يقرأ ، ولم يدعهم إليه ليخطب فيهم .
- 5 - أدى قعود الخلفاء عن الخطابة ، وإنابة غيرهم عنهم في الصلاة بالناس إلى استهانة الناس بمواقف الخطابة تقليداً للخلفاء . ومحاكاة للأمرء ، وكانت بداية هذا الأمر حين طلب الرشيد إلى الأصمعي أن يصنع خطبة الجمعة للأمين .

وبعد :

فإنه يمكن القول ، عزيزي الطالب ، إن تراجع الخطابة في هذا العصر كان لمصلحة فنون نثرية كتابية في المقام الأول ، وكان لمصلحة فن قولي آخر هو فن المناظرة الذي ازدهر بشكل لم يكن عليه من قبل . فالمناظرة تتفق مع الخطابة في الارتجال ومحاولة التغلب على الخصم - إن وجد - بالبيان ، والسبق باللسان ، لكنها

تخالف في الموضوع . ولعل المناظرة أقرب إلى العلوم التي انتشرت إذ ذاك من الخطابة ؛ لذلك اهتمت الفرق الكلامية بالمناظرة أكثر من اهتمامها بالخطابة . فاعتمد الجدل بينهم على فن المناظرة لأنه أقرب إلى العقل من الخطابة التي تعتمد الإثارة والانفعال أكثر من اعتمادها الحجج والبراهين .

تدريب (9)

اذكر أهم الأسباب والعوامل التي أدت إلى ضعف الخطابة في العصر العباسي بعامه .



نشاط :

ارجع إلى خطبة داود بن علي المرفقة واستخلص أهم خصائصها الفنية .



4.4 أشهر الخطب والخطباء في هذا العصر

نعثر في هذا العصر على مجموعة من الخطب الحاسمة التي كان لها أثر سياسي بالغ ، تبعاً لأهميتها ولأهمية الخطباء الذين صدرت عنهم مثل تلك الخطب .

فمن أشهر تلك الخطب ، خطب أبي العباس السفاح بعد توليه الخلافة في الكوفة ، وما قَدَّم من توضيح لمنهجه في سياسة الناس ومن طعن في بني أمية ، وتهديد للشيعة .

وكذلك عضدت هذه الخطب ، خطب عمه داود بن علي الذي كان خطيباً مفوهاً امتدحه الجاحظ وذكر جانباً من فضله في هذا الباب ، فقد كان عوناً للسفاح في خطبه ، وكان ينقذه في المواقف التي يتعسر عليه الكلام فيها ، ومن أشهر خطبه تلك الخطبة التي ناب فيها عن الخليفة السفاح وقد أرتج عليه بعد تنصيبه ، ولم يستطع الكلام .

ولك أن ترجع ، عزيزي الدارس ، إلى تلك الخطب في - جمهرة خطب العرب - الجزء الثالث حين جمعت هناك .

وكان المنصور كذلك من الخطباء السياسيين ، وكان يتمتع باللسن والفصاحة ، وقد رويت له خطب بعد مقتل النفس الزكية . محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ، وقد كان هذا الإمام أيضاً من الخطباء المفوهين . وله خطب يتف بها يوجه العباسيين ، كما خطب المنصور خطبة شهيرة بعد قتله لأبي مسلم الخراساني .

2- خطبة داود بن عليّ

« الحمد لله ، شكراً شكراً شكراً ، الذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس : الآن أقتسعت⁽¹⁾ حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها وبرز القمر من مبرزه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى النزعة⁽²⁾ . ورجع الحق إلى نصابه⁽³⁾ ، في أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيها الناس : إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ، ولا عقياناً⁽⁴⁾ ، ولا نحفر نهراً ، ولا نبني قصرأ ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقناً ، والغضب لبني عما ، وما كرثنا⁽⁵⁾ من أموركم ، وبهظنا من شئونكم ، ولقد كان أموركم تُرمضنا⁽⁶⁾ ونحن على فُرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيثكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تبتاً تبتاً لبني حرب بن أمية وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأثام ، وأنهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في البلاد ، التي بها استلذوا تسريل الأوزار ، وتجلب الأصار⁽⁷⁾ ، ومرحوا في أعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الغي ، جهلاً باستدراج الله ، وأمناً لمكر الله ، فاتاهم بأس الله بيئاتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ، ومزقوا كل مُزق ، فبعداً للقوم الظالمين وأدالنا⁽⁸⁾ الله من مروان ، وقد غره بالله الغرور ، أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه ، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، فنادى حزيه ، وجمع مكايده ، ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه وورا ، وعن يمينه وشماله ، من مكر الله وبأسه ونقمته ، ما أمات باطله ، ومحق ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزمتنا ، ورد إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين - نصره الله نصراً عزيزاً - إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، أنه كره⁽⁹⁾

(1) قشعت الريح السحاب : كشفته كأقشعته فأقشع والقشع وتقشع ، والحنادس جمع حندس بكسر الحاء والدال وهو الظلمة .

(2) جمع نازع : وهو الرامي يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم ؛ وصار الأمر إلى النزعة أي قام بإصلاحه أهل الآفة ، وعاد السهم إلى النزعة : وجمع الحق إلى أهله .

(3) أصله .

(4) ذهباً .

(5) كثره الغم كضرب ونصر : اشتد عليه كأكرثة .

(6) أرمضه : أوجعه وأحرقه ، وأمراض الحر القوم : اشتد عليه فأذاهم .

(7) جمع إصر كحمل وهو الذنب .

(8) نصرنا عليه .

(9) أي لأنه كره .

أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن أسحنفر الخطيب (1) فيه شدة الوعك ،
وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أدلكم الله بمروان عدو الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة
الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، بإبدال الدين ، وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب (2) المتكهل المتمهل ،
المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار ، الذي أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ، ومناهج التقوى « - فجع
الناس له بالدعاء - ثم قال :

« يا أهل الكوفة : إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل
خُرَاسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج (3) بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه
تتشوقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيّض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم
السلطان وعز الإسلام ، ومنّ عليكم بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الإيالة (4) ، فخذوا ما آتاكم الله
بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تخذعوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم
مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن
أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا
ليس بخارج منا ، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلاتنا
وأولانا »

(تاريخ العامري 9 : 126 ، وشرح ابن أبي الحديد م 2 : ص 213)

أما أشهر الخطباء من غير الخلفاء فعلى رأسهم خالد بن صفوان وابن عمه شبيب بن شيبه . وقد برز من
الخطباء العباسيين ابن نباتة السعدي الخطيب الذي ألهم حماسة جيش سيف الدولة في حروبه مع الروم ، وكان
مثالاً للخطباء من بعد إذ جمعوا خطبه في مرحلة تالية وأصبح لزاماً على الخطيب أن يطلع عليها إن هو
أراد أن يعرف أساليب الخطابة الناجحة .

ومن الخطباء الذين مالوا إلى القصص ، صالح المري الذي تحدث عنه الجاحظ كثيراً في كتابه « البيان
والتبيين » وكان من أوائل خطباء هذا الاتجاه ، وكان يفيد من القصص القرآني وأحاديث الرسول (ص) في
خطبه .

(1) اسحنفر الخطيب : اتسع في كلامه .

(2) كانت سنة حين ولي الخلافة 28 رذ ولد سنة 104 هـ .

(3) نصر .

(4) آل الملك رعيته إبالاً : صامحهم ، وآل على القوم وإباله : ولي .

وعندما اتجهت الخطابة إلى المواعظ المكتوبة والمطولة وجدنا كتباً كاملة تستخدم أسلوب الابتهاالات الدينية عند مجموعة من الأدباء والمفكرين والمتصرفة أمثال أبي العلاء المعري ، وأبي حيان التوحيدي والحلاج .

أسئلة التقييم الذاتي (13)



1. عدد أهم موضوعات الخطابة في العصر العباسي ، وتحدث في واحد منها باختصار .
2. علل ازدهار الخطابة الدينية بشكل خاص في هذا العصر أمام تراجع أنواع الخطابة الأخرى .
3. اذكر أسماء ثلاثة من خطباء السياسة في العصر العباسي .
4. اذكر الخصائص الفنية للخطابة العباسية مع الاستشهاد بأمثلة .

5. الخطابة في عصر الحروب الصليبية

أشرنا في المحاضرة السابقة إلى أن الخطابة تراجعت بعد المئة الأولى من العصر العباسي ؛ فعدت نمطية محددة لا تقدر على الارتقاء لتوازي الفنون الأدبية الأخرى من حيث الجودة والتأثير . وذكرنا أسباباً متعددة أدت إلى ذلك . ولعل الأمر في ذلك ينطبق إلى حد كبير على الخطابة في زمن الحروب الصليبية أو زمن الدول والإمارات المفككة ، وزمن المماليك . وعلاوة على ذلك ، فقد انحسرت موضوعاتها وتقلصت مجالاتها فيما اتسمت خصائصها - في الغالب - بالتزويق والصنعة اللفظية .

1.5 موضوعات الخطابة في هذا العصر

إن موضوعات الخطابة في عصر الدول والإمارات ، وفي زمن الحروب الصليبية انحصرت في الموضوعات الدينية بشكل ملحوظ ؛ فأصبحت مقتصرة على المواعظ والابتهالات - في الأغلب الأعم - ثم توجهت وجهة أخرى إبان انهزام الصليبيين لتزدهر بشكل كبير في مجال خطب الجهاد والحث عليه وتمجيد الانتصارات .

1.1.5 المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب المساجد كل يوم جمعة وفي العيدين ؛ الفطر والأضحى ؛ لذلك كانت البلدان الإسلامية منذ تأسيس دولة الإسلام تروج بخطب الوعظ وإن لم نعر على خطب كثيرة منها في كتب الأدب ، فهذه الخطب تستعصي على الحصر لذلك عنيت بعض الكتب بشذرات منها .

وقد كانت المواعظ في بداية الأمر تلقى على لسان الخليفة أو الأمير ، لكن الأمر اختلف في زمن لاحق فأصبح هناك الخطباء المتخصصون في هذا المجال .

وعندما نزل الصليبيون الشام احتدم الوعظ لبث الحمية الدينية في النفوس حتى يجاهدوا في سبيل الله ، ويضربوا المعتدين ويستأصلوهم . وقد كانت خطب الوعظ قبل ذلك تذكر الناس بالآخرة وتحثهم على تصويب سلوكهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقامة جميع الفرائض ، ومن خطباء الشام في هذا المجال ابن نجبا خطيب دمشق المولود سنة 508 هـ والمتوفى بالقاهرة سنة 599 . ومنهم محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق وخطيبها . وهو الذي خطب أول خطبة جمعة صليت في القدس بعد الفتح . ومنهم المهذب الدمشقي الذي لقيه العماد الأصفهاني بدمشق سنة 571 هـ .

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسي . ومن خطباء دمشق ناصر الدين بن البارزي المتوفى سنة 823 الذي ولي خطابة الجامع الأموي زمناً . ويقول ابن حجة الحموي « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموي لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر في تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (فاتحتها) : الحمد لله الذي أيد محمداً لهجرته ، ونقله من أحبّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته » (خزانة الأدب ، ص 20) ومنهم ابن نباتة الفارقي وقد كان متقدماً في الزمن ، فكان سنة 350 في بلاط سيف الدولة بحث الناس على الجهاد إلى جانبه .

أما الوعاظ في مصر فمن أشهرهم ابن الحسن علي بن محمد البغدادي المتوفى سنة 338 هـ الذي استوطن الفسطاط . فقد كان يخطب خطب المواظ ببراءة فائقة . وكذا ابنه عبد العزيز الذي كان يخطب في الأزهر . ومن الوعاظ أيضاً ابن أبي الشخباء كاتب الدواوين زمن المستنصر .

وفي زمن الأيوبيين اشتهر إبراهيم بن منصور المتوفى سنة 596 إمام جامع عمرو ابن العاص في الفسطاط وخطيبه الذي وليه عليه ابنه محمد . وقد تحولت خطبهم من الوعظ إلى الحث على الجهاد . ويقول السبكي عن محمد هذا بأن له « ديوان خطب مشهور » (انظر في ترجمة ابن السبكي ، ج 7 ، ص 37) . وفي زمن المماليك نلتقي بابن منير الإسكندري المتوفى سنة 683 الذي تولى قضاء الإسكندرية ، خطابتها مرتين . ويقول صاحب فوات الوفيات « له ديوان خطب » . وكان يعاصره أخطب الخطباء قاطبة أيام المماليك- ابن دقيق العيد المتوفى سنة 702 هـ . الذي يقول عنه السبكي « له ديوان خطب مفرد معروف » .

وإذا عدنا إلى السيوطي في كتابه حسن المحاضرة وجدنا أسماء كبار الوعاظ الذين برع من بينهم كثير من الصوفية ؛ إذ كانت لهم طرق وأساليب في الوعظ والابتهالات مشهورة . ومنهم الدسوقي والبدوي وأبو العباس المرسي وأبو الحسن الشاذلي وابن عطاء الله السكندري وغيرهم .

2.1.5 خطب الجهاد

قد لا تنفصل خطب الحث على الجهاد كثيراً عن خطب الوعظ إذ كلاهما خطب دينية تركز على الترغيب والترهيب وبيان فضل المتصل بالله على المنقطع عنه ، لكن ازدهار الخطب الجهادية يكون في أثناء الأزمات الحقيقية مما يجعلها أكثر قوة وحماسة ، وأشد بلاغة ؛ لأنها تتحدث عن واقع ملموس يعاني منه الناس .

فعندما نزل الصليبيون إلى ديار المسلمين أصبح كثير من الخطباء يتجهون إلى تعبئة الناس في خطبهم؛ فانصرفوا عن الوعظ الخالص إلى الحث على الجهاد وقد كان هذا منذ بدايات الصراع مع الحملات

الصليبية المتقدمة . فمنذ أيام سيف الدولة كُنَّا نجد ابن نباتة الفارقي يحثُّ على الجهاد ، ووجدنا في زمن متأخر على ذلك خطب إبراهيم بن المنصور وولده محمد تحث على الجهاد . ولعله لم يبق إلا مجموعة محددة من الصوفية لا تشغل بقضية الجهاد فتبقى في إطار الوعظ والابتهالات الدينية التي تؤكد انفلاقها على نفسها وعدم مشاركتها الأحداث ، وهي قليلة إذا ما قيست بالحماسة التي وجدت عند كثير منهم ضد المستعمرين من أصحاب الصليب .

3.1.5 خُطْبُ تَخْلِيدِ الْإِنْتِصَارَاتِ وَتَمْجِيدِهَا

بقيت هذه الخطب دينية وعظيمة تتحدث عن نصر الله للمسلمين ، على أنهم لم ينالوا هذا النصر إلا بتقواهم واتحادهم ، لذلك تبقى هذه الخطب في إطار الوعظ من جهة وإن كانت تدخل في موضوع الجهاد ونتائجه . وقد قامت مجموعة كبيرة بإعداد خطب الانتصارات والتهناني ، ونقدم بعض الخطباء أول جمعة تقام في المسجد الأقصى بعد الفتح ؛ فانتُذِرُ القاضي محيي الدين بن زكي الدين ليلقي خطبته ، وكانت خطبة ممثلة لخطب الجهاد في ذلك العصر بحق . وسوف نأتي على ذكرها لتكون نموذجاً من خطب هذا العصر .

2.5 خصائص الخطابة في هذا العصر

قبل الحديث في خصائص الخطابة الفنية بتفصيل يجدر أن نحدد النمطين الفنيين اللذين سادا الخطابة في هذا العصر هما :

1 - **الخطبة الشفهية** : وهي التي كانت تلقى شفهاً حسب الطريقة المتبعة بالأسلوب التقليدي الذي عرفت عليه منذ العصر الجاهلي ، وهو أن يقف الخطيب على منبر أو منصة أو فوق أي مرتفع من الأرض ، ثم يلقي على مسامع الناس ما يريد أن يقوله لهم من الكلام ، مصحوباً بالحركات والسكنات والإشارات والإيماءات التي جرى على اصطناعها الخطباء بقصد التأثير في مشاعر الجماهير .

2 - **الخطبة المكتوبة** : وهي التي دأب على ذكرها المؤلفون بين يدي مصنفاتهم الأصولية والفقهية والتفسيرية والأدبية وغيرها . ومثلها أيضاً الخطب التي كانت تلقى بعد أن تكتب في شأن زواج أمير أو ابن سلطان من إحدى بنات الخلفاء أو الأمراء أو السلاطين . كخطبة الصداق التي كتبها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهرة للملك السعيد بركة ابن السلطان الملك الظاهرة بيبرس البندقداري على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالح الألفي الذي أضحي من بعد سلطاناً .

لم يكن بين الخطبة الشفهية والخطبة المكتوبة فرق كبير في الخصائص الفنية ، إلا أن الخطب المكتوبة كانت تطول أحياناً ولا يعد هذا من الفروق البعيدة .

أما أهم خصائص الخطابة في هذا العصر وباختصار فهي :

أولاً : ظهور النزعة الدينية بجلاء ، فإن خطب الرعظ كانت مرتبطة بالمعاني الدينية والعقيدة والموروث الديني بكل ما فيه من أفكار وعقائد . ولم يكن بمستطاع أن تزدهر الخطابة الوعظية إذا لم تكن النزعة الدينية جلية ظاهرة فيها . وكذا خطب الجهاد ، فليس بمقدور الخطيب أن يعرض للجهاد ضد الصليبيين أو غيرهم إذا لم يكن متسلحاً بالمعاني الدينية والآيات والأحاديث . وهذا يقودنا إلى السمة الأخرى من سمات الخطابة في هذا العصر .

ثانياً : التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، فلما استعرضنا خطب هذا العصر على اختلافها وعلى اختلاف الخطباء لوجدناها تحفل بالاعتباس المباشر من الآيات والأحاديث ، والتأثر بالمضامين بصورة لافتة للنظر ، ومن الأمثلة على ذلك - وهي كثيرة - ما يرد في خطبة لابن نباتة في شهر رمضان :

« عباد الله ، إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تحببوا صيامكم بالغبية والنميمة وقول الزور ... يا مفطراً بالجرام لأي شيء ، يكون الإفطار والسحور ، يا غافلاً عن طاعة الله ما هذه الغفلة والفتور ، يا هائماً في تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. يا مائلاً إلى زهرة الدنيا ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، يا عادلاً عن طرق الهدى من تهتدي ليوم النشور » (ابن خلكان ، ج 3 ، ص 156) .

فهذا المقطع يبدو منه التأثر بالقرآن الكريم ويقتبس فيه جملة من آية قرآنية « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » وغيرها كثير في الخطبة .

ومن الأمثلة على ذلك ما يرد في خطبة القاضي محيي الدين بن زكي الذي يقتبس الكثير الكثير من الآيات القرآنية « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » و « .. الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ... » .

ثالثاً : اقتداء أثر الخطباء السابقين . بحيث أصبح خطباء المرحلة المتأخرة يقتنون خطب السابقين عليهم وينسجون على منوالهم . فالدواوين التي أتينا على ذكرها ، كما ذكر السبكي ، لبعض الخطباء أصبحت تقتنى من أجل تقليدها .

فالقاضي محيي الدين بن زكي مثلاً ، اقتدى بابن نباتة الخطيب ونسج على منواله بتأثره بديوان

خطبه إذ كان يستشهد بمقاطع منه . وقد اتخذ الخطباء من ابن نباتة نموذجاً للخطيب ، حتى صح لابن الأثير أن يقول إنها عكاز أهل هذا الزمان . وذلك عن خطبه التي ضمنها ديوانه المذكور .

رابعاً : إطالة التحميدات وتزويق الابتداءات وترصيعها بالآيات القصيرة أو الأجزاء منها مع العناية الفائقة بسجع تلك التحميدات . وهذا واضح في خطب كثيرة جداً في هذا العصر على رأسها خطبة محيي الدين بن زكي .

وقد تكون ابتهالات الصوفية نموذجاً أوضح في هذا الباب إذ هي تسير على نمط الافتتاح أصلاً ، وتستمر مطولة ، ومن ذلك ما ورد في ابتهالات الشاذلي أو ابن عطاء الله السكندري أو أبي العباس المرسي وغيرهم .

فاستمع إلى قطعة من ورد إبراهيم الدسوقي يناجي ربه به : « بأسمائك يا رب العالمين . بالسموات القائمة ، فهن بالقدرة واقفات ، بالسبع المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك (الملائكة) في مجاري الأفلاك ، بالكروسي البسيط بالعرش المحيط ، اللهم احرسني من كيد الفاسق ومن سطوة المارق ومن لدغة المنافق .. » .

ومن تحميدات - القاضي محيي الدين بن زكي : « الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره الذي قدر الأيام دولاً بعدله .. » .

خامساً : استخدام الفنون البديعية وعلى رأسها السجع

إن السجع على وجه الخصوص يعد سمة رئيسة من سمات العصر الفنية ، فقد حفلت به كتب الأدب والفنون الأدبية على اختلافها ؛ فأمكن العثور عليه بسهولة كبيرة في جميع الخطب التي وصلت إلينا من ذلك العصر .

ومن أمثلة ذلك خطبة القاضي محيي الدين بن زكي . أما السجع عند غيره فمن أمثلته ما نجده عن ابن عطاء الله السكندري الذي يورد في بعض ابتهالاته :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك » .

ومن أمثلة السجع ما نجده في خطب ابن أبي الشخباء وقد كان خطيباً بليغاً إذ يقول في إحدى خطبه:

« أيها الناس فكروا أنفسكم من حلقات الأمانى المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الأصار المستحقة ، ولا تسيروا أطماعكم في رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تميلوا صغركم إلى زيارج الدنيا المحببة ، .. ابن الجبارة الماضية المتغلبة ، والملوك المعظمة المرجبة أولو الحفدة والحجة .. » (ابن أبي الحديد ، ج 10 ، ص 545) .

على أن كثيراً من خطب العز بن العبد السلام قد تحمّرت من السجع وآثر فيها الترسل فلم يكن ميالاً إلى السجع ولعله يكون فريداً بين خطباء عصره في ذلك فمن مناقبه أنه ترك السجع وآثر الترسل .

وقد نعشر على الترسل في مقاطع من خطبهم في ذلك العصر ولكن ذلك لا يمنع أن تكون السمة الظاهرة والغالبة هي التزام السجع . ولعل المواعظ والابتهالات كانت عند الصوفية تؤثر أحياناً الترسل كما في أورد ابن عطاء الله السكندري .

ومن فنون البديع الأخرى الإكثار من استخدام الجناس والطباق في الخطب فمن أمثلة الجناس ما يرد في خطبة القاضي محيي الدين بن زكي باستخدام كلمة الضالة بمعنى الأمل المنشود والضالة بمعنى الأمة الضالة .

ومن أمثلة الطباق « الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك لقمهه » . ومن الأمثلة الخفية في ذلك قول ابن نباتة : « أيها الناس ، تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل » وذلك بين تنزهوا وتزودوا ، وبين قليل وطويل .

وبعد ، فإنه يمكن القول إن الخطابة ازدهرت في عصر الحروب الصليبية بفعل الحروب الضارية التي خاضها المسلمون ضد الغزاة ؛ لذلك كانت الخصائص الفنية فيها ظاهرة توازي مدى فاعليتها وتأثيرها في الناس . على أن سمات العصر الفنية من استخدام مفرط للسجع والجناس والطباق وغيرها قد أثر في مدى جودتها في مواطن متعددة . على أن المواعظ والابتهالات تشكل قطعاً فنية من الخطابة لعلها لم تدرس إلى اليوم دراسة وافية تسلط الضوء عليها وتبين ما فيها من جمال وروعة .

3.5 أشهر الخطباء في هذا العصر

إن الخطباء في هذا العصر الممتد الطويل يستعصون على العدد الإحصاء ؛ ذلك أن الخطابة تجاوزت الخلفاء والقادة والأمراء لتصبح مجالاً لكل شيخ طريقة أو إمام مسجد أو متحمس لحث الناس على مواجهة العدو الغازي . إلا أن عدداً من الخطباء في كل عصر لا بد أن بظهوروا على غيرهم ليصبحوا علامات الخطابة فيه . ومن أمثلة الخطباء المشهورين في هذا العصر :

ابن نباتة الفارقي « الخطيب » الذي يقول عنه صاحب ^{ممنه} وفيات الأعيان « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته » . وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمداني ؛ وكان كثير الغزوات . وهو الذي أصبح إمام الخطباء حتى إن محيي الدين بن زكي كان ممن تأثروا به ويخطبه التي رويت عنه .

ومن الخطباء أيضاً ابنه أبو طاهر محمد . ثم حفيده أبو الفرج طاهر .

ومن الخطباء أيضاً أبو الحسن علي بن محمد البغدادي المتوفى سنة 338 . وابنه عبيد العزيز خطيب الأزهر في عصره . ومنهم أن أبي الشخياء . ومن خطباء بني أيوب إبراهيم بن المنصور إمام جامع عمرو في الفسطاط وابنه محمد .

ومن أشهر الخطباء العزّ بن عبد السلام ، ومحبي الدين بن زكي الدين صاحب خطبة المسجد الأقصى وابن عطاء الله السكندري ومن أشهر خطب أصحاب الطرق : أبو العباس المرسي والدسوقي ، وابن دفيق العبد ، ومحبي الدين بن عبد الظاهر .

ولو ذهبنا نستعرض لطلال بنا المقام لكثرة خطباء هذا العصر .

إن الخطبة التي يمكن عدّها ممثلة لخطب هذا العصر فهي خطبة القاضي محبي الدين بن زكي الدين التي قالها في المسجد الأقصى بعد أن فتح صلاح الدين في أول صلاة جمعة أقيمت به . ونختم هذه البابتة بذكر شيء منها ، وفيها يصور القاضي محبي الدين الفتح القدسي نعمة عظيمة فهو الفتح الأسنى . وهو الفتح الذي « فتحت له أبواب السماء ، وتبلّجت بأنواره وجوه الظلماء .. فكان الله شرف هذه الأمة ، وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم » ويربط بين هذا الفتح وفتوحات المسلمين ، وانتصاراتهم عبر تاريخهم الحافل ، يقول مخاطباً الجيش الإسلامي الذي انتصر بفتح القدس " فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جدّتم بها للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية » . (انظر ابن خلكان ، د. ت. : ج 4 ، ص 229 وما بعدها) .

نشاط ذاتي :

اقرأ ، أخي الطالب ، خطبة القاضي محبي الدين بن زكي كاملة ، ونصّها مرفق بهذه الوحدة ، ثم حاول أن تتبين خصائصها الأسلوبية .



تدريب (10)

اذكر ثلاثاً من خصائص الخطابة في عصر الحروب الصليبية .



محي الدين بن زكي الدين

أبو المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد [أبي المعالي مجد الدين] بن يحيى [أبي الفضل زكي الدين] بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد بن القاسم بن عبد الرحمن بن أبان بن [أمير المؤمنين] عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، القرشي^٢ ، الملقب بمحيي الدين ، المعروف بابن زكي الدين ، الدمشقي الفقيه الشافعي ؛ كان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما ، وله النظم المليح والخطب والرسائل ، وتولى القضاء بدمشق في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسة ، يوم الأربعاء العشرين من الشهر المذكور ، هكذا وجدته بخط القاضي الفاضل : وكذلك أبوه [زكي الدين] وجدته [مجد الدين] ، وجد أبيه زكي الدين أيضاً وهو أول من ولي من بيتهم [أبو ولداه] زكي الدين أبو العباس الظاهر ومحيي الدين^١ كانوا قضاتها . وكانت له عند السلطان صلاح الدين ، رحمه الله تعالى ، المنزلة العالية^٢ ، والمكانة المكيئة . ولما فتح السلطان المذكور مدينة حلب^٣ ، يوم السبت ثامن عشر صفر ، سنة تسع وسبعين وخمسة ، أنشده القاضي محيي الدين المذكور قصيدة بائية ، أجاد فيها كل الإجادة ، وكان من جملتها بيت هو متداول بين الناس ، وهو :

وفتحك القلعة الشهباء في صفر مشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال ، فإن القديس فتحت ثلاث بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسة ، وقيل لمحيي الدين : من أين لك هذا ؟ فقال : أخذته من تفسير ابن برجان في قوله تعالى : ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين ﴾ (الروم : ١ - ٣) . ولما وقفت أنا على هذا البيت وهذه الحكاية لم أزل أتطلب تفسير ابن برجان حتى وجدته على هذه الصورة ، لكن كان هذا الفصل مكتوباً في الحاشية بخط غير الأصل^١ ، ولا أدري هل كان من أصل الكتاب أم هو ملحق به^٢ ، وذكر له حساباً طويلاً وطريقاً في استخراج ذلك حتى حرره من قوله ﴿ بضع سنين ﴾ .

ولما ملك السلطان صلاح الدين حلب ، فوَّض الحكم والقضاء بها [في ثالث عشر ربيع الآخر من السنة]^٢ إلى القاضي محيي الدين المذكور ، فاستتاب بها زين الدين بنا أبا الفضل بن البانياسي^٤ .

ولما فتح السلطان القدس الشريف تطاول إلى الخطابة يوم الجمعة كل واحد من العلماء الذين كانوا في خدمته حاضرين ، وجب كل واحد منهم خطبة بليغة ، طمعا في أن يكون هو الذي يمين لذلك ، فخرج المرسوم إلى القاضي محيي الدين أن يخطب هو ، وحضر السلطان وأعيان دولته ، وذلك في أول جمعة صليت بالقدس بعد الفتح ، فلما رقي المنبر استفتح بسورة الفاتحة ، وقرأها إلى آخرها ، ثم قال : ﴿ فطَّيِّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ٥٥) ثم قرأ أول سورة الأنعام ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الثلجات والنور ﴾ (الأنعام : ١) ثم قرأ من سورة سبحان ﴿ وقل الحمد لله

الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴿١﴾ الآية (الاسراء : ١١١) ثم قرأ أول الكهف ﴿١﴾ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴿١﴾ (الكهف : ١) الآيات الثلاث ، ثم قرأ من النمل ﴿١﴾ وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴿١﴾ (النمل : ٥٩) الآية ، ثم قرأ من سورة سبأ ﴿١﴾ الحمد لله الذي له ما في السموات ﴿١﴾ (سبأ : ١) الآية ، ثم قرأ من سورة فاطر ﴿١﴾ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴿١﴾ (فاطر : ١) الآيات ، وكان قصده أن يذكر جميع تجميدات القرآن الكريم ؛ ثم شرع في الخطبة ، فقال : الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومدلّ الشرك بقهره ، ومُصَرِّف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً ببدله ، وجعل الغاقبة للتقنين بفضلته ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والأمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع ، أحده على إظهاره وإظهاره ، وإعزازة لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حَمَدًا من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك ، وداحض الشرك ، وراحيض الإفك ، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، رجع به منه إلى السموات الملا إلى سدره المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى ، صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلابة ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزيزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

أها الناس ، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالّة ، من الأمة الضالّة ، وردها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتدائها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإمالة الشرك عن طرفه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها راسه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بني عليه وشيد بنيانه بالمجيد ، فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم إبراهيم ، وممرّاج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومدفن الرسل ومهبط الوحي ، ومنزل به ينزل الأمر والنهي ، وهو في أرض المشرق وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد [الأقصى] الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وركلت التي ألقاها إلى مريم ، وروحه عيسى الذي كرّمه برسالة وشرّفه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (النساء : ١٧٢) كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً ﴿١﴾ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولملا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يعصفون ﴿١﴾ (المؤمنون : ٩١) ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ (المائدة : ١٧) إلى آخر الآيات من المائدة ، وهو أول الفلستين ، وفي المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تُشَدُّ

الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه ، فذلا
أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لنا خصم يهده
الفضيلة التي لا يجاريكم فيها محار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من
جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والواقعات البدرية ، والعزيمات
الصديقية ، والفتوحات العسرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العنوية ، جددتم
للإسلام أيام القادسية ، والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيرية ، والهجمات
الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر
لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقرّبتم به إليه
من مهراق السماء ، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء ، فاقدروا بحمك الله هذه
النعمة حتى قدرها ، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله تعالى المنة عليكم
بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذي فتحت له
أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ،
وقرّب به عينا الأنبياء والمرسلون ، فإذاً عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش
الذي يفتح على يديه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي تقوم بسيفهم
بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان ، فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله ، وأن
تكون التهاني لأهل الحضراء ، أكثر من التهاني لأهل الغبراء ، أليس هو البيت
الذي ذكره الله في كتابه ، ونص عليه في محكم خطابه ، فقال تعالى : ﴿ سبحان
الذي أسرى بمبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ (الإسراء : ١)
أليس هو البيت الذي عظمته الملل ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب
الأربعة المنة من الله عز وجل ؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله تعالى لأجله
الشمس على رشح أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتبر فتحه ويقرب : أليس
هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاده فلم يجبه إلا
رجلان ، وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للمصيان ؟ فاحدوا الله
الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل ، وقد فضلت على العالمين ،
ورفتكم لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضية ، وجمع لأجله كلتمكم
وكانت شق ، وأغناكم بما أمضته (كان) و (قد) عن (سوف) و (حتى) ،
فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهوتكم
جند ، وشكر لكم الملائكة المنزلون ، على ما أهديتهم لهذا البيت من طيب
التوحيد ونشر التقديس والتمجيد ، وما أمطم عن طرفهم فيه من أذى الشرك
والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الحيث ؛ فالآن تستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلي
عليكم الصلوات المباركات ، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا
هذه النعمة عنكم ، بتقوى الله التي من تمك بها سلم ، ومن اعتم بمروتها نجاة
وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقعة الردى ، ورجوع القهقري ،
والنكول عن العدا ، وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من النصبة ،
وجاهدوا في الله حتى جهاده ، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم
من خير عباده ، وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان ،
فيخيل لكم أن هذا النصر بسيفكم الحداد ، وخبولكم الجياد ، ويحلاكم في
مواطن الجلال ، لا والله ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ، فاحذروا
عباد الله - بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصكم
بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بجبله المتين - أن تعترفوا كبيراً من مناهيه ، وأن
تأثروا عظيماً من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكنا ، وكالذي
آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد فهو
من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، انصروا الله بنصركم ، احفظوا الله
يحفظكم ، اذكروا الله بذكركم ، اشكروا الله بزدكم ويشكركم ، جدوا في حسن
الداء ، وقلع شأفة الأعداء ، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت

الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادى الأيام بالثورات الإسلامية والملة الحمديّة ، الله أكبر ، فتح الله ونصره ، غلب الله وقهره ، أذل الله من كفر ، وعلوا رحكم الله أن هذه فرصة فاتتوها ، وفريسة فناجزوها ، وغنيمة فعوزوها ، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها ، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بدخاثرها ، فقد أظفركم الله بهذا الندو الخدول ، وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضعى قبالة الواحد منهم منكم عشرون ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرين يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ (الأنفال : ٦٥) أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ (آل عمران : ١٦٠) إن أشرف مقال يقال في مقام ، وأنقذ سهام ترمق عن قسي الكلام ، وأمضى قول تحمل به الأفهام ، كلام الواحد الفرد العزيز العلام ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ، أعود بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (الأعراف : ٢٩٤) وقرأ أول الحشر ، ثم قال : آمركم وإياي بما أمر الله به من حسن الطاعة فأطيعوه ، وأنهاكم وإياي عما نهاكم عنه من قبح المصيبة فلا تعصوه ، واستغفر الله العظيم لي ولكم وجميع المسلمين فاستغفروه .

ثم خطب الخطبة الثانية على عادة الخطباء مختصرة ثم دعسا للإمام الناصر خليفة مصر . ثم قال : اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع ذبيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المتعرف بمهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والهامي عن دينك المدافع ، والذائب عن حرمك الممانع ، السيد الأجل ، الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس أبي المظفر يوسف بن أيوب ، محيي دولة أمير المؤمنين ، اللهم عُمّ بدولته البسيطة ، واجمل ملائكتك براياته محبطة ، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملة الحمديّة عزمه ومضاهه ، اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر في المشارق والمغرب دعوته ، اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون ، وابتلي المؤمنون ، فافتح على يديه داني الأرض وقاصيها ، وملكه صياصي الكفر ونواصيها ، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بين سبقتها ، اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه ، وأنفذ في المشارق والمغرب أمره وتنهيه ، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء الممالك وأكنافها ، اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف النجّار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وابث سرايا جنوده في سبل الأقطار . اللهم ثبتت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحنة التي تبقى على الأيام ، وتتحل على مر الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدي الذي لا يتنفد في دار اليقين ، وأجب دعاه في قوله ﴿ ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ (الأحقاف : ١٥) ثم دعا بما جرت به العادة .

6. الخلاصة

أخي الطالب ، طوّفنا معاً في حقل الخطابة العربية عبر غير عصر ابتداء من عصر صدر الإسلام وانتهاءً بعصر الحروب الصليبية . وآمل أن تكون قد وضعت يدك على خط سيرها عبر الزمن ؛ وهو خط غير مستوٍ تماماً . ولعلك لاحظت أن العصر الأموي هو بحق ، عصر الخطابة الذهبي . وأظنك قد تبينت الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى ازدهار هذا الفن ، وتلك التي تؤدي إلى ضعفه . وإخالك أدركت أثر الإسلام العظيم في تطور هذا الفن عبر العصور المختلفة ، كما إخالك عرفت أشهر أعلامه ، ووقفت عند بعض خطبهم وأقوالهم ، بالإضافة إلى معرفتك بعض ملامحهم الشخصية ، وتصورك خصائص خطاباتهم إن من حيث الموضوع أو من حيث الأسلوب والشكل . وآمل أن تكون حريصاً على حفظ فقرات من خطبهم .

7. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية

عزيزي الدارس ،

لقد طوفت بك في عصور الأدب المختلفة ، ووقفت بك على أشهر الخطباء ، وما جرى على ألسنتهم من الخطب ، وأرجو أن يكون هذا التطواف قد ولد لديك حبّ الخطابة ، ووضع يدك على أشهر خصائص هذا الفن في لفتنا .

ولنستكمل الإحاطة بأشهر فنون النثر العربي سأعرض عليك في الوحدة التالية فناً آخر قد يكون أقلّ شهرة ، ولكنه من الفنون التي كانت لها مكانة مرموقة في بعض عصورنا الأدبية ، وهو فن المناظرات . وستعرف ما المناظرة وما التقاليد التي كانت متبعة فيها ، وما أهم موضوعاتها ، وأصول أدب الحوار فيها، وتحديد دور المناظرات في حفز التفكير وإثارة النشاط الذهني لدى المتناظرين والسامعين .

8. إجابات التدريبات

تدريب (1)

ثلاثة من أسباب تطور فن الخطابة في صدر الإسلام :

- 1) اتخاذ الرسول (ص) الخطابة أداة للدعوة إلى الإسلام .
- 2) فرض الإسلام بعض الخطب كخطب الجمع والأعياد .
- 3) كثرة الأحداث التي تبعث على القول وتدعو إلى الخطابة كمغازي رسول الله (ص) ، وحرمة الردة ، وفتنة عثمان .. الخ .

تدريب (2)

الفكرة الرئيسة في خطبة عتبة بن غزوان بعد فتح الأبلّة هي أن على المسلم ألا يؤخذ بروعة النصر وغنائمه ، وألا يجعل الدنيا أكبر همه ؛ فعليه أن يستشعر الآخرة دائماً لأن الباقي من الدنيا صُباية الإناء إذا ما قيس بالآخرة التي لا زوال لها .

تدريب (3)

أهم ضروب الخطابة في عصر صدر الإسلام أربعة هي :

- 1 - الخطب الدينية .
- 2 - خطب الندب للجهاد والحض على القتال .
- 3 - الخطب السياسية .
- 4 - خطب المحافل والوفود .

تدريب (4)

ثلاث أفكار رئيسة جاءت في خطبة الرسول (ص) في حجة الوداع :

- 1 - تحريم بعض عادات العرب وممارساتهم في الجاهلية كالربا والنهب والسلب ، والإبقاء على بعض منها مما لا يتنافى والإسلام كالسدانة والسقاية .
- 2 - بيان علاقة الفرد بالجماعة في المجتمع الإسلامي « إنما المؤمنون إخوة » .
- 3 - التذكير بأن التقوى هي أساس التفاضل بين الناس في المجتمع الإسلامي « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

تدريب (5)

ثلاثة من عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي :

- 1 - الأحداث السياسية التي كثرت في العصر المذكور ؛ إذ حفل هذا العصر بالصراع المتصل بين الفرق والأحزاب . وقد تعددت ثورات الخوارج وثورات الشيعة في هذا العصر وكثرت ، كما ثار بعض سادة العرب وأشراقهم .
- 2 - كثرة الفتن القبلية وخاصة تلك التي كانت بين القيسية واليمينية .
- 3 - كثرة المحافل والوفادات إلى الخلفاء والأمراء الأمويين وإلى عمالهم في الأمصار .

تدريب (6)

الفكرتان الرئيستان اللتان ألحَّ عليهما الخوارج في خطبهم هما :

- 1 - بيان بعض مبادئ الخوارج وتبريرها .
- 2 - النقد الشديد لخصومهم الأمويين على وجه الخصوص .

تدريب (7)

ثمة دواع وأسباب أدت إلى ازدهار الخطابة الدينية في العصر الأموي ، وهي :

- 1 - ارتباط ضرب من الخطابة بشعائر دينية مفروضة كصلوات الجمع والأعياد .
- 2 - ظهور الفرق الدينية .
- 3 - كثرة الثورات الدينية السياسية .
- 4 - ظهور نزعة الزهد وانتشارها ، وشيوع ضرب من القصص الديني .
- 5 - المجالس التي كانت تقام ليتبارى فيها الخطباء .

تدريب (8)

ضعفت الخطابة الحفلية في العصر العباسي لأن الخلفاء العباسيين لم يكونوا كالأُمويين يفتحون أبوابهم للوفود ، فقد أسدلت الحجب بين الخليفة والرعية ؛ فاقترنت الخطابة الحفلية على مناسبات محددة .

تدريب (9)

أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الخطابة في العصر العباسي بعامة هي :

- 1 - ضعف الدواعي إلى القول بعد استقرار دعائم دولة بني العباس ، وقلّة عدد ثورات الخارجين .
- 2 - ضعف أمر العرب وذهاب سلطانهم ، وضياع نفوذهم .
- 3 - قعود الخلفاء عن الخطابة وتكليف غيرهم بها .
- 4 - حلول الكتابة محل الخطابة واتساع موضوعاتها وتنوعها .

تدريب (10)

1. ظهور النزعة الدينية بجلاء ، وقد كانت هذه السمة في خطب الوعظ ، وخطب الجهاد .
2. التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وقد تجلّى هذا الأمر بإيراد النصوص من جهة، وباستichاء المعاني من جهة أخرى .
3. استخدام الفنون البديعية ، وعلى رأسها السجع .

9. المصادر والمراجع

- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة 1948 .
- الحصري ، إبراهيم بن علي ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق زكي مبارك ، الطبعة الرابعة ، نشر دار الجيل ، بيروت 1972 .
- ابن خلكان ، أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، طبع دار صادر ببيروت .
- الدينوري ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، عيون الأخبار ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة 1925 .
- صفوت ، أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب ، القاهرة 1933 .
- ضيف ، شوقي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف بمصر ، 1963 .
- ضيف ، شوقي ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف بمصر ، د.ت .
- الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، طبع دار المعارف بمصر ، 1961 .
- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري ، نشر دار الكتاب العربي ببيروت 1982 .
- ابن عساکر ، التاريخ الكبير ، تهذيب عبدالقادر بدران ، دمشق 1330 هـ .
- معروف ، نايف ، ديوان الخوارج ، دار المسيرة ، بيروت 1983 .
- النص ، إحسان ، الخطابة العربية في عصرها الذهبي ، دار المعارف بمصر 1963 .
- هارون ، عبد السلام ، نوادر المخطوطات ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر 1972 .

الوحدة الزابعة

المناظرات

المحتويات

الصفحة	الموضوع
165	1. مقدمة
165	1.1 التمهيد
165	2.1 الأهداف
166	3.1 أقسام الوحدة
166	4.1 قراءات مساعدة
167	5.1 الوسائط المساندة
167	6.1 ما تحتاج إليه لدراسة هذه الوحدة
168	2. المناظرات
168	1.2 المناظرة : تعريفها ، ونشأتها ، وازدهارها
168	1.1.2 تعريف المناظرة لغة واصطلاحاً
169	2.1.2 نشأة المناظرة وأصولها
176	2.2 تطور فن المناظرة وأهم موضوعاته وأشهر المناظرات في التراث العربي
176	1.2.2 تطور فن المناظرة في التراث العربي
177	2.2.2 أهم الموضوعات التي جرت فيها المناظرات وأشهر المناظرات في التراث العربي
194	3.2 تقاليد فن المناظرات وخصائصها
194	1.3.2 أدب الحوار في المناظرة
197	2.3.2 الأساليب المستخدمة في المناظرة

201	3. الخلاصة
202	4. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية
203	5. إجابات التدريبات
205	6. المصادر والمراجع

1.1 التمهيدي

عزيزي الطالب ، أرحب بك ، وأدعوك إلى دراسة الوحدة الرابعة من مقرر " فنون النثر القديم " وموضوعها : المناظرات .

غني عن القول إن المناظرة فن نشري لسانی ، أي أنه يعتمد على أسلوب المناظر ، وقوته أمام الجمهور . لكن ذلك لم يمنع من وجود مناظرات ذهنية أو مناظرات كتبت ولم يقدر لها أن تلقى أمام جمهور ؛ لأن طبيعتها التي وجدت عليها لم تكن تتناسب مع ذلك .

وقد تعلم ، عزيزي الطالب ، أن فن المناظرات حين يتطور ويزدهر ، فإنه يعبر عن قدرة عقلية كبيرة عند المتناظرين لوجوب امتلاكهم ناصية الأسلوب البلاغي ، إلى جانب حصول البديهة التي تفرزها الثقافة العقلية من منطلق وعلم كلام ومحفوظ واسع .

ولا يخفى عليك أن من المناظرات الشهيرة في التراث الأدبي عند العرب تلك المناظرات التي جرت بين بديع الزمان الهمذاني ، صاحب المقامات ، وأبي بكر الخوارزمي الذي قيل إنه هُزم فيها ومات كمدأ على أثرها وكذلك مناظرات المعتزلة الكلامية التي برع فيها العلاف والنظام . وما اشتهر من المناظرات المتأخرة مناظرة «السيف والقلم» لابن الوردي .

2.1 الأهداف

نتوقع منك ، عزيزي الدارس ، بعد دراسة هذه الوحدة ، وتنفيذ ما يُطلب إليك فيها أن تغدو قادراً على أن :

1. تتعرف الظروف العلمية والفكرية والسياسية التي ساعدت على نشأة فن المناظرات .
2. محدّد التقاليد المتبعة عند إجراء المناظرات .
3. تبيّن أهم الموضوعات التي كانت المناظرات تجري حولها .
4. تبيّن أهم أصول أدب الحوار .
5. محدّد أساليب فصاحة العرب في مناظراتهم ، وتبيّن وسائل الإقناع العقلي بالحجة والبرهان .
6. تبيّن دور المناظرات في حفز التفكير وإثارة النشاط الفكري لدى المتناظرين والسامعين .

3.1 أقسام الوحدة

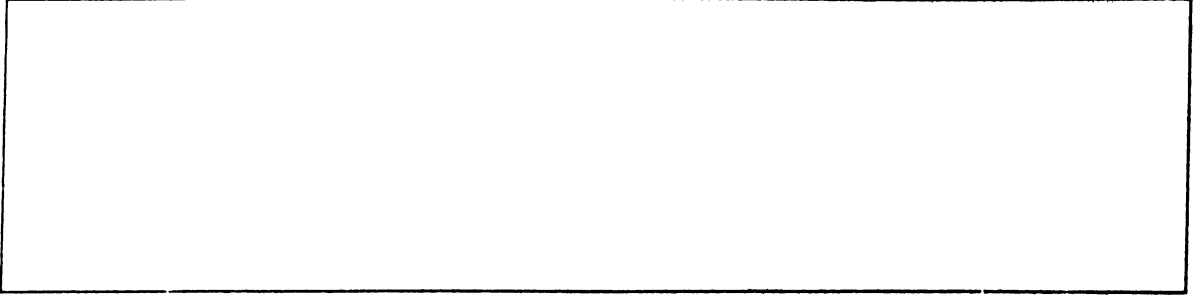
تتكون هذه الوحدة الدراسية من أربعة أقسام هي :

- القسم الأول : يشتمل على تعريف المناظرة لغة واصطلاحاً ، ثم بيان كيفية تطور هذا المفهوم وصلته بالمنافرة ، والمناقصة ، والجدل والحوار . والتعرض من خلال ذلك إلى بيان عوامل نشأة المناظرة وازدهارها .
- القسم الثاني : يسلط الضوء على تطور هذا الفن النثري اللساني بالتعرف إلى أهم الموضوعات التي اشتملت عليه من علم كلام ، وسياسة ، وثقافة عامة ونوادير وملح .
- القسم الثالث : يبحث أصول أدب المناظرة والتقاليد التي اتبعتها العرب في مناظراتهم وخصائص تلك المناظرات وأساليب الفصاحة ووسائل الإقناع المتبعة فيها .
- القسم الرابع : يتناول بالعرض والتعريف أشهر المناظرات في تاريخ الأدب العربي مع اختتام ذلك بمسرد يشتمل على أهم المناظرات في تراثنا الأدبي .

4.1 قراءات مساعدة

- ويحسن بك ، عزيزي الطالب ، أن ترجع إلى غير كتاب من الكتب التالية التي تساعد على تزويدك بنماذج غنية من المناظرات ، فيها الفائدة العلمية والثقافية إلى جانب المتعة الأدبية .
- الجاحظ ، كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي 1969 م .
 - فالكاتب في أغلبه يقوم على المناظرة وانظر المجلد الخامس بخاصة .
 - الرازي ، فخر الدين ، المناظرات ، تحقيق عارف تامر ، بيروت ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، 1992 م . فهو يحتوي على ستة عشر مناظرة له .
 - الأصفهاني ، الراغب ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء ، هذبته واختصره إبراهيم زيدان ، بيروت ، دار الآثار . د . ت . ص 34 - 38 .
 - الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، بيروت ، دار إحياء العلوم ، 1986 م .
 - التوجيدي ، أبو حيان ، الامتاع والمؤانسة ، بيروت ، دار مكتبة الحياة . د . ت . الجزء الأول ص 108 - 129 / مناظرة السيرافي ومتى بن يونس .
 - الأمدي ، الحسن بن بشر ، الموازنة بين الطائنين . بيروت ، دار المسيرة ، د . ت . المقدمة ص 12 - 50 . احتجاج الفريقين .

5.1 الوسائط المساندة



6.1 ما تحتاج إليه في دراسة هذه الوحدة

تحتاج عزيزي الدارس ، إلى دراسة محتوى هذه الوحدة ، والنظر العميق في النصوص الواردة فيها ، والوقوف على أبرز هذه المناظرات التي أوردتها لك ، مع الرجوع إلى المصادر التي أشير عليك بالاطلاع على صفحات منها . ويزيدك خبرة وعلماً واستيعاباً ، القيام بأسئلة التقويم الذاتي وإجابة التدريبات .

2. المناظرات

1.2 المناظرة : تعريفها ، نشأتها ، ازدهارها

1.1.2 تعريف المناظرة ، لغة واصطلاحاً

بجدر بنا ، عزيزي الطالب ، قبل المضي في التعرف إلى هذا الفن الثري الشفوي ، أن نلقي الضوء على معنى المناظرة في اللغة .

فقد جاء في لسان العرب « المناظرة : أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه ، ... والنظر : حسن العين ... وناظرت فلاناً أي صرت نظراً له في المخاطبة ، وناظرت فلاناً بفلان أي جعلته نظيراً له » (ابن منظور ، مادة نظر)

وفي القاموس المحيط « تناظراً : تقابلاً ... ونظره وانتظره وتنظره ، تأتى عليه ... والتناظر : التراض في الأمر ، والنظير : المناظر » (الفيروزآبادي ، مادة نظر) .

لذا يمكن القول إن أصل المناظرة جاء من أحد معنيين لغويين لها هما : « من النظير ، أو من النظر بالبصيرة » (الجرجاني ، 1983 ، ص 231) .

فالنظير هو الشخص الذي يقابل آخر فيكون ماثلاً له ومشاكلاً له ، فيساريه في الأمر الذي تتم الموازنة بينهما فيه .

والنظر يبدأ بحسن العين ، لبصل إلى معنى التدبر والتفكر في جوهر الشيء بالبصيرة المستندة أصلاً إلى البصر أو النظر .

أما المناظرة في الاصطلاح فقد ذكرها الجرجاني في كتابه التعريفات فقال « إنها تعني النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشينين إظهاراً للصواب » (الجرجاني ، 1983 ، ص 232) . ويزيد الكفوي صاحب كتاب " الكليات " على هذا التعريف بنصه قوله " وقد يكون مع نفسه " (الكفوي ، ج 4 ، ص 263) .

وهذا التعريف كما تلاحظ ، عزيزي الطالب ، ينتمي إلى مجال علم الكلام ، ذلك أن المناظرة في التراث العربي أكثر ما ازدهرت في هذا المجال .

وعند تحليل هذا التعريف نجد أنه يتصل اتصالاً وثيقاً بالمعنى اللغوي للمناظرة ، ففيه النظر أي حسن

العين ، وفيه البصيرة أي التفكير والتدبر ، بالإضافة إلى ذلك فإنه يؤكد وجود مقابل بين " شينين " ومقابل بين عاقلين " من الجانبين " .

وإذا أردنا أن نقرّب المناظرة إلى الذهن ونبسط تعريفها فنجد أنها " نوع من المخاضرة ، يشترك فيها اثنان أو أكثر ، ويتخذ كل موقفاً معيناً يدافع عنه بالأدلة والبرهين . ويحاول قدر استطاعته ، ومهارته ، أمرين واضحين ، تأييد رأيه ، وتخطئه رأي الفريق الآخر " (عبد النور ، 1984 ، ص 266 - 267) .

فمناظرة المناظرة ، هنا ، وجود اثنين أمام جمهور يتمسك كل منهما بموقف معين حيال قضية ما ، فيدافع عنها بما أوتي من أدلة وبراهين ، وفي الوقت ذاته يدحض رأي الآخر أي رأي النظرير أو المناظر .

كما يمكن القول إن المناظرة " هي تبادل الكلام والآراء المتعارضة في موضوع ما يشير الجدل ، كبعض الموضوعات السياسية أو الأدبية ، والمناظرة عند العرب نوع من المحاورات التي احتدمت بين النحاة والمناطقة والمتكلمين والفقهاء ، وأصحاب الملل والنحل حول مسائل عقديّة وغير عقديّة " (وهبة والمهندس ، 1984 ، ص 390) .

فالمناظرات ، عزيزي الطالب ، لا تقتصر على مجال الأدب بل هي في السياسة وفي الأدب وفي موضوعات متعددة . وتجري بين فئات مختلفة في المجتمع . ويتبين لك من التعريف السابق اتصال المناظرة بالمحاورة والجدل ففيهما إشارة إلى أصل نشأة المناظرة وتطورها عند العرب .

وبما أننا عرفنا المناظرة لغة واصطلاحاً ، فإنه يجدر بنا أن ننظر في عوامل النشأة والازدهار لهذا الفن من خلال معرفة أصوله التي تطور عنها في البدايات الأولى في المجتمع العربي .

تدريب (1)

اذكر الصلة بين معنى المناظرة لغة ومعناها في الاصطلاح .

2.1.2 نشأة المناظرة وأصولها

لقد عرف العرب في جاهليتهم بدايات بسيطة للمناظرة مثل المناظرة والمناقضة ، اللتين يمكن أن نعد كلاهما أصلاً من الأصول الفنية للمناظرة في بعض وجوهها .

فالمناظرة تلتقي عند الجاهليين بالمفاخرة والمحاكمة ، وهي " المحاكمة في الحسب ، قال أبو عبيد :

المنافرة: أن يفتخر الرجلان كل منهما على صاحبه ، ثم يحكما بينهما رجلاً كفعل علقمة بن علاتة مع عامر ابن الطفيل حين تنافرا إلى هرم بن قطبة الفزاري .

(مطلوب ، 1989 ، ج2 ، ص 356) .

في المنافرة إذن ، تقابل بين اثنين ومحاجة بينهما أمام قاضٍ أو حكم ، لكن الذي نعرفه أن المنافرة تكون في التنافر بالحسب والنسب ، أي بالذات على الآخر من خلال القبيلة ، ولا تعني القدرة العقلية عند أحدهما في تفوقه على الآخر (فالتفوق يكون في الفخر بالذات) في إحراز نصر بفعل موضوعي خارج الذات .

لذلك كانت المنافرة تنتمي إلى مجتمع قبلي وإحساس عصبي عند كل واحد من المتنافرين بأنفته وعزته وتفوقه على خصمه . أي أن المنافرة لا يوجد فيها أي مستوى من التجريد كالذي مجده في المناظرة ، التي أصبحت تعبر عن قدرة عقلية في المقام الأول لا عن عصبية قبلية .

وليس يخفى عليك ، عزيزي الطالب ، أن المنافرة اشتركت مع المناظرة في أنهما فنان نثريان .

(أما المناقضة فهي تقترب من المناظرة وتتصل بها بطرف ، ذلك أن " النقض : إفساد ما أُبرمت من عقد أو بناء ، والنقض : ضد الإبرام ، وناقضه في الشيء مناقضة ونقاضاً ، والمناقضة في القول : أن يتكلم بما يتناقض معناه . النقيضة في الشعر : ما ينقض به ، وكذلك المناقضة في الشعر : أن ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول . والنقيضة : الاسم يجمع على نقائض ، وكذلك قالوا : نقائض جرير والفرزدق ، وكانت النقائض تطوراً للهجاء " (مطلوب ، 1989 ، ص 409) .

إن الهجاء يلتقي مع المنافرة ، وعند تطور الهجاء أصبح كل شاعر بمقدوره أن ينقض ما قاله في الشاعر الآخر . أي أن أساس المناظرة موجود بين اثنين كل منهما له رأي في الآخر مخالف لرأي صاحبه . لذلك لا بد من قيام كل منهما بدحض رأي مُقابله . بيد أن المناقضة تكون في الشعر ولا تكون في النثر .

ولعل المناقضة أقل مساساً بذات صاحبتها من المنافرة ، وأشدّ قراباً من الفن والقدرة البلاغية ، لذلك يمكن أن نعد المناقضة أقرب إلى المناظرة من المنافرة ؛ لابتعادها عن المساس بذات المرء ولاعتمادها على البلاغة والإبداع الفني بصورة رئيسة .

وعلينا أن نتنبه ، مع ذلك ، على أن المناظرة أصابت قسطاً من الازدهار في النثر أكثر مما ازدهرت في باب الشعر . لذا بقيت المناظرات الشعرية أقل أهمية من المناظرات النثرية ، وقد يرجع ذلك إلى غلبة العقل على المناظرة ، وغلبة العاطفة على الشعر .

لماذا ازدهرت المناظرات النثرية أكثر من المناظرات الشعرية في التراث العربي ؟

إننا لا نعدم وجود أشكال بسيطة من المناظرة في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي اقتضتها طبيعة الحياة ، فحديث كفار قريش مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يتخذ أحياناً طابع المناظرة ، ومثل ذلك ما كان من اليهود في المدينة حين كانوا يسألون الرسول (ص) في بعض المسائل الدينية بُغية زعزعة إيمان المسلمين به ، فكان الموقف أشبه بالمناظرة بينه وبينهم . ولم يكن من السهل الرد عليهم ؛ ذلك لأنهم يعرفون الكثير من أخبار الأوائل ممن تحدّث القرآن عنهم ؛ فكان لا بد للرسول (ص) من أن يفهمهم في ردّه .

وليس من شك في أن المناظرة كانت تلتقي مع المحاورات التي كانت تدور بين المسلمين أنفسهم ، بعد وفاة الرسول (ص) ، كشأنهم يوم سقيفة بني ساعدة ، حين تحاوروا في أمر الحكم وسياسة الناس ، بعد التحاقه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى . ثم عظم شأن مثل هذه المحاورات في مرحلة تالية ، واتخذت طابعاً سياسياً واضحاً ، حتى غدت فناً ثرياً هو أحد أصول المناظرة التي استقرت فيما بعد . وقد نعد بعض تلك الحوارات مناظرات دون ريب .

فقد أورد الطبري في تاريخه محاوراً متقدمة جرت بين علي بن أبي طالب ورجلين قبل حادثة التحكيم أرادوا أن يشيئا عن الماضي في تلك الحادثة وهما حزقوص وزرعة (الطبري ، ج 6 ص 40) .

ومن تلك المحاورات ما دار بين معاوية وابن الزبير في تنازعهما الأمر (ابن عبد ربه ج 2 ص 115) وبين معاوية وكل من الأحنف بن قيس وعقيل بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وسودة بنت عمارة بن الأشقر الهمدانية ، ومنها ما دار بين الحجاج وعدد من معاصريه منهم غير واحد من الخوارج .

وكانت هذه المحاورات سياسية في المقام الأول ، نسوق منها المحاوراة التالية بين عبد الله بن عباس والخوارج ، وقد ناب ابن عباس في هذا الحوار عن علي بن أبي طالب في مواجهة الخوارج :

« ابن عباس : ما الذي نعتم على أمير المؤمنين ؟

الخوارج : قد كان للمؤمنين أميراً . فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان ، فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له .

ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر .

الخوارج : إنه قد حكم .

ابن عباس : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد ، فقال عز وجل « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين .

الخوارج : إنه قد حكم عليّ فلم يرض .

ابن عباس : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما .

الخوارج (بعضهم لبعض) : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم " بل هم قوم خصمون " وقال عز وجل فيهم " وتندر به قوماً لُدّاً " (المبرد ، ج 3 ، ص 165)

نعشر في هذه المحاوراة على السمات الرئيسة للمناظرة ، من وجود شخصين يتناظران حول قضية بعينها ، ولا يكون فيها مساس بشخصيهما ، بل هي تخص أمر المسلمين بعامّة . فيعتمد كلُّ منهما على مقدّمات يحاول أن يبني عليه حجته لدحض حجة الآخر . حتى يصل إلى إفحامه . ويبدو أن ابن عباس قد انتصر على الخوارج فقال بعضهم ما قال في نهاية المحاوراة .

ومن تلك المحاورات التي اتخذت طابعاً سياسياً في بدايات الدولة الأمويّة ، ولم تخل من إشارة إلى حنكة كل واحد من المتحاورين وذكائه ما جرى بين معاوية بن أبي سفيان وهو أحد دهاة العرب ، وابن الطفيل .

" قال معاوية لابن الطفيل : أنت من قتله عثمان ؟

ابن الطفيل : لا ، ولكنني ممن حضره ، ولم ينصره .

معاوية : فما منعك أن تنصره .

ابن الطفيل : لم ينصره المهاجرون والأنصار ، فلماذا أنصره ؟

معاوية : لقد كان حقه واجباً ، وكان عليهم أن ينصروه .

ابن الطفيل : فما منعك من نصره يا أمير المؤمنين وأنت ابن عمّه .

معاوية : أو ما طلبي بدمه نصره له ؟

فضحك ابن الطفيل ، وقال : مثلك ومثل عثمان كما قال الشاعر :

لا أعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا

(الحورفي ، 1965 ، ص 372)

هذه المحاوره وسابقتها ، وغيرهما كثير ، تُشكل نمط المناظرة السياسية التي كانت سائدة في العصر الأموي ، فإذا لم نسهمها مناظرة وأبقينا على القول إنها محاوره فإنه يمكن لنا أن نقول إن المحاورات نشر شفوي ذاع في العصر الأموي . نتيجة لكثرة الأحزاب السياسية والمذاهب الأدبية واختلاف الآراء . وتأثراً بالحرية القولية ، التي كان يشعر بها المختلفون في الرأي أكثر الأحيان ، وثمره من ثمرات المقدره البيانية ، والبديهية المسعفة ، فهي تشبه المناظرات والمناظرات التي كانت في الجاهلية ، من حيث قيامها كلها على الحرية والجرأة وبراعة البيان ، إلا أن المحاوره أصبحت تمثل موقفاً عاماً فخرجت عن إطار الفخر بالنفس ، مقابل الآخر في إطار عصبي قبلي ، أو متحد بين زعمي القبيلة على تلك الزعامه .

وقد اتسمت هذه المحاورات بإظهار سرعة البديهية وحضور الخاطر ، ولم تكن منبثقة من موقف عقلي مسبق محكم ودقيق ، فهي أقرب إلى اعتمال في النفس في ساعتها ، لذلك لم ترق إلى مستوى كبير من التجويد والصياغة .

على أننا لا نعدم فيها مجموعة من الخصائص التي تسرّبت إلى المناظرة فيما بعد وشكلت أسساً فيها ، فمن ذلك أن هذه المحاورات اتسمت بـ :

1- اعتمادها الإيجاز وعدم الإطالة .

2- قلب حجة الخصم ومحاولة إبطال رأيه وبيان نهانت موقفه .

3- التعريض بالخصم أحياناً ، كما رأينا في كلام ابن الطفيل مع معاوية في بيت الشعر .

4- حسن التخلص .

5- الرد بالمثل وبالتمثيل والاستدلال بالأولوية ، كما ذكر ابن الطفيل عن تخلي المهاجرين والأنصار عن عثمان (الحوفي ، 1965 ، ص 384 - 386) .

على أن هذه المحاورات النثرية كان يوازيها في واقع الحياة الأدبية نماذج من الشعر الذي دافع فيه أصحابه عن مذاهبهم ، ويمكن أن نعد تلك المحاولات من الدفاع شكلاً من أشكال المناظرة الشعرية . كالذي كان بين حسان بن ثابت شاعر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشعراء المشركين .

ومن ذلك أيضاً ما كان بين شعراء الفرق الإسلامية المتنازعة على الحكم في نهاية الخلافة الراشدة وفي إبان قيام الدولة الأموية ، فهناك كميات مثلها تعد نموذجاً لهذه المناظرات الشعرية ، وكذلك ما كان من شعر مروان بن أبي حفصة أو شعر ابن قيس الرقيات وآخرون .

أما التطور الرئيس الذي استوت فيه المناظرة على سوقها في التراث العربي فكان في ظل الدولة

عند هذا المستوى يكون فن المناظرة قد استقر واستوى على سوقه . ولم يمنع ذلك من ان يتم تطويره في اتجاهات جديدة .

وقد تتفق معنا ، عزيزي الطالب ، على أن فن المناظرة في نهاية المطاف ، هو فن نشري شفوي كانت له جذوره في المجتمع الجاهلي ، ثم نمت بعض هذه البدايات في العصر الإسلامي الأول فالأموي حتى استوى فناً ثرياً له أسسه المقررة في العصر العباسي .

وجوهر هذا الفن وعناصره أن يشترك اثنان أو أكثر في محاضرة ، أو مناظرة يتخذ كلٌ منهم موقفاً معيناً يدافع عنه بالأدلة والبراهين . ويحاول قدر استطاعته ومهارته أن يؤيد رأيه ويخطئ رأي الفريق الآخر .

واتسع هذا المفهوم فيما بعد حتى وجدنا مناظرات ذهنية لا يشترط فيها أن نكون بين متناظرين حقيقيين . أي غدت مناظرات ذهنية عقلية ، كما في كتب المحاسن والأضداد أو المحاسن والمساوي . وبعض كتب الأدب العام الأخرى . ومنها تلك المناظرات التي صيغت على ألسنة بعض الأحياء غير العاقلة ، أو الأشياء الجامدة دون البشر . كأن ينطق السيف مقابل القلم ، أو الورد مقابل الريحان .

والذي نراه ، عزيزي الطالب ، أن جوهر المناظرة بعامة يجمع عليه في تقسيمات الأنواع الأدبية ، لكن تعريفه لا يكون التعريف الجامع المانع ؛ لذلك يسهل أن نعد مقامات السيوطي " الأدبية والطبية " (السيوطي ، 1988) التي فاضل فيها بين النباتات والثمار والمعادن الكريمة ، ومرتبك طرف منها في وحدة المقامات من هذا المساق ، شكلاً من أشكال المناظرة الذهنية الشبقة .

وقد اتسع كذلك هذا المفهوم حتى اشتمل على كثير من رسائل الأدباء التي ردوا فيها على غيرهم ؛ مثل رسالة الغفران للمعري التي ردَّ فيها على ابن القارح ، ورسالة عمر الخيام إلى أبي النصر النسوي ، ورسالة ابن عربي إلى فخر الدين الرازي . وسيأتي فضل بيان للمناظرات على اختلافها في بنود لاحقة .

نشاط (1)

ارجع إلى إحدى مقامات جلال الدين السيوطي الطبية في كتابة المذكور ، وحلل تلك المقامة مسبباً عناصر المناظرة فيها .



التحضير
من
مركز
التعليم
الابتدائي
بمحافظة
الرياض



1. ارجع إلى أحد معاجم اللغة واستخلص أقرب المعاني اللغوية لكلمة المناظرة بمعناها الاصطلاحي ووازن بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي الذي ترتضيه مما مرّ بك في البند الأول .
2. اذكر أهم الأصول الفنية التي سبقت المناظرة وكان لها أثر في ازدهارها وتطورها .
3. لماذا لا نستطيع وضع تعريف جامع مانع للمناظرة في التراث العربي ؟
4. اذكر العناصر الرئيسة لقيام مناظرة .

2.2 تطور فن المناظرة ، وأهم موضوعاته وأشهر المناظرات في التراث العربي .

1.2.2 تطور فن المناظرة في التراث العربي

حين انتهينا إلى تعريف المناظرة في القسم السابق من هذه الوحدة ، أدركنا أنها استوت فناً أدبياً في العصر الأموي ، إذ مثلت المحاورات السياسية التي دارت آنذاك البدايات الحقّة لها . ولعل بدء تعقيد حياة الناس ، واتساع رقعة الدولة ، وظهور الأحزاب والفرق الدينية ، كان لها مجتمعة الأثر الكبير في تطور هذا الفن وازدهاره .

وقد تتفق معي ، عزيزي الدارس ، في أنه كان لا بد لكي يزدهر هذا الفن من أن يبلغ العقل العربي مرحلة من التجريد والقدرة على النظر المنطقي في القضايا التي تعرض له . ذلك بحيث يتشكّل الإدراك الحقيقي لإحساسه بالحرية الفردية التي لا تتجاهل ضرورة اتصالها بأفراد المجتمع وقبمه .

إن التجريد الفكري الذي يظهر في المناظرة ينطوي على الإحساس بالمرحلة الحضارية ، التي يمر بها الإنسان ، فهو يشعر بالحرية الفردية الكاملة ، وفي الوقت ذاته يشعر بوجود مادة كافية لاتصاله بالمجتمع من حوله ، وهذا ما يؤدي به إلى محاولة إفحام الخصم بحجج وبراهين وأدلة يستوي فيها الطرفان إقراراً وتسليماً بشرعيتها .

لذلك كله ، لم يكن لفن المناظرة ، أن يتطور وأن يزدهر إلا في ظل مرحلة حضارية متقدّمة ، وفي ظل نظام سياسي متشاك ومعتد ، وفي ظل ثقافة متشعبة تتيح للمثقفين تأريلات مختلفة للنصوص والظواهر

التي تحيط بهم . ومن ذلك وجود الفرق الدينية والأحزاب السياسية والاتجاهات الكلامية والفلسفية المتعددة . علاوة على ما بين الأفراد أنفسهم من صلات تتراوح بين الهجاء والحسد ، ومحاولة تجاوز كل منهم خصمه أو شريكه في الصنعة أو المنصب .

كما سبق يتبين لنا أن المناخ الحقيقي لتطور المناظر كان في ظل الدولة العباسية ، أي في الحياة الحضارية المعقدة التي كانت في حواضر هذه الدولة التي احتضنت المثقفين في المجالات المتعددة ، في المساجد أو في بلاط الخليفة أو الأمير ، أو في دار القائد أو في المدرسة التي بدأت تتشكل إذ ذاك . وربما عقدت تلك المجالس في دور الأعيان والعلماء أنفسهم .

فلا غرو ، والأمر كذلك ، أن يتسع مفهوم المناظرة - كما ذكرنا - ليشتمل على الرسائل التي كان يكتبها بعض كبار الكتاب أمثال أبي العلاء المعري في الرد على واحد من معاصريه كما في رسالة الغفران التي برد فيها على ابن القارح .

وحتى تتلمس ، عزيزي الطالب ، مراحل ازدهار هذا الفن وتطوره فإنه يحسن بنا أن نتعرف إلى أهم الموضوعات التي جرت فيها المناظرات ، وأن نمثل على ذلك بمنظرات شهيرة ليلتقي أمامك النظر والتطبيق في آن واحد .

2.2.2 أهم الموضوعات التي جرت فيها المناظرات ، وأشهر المناظرات في التراث العربي .

لعلك تتفق معنا ، عزيزي الطالب ، في أن المناظرات في التراث العربي لم تقتصر على باب الأدب أو السياسة ، بل تعدتها إلى أبواب أخرى كثيرة ، فقد ولجت شتى المجالات ، وكان لها فيها إسهام كبير ، فمن المناظرات ما كان سياسياً ، ومنها ما كان كلامياً أي يقوم على علم الكلام . ومنها ما دار في المسائل الفقهية ، كما أن المجال النحوي لم يخلُ من وجود مناظرات مهمة . وذلك إلى جانب المناظرات الأدبية والثقافية العامة . وأخيراً فقد وجدت أنواع من المناظرات في المسائل النقدية التي تدور حول الشعر أو الأدب بعامة . بين نقاد مختلفين . أو في ذهن ناقد فذ يناظر بين اتجاهين في النقد .

لذلك نرى أن ندمج بين هذا القسم والقسم الرابع من هذه الوحدة لنجعل كل موضوع وأشهر مناظرة فيه في بند واحد . حتى يلتحم العرض ونتفادى التكرار . ولا بأس والأمر كذلك ، في أن نتعرف إلى كيفية ولوج المناظرة إلى كل مجال وموضوع ، ثم نتعرف إلى أشهر المناظرات التي حفظتها لنا كتب التراث في ذلك الموضوع .

(أولاً : المناظرات السياسية :

تدرك ، عزيزي الطالب ، أن مسائل الحكم والسياسة كانت وما زالت من القضايا الخلافية على مرّ الأيام . وسببها تتشكّل الأحزاب والفرق وربما بسببها تقع الحروب . فالخصومة في السياسة بعامّة لا تحتاج إلى دليل ، وقد رأيناها في نهاية الخلافة الراشدية وبقيت طوال زمن الأمويين واستمرت في دولة بني العباس وما بعدها .

وقد مرّ بنا كيف أن معاوية بن أبي سفيان كان يجري المناظرات مع خصومه وكذلك الحجاج بن يوسف القائد الشهير الذي كانت له محاورات مع كثيرين من الخارجين على حكم بني أمية .

وقد رأينا ، في ذلك العصر ، الأحزاب السياسية التي تتنازع على الحكم أو على الخلافة متمثلة بالحزب الشيعي الذي يناصر علياً وآل بيته . والحزب الزبير الذي يدعو بالخلافة لعبد الله بن الزبير ، والحزب الأموي الذي يسيطر على الحكم في الدولة الأموية . ووجد حزب آخر قبل ذلك هو حزب الخوارج الذي رأى الخلافة حقاً للمسلمين جميعاً يتولاها أئمتهم .

واستمر وجود بعض هذه الأحزاب السياسية في الدولة العباسية ، وأصبحت المناظرات في العصر العباسي أقل مباشرة في الحديث عن الحكم فأخذت طابعاً دينياً على أيدي المعتزلة .

ورأينا شعراً أموياً وعباسياً يناظر أصحابه مخالفيهم على الرأي السياسي ، فمثل ذلك نموذجاً للمناظرة السياسية في الشعر ، ومن هؤلاء الكُميت شاعر الهاشميين وابن قيس الرقيّات شاعر الزبيريين . كما وجدنا في الدولة العباسية دعبل بن علي الخزاعي وآخرين .

أما أشهر المناظرات في هذا الجانب فقد مرّ بك طرف منها في معرض الحديث عن المحاورّة ، وهما المناظرتان اللتان كانتا بين عبد الله بن عباس ممثلاً لعلي بن أبي طالب مع الخوارج والمناظرة التي جرت بين معاوية بن أبي سفيان وابن الطفيل .

ومن تلك المحاورات كذلك وقد أجزنا أن نجعلها مناظرات : مناظرة علي بن أبي طالب لزُرعة بن البرج الطائي وحر قوص بن زهير السعديّ (الطبري ، ج 6 ص 40) . ومناظرة معاوية و ابن الزبير (ابن عبد ربه ، ج 2 ص 115) . ومناظرة معاوية لسودة بنت عمارة بن الأشقر الهمدانية (ابن طيفور ، 1985 ، ص 35) . ومناظرة الحجاج لبشر بن مالك الجرشي (المسعودي ج 2 ، ص 148) . ومناظرة الحجاج كذلك للغضبان بن القبعري (المسعودي ، ج 2 ، ص 146) . ومناظرة جرت بين الخوارج الأزارقة وجند المهلب (الطبري ، ج 7 ، ص 191) .

والآن دعنا ، عزيزي الطالب ، ننظر سوية في مناظرة معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن عباس وذلك

حين اجتمع جماعة من قريش عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان كثير التحقير لمعاوية فقال معاوية : " رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صفيين دون الناس ، فحفظت الميت في الحي ، والحي في الميت .

استعملك عليّ يا ابن عباس على البصرة ، واستعمل عبيد الله أخاك على اليمين ، واستعمل أخاك على المدينة . ثمّام بن العباس) . فلما كان من الأمر ما كان ، هنأتكم على ما في أيديكم ، ولم أكتشفكم عما وعدت غرائركم ، وقلت : أخذ اليوم وأعطي غداً مثله ، وعلمت أن بدء اللزم يضر بعاقبة الكرم . ولو شئت لأخذت بحلّاقيمكم وقيأتكم ما أكلتم .

لا يزال يبلغني عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذلتكم عثمان بالمدينة ، وقتلتكم أنصاره يوم الجمل ، وحرارتموني بصفيين . ولعمري لنبو تيمّ وعدي أعظم ذنباً منا إليكم . إذا صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسنّوا فيكم هذه السنة . فحتى متى أغضي الجفون على القذى . وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول : لعل وعسى ، ما تقول يا ابن عباس .

فقال ابن عباس :

رحم الله أبانا وأباك ، كانا صفيين متفاوضين ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فضل لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي . ولكن من هنا أباك بإخاء أبي أكثر من هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وحقن دمه في الإسلام .

وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجلاً لهواك لا لنفسك ، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وسُر بن أرطاة على اليمين فخان ، وحبيب بن مرّة على الحجاز فردّ ، والضحاك بين قيس القهري على الكوفة فحُصِب .

ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وضع أصفر ذنوبكم إلينا على مئة حسنة لمحقها . ولو وضع أذنى عذرتنا إليكم على مئة سيئة لحسنها .

وأما خذلتنا عثمان ، فلو لزمنا نصره لنصرناه .

وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه .

وأما حرينا إياك بصفيين ، فعلى تركك الحق ، وادعائك الباطل .

وأما إغراؤك إيانا بتيمّ وعدي ، فلو أردناها- ما غلبونا عليها " (ابن عبد ربه ، ج 2 ص 110) .

إن هذه المناظرة سياسية كما تلحظ وهي بين زعيم الأمويين بعد استقرار الأمر له وأحد كبار آل النبي هو ابن عباس . وموضوعها يتناول الخلاف السياسي بينهما . وترى معي أن معاوية قال كل ما يريد دون أن

يقاطعه ابن عباس ، وبعد أن أنهى جاء دور ابن عباس ، وبعد أن أنهى جاء دور ابن عباس فرد على كل نقطة أثيرت رداً مفصلاً . وبذا يدع المجال أمام رجالات قريش ممن ضمهم ذلك المجلس أن يحكموا .

ولم نجد إسفاً في الحديث وإن أحسننا قوة من طرف معارضة آتية من موقعة في السلطة وتجرد خصمه منها . لكنه لم يؤذ ذلك الخصم ، وتبقى هذه المناظرة بعيدة عن التزويق اللفظي وتهتم بإبراز شأن السياسة والنزاع على الخلافة . والحجج التي تساق تدل على المواقف التي يستخدمها المرء لاستحالة رأي المستمعين إليه . منها مثلاً مطالبة معارضة بنصرة عثمان . ولومه بني العباس على تقاعسهم من نصرته .

ومما يمكن عدّه في باب المناظرات ما نلجده في الشعر السياسي لتلك الفترة الحافلة بالصراعات . وإذا قرأنا بعض شعر الكميّ بن زيد الأسدي في آل الرسول (ص) وجدنا شيئاً من الحاجة للخصوم . يقول الكميّ:

فما لي إلا آل أحمد شيعة	ومالي إلا شعب الحق مشعب
إليكم ذوي آل النبي تطلعت	نوازع من قلبي ظمأً وألبسب
فطائفة قد كُفرتني بحبكم	وطائفة قالوا : مسيء ومذنب
بخاتمكم غضباً تجوز أمورهم	فلم أر غضباً مثله متغصب
وقالوا : ورثناها أبانا وأمنا	وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم حقاً على الناس واجباً	سفاهاً وحق الهاشميين أوجب
فيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها	ويا حاطباً في غير حبلك تحطب
ألم ترني من حب آل محمد	أروح وأغدو خانفاً أترقب
على أي جُرم أم بأية سيرة	أعنف في تقرظهم وازنّب
أناس بهم عزت قريش فأصبحوا	وفيهم ضياء المكرمات المظنّب
مصفون في الأحساب محض مجارهم	هم المحض منّا والصريح المهذب "

الكميّ شاعر طاهريّ

(الكميّ 1984)

فالشاعر يضع الأسباب التي دعت إلى نصرة آل محمد (ص) أمام القارئ ويستدل عليها بحوادث تاريخية وبالمكانة التي أصبحت لقريش بين العرب ، ثم ينحي باللائمة على أولئك النفر من الذين يعملون من

أجل آل أمية دون أن يصيبهم خير . فهم يوقدون ناراً يستضيء بها بنو أمية وحدهم ويحطبون الخطب ليضعوه في حبل بني أمية . ثم يجعل منهم مفتصبين للحق دون سند عقلي ؛ لذلك يرد دعواهم بنصها "قالوا : وراثناها أبانا وأمنا " الرد " وما ورثتهم ذاك أم ولا أب " . " يرون لهم حقاً على الناس واجباً " ، الرد : " سفاها وحق الهاشميين أوجب " .

إن الشاعر يستحضر صورة الأموي وحججه فيذكرها ويفند تلك المزاعم واحدة تلو الأخرى علّه يقلل من اتباعهم وينصر رأيه في نصره آل الرسول أو الشيعة بعامة .

ويذا نكون ، عزيزي الطالب ، قد وضعنا أمامك نماذج من المناظرة السياسية نثراً وشعراً . وقد رأيت أنها تمتاز بالاستدلال العقلي على تهافت موقف الخصم لنصرة رأي المناظر ذاته . وهي مناظرات متقدمة لم تصل حد النضج المطلوب ، ولم تخل من عاطفة ومن موقف عابر سريع يعتمد البديهة وسرعة الخاطر أكثر مما يعتمد الروية والنظر .

تدريب (3)



لماذا بقيت المناظرة السياسية بعيدة عن التزويق اللفظي والمحسنات البديعية ؟

نشاط (2)



ارجع إلى كتاب أدب السياسة في العصر الأموي لأحمد محمد الحوفي ، 1965 ، ص 368 - 386 ، الفصل السابع من الباب الثالث ، وتزود بقراءة نماذج من المناظرات السياسية في هذا العُصْر .

ثانياً : المناظرات الكلامية :

ازدهر هذا النوع من المناظرات على أيدي جماعة المعتزلة التي شكلت فرقة بل مجموعة من الفرق الكلامية التي اشتهر مؤسسوها بالجدل والقدرة الكلامية ، وكانت مجادلاتهم تدور في مسائل علم الكلام أو الفلسفة الإسلامية ، فعرضوا للقضايا العقدية وتناظروا في ذلك مع الأشاعرة أو أهل السنة والجماعة . كما تناظروا مع غير المسلمين من نصارى ومجوس ويهود .

فقد اشتهر من أعلام المعتزلة مؤسس الفرقة واصل بن عطاء ، والجاحظ ، وأبو هذيل العلاف وابن اخته

النظام ، وثمامة بن أشرس وبشر بن المعتمر وأبو علي الجبائي ، وأبو الحسن الخياط وآخرون . وقد اتصف هؤلاء جميعاً بقدرة فائقة على الجدل وحسن المحاورة في المسائل العقديّة . كما برز في مجال هذه المناظرات من غير المعتزلة كثيرون أمثال أبي الحسن الأشعري وفخر الدين الرازي ، والرضي النيسابوري ، وشرف الدين المسعودي ، والفزالي ، وابن رشد وغيرهم .

وقد اتسمت مناظرات المعتزلة مع غيرهم بالدقة والعمق ومن يقرأ كتبهم ومناظراتهم " يعجب من هذا التنبيه العقلي للمجادلين ، إذ يسلط الواحد منه الضوء على سقطات الآخر بلباقة وسداد منطق " (أبو رحمة ، 1985 ، ص 160) .

ومن أساليبهم أن المعتزلي " يطرح أحياناً على خصمه سؤالاً يحتمل جوابه نفيّاً أو إثباتاً وفي كلتا الحالتين يقطع الخصم ، والطابع العام لمناظراتهم أنها قصيرة وقد يكون سبب ذلك أنها تتناول - في الغالب - جزئيات دقيقة ، كما أنها تخضع لوهج عقلي مكثف لا يطبق التنطع أو الدوران " (أبو رحمة ، 1985 ، ص 160) .

وقد عرف أحد رجالاتهم البلاغة تعريفاً يدل على تأثيره بمفهوم المناظرة والجدل ، فعمرو بن عبّيد ، أحد أقطاب المعتزلة يقول : " البلاغة تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة على المستمعين ، وتزوين تلك المعاني في قلوب المريدين . بالألفاظ المستحسنة في الأذان ، المتبولة عند الأذهان . رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفي الشواغل عن قلوبهم " (ابن قتيبة ، ج 2 ص 170 - 171) .

ولم يكن باستطاعة أحد أن يفهم المعتزلة إلا إذا كان من تلاميذهم ، وتدرّب على أيديهم فقد استطاع أبو الحسن الأشعري مثلاً أن يبذل الجبائي وقد كان تلميذه وترك الاعتزال . وفي ذلك دلالة على قدرتهم الفائقة . أما وقد مرّت بك مناظرة الأشعري والجبائي فإليك مناظرة غيرها تكون نموذجاً مثلاً للمناظرات الكلامية .

روي عن الجبائي أنه كان على حدائث سنّه معروفاً بقوة الجدل ، فقد حُكي أنه " اجتمع جماعة لمناظرة فانتظروا رجلاً منهم فلم يحضر ؛ فقال بعض أهل المجلس : أليس هنا من يتكلم؟ وقد حضر من علماء المجيرة رجل يقال له صقر ؛ فإذا غلام أبيض الوجه زج نفسه في صدر صقر وقال له : أسألك ؟ فنظر إليه بعض الحاضرين وتعجبوا من جرأته مع صغر سنّه فقال : هل الله تعالى يفعل العدل ؟ قال : نعم . قال : أفنسيه بفعله العدل عادلاً ؟ قال : نعم ، قال : فهل يفعل الجور ؟ قال : نعم . قال : أفنسيه جائراً . قال : لا . قال : فيلزم ألا نسميه بفعله العدل عادلاً ، فانقطع " (المرتضى ، 1902 ، ص 45 - 46) .

فالموقف هنا بين جبيري ومعتزلي وموطن الجدل هو أفعال العباد . وكما ترى ، عزيزي الطالب ، جاءت المناظرة مختصرة وقصيرة وموفية الغرض . فقد استخدم الجبائي أسلوب السؤال الذي يحتمل النفي والإيجاب ، ففي النفي ، يكون الجبيري قد قضى صفة العدل عن الله ومن الإيجاب يكون قد أرغم على وصف الله بالجور؛ لذلك انقطع ولم يستطع الرد فأفحم من ذلك الصبي الحدث لقوته وحسن تصرفه .

واليك ، عزيزي الطالب ، مسطرة أخرى بين أبي هذيل العلاف ورجل مجوسي :

" قال أبو الهذيل لمجوسي : ما تقول في النار ؟ قال : بنت الله . قلت : فالبقر ؟ قال : ملائكة الله قص أجنحتها ، وحطها على الأرض يحرث عليها . فقلت : فالماء ؟ قال : نور الله . فما الجوع والعطش ؟ قال : فقر الشيطان وفاقته ، فقلت : فمن يحمل الأرض . قال : بهمن الملك . قلت : فما في الدنيا شر من المجوس . أخذوا ملائكة الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ، ثم شووها ببنت الله ، ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلخواها إلى رأس بهمن أعز ملائكة الله . فانقطع المجوسي وخجل مما لزمه " (المرتضى، 1907 ، ج 1 ص 126) .

فقد تكون عقائد المجوس أقل شأنًا من أن تستعصي في بيان زيفها على رجل مثل العلاف لكن الطريف في هذه المناظرة تلك البراعة في السخرية من الخصم بأسلوب لبق يميل إلى إظهار الاهتمام بأفكار هذا المجوسي أولاً حتى يحصيها ، ثم إنهاء ذلك بالسخرية والنصح المضحك لشأن تلك العقائد .
نكتفي عزيزي الطالب بهذين المثالين من المناظرة الكلامية . وهي كثيرة يمكن لك أن ترجع إليها في كتب كثيرة وتقرأ نماذج منها .

نشاط (3)



ارجع إلى كتاب المناظرات لفخر الدين الرازي ، 1992 ، تجد فيه (16) مناظرة كلامية وفقهية جرت بينه وبين علماء عصره ففيها الكفاية . وإذا أردت المزيد فارجع إلى كتاب أدب المعتزلة لعبد الحكيم بليغ ، 1979 ، ص 203 - 233 ، ففيه نماذج كافية من جدل المعتزلة .

أسئلة التقويم الذاتي



1. علل ازدهار فن المناظرة في ظل الدولة العباسية .
2. اذكر أهم الموضوعات التي جرت فيها المناظرات في التراث العربي .
3. كيف كان شعر بعض شعراء الأحزاب السياسية نموذجاً للمناظرات السياسية ؟
4. ما أهم سمات مناظرات المعتزلة ؟

ثالثاً : المناظرات الفقهية

لعلك تعرف ، عزيزي الطالب ، أن الفقه الإسلامي فتح أبواباً واسعة أمام المنكرين والمجتهدين ، فقد أصل له عدد من الأئمة على رأسهم الأئمة الأربعة المشهورون ، ابن حنبل ومالك والشافعي وأبو حنيفة ، وبعضهم يضيف إماماً خامساً هو ابن حزم الأندلسي صاحب المذهب الظاهري ، وكذلك الإمام جعفر الصادق .

وتبعاً لوجود هذه المذاهب أمكن أن نعثر على مناظرات فقهية يستند فيها كل مناظر إلى رأي مذهبه ، محاولاً التغلب على نظيره من اتباع المذاهب الأخرى ، كما وجدنا مناظرات فقهية داخل المذهب الواحد .

واتصلت هذه المناظرات الفقهية بالمناظرات الكلامية أحياناً ، فالتشريع أحياناً لا بد أن يتصل بالعقيدة؛ لأنهما ينبعان من أصل واحد هو القرآن الكريم وما ساندته من أصول ، مثل : السنة النبوية ، والإجماع ، والقياس ، والاجتهاد .

ولم نجد حدة في المناظرات الفقهية ؛ إذ الاختلاف في الفقه لا يُعد من الأمور المنكرة عند المتناظرين فلكل مجتهد نصيب . فقد وجدنا المتناظرين في هذا المجال يستخدمون البراهين والأدلة الشرعية المستندة إلى الأصول المقررة التي ذكرنا قبل قليل ، فتكون الغلبة لمن كانت حجته أقوى ، ولعل الغلبة إلى صاحب النص قبل الاجتهاد هي التي كانت شائعة . فلا اجتهاد في معرض النص كما كانوا يقولون .

وحفظت لنا الكتب التراثية كثيراً من هذه المناظرات منها ما جرى بين ابن حزم الظاهري ومواطنه الباجي وهي مجموعة في كتاب (مناظرات ابن حزم والباجي) ، وما جرى بين ابن تيمية ومعاصريه وقد دعت تلك المناظرات إلى تأليف كتاب الفتاوى الشهير . ومن المناظرات الفقهية أيضاً ما جرى بين فخر الدين الرازي والرضي النيسابوري .

والبيك ، عزيزي الطالب ، نص هذه المناظرة التي جرت بين فخر الدين الرازي والرضي النيسابوري في

بخارى يرويها فخر الدين الرازي في كتابه المناظرات فيقول :

رأيت ^{الرضي النيسابوري} لما ذهبت إلى سمرقند وقيت سنين ، ثم عدت إلى " بخارى " تكلمت مع " رضي النيسابوري " مرة أخرى ، فقلت : خيار المجلس ثابت في عقد المفاوضات والدليل عليه أنه لم يرض باللزوم ، فوجب أن لا يحصل اللزوم . وإنما قلنا أنه لم يرض باللزوم ، لأنه رضي بالبيع فقط ، لأن الكلام فيهما إذا قال بعث واشترت ، ولم يذكر شيئاً آخر .

وإنما قلنا : إن الرضى بالبيع لا يكون رضى باللزوم بحسب اللفظ لأنه أطبق أهل الشرع على أن البيع ينقسم إلى البيع الجائز واللازم ، فلما كان سمي منقسماً إلى هذين القسمين ، وثبت في صريح العقل أن ما به المشاركة مغاير لما به المباينة ثبت أن كونه بيعاً غير كونه لازماً .

وإنما قلنا : إنه لا يدل عليه بمعناه ، لأن الدلالة المعنوية عبارة عن دلالة الملزوم على اللازم الضروري أو لازمه الغالب ، واللزوم ليس من لوازم البيع لا قطعاً ولا ظاهراً .

فقلت : إنه لم يوجد الرضى باللزوم ، فوجب أن لا يحصل اللزوم بالوجوه الأربعة التي ذكرناها في مسأنة أن الوكيل بالبيع المطلق لا يملك البيع بالغبن الفاحش .

قال الرضي النيسابوري : هب أن مسمي البيع من حيث إنه بيع قدر مشترك بين البيع الجائز واللازم فلم قلت إن البيع المسكوت عنه إثبات شرط الخيار المشترك فيه بين البيع الجائز واللازم .

قلت : لما ثبت أن البيع من حيث إنه بيع لا إشعار له باللزوم . فنقول : حينئذ وجب أن يُقال : البيع المسكوت عنه إثبات شرط الخيار لا يكون مستلزماً للزوم ، لأن البيع مع المسكوت بيع مع قيد عدمي ، ولأن السكوت عدمي ، والعدمي لا يصلح أن يكون موجباً للزوم (ويكمل تفصيل ذلك ، حتى يرد الرضي مرة ثانية وثالثة ثم يكمل الرازي فيقول) : فقلت : أيها الشيخ الإمام ... إنه قد اشتهر عنك أنك رجل محب للعدل وللإنصاف ، ويعيد عن الغبظ والاضطراب . فأنا التمس منك أن لا تترك تلك الطريقة المحمودة في هذا اليوم . فلما سمع هذا الكلام استحي وقال :

معاذ الله استحسن أن أخوض في الاضطراب . فقلت له :

أما تلك المداخلات الثلاث فقد كانت معلومة . وقد أجيب عن واحد منها فيما سبق ، وأما هذا الكلام الرابع ، ولا أدري أنه أعاد المداخلات الثلاثة ، أو وصل رابع جديد ، فالأليق بفضلك أن تلخص الكلام حتى يمكن الخوض نفيًا وإثباتًا فاستحسن وسكت .

ثم قال بعض الحاضرين : هذا الدليل يبطل مذهبك ، لأن البيع مفهوم مشترك بين الجائز واللازم - فكما يمتنع كون البيع سبباً لحصول اللزوم . فكذلك يمتنع كونه سبباً لحصول الجواز فوجب أن لا يبقى هذا البيع جائزاً، وإن لم يكن جائزاً كان لازماً .

فقلت : هذا الدخل أحسن شيء ممكن إيراده على هذا الدليل ، وقد كان هذا معلوماً مقرراً عندي ولا يمكن ذكر الجواب عنه إلا بالرفق والسهولة .. ثم قلت :

ها هنا مقدمة في المعقولات ، وهي أنه لا يمتنع كون الشيء ممكناً لذاته (الرازي ، 1992 ، ص 177 - 182) .

فموضوع المناظرة في المعاملات ، في البيع والشراء ولزوم ذلك وعدم لزومه ، وتلحظ معي ، عزيزي الطالب ، أن المناظرة كانت أمام جمهور من الناس تدخّل بعضه في النهاية لمصلحة الرازي . ورأيت معي كيف

كان الرازي لطيفاً في رده على الرضوي ولم يجرح مشاعره حين اضطرب فوصفه بأنه محب للعدل والإنصاف .
مما جعله يقر بتناقضه ويعترف بتفوق الرازي في أدلته .

وقد تتفق معنا - عزيزي الطالب في أن المناظرات الفقهية كانت وما زالت تجري في المساجد بكثرة وفي صور متعددة ، أبسطها السؤال والجواب بين العامي والفقير في مسجده أو المفتي . ولعل هذا النوع من المناظرات على اختلافها لم يكن يخرج فيه المتناظرون عن حدود اللياقة والأدب كما كان الأمر في مناظرات أخرى غير فقهية .

رابعاً : المناظرات النحوية

لقد نضج الدرس النحوي عند العرب ، على أيدي علماء مدرستين نحويتين رئيسيتين تشكلتا في الثقافة العربية مع بدايات حركة التقعيد النحوي ، هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، فكان من أعلامهما الخليل وسيبويه والكسائي والفراء ، واستقلت كل مدرسة منهما ببعض الأسس والأصول لبسط مسألة التقعيد النحوي في عصر كثر فيه اللحن ، وأصبح حفظ اللغة وتعلمها من الضرورات القصوى لكل مثقف في مجال الشريعة ، أو اللغة ، أو السياسة ، أو الأدب . كما وجدت بعض المدارس الأقل شأناً مثل المدرسة البغدادية والمدرسة الأندلسية .

وغني عن القول إنه إذا وجدت اتجاهات متعددة في مجال ما ، ومدارس تتباين أسسها وقواعدها ، فلا بد من أن يسمح هذا بوجود مناظرات بين أتباع هذه الاتجاهات ، . . . وحقاً كان ذلك .

وأظهر ما وجدناه في كتاب " الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين " للشيخ الإمام أبي البركات الأنباري . الذي وضع فيه مئةً وإحدى وعشرين مسألة نحوية اختلف فيها نحو المدرستين . وكانت طريقته أن يضع حجة الكوفيين ثم يتلوها بذكر حجة البصريين ، أو حججهم إن تعددت . بعد ذلك يذكر الجواب عن كلمات الكوفيين ثم يتلوها بذكر حجة البصريين ، أو حججهم إن تعددت . بعد ذلك يذكر الجواب عن كلمات الكوفيين ثم الجواب عن كلمات البصريين ، ومن ثم يصرح برأيه في نصرة هؤلاء أو هؤلاء .

وإليك ، عزيزي الطالب ، نموذجاً من تلك المناظرات .

المسألة (20) من كتاب الإنصاف : القول في تقديم معمول خبر " ما " النافية لها .

" ذهب الكوفيين إلى أنه يجوز " طعامك ما زيد أكلاً " . وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز . وذهب أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب من الكوفيين إلى أنه جائز من وجه فاسد من وجه ؛ فإن كانت " ما " رداً

لخبير كانت بمنزلة لم ولا يجوز التقديم ، كما تقول لمن قال في الخبر " زيدٌ أكلَ طعامك " فإرد عليه نافيةً " ما زيدٌ أكلَ طعامك " فمن هذا الوجه يجوز التقديم . فتقول : طعامك ما زيدٌ أكلَ " فإن كان جواباً للقسم إذا قال " والله ما زيدٌ يأكل طعامك " كانت بمنزلة اللام في جواب القسم فلا يجوز التقديم .

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما جوزنا ذلك لأن ما بمنزلة لم ولن ولا ؛ لأنها نافية كما أنها نافية . وهذه الأخرى يجوز تقديم معمول ما بعدها عليها . نحو " زيداً لم أضرب ، وعمراً من أكرم ، ويشراً لا أخرج " فإذا جاز التقديم مع هذه الأخرى فكذلك مع ما .

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا لا يجوز ذلك لأن " ما " نافية ويليهما الاسم والفعل ، فأشبهت حرف الاستفهام ، وحرف الاستفهام لا يعمل ما بعده فيما قبله . فكذلك ها هنا " ما " لا يعمل ما بعدها فيما قبلها .

وأما الجواب عن كلمات الكوفيين : أما قولهم " إن ما بمنزلة لم ولن ولا " قلنا لا نسلم ؛ لأن " ما " يليها الاسم والفعل ، وأما لم ولن فلا يليها إلا الفعل ؛ فصاراً بمنزلة بعض الفعل ، بخلاف ما فإنها يليها الاسم والفعل ، وأما لا فإنما جاز التقديم معها - وإن كانت يليها الاسم والفعل - لأنها حرف متصرف فعمل ما قبله فيما بعده ، ألا ترى أنك تقول : " جئت بلا شيء " فيعمل ما قبله فيما بعده ؛ فإذا جاز أن يعمل ما قبله فيما بعده جاز أن يعمل ما بعده فيما قبله ، فإن الفرق بينها .

وأما ما ذكره أبو العباس ثعلب من التفصيل - من أنه إذا كانت رداً لخبير جاز التقديم ، وإن كان جواباً للقسم لم يجز - ففاسد ؛ لأن ما في كلا القسمين نافية . فينبغي أن لا يجوز التقديم فيهما جميعاً ؛ لما بيننا ، والله أعلم " (الأتباري 1982 ، ج 1 ، ص 172 - 173) .

فأنت ترى معي ، عزيزي الطالب ، هذا العرض المنظم والدقيق للمسألة ثم لرأي الكوفة والحجج ، حتى من يخالفهم منهم يفرد رأيه . ثم رأي البصرة وحجتهم . بعد ذلك بفنء الرأي الفاسد بالقياس والاستشهاد بالنصوص - في مواطن أخرى - حتى يصل إلى الرأي الذي يراه صواباً فيكون كالقاضي في حكمة على صحة رأي وفساد آخر . وأخيراً يختم قوله بـ والله أعلم " .

فهذه المناظرة ، وهي قياس لما في الكتاب كله ، تؤكد دقة الدرس النحوي عند العرب وحسن مناظرتهم في النحو . حتى شكل الفكر النحوي لديهم مجالاً واسعاً فضلوه على المنطق والفلسفة ورأوا فيه الكفاية لرياضة العقل وحل المسائل التي تعترضهم . وقد وجدنا مناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتمى بن يونس ، يؤكد فيها السيرافي أن النحو أفضل من المنطق .

وهذه مناظرة طويلة بين المنطق والنحو لا نذكرها كاملة بل تأتي على ذكر طرف منها ، وقد عقدت في مجلس الوزير ابن الفرات سنة ست وعشرين وثلاثمائة . وقد أوردها التوحيد في الإمتاع والمؤانسة :
يبدأ أبو سعيد الحديث فيقول لمتى :

” حدّثني عن المنطق ما تعني به ؟ فإنا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه وردّ خطئه على سنن مرضيٍ وطريقة معروفة .

قال متى : أعني به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فإني أعرف به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح .

فقال أبو سعيد : أخطأت ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالانظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنا نتكلّم بالعربية . وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إذا كنا نبحث بالعقل ؛ وهبّك عرفت الراجح من الناقص من طريقة الوزن ، فمن لك بمعرفة الموزون أيما هو حديد أو ذهب أو شبة أو رصاص (...) .

قال متى : إنما لزم ذلك لأن المنطق بحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة ، وتصفح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة . والناس في المعقولات سواء ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية سواء عند جميع الأمم . وكذلك ما أشبهه .

(ثم يرد عليه أبو سعيد فيرد متى وهكذا ويتدخل ابن الفرات أحياناً ويشير إلى الحاضرين هل اعتراهم الملل أم لا ؛ وكأنه يميل إلى رأي ابن سعيد في تفضيل النحو على المنطق) ، (التوحيد ، ج 1 ص 108 - 129) .

ونحن لا يهمنا أيهما الأفضل بل ما يهمنا هو أن طرافة هذه المناظرة تأتي من جمعها بين حقلين متباعدين يحاول نصير كلّ منهما أن يثبت قدرة حقله على حل الاشكالات التي تعترض الناس في حياتهم ، وأنها تؤكد أهمية النحو عند العرب بصورة خاصة وبلوغة درجة المنطق عند الأمم الأخرى .

نشاط (4)

ارجع إلى كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف للاتباري وحاول أن تتبين موقفه من البصرة والكوفة في ثلاث من المناظرات مختلفة .

وكذلك ارجع إلى كتاب الامتاع والمؤانسة للتوحيد ، واقرباً المناظرة بين السيرافي ومتى بن يونس لتتعرف إلى جوها وما جاء فيها .



تدريب (4)

اذكر أهم المناظرات النحوية في التراث العربي وبيّن كيف كان أسلوبها .



خامساً : المناظرات النقدية

تعلم ، عزيزي الطالب ، أن الاتجاهات النقدية تباينت عند العرب على تطور حياتهم الأدبية فكانت تثور الخصومات النقدية حول مسائل القديم والجديد ، أو اللفظ والمعنى ، أو مناصرة شاعر ضد آخر ، فكان يتعصب كل لموقفه النقدي فيقدم الحجج والأدلة والبراهين على صدق رأيه وصوابه ، محارولاً في الوقت ذاته دحض رأي خصمه .

ومن الأمثلة على تلك المناظرات ، يمكن أن نعد كتاب القاضي الجرجاني الموسوم بـ " الواسطة بين المتنبي وخصومه " إذ حاول فيه أن يدفع بعض الشبهات التي أثارها خصوم المتنبي حول شعره بأن ينصره بأسلوب نقدي .

أما أشهر نموذج للمناظرات النقدية عند العرب فتلك المناظرة التي تقدم بها الآمدي كتابه " الموازنة بين الطائيين " أبي تمام والبحثري ، تحت عنوان احتجاج الفريقين ، إذ جعل احتجاج فريق أبي تمام في نقطة ثم احتجاج فريق البحثري وأنصاره في نقطة تالية يردون فيها على رأي خصومهم . وبلغت حجج كل فريق اثنتي عشرة حجة . وإليك بعض تلك الحجج والرد عليها . قال الآمدي :

" وأنا أبتدئ بما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى ، عندما نخاصمهم في تفضيل أحدهما على الآخر ، وما ينعاه بعض على بعض ؛ لتأمل ذلك ، وتزداد بصيرة وقوة في حكمك إن شئت أن تحكم ، أو اعتقادك فيما لعلك تعتقده مع احتجاج الخصمين به :

1- قال صاحب أبي تمام : كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحتري أشعر من أبي تمام وعن أبي تمام أخذ ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى ؟ وباراه حتى قيل : الطائي الأكبر والطائي الأصغر . واعترف البحتري بأن جيد أبي تمام خير من جيده على كثرة جيد أبي تمام : فهو بهذه الخصال أن يكون أشعر من البحتري أولى من أن يكون البحتري أشعر منه .

2- قال صاحب البحتري : أما الصحبة فما صحبه ولا تلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ، ولا نقله ولا رأى قط أنه محتاج إليه ، ودليل هذا الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري وقد دخل إليه البحتري بقصيدته التي أولها :

أفاق صب من هوى فأفبقا

وأبو تمام حاضر ، فلما أنشدها علق أبو تمام أبياتاً كثيرة منها (...)

3- قال صاحب أبي تمام : إلا أنه - مع هذا - لا ينكر أن يكون قد استعار بعض معاني أبي تمام :

لقرب البلدين ، وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعر أبي تمام فيعلق شيئاً من معانيه .
معتمداً للأخذ أو غير معتمد .

4- قال صاحب البحترى : ليس ذلك بمانع من أن يكون البحترى أشعر منه ؛ فهذا كثيرٌ قد أخذ من جميل ، وتلمذ له ، واستقى من معانيه ، فما رأينا أحداً أطلق على كثير أن جميلاً أشعر منه ، بل هو - عند أهل العلم بالشعر والرواية - أشعر من جميل (...) "

وتتوالى الحجج بين الفريقين ويكون من ذلك أيضاً :

" 11 - قال صاحب أبي تمام : فقد أقررتم لأبي تمام بالعلم والشعر والرواية ، ولا محالة أن العلم في شعره أظهر منه في شعر البحترى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

12- قال صاحب البحترى : فقد كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً ، وكان الأصمعي عالماً شاعراً ، وما كان الكسائي كذلك ، وكان خلف بن حيّان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء . فقد كان التجويد في الشعر ليست علته العلم . ولو كانت علته العلم لكان من يتعاطاه من العلماء أشعر ممن ليس بعالم (...)

13- قال صاحب أبي تمام : فقد عرفناكم أن أبا تمام أتى في شعره بمعان فلسفية ، وألفاظ غريبة ، فإذا سمع بعض شعره الأعرابي لم يفهمه ، فإذا فُسر له فهمه واستحسنه .

14- قال صاحب البحترى : هذه ادعاء منكم على الإعراب في استحسان شعر صاحبكم إذا فهموه . ولا يصح ذلك إلا بالامتحان . ولكنكم معترفون ومُجمعون مع من هو معكم وعليكم أن لصاحبكم إحسانات وإساءات ، وأن الإحسان للبحترى دون الإساءة ومن أحسن ولم يسن أفضل ممن أحسن وأساء " (الأمدي ، 1944 ، ص 12 - 50) .

وتستمر هذه المناظرة على هذه الشاكلة ، ويكون الأمدي فيها نموذجاً للقاضي الذي يوازن دون أن يتدخل بل هو يضع القضية وردّها من قبل الفريق الآخر . وبذا يتمثل بالموضوعية وبالفكر النقدي المستنير الذي لا يرجع إلا بعد روية ونظر . ولعل هذه المناظرة كانت متخصصة إلى حد كبير فلم يرد فيها إلا ما يتصل بالشعر ونقده عند القدماء ولا يخرج عنه قبلنا به في العصر الحديث أم لم نقبل ، أي لم يتعرض النقد لشخص الشاعر أو أحد المتناظرين فبقي في حدود الموضوع المطروح .

سادساً : المناظرات الأدبية أو مناظرات الثقافة العامة

مع تطور الحياة العربية وازدهار الحركة الثقافية ، برزت أشكال من المناظرات تعتمد قوة حافظه الرجل وقدرته على المحاجة مع الخصم في أي مجال غير متخصص ، ولعل ظاهرة المثقف الموسوعي وغير المتخصص في آن واحد ، كانت شائعة في المجتمع العربي بوضوح في عصور شتى منذ القرن الثالث . فكان العالم يلم بطرف من النقد والفقه والفلسفة وعلم الكلام إلى جانب معرفته بالشعر وعلم الحديث وربما علوم الجبر والهندسة والمقابلة والطب والبصريات وغيرها . ومن هذه الشخصيات الثقافية نجد الجاحظ وابن قتيبة والهمداني والخوارزمي والسيوطي وغيرهم كثير .

وقد أتاحت مثل هذه الظاهرة وجود مناظرات ، جرت في الحياة الواقعية بين اثنين من العلماء والمثقفين ثقافة عامة عالية إذا جاز التعبير ، مثل تلك التي جرت بين الهمداني والخوارزمي (مبارك ، 1934 ، ج 2 ، ص 403 - 425) . إلى جانب وجود مناظرات ذهنية ينشئها صاحبها بحيث يقوم بإحكامها على شكل مناظرة بين الربيع والخريف مثلاً أو بين السيف والقلم كما فعل ابن الوردي في مناظرته (السيف والقلم) (الهاشمي ، ج 1 ص 254 - 258) . ومناظرات السيوطي في مقاماته الأدبية والطبية (السيوطي ، 1988) .

ووجدنا بعض المناظرات الشعرية منها مناظرة الصنوبري بين الورود (الصنوبري 1971 ، ص 498) .

وهذه المناظرات الذهنية تكون بين الأشياء ، وليست بين اثنين من المتناظرين من البشر وسوف نأتي على الإشارة إلى نماذج سريعة مقتضبة تمثل هذه المناظرات .

النموذج الأول : مناظرة الهمداني والخوارزمي .

تقع هذه المناظرة في صفحات عدة أوردها الهمداني في رسائله ونقل مقتطفات منها زكي مبارك في كتابه النشر الفني . وهي تدل على اتساع ثقافة كل الهمداني والخوارزمي ، وهي مناظرة فعلية جرت بينهما أمام حشد كبير من الناس وقد أفحم فيها الخوارزمي وقيل إنه مات كمدأ على أثرها . ويبين الهمداني كيف كان الاتفاق بينهما على أدب المناظرة وكيف أخل الخوارزمي بتلك الشروط ، ويورد الهمداني في بدايتها :

" .. فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنشر إن اخترت ، والبديهة إن نشطت ، فهذه أبوابك التي أنت فيها ابنُ دعواك ، تملأ منها فاك ، فأفحم عن الحفظ رأساً ، ولم يجعل في النشر قِدحاً ، وقال : أبادهك. فقلت : أنت وذاك ! ... "

وتطول المناظرة : فارجع إليها .



ارجع إلى كتاب (النثر الفني لـزكي مبارك ج 2 ، ص 403 - 425) وقرأ نص المناظرة وتعرف إليها بنفسك لما فيها من فائدة وشمول لقواعد فن المناظرة .

النموذج الثاني : مناظرة السيف والقلم لـزين الدين عمر بن الوردى المتوفى سنة 749 هـ .

قال ابن الوردى : " لما كان القلم والسيف عُدتي العمل والقول . وعمدتي الدول ، فإن عَدَمتهما دول فلا حول ، وركنني إسناد الملك المعريين عن المخفوض والمرفوع ، ومقدمتي نتيجة الجدل الصادر عنهما المحمول والموضوع ، فكُرت أيهما أعظم فخراً وأعلى قدراً فجلست لهما مجلس الحكم والفتوى . ومثلتهما في الفكر حاضرين للدعوى ، وسويت بين الخصمين في الإكرام ، واستنظقت لسان حالهما للكلام ، فقال القلم : بسم الله مجربها ومرساها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، أما بعد حمد الله باري القلم ، ومشرقه بالقسم ، وجاعله أول ما خلق ، وجمل الورق بغصنه ، كما جمّل الغصن بالورق ، والصلاة والسلام على القائل جفت الأقلام فإن القلم قصب السباق ، والكاتب بسبعة أقلام من طبقات الكتاب في السبع الطباق ، جرى بالقضاء والقدر ، وناب عن اللسان فيما نهى وأمر (..) قال السيف : بسم الله الخافض الرفع ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع ، أما بعد حمد الله الذي أنزل آية السيف فعَمَ بها حرمة الجرح . وآمن خيفة الحيف ، والصلاة والسلام على الذين نفذ بالسيف سطور الطروس ، وخدمته الأقلام ماشية على الرؤوس ، وعلى آله وصحبه الذين أرفقت سيوفهم ، وبنيت على كسر الأعداء حروفهم ، فإن السيف عظيم الدولة شديد الصولة ، محا أسطار البلاغة ، وأساغ ممنوع الإساغة (...) .

قال القلم : أما أنا فابن ماء السماء ، وأليف الغدير وحليف الهواء ، أما أنت فابن النار والدخان وياتر الأعمار وخوكان الإخوان . تفصل ما لا يفصل وتقطع ما أمر الله به أن يوصل ، لا جرم إن صغر السيف خذّه وصقل قفاه ، وسقي ماء حميماً فقطع معاه ، يا غراب البين ، ويا عدة الحين ، ويا معتل العين ، ويا ذا الوجهين ، كم أفنيت وأعدمت ؟ وأرملت وأيتمت ؟

قال السيف : يا ابن الطين ، ألسنت ضامراً وأنت بطين ، كم جريت بعكس ، وتصرفت في مكس ، وزورت وحرقت ، ونكرت وعرقت ، وسطرت هجواً أو شتماً وخلدت عاراً وذماً ، أبشر بقرط روعتك ، وشدة خيفتك ، إذا قست بياض صحيفتي بسواد صحيفتك ، فألن خطابك فأنت قصير المدة (...) " (الهاشمي ، ج 1 ، ص 254 - 256) .

ترى معي ، عزيزي الطالب ، أن هذه المناظرة تقوم على الخيال ؛ فهي مناظرة ذهنية كما يورد ابن

الوردي في مقدمته ، ويجعل من نفسه حكماً . وتلاحظ معي أنه يجنح إلى استخدام الأسلوب البلاغي واللغة المسجوعة المنمقة لأن الأمر يرجع إلى ترف فكري ، وخيال شعري أكثر مما هو جدل حول مسألة ما . وهذا هو التطور النهائي للمناظرة ؛ أي غرقت في الزخرف اللفظي ولم تعد تجري في مسائل حاسمة في كتب الأدب العامة . لذلك كشرت مثل هذه المناظرة ومنها مثلاً . مناظرة بين الليل والنهار " لمحد الجزائري ، و " مناظرة الأرض والسماء " له أيضاً . ومناظرة بين فصول العام " لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة 401 هـ و " مناظرة بين البر والبحر " وأخرى بين " الهواء والماء " وكلها تفرق في مثل هذه الحيل اللفظية ولا تعتمد إلى الجد .

النموذج الثالث : مناظرة الورود للصنوبري وهي مناظرة شعرية يقول فيها :

" زعم الورد أنه هو أبهى	من جميع الأنوار والريحان
فأجابته أعين الترجس الغض	بذّل من قولها وهوان
أيما أحسن : النور أم مقلّة	رئس مريض الأجنان
أم فماذا يرجو بحمرته الورد	إذا لم يكن له عينان
فزاها الورد ثم قال مجيباً	بقياس مستحسن وبيان
إن ورد الخدود أحسنُ	من عين بها صفة البرقان "

(الصنوبري ، 1971 ، ص 498)

إن هذه النموذج من المناظرة الشعرية يلتقي مع النموذج السابق في انطاق غير العاقل وإجراء المناظرة الذهنية على سبيل الفكاهة وإظهار قدرة الشاعر البلاغية ولكن لا نحسّ بجدوى موضوع المناظرة على الصعيد العملي . وبذلك أصبحت المناظرة تمثل الترف الأدبي أكثر من الحاجة العملية إليها كما كان الأمر في المناظرة السياسية أو الجدل الكلامي .

تدريب (5)

لماذا أصبحت المناظرة الأدبية تميل إلى التزويق اللفظي وتطول بصورة كبيرة مقابل المناظرة السياسية أو الكلامية التي كانت نصيرة وغير معتمدة على فنون البلاغة .

ارجع إلى كتاب جواهر الأدب للهاشمي ، وقرأ المناظرة بين الفصول لابن حبيب الحلبي ج 1 ، ص 280-283 . وحاول أن تلخص أهم خصائصها .



أسئلة التقويم الذاتي

1. اذكر أشهر المناظرات في الأبواب التالية :
الفقه ، النحو ، النقد الأدبي ، الأدب والثقافة العامة .
2. لماذا لم تكن المناظرات الفقهية والنحوية تُعنى بالأساليب البلاغية والصور الفنية ؟
3. اذكر الأسباب التي دعت إلى ازدهار المناظرات النحوية ودور المدارس النحوية في ذلك .



3.2 تقاليد فن المناظرات وخصائصها

تبيّن لك ، عزيزي الطالب ، أن المناظرة نوعٌ من المحاضرة يشترك فيها اثنان أو أكثر ويتخذ كلٌ موقفاً معيناً يدافع عنه بالأدلة والبراهين ، ويحاول قدر استطاعته تأييد رأيه وتخطئة رأي الفريق الآخر .
لذلك كان لا بد من وجود أدب الحوار ، وأسلوب أو أساليب للمناظرة يحاول المرء تدعيم رأيه من خلالها ببرهان عقلي ، أو فصاحة لغوية وبلاغية ، أو موقف نفسي ، يؤثر في خصمه المناظر أو في جمهور المستمعين قدر استطاعته .

1.3.2 أدب الحوار في المناظرة

① أساس أدب الحوار في المناظرة أن يحترم المناظر خصمه والمستمعين معاً ، فلا يتعرض لحياة ذلك الخصم ، ولا ينبو لسانه فيجرح مشاعره أو مشاعر المستمعين .

ويبدو أن المناظرة بعامة كانت تُسبق بترتيبات واتفاق محدد بين المتناظرين ، فيكون لزاماً على كل منهما أن يلتزم الشروط التي وضعها معاً .

فقد ذكر الهمذاني في خبر مناظرته مع الخوارزمي أنهما اتفقا على " أن تسكت ونسكت ، حتى تتم ونتم ، ثم نبحث ونفحص " (مبارك ، 1934 ، ج 2 ، ص 408) .

اتفقا إذن على أن يسكت أحدهما حتى يتم الأول كلامه ، ثم يسكت المتحدث ليفسح المجال أمام الآخر ليستكلم حتى يتم كلامه ، أي ينتفي وجود المقاطعة في الحديث . ونعل الذي دعا الهمذاني إلى ذكر هذا الشرط أن الخوارزمي خرج عليه ولم يلتزم به ، فقاطع متحدته وأتى بكلام لا يليق بالمناظر . قال الهمذاني :

" فنبد الأدب وراء ظهره ، وصار إلى السخف يكيلنا بصاعه ومُدّه ، وينفض حمة جهده ، وأفضى إلى السفه ، يغرف علينا غرفاً ، ويستقي من جرفه جرفاً ، فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب ، وللمناظرة حضرنا لا للمنافرة ، فإن نفضت من هذا السخف يدك وثبتت عن هذه السفه قصدك ، وإلا تركت مكالمك " (مبارك ، 1934 ، ج 2 ص 408) .

ترى ، عزيزي الطالب ، أن أحد المتناظرين يهدد بقطع المناظرة ، وعدم إتمامها ؛ لأن خصمه لم يلتزم بأدبها الذي اتفقا عليه . فقد خرج الخوارزمي - كما يذكر الهمذاني - عن حدود اللياقة والأدب وصار يستخدم الألفاظ النابية بحق خصمه .

ويشير الهمذاني كذلك إلى فرق جوهرى بين المناظرة والمناظرة ، فهو يعترض على خصمه لأنه حول المناظرة إلى منافرة ؛ أي أصبح يفتخر بنفسه وذاته ويكيل السباب لخصمه وهذه ليست من شيم المناظرة وإن قبلت من أحد المتناظرين .

ويذكر الراغب الأصفهاني أن متكلمين اجتماعاً " فقال أحدهما : هل لك في المناظرة : فقال على شرائط : أن لا تغضب ولا تعجب ولا تشغب ولا تحكم ولا تُقبل على غيري وأنا أكلّمك ، ولا تجعل الدعوى دليلاً ، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك إلا جوزت إليّ تأويل مثلها على مذهبي ، وعلى أن تؤثر التصادق وتناقذ للتعارف ، وعلى أن كلاً منا تبنى مناظرته على أن الحق ضالته ، والرشد غايته " (الاصفهاني ، ص 37) .

هذه الشروط هي أدب المناظرة بعينه : فالمناظر حلیم عليه ألا يغضب لأن الغضب يجعله بعيداً عن الصواب وقريباً من شهوة الانتقام وأذى صاحبه .

والمناظر لا يعجب أي لا يصاحب بالإعجاب بنفسه إن هو أحسن ؛ وعليه أن لا يستنكر حجة خصمه بأسلوب استهتاري تعجبي ليؤثر في السامعين بأن يشعرهم بتعجبه من تلك الحجة . ولذلك لا يشغب على خصمه بصوت أو بتهيج الأتباع حتى يؤثر في الخصم .

والمناظر لا يمتلك الحق في أن يحكم على خصمه ، فلا بد من حكم أو يكون الجمهور هو الحكم . ويشير هذا النص إلى ملحظ نفسي مهم جداً وهو اشتراط أحد المتناظرين ألا يئيل المناظر بوجهه عنه في أثناء كلامه ليحسّر الآخرين بقلة شأنه ، أو بهجنة حجته . فمن أدب الحديث أن يولي السامع اهتمامه بالمتحدث حتى لا يؤثر في نفسه بسوء .

ومن أدب المناظرة أن لا تصيح الدعوى دليلاً ؛ لأنها ما زالت بحاجة إلى دليل ، فإذا أصبحت دليلاً قبل إثباتها كانت دليلاً فاسداً لعدم ثبوته

أما شرط التأويل فهو يرجع إلى نظرة كل مذهب في أسلوب تأويله للآيات فيما أن يتفق الخصمان على جواز التأويل كل حسب مذهبه وإلا ترك التأويل جملة .

وخاتمة الشروط أن يحافظ المناظر على إنسانيته وإنسانية خصمه ، فالصداقة هي الأساس ، والتعاون أولى من التنافر والتدابير . وعلى المناظرين أن يكون طلبتهما الحق والرشد وإلا فلا مناظرة .

تبقى هذه الشروط نظرية ، وإذا ما جرت مناظرة فإن الالتزام بها قد لا يكون تاماً وعلى الأخص من قبل الشخص الذي يوشك أن يهزم - وقد روي في أخبار القدماء كثير من حالات الخروج على تلك الشروط .

فقد ذكر عن الخليفة المأمون أنه حضر مجلسه أحد الهاشميين فناظره وشغب عليه ؛ فقال له المأمون :

لا ترفعن صوتك يا عبد الصمد إن الصواب في الأسد لا الأشد

(الأصفهاني ، ص 36)

فلم يُفد الشغب لأن الصواب في المناظرة يكون في الحجة وقوتها لا في تهبيج المستمعين .

ولعلك تتفق معي ، عزيزي الطالب ، أنه لا يلجأ إلى الأساليب المتلوية هذه إلا العاجز عن إفحام خصمه بالحجة والبرهان . فقد قيل " لا يميل إلى الجلبة واللجاج إلا من عجز عن الغلبة بالحجاج "

(الأصفهاني، ص 36)

وقد يستغل أحد المتناظرين الجمهور للإساءة إلى خصمه ، من ذلك ما ذكر الرازي في مناظرته لقاضي (غزنه) " وكان ذلك القاضي قد جاء بجمع عظيم من عوام غزنه وأمرهم بأن يشغبوا عنه عند خوضي في الكلام " (الرازي ، 1992 ، ص 121) .

وهذا يخالف أدب الحوار كما مرّ بنا .

ولكن قد نرى المتناظرين يلتزمون أدب الحوار ويُبقون على علاقة الود فيما بينهم حتى إن بعضهم كان يتذاكر مع خصمه ما كان منهما في مناظرات جرت . " قال بشر بن المعتمر لأبي الهذيل العلاف ، عند المأمون بعد مناظرة كانت بينهما ، كيف رأيت وقع سبهي عليك ، فقال : حلوة كالشهد ، ولينة كالزبد ، فكيف ترى سهامنا : فقال ما أحسست بها ، قال لأنها لاقت جماداً " (الأصفهاني ص 34) .



اذكر خمسة من آداب الحوار في المناظرة .

2.3.2 الأساليب المستخدمة في المناظرة

للمناظر الحق في استخدام أساليب متنوعة يقنع فيها الخصم والمستمعين على أن تكون تلك الأساليب مقبولة من الناحية الخلقية وتجري على سنن أدب المناظرة . ذلك أن هدفها الرئيس هو الإقناع . ومن أشهر هذه الأساليب في المناظرات عند العرب ما يلي :

1- البرهان العقلي والاستدلال .

2- الفصاحة في اللغة واستخدام أساليب البلاغة .

3- استغلال الموقف النفسي للخصم وللمستمعين .

وسنأتي على بيان كل أسلوب منها وفي أي مجال كان استخدامه أفصح .

1- البرهان العقلي والاستدلال

إن المناظرات الكلامية اعتمدت اعتماداً كلياً على البرهان العقلي والاستدلال المنطقي ، فإذا رجعت إلى مناظرات أبي الهذيل العلاف والنظام والجبائي والأشعري وجدت أنها تقوم على مقدمات ونتائج ، فكل مقدمة تفضي إلى أخرى حتى تصل إلى نتيجة . لذلك كانت هذه المناظرات قصيرة ، بعيدة عن التزويق اللفظي والأساليب البلاغية لأنها غنية بأفكارها وبراهينها العقلية . وإذا أردت أن تتعرف إلى هذا الأسلوب في الإقناع فارجع إلى مناظرات الكلاميين ومنها مناظرات الفخر الرازي . وفي الأمثلة التي مرّت بك غنى عن إعادة الاستشهاد هنا .

2- الفصاحة

ترجع أهمية الفصاحة ، أو الإبانة ، أو البلاغة ، (أي استخدام اللغة بصورة فذة من قبل المناظر إلى أن السامع ، حكماً كان أو مشاهداً عادياً بين جمهور المستمعين لا بد أن بأسره الأسلوب البليغ أكثر من الأسلوب الذي يتصف صاحبه بالعي وعدم القدرة على الإبانة بطلاقة .

فقد قيل " إن من البيان لسحرا " . وكان صلى الله عليه وسلم يشير إلى أنه ربما حكم لألسن المتخاصمين وإن لم يكن صاحب الحق . فقال : " إذا اقتطعت له حقاً من أخيه فقد اقتطعت له قطعة من النار " . أي أن الرجل اللسن يستطيع أن يحول الحقيقة من جانب إلى جانب . وقد يقنع الناس بباطله ويبقى صاحب الحق مظلوماً .

فسحر البيان يؤثر في الحكم كما يؤثر في الجمهور ، لذلك وجدنا المناظرات المتأخرة قليلاً من الناحية التاريخية تميل إلى استخدام الفنون البلاغية من سجع وجناس وطباق وغيرها من الفنون أملاً في كسب حق ما .

وقد أصبحت المناظرات الأدبية والثقافية العامة على وجه الخصوص هي الأكثر عناية بالتزيق اللفظي والحيل البلاغية ؛ لذلك طالت ولم تعد مختصرة كما هو شأن المناظرات السياسية .

على أن المناظرات التي استخدمت هذه الأساليب البيانية كانت في معظمها مناظرات خيالية أو ذهنية كما سميناها ؛ أي أصبحت تعبير عن ترف عقلي أكثر مما تعبير عن موقف نفعي . فازدهر هذا الأسلوب في المناظرات المتأخرة في التراث العربي .

3- الموقف النفسي

إن من أهم الأساليب التي اعتمد عليها المناظر عند العرب استغلال الموقف النفسي لخصمه بحيث يؤثر فيه في الموقف الذي يصاب فيه بالعي ، أو يلتبس عليه الأمر في رد حجة ، أو استغلال برهان . وقد حفظت لنا كتب التراث كثيراً من النماذج التي دلت على نباهة المجادلين والمحاورين في استغلال لحظات ضعف الخصم لقطع حجته .

وإذكر لك ، عزيزي الطالب ، جانباً من مناظرة الفخر الرازي مع النور الصابوني يظهر فيه الاستدلال العقلي واستغلال الموقف النفسي لحالة المناظر والموقف المستمعين .

يقول الرازي : ... فلما أوردت عليه هذا الكلام ، صعب على الرجل فهمه وإدراكه إلا إعادة هذا الكلام بالرفق والسهولة مراراً وأطواراً حتى وقف عليه من بعض الوجوه ، ولما وقف عليه أخذ في الاضطراب والشغب فتارة كان يقول القدرة مؤثرة في الصحة بالتفسير الثاني ، فكنت أقول له :

فهذا إنما يصح له إذا سلمت كون القدرة صالحة للتأثير ، فإذا قلت بعد ذلك المؤثر صفة أخرى مسماة بالتكوين ، وإن القدرة غير صالحة للتأثير . كان هذا الكلام متناقضاً .

فبقي الرجل في الاضطراب الشديد ، والشغب العظيم مدة مديدة ، واستحى من كثرة اضطراباته وانتقالاته ، ثم إنه في أثناء ذلك الشغب قال :

" يا أيها الناس إني أقول إن الله تعالى هو الخلاق الباري "

فوصف نفسه بالخلق ، وأنا أقول إنه صادق في قوله ، وهذا الرجل يقول ليس الأمر كما قال الله . فقلت له :

إنك الآن خرجت عن قانون البحث والنظر ، وشرعت في تشغيب العوام والجهال ، إلا أن هذه البلدة بلدة العلماء والأذكياء والأكياس ، فنحن نكتب هذه المناظرة التي ذكرناها على الوجه الذي مرّ ثم نرسلها إلى الأذكياء والعقلاء ، فإن قضا فيها بأني أنكرت كتاب الله عاملوني بما يليق بهذا الكلام ، وإن قضا فيها بأني أنكرت كتاب الله عاملوني بما يليق بهذا الكلام ، وإن قضا بأنك عجزت عن الكلام ، وانتقلت من البحث والنظر إلى الشغب والسفه ، عاملوك بما يليق بك .

فلما شرعت في كتابة المناظرة ، تضرّع غاية التضرّع . واعترف بأن ذلك الكلام كان خارجاً عن قانون العقل والسداد ، وأظهر انقطاعه وعجزه لجميع الحاضرين " (الرازي 1992 ، ص 119) .

يظهر لك عزيزي الطالب من النص السابق كيف استطاع الفخر الرازي أن يقدم الإقناع العقلي ، فلما أوشك على قطع حجة خصمه استغل موقفه النفسي إذ لما رآه مضطرباً أصبح يعيد عليه الكلام مرات ومرات ليبين عيبه ويطء فهمه . وبعد ذلك ضيق عليه حتى أخرجه من البحث والنظر إلى التشغيب . فلما وقع في الخلط في محاولة بانسة لاستدراج عطف الحاضرين ، هبّ الرازي إلى الرفع من شأنهم بأنهم عقلاء أذكياء أكياس ، ولا يحق للصابوني أن يستخف بعقولهم ، وبذا يكون كل من المتناظرين قد استغل الموقف النفسي وحاول كسب ود الجمهور . فنجح واحد وأخفق الآخر .

وأخيراً فقد هدّده بأن يفضحه في نطاق أوسع من فضيحته التي تمت في ذلك المجلس : فتضرع إليه واعترف بعجزه أمام الحاضرين ، بأثر من ذلك .

تدريب (7)

كيف يستغل المناظر الجيد الموقف النفسي في المناظرة لمصلحته ضد خصمه ؟



أسئلة التقويم الذاتي



1. هل كان المتناظرون في المناظرات التي مرّت يلتزمون جميعاً بأداب الحوار والمجدل ؟ وضّح الجواب بأدلة .
2. اذكر أهم وسائل الإقناع التي اعتمد عليها المتناظرون في المناظرات المختلفة في التراث العربي ، وشرح وسيلة منها .
3. بيّن الموقف النفسي الذي استغله الفخر الرازي في مناظرته للنور الصابوني .
4. ما الأهمية التي تحتلها الفصاحة أو البلاغة في استمالة الجمهور المستمعين في المناظرة ؟

3. الخلاصة

عزيزي الدارس ،

لقد تبين لك أن جذور المناظرة كانت موجودة في العصر الجاهلي ثم في بداية العصر الإسلامي ، ولكنها لم تستوفناً أدبياً إلا في العصر الأموي . ولكن المناخ الذي أدى إلى ازدهار هذا الفن وجد في العصر العباسي . بما وجد فيه من ثقافة متشعبة المصادر ، وما وجد فيها من فرق واتجاهات كلامية وفلسفية متعددة.

وقد تنوعت المناظرات بين سياسية وكلامية وفقهية ونحوية ونقدية وأدبية .

وقد تبين لك ما للمناظرة من آداب ، وما كان يستخدم فيها من أساليب تعتمد على البرهان العقلي والفصاحة والموقف النفسي .

وانني أرجو أن يكون ما مرّ بك قد جلا لك حقيقة هذا الفن وقرّبه إلى عقلك وقلبك .

4. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية

ستكون لنا ، عزيزي الدارس ، وقفة مفصّلة في الوحدة التالية مع فن نثري قريب من نفوس الخاصة والعامّة ، وهو فن القصة . لنرى عوامل نشأته في تراثنا ، وأهم موضوعاته ، وأبرز ملامحه ، والخصائص الفنية التي تجلّت فيما كتب الذين اتجهوا إلى هذا الفن . وسنقف بك على نماذج ، وكذلك على مصادر تعينك على حسن تمثّل صورة هذا الفن ، لتكتمل لديك الصورة عن فنون النثر العربي القديم .

5. إجابات التدريبات

تدريب (1)

الصلة بين معنى المناظرة لغة ومعناها في الاصطلاح تأتي من وجهين :

- الأول : أن النظر لغة حسن العين وفيه البصر ، والمناظرة تحتاج إلى نظر وبصيرة للتفكير .

- الثاني : إن التناظر التقابل ، وفي المناظرة هناك تقابل بين متناظرين .

تدريب (2)

لعل ازدهار المناظرات النثرية يعود لاعتماد المناظرة على العقل أكثر من العاطفة ولعلك تعلم عزيزي الطالب أن النثر أقدر على حمل الأمور العقلية من الشعر الذي يحفل بالعاطفة أكثر من احتفاله بالعقل .

تدريب (3)

بقيت المناظرة السياسية بعيدة عن التزيق اللفظي والمحسنات البديعية لأنها ازدهرت في مرحلة مبكرة ولم تكن الفنون النثرية قد دخلتها الصنعة بشكل كبير . ولأنها تهتم أكثر ما تهتم بإبراز حق الشخص في الخلافة أو في نصرته الجماعة التي انحاز إليها لذلك كانت تميل إلى الاستدلال بالحجج والبراهين أكثر من ميلها إلى البلاغة .

تدريب (4)

أهم المناظرات النحوية في التراث العربي هي تلك المناظرات التي صاغها أبو البركان الأنباري في كتابه " الإنصاف في مسائل الخلاف " فبلغت مئة وإحدى وعشرين مسألة - وقد عرض فيها رأي الكوفيين مبيناً حججهم في كل مسألة ، ثم رأي البصريين مبيناً حججهم في كل مسألة ، بعد ذلك ذكر الجواب عن كلمات كل من الطرفين ، وفند آراءهما وانصف بينهما ، إذ رجح رأياً على رأي كما يرى ، وختم ذلك بقوله : والله أعلم .

تدريب (5)

أصبحت المناظرة الأدبية ترفيئةً استعراضية تبيّن قدرة صاحبها على الإبداع الأدبي ، لأن الغاية منها هي إظهار تلك البراعة وذلك الإبداع . وذلك على خلاف ما كان من غاية علمية في المناظرة السياسية والمناظرة الكلامية التي كانت تشكل موقفاً عقدياً أو اتجاههاً دينياً ، فلا حاجة بها إلى التزيق والفنون البلاغية .

تدريب (6)

من أدب الحوار في المناظرة :

- 1- عدم مقاطعة الخصم حتى يتم .
- 2- الحلم وعدم الغضب .
- 3- عدم الشغب .
- 4- الإقبال على الخصم في أثناء الحديث وعدم الإعراض عنه .
- 5- الإبقاء على الصداقة .

تدريب (7)

يقوم المجادل الجيد باستغلال الموقف النفسي لخصمه في لحظات ضعفه بأن يركز الاحتجاج ضده ليقعه في التناقض ، مما يؤدي إلى ازدياد سوء حاله لأنه اضطرب . كما أنه يقوم باستغلال هذا الموقف كذلك للتأثير في السامعين فيستميلهم إلى جانبه بأن يبيّن مقدار تناقض خصمه أمامهم .

6. المصادر والمراجع

- الأسدي ، الكميت بن زيد ، هاشميات الكميت ، تحقيق داود سلوم وفوزي القيسي ، عالم الكتب ، 1984 .
- الأمدى ، الحسن بن بشر ، الموازنة بين الطائيين ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار المسيرة ، 1944 .
- الأتباري ، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد ، الإنصاف في مسائل الخلاف ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، 1982 .
- الأندلسي ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرون .
- بليغ ، عبد الحكيم ، أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، 1979 .
- التوحيدى ، أبو حيان ، الإتناع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .
- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت دار إحياء التراث العربي ، 1969 .
- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، المحاسن والأضداد ، بيروت ، دار إحياء العلوم ، 1986 .
- الجرجاني ، الشريف علي بن محمد ، كتاب التعريفات ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1983 .
- الحوفي ، أحمد محمد ، أدب السياسة في العصر الأموي ، بيروت ، دار القلم ، 1965 .
- ابن خلكان ، أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت دار الشقافة 1971 .
- الدينوري " محمد بن عبد الله بن مسلم " عيون الأخبار ، القاهرة ، دار الكتب ، 1973 .
- الرازي ، فخر الدين بن محمد ، المناظرات ، تحقيق عارف تامر ، بيروت ، مؤسسة عز الدين ، 1992 .
- الراغب الأصفهاني ، الحسن بن محمد ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، بيروت ، دار الآثار .

- أبو رحمة ، خليل ، أبو الحسن الخياط وكتابه الانتصار ، أبحاث النيرموك ج1 ع1 1985 .
- السيوطي ، جلال الدين ، مقامات السبوطي الأدبية والطبية ، تحقيق أحمد الطويل ، تونس ، دار سحنون 1988 .
- الصنوبري ، أبو بكر ، ديوان الصنوبري ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، 1971 .
- الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة دار المعارف .
- ابن طيفور ، أحمد بن أبي طاهر ، بلاغات النساء ، تحقيق أحمد الألفي ، تونس المكتبة العتيقة ، 1985 .
- عبد النور ، جبّور ، المعجم الأدبي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1984 .
- الفيروزبادي ، محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، بيروت ، دار الجيل .
- الكفوي ، أيوب بن موسى ، الكلبيات ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ، دمشق 1981 .
- مبارك ، زكي ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، بيروت ، دار الجيل ، 1934 .
- المبرد ، محمد بن زيد ، الكامل ، القاهرة ، 1950 .
- المرتضى ، أحمد بن يحيى ، المنية والأمل ، حيدر آباد 1902 .
- المرتضى ، السيد ، أمالي المرتضى ، القاهرة 1907 .
- المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، دار الأندلس 1965 .
- مطلوب ، أحمد ، معجم النقد العربي القديم ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة 1989 .
- ابن منظور ، محمد بن مكرم ، لسان العرب ، بيروت دار صادر .
- الهاشمي ، السيد أحمد ، جواهر الأدب ، بيروت ، مكتبة المعارف .
- وهبة ، مجدي وهبة ، وكامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، بيروت ، مكتبة لبنان 1984 .

الوحدة الخامسة

القصص

المحتويات

211	1. المقدمة
211	1.1 التمهيد
211	2.1 أهداف الوحدة
212	3.1 أقسام الوحدة
212	4.1 القراءات المساعدة
213	5.1 الوسائط المساندة
214	6.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة
214	2. تاريخ القصة في تراثنا
214	1.2 القصة والقصص : لغة واصطلاحاً
215	2.2 العرب والقصة في الأدب العربي القديم
217	3.2 أنواع القصة في الأدب العربي القديم
219	4.2 عوامل نشأة القصة في الأدب العربي القديم
220	5.2 خصائص الفن القصصي في الأدب العربي القديم
222	3. نصوص قصصية : دراسة وتحليل
224	1.3 نص من كتاب الفرج بعد الشدة
230	2.3 نص من كتاب البخلاء
230	3.3 نص من كتاب كليلة ودمنة
237	4.3 نص من رسالة التوابع والزوابع
245	5.3 نص من رسالة الغفران

254	4. الخلاصة
255	5. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية
256	6. إجابات التدريبات
259	7. المصادر والمراجع

1. المقدمة

1.1 التمهيدي

عززي الدارس

أرحب بك أجمل ترحيب ، وأدعوك إلى دراسة الوحدة الخامسة من فنون النثر العربي القديم . فبعد أن وقفت على الرسائل والتوقيعات ، والخطابة والمناظرات ، فإن من المفيد والمتع أن تقف على لون آخر هو : القصص .

ولا يخفى عليك ما للقصة من أثر في النفوس ، ومكانه في تاريخ البشرية . فللقصة سحر يخلب الأبواب ، ويشدّ النفوس . ولا يخفى عليك ما لقيته القصة في زماننا من رواج وازدهار ، فقد صارت فتناً واضح المعالم ، متنوع الاتجاهات . وزاد من أثرها ، وساعد على انتشارها وسائل الاعلام ، من إذاعة وتلفاز بتحويل القصة إلى مسلسلات تمثيلية ، تحوّلها من كلام مقروء أو مسموع ، إلى حياة ماثلة في الأعين والنفوس !!

فماذا كان شأن هذا الفن في تاريخنا ؟

هل كان له وجود ؟

وهل عرف العرب القصة ؟

ذلك ما أرجو أن تجد جوابه في فقرات هذه الوحدة ، آملاً أن تجد المتعة في قراءة النصوص التي سأعرضها عليك ، والفائدة في الوقفات التحليلية التي سنقفها معاً مع هذه النصوص .

فهل أنت مستعد لهذه الرحلة مع القصة ؟ !

2.1 أهداف الوحدة

أرجو أن تكون هذه الوحدة معينة لك على مزيد من المعرفة النافعة ، والقدرة المكتسبة ، ومن المتوقع بعد فراغك من دراسة هذه الوحدة أن تكون قادراً على أن :

1. تقرأ القصص العربية القديمة قراءة فهم وتذوق .

2. تحليل النصوص القصصية تحليلاً أدبياً تدرك به المضمون ، وتميَّز به الأسلوب .
3. تميَّز أهم خصائص القصة العربية القديمة .
4. تميَّز بين القصة العربية في مفهومها القديم والقصة المعاصرة .

3.1 أقسام الوحدة

هذه الوحدة أربعة أقسام : أولها المقدمة التي تكشف لك طبيعة هذه الوحدة وأهدافها وما يعينك على حسن دراستها .

وفي القسم الثاني وقفنا مع القصة في تراثنا من حيث الدلالة اللغوية لمصطلحي القصة والقصص ، وما كان عليه شأن هذا الفن في تراثنا : عوامل نشأته وخصائصه . وهذا القسم يحقق لك الهدفين الثالث والرابع من أهداف الوحدة .

وفي القسم الثالث الذي هو القسم الرئيس في الوحدة نصوص مستمدة من عدد من الكتب القصصية في تراثنا ، روعي فيها التنوع الذي يمثل اتجاهات القصة المختلفة ، من قصص قصيرة وطويلة ، وواقعية وخيالية ، وعربية ومترجمة . ويحقق هذا القسم الهدفين الأول والثاني .

وفي القسم الرابع محاولة لاستثمار ما سبق في الأقسام الثلاثة من خلال الخلاصة والإجابة عن التدريبات . وتهبئة لك للانتقال إلى الوحدة التالية ، وإثراء لمعلوماتك بذكر عدد من المصادر التي يحسن أن تقتني بعضها وتطلع عن البعض الآخر .

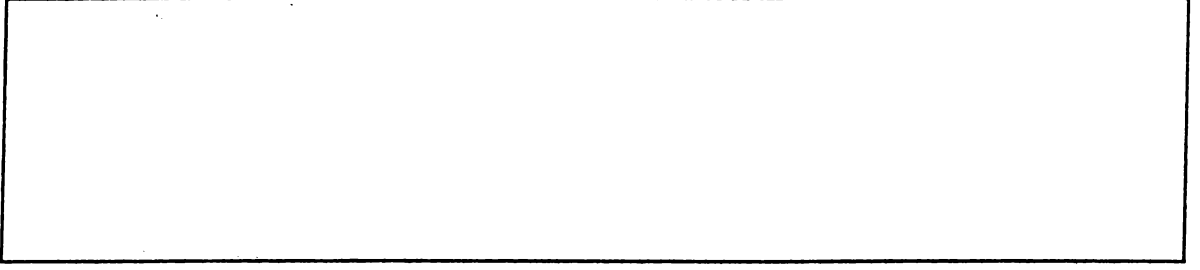
4.1 القراءات المساعدة

لعلّ من المفيد لك أن تطلع على أكبر عدد من الكتب الواردة في قائمة المصادر والمراجع ، ومن المفيد كذلك أن تقرأ ما يتاح لك من القصص التي لم تقطف لك فصولاً منها ، وذلك لتكتمل صورة هذا الفن في ذهنك . وما يحسن أن تطلع عليه :

1. خورشيد ، فاروق ، الرواية العربية - عصر التجميع ، ط 2 ، القاهرة : دار الشروق ، 1975 ، ص 9 - 42 ، ص 209 - 277 .
2. النجم ، ودیعة طه ، القصص والقصائص في الأدب الإسلامي . الكويت ، وزارة الإعلام ، 1972 ، ص 11 - 49 .



5.1 الوسائط المساندة



6.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

تحتاج لدراسة هذه الوحدة إلى النظر العميق في النصوص ، والقيام بالنشاط الذي يطلب منك في بعض مواضعها ، وحل التدريبات ، والرجوع إلى المراجع التي يوصى بها .

2. تاريخ القصة في تراثنا

1.2 القصة والقصص : لغة واصطلاحاً

عززي الدارس

لو رجعت إلى معاجم اللغة العربية باحثاً عن معنى القصة والقصص فإنك ستجد معاني متعددة منها:

قصُّ أثره قصاً وقصصاً : تتبعه

وقصَّ الخبر : أعلمه به

ومنه قوله تعالى (فارتداً على آثارهما قصصاً) ، أي : رجعا من الطريف الذي سلكاه يقصّان الأثر .

و (نحن نقص عليك أحسن القصص) : نبين لك أحسن البيان .

فالقصُّ في اللغة هو تتبع الأثر . ومنه قوله تعالى حكاية عن أم موسى (وقالت لأخته قصيه) .

والقصص : فعل القاص إذا قصَّ القصص .

والقصّة : الخبر ، وهو القصص .

(انظر : الفيروز أبادي : مادة قصّ)

« والقصُّ في الاستعمال هو فن المخاطبة العامة ووعظهم بالاعتماد على القصة . والمقصد أن القصص

في الأصل ، مقصد ديني طيب ، إذ في إيراد القصة موعظة وعبرة » .

(ابن الجوزي ، مقدمة المحقق : ص 49)

هذا هو مفهوم القصِّ أو القصص الذي عُرف في تاريخنا بظهور طبقة من الناس يعظون الناس في

المساجد مستخدمين أسلوب القصّة ، وقد اختلف موقف الفقهاء منهم لما كان يشوب قصّهم من اختراع قصص

ونسيتها إلى الله عز وجل وإلى كثير من الأنبياء .

ولكن عملهم - بغض النظر عن الموقف الفقهي - يمثل لونا من ألوان القصة في تاريخنا الأدبي .

ولكن عليك عززي الدارس أن تفرّق بين مفهوم القصة في تراثنا ، القائم على « نقل الخبر المتميز أو

السيرة » ، والقصة في الأدب المعاصر . فالمفهوم التراثي للقصة يختلط في الخبر المروري الذي يصوّر حادثة

وقعت أو زيد فيها فجاءت على صورة جديدة يختلط فيها الواقع بالخيال ، كما قد تكون هي أصلاً وحي

الخيال الأسطوري ، ولم يكن واضح القصة كاتباً محترفاً ، يسير في قصصه وفق أصول فنية متبعة ، بل كان في الأغلب راوياً ، وكانت القصة تأخذ شكلاً يتناسب مع حال الراوي وحال السامعين - إن كانت شفوية - ومع المستوى الثقافي للبيئة التي تولد القصة فيها .

وأما المفهوم المعاصر للقصة ، فعلى الرغم من صعوبة إيراد التعريف الجامع المانع ، فإنني أورد لك التعريف التالي :

« يمكننا أن نعرف القصة بأنها قالب من قوالب التعبير يعتمد فيه الكاتب على سرد أحداث معينة بين شخصية وأخرى ، أو شخصيات متعددة ، يستند في قصتها وسردها على عنصر التشويق ، حتى يصل بالقارئ أو السامع إلى نقطة معينة تتأزم فيها الأحداث ، وتسمى (العقدة) ، ويتطلع المرء معها إلى الحل حتى يأتي في النهاية . على أن بعض النقاد لا يرى العقدة ولا الحل لازمين لفن القصة » .

(مريدن ، 1980 : ص 12)

وعليك أن تأخذ بالحسبان أن مصطلح القصة قد يدل على أكثر من دلالة مما له ارتباط بطول العمل القصصي وطبيعة تكوينه . فهناك الحكاية والأقصوصة والقصة والرواية . ولن أدخل معك في تفصيل هذه المصطلحات ، فذلك ما ستعرفه عندما تصل بك الدراسة إلى الأدب الحديث في مقررات أخرى . ولكننا سنقف معاً على صورة القصة في تراثنا العربي .

نشاط :



ارجع إلى أحد الكتابين التاليين واكتب تقريراً عنه :

* القصة في الأدب العربي لمحمود تيمور .

* القصة في الأدب العربي لمحمد يوسف نجم .

2.2 العرب والقصة في الأدب القديم

من الأمور التي أجبها لك ، وأرجو أن تجعلها منهجاً في حياتك وتفكيرك ألا تأخذ فكرة ما إلا بعد دراسة وتحبص واقتناع تام . ولا تفترنك الأقوال والآراء أياً كان صاحبها . والأمر الآخر الذي آمل أن تأخذ به هو ألا تقيس العصور السابقة على عصرك ، ففي هذا القياس تعسف في الحكم ، وظلم أي ظلم !!

أقول هذا بين يدي الحديث عن العرب وفن القصة . فهناك من زعم ، من المستشرقين ، وبعض من أخذ برأيهم من الباحثين العرب ، « أن العرب لم يعرفوا القصص إذ ينقصهم الخيال المبتكر ، والعقل المبدع الخلاق » (مريدن ، 1980 : ص 16) .

ويرد أصحاب هذا الرأي انتقاد القصص في أدبنا القديم إلى البيئة الصحراوية المجذبة التي أدت إلى ضيق في خيالهم !! وفي مقابل هذا الرأي نجد من يثبت وجود القصة في تراثنا ، ويجعلها أنواعاً عدة ، بل ويثبت لها فضلاً على الآداب الأوروبية .

(انظر : مريدن ، ص 17 . شاخت وبوزورث ، (د.ت) : ص 174 - 185)

أليس من الظلم أن نحكم على تراث عربي ضخم من الحكايات والقصص بالإعدام ، في ضوء مفهوم أدبي لم يتضح إلا في القرن الثامن عشر ؟ إن أول قصة فنية في الأدب الغربي لم تُعرف إلا في عام 1740 حيث ألف ريتشارسن قصة (باملاً) ، وعدّها النقاد الأوروبيون القصة الفنية الأولى . (مريدن ، 1980 : ص 17)

وإذا كانت القصة قد أخذت في العصر الحديث شكلاً فنياً فإننا لا نستطيع أن نخرج ما عرفته البشرية، في العربية وغيرها ، من فن القصة . إنها قصص من لون خاص ، وفق فهم البشرية وذوقها في عصر من العصور .

والذين ينكرون أن يكون العرب قد عرفوا القصة يهملون تراثاً ضخماً من الحكايات التي سجلت الوقائع الحربية بين القبائل العربية ، ومثلها أحاديث الهوى وأخبار العشاق ، والحكايات عن نشأة الكون وأخبار الإنسان عبر الزمان .

ثم إن ورود القصص في القرآن الكريم يشير إلى أن هذا اللون من ألوان التعبير كان معروفاً ومقبولاً لدى العرب منذ العصر الجاهلي . وفي السيرة النبوية خير النضر بن الحارث الذي كان من أعداء الإسلام ، وقد أراد أن يصرف الناس عن القرآن الكريم ، بذكر قصص كان يرويها عن ملوك فارس ورستم وإسفنبار .

(ابن هشام ، د.ت. ، ج 1 ، ص 300)

وإذا أنت رجعت إلى المجلد الأول من سيرة ابن هشام وجدت قدراً كبيراً من القصص التي قد يكون لها أصل واقعي ولكن دخلها الخيال فصاغها صياغة جديدة ، ومنها : قصة سد مأرب وسيّر بعض ملوك اليمن ، وقصة أصحاب الأخدود ...

ومع مرور الزمن كانت القصة تنمو وتتنوع بما جدّ من القصص في أدبنا ، وما نقل من آداب الأمم الأخرى .

خلاصة القول : إن القصة وجدت مع الإنسان ، سجّل فيها أخبار من سبقه ، وزاد فيها بخياله بعض ما يطمح إليه مما يفتقده في واقعه ، ويلبّي من خلالها أشواقه . ولئن وضع الإنسان في القرنين الأخيرين قواعد للقصة الحديثة ، فإن هذا لا يلغي وجود القصة في الأزمنة الماضية .

أسئلة التقويم الذاتي (1)



1. هل عرف العرب القصة ؟

2. ما دلالة ورود القصة في القرآن الكريم ؟

نشاط :



ارجع إلى المكتبة وحاول إحصاء ما تجده فيها من القصص ، واكتب تقريراً عن ذلك .

3.2 أنواع القصة في الأدب العربي القديم

عزيزي الدارس ،

يختلف تصنيف القصة وبيان أنواعها باختلاف الأساس أو المقياس الذي بني عليه . فإذا نظرنا إلى

القصة من حيث مصدرها وطبيعتها وجدنا الأنواع التالية :
أنواع القصة من حيث مصدرها وطبيعتها :
1. القصص الواقعية : ويندرج تحتها كثير مما روي من الوقائع والأحداث عن أيام العرب وأخبار فرسانها وأجوادها وعشاقها .

2. القصص الواقعية الخيالية : وهي القصص ذات الأصل الواقعي ، ولكن الخيال دخلها وأضاف إليها من الأحداث والشخصيات المتخيّلة . ويدخل في هذا النوع سير عنتره والظاهر بيبرس ، وسيرة سيف بن ذي يزن ، وما أشبهها .

3. القصص الخيالية : وهي القصص التي لم تحدث في الواقع ، بل هي من نسج خيال كاتبها ، ومن هذا النوع رسالتا : الغفران والتوابع والزوابع ، وكتاب كليله ودمنة .
وإذا نظرنا إلى مضمون القصص وجدنا بين أيدينا الأنواع التالية :

1. القصص الإخبارية : وهي تلك الحكايات القصيرة والنوادر والأخبار التي وردت في كتب الأدب، جمالها في مضمونها ، وأدبها في رشاقة أسلوبها ، وصفاء لغتها .

(انظر : سليمان ، 1965 : ص 33 - 34)

وقد جرت محاولات لجمع هذا اللون من القصص ، فجمع التنوخي القصص التي تدور حول موضوع الفرج بعد الشدة ، وجعل ذلك عنواناً لكتابه المطبوع في خمسة مجلدات ، والذي ضمّه بالإضافة إلى القصص آيات وأحاديث وأقوالاً في موضوعه .

ومثله كتاب ابن عاصم الغرناطي « جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى » .

وجمع محمد أحمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ألواناً من قصص العرب في مجلدات ثلاثة سمّوها : قصص العرب .

2. قصص البطولة : وهي القصص التي تدور حول بطل من أبطال العرب ، وتصنف أيامهم ووقائعهم المشهورة ، ويقوم هذا اللون على تمجيد البطولة ، والتغني بذكر الوقائع ، وصفات الرجولة . (انظر: سليمان ، 1965 : ص 90) . ومن الإنصاف أن نعترف بأن كثيراً من هذه القصص دون لإرضاء العامة في العصور المتأخرة ، ولذلك نجد فيها ركافة الأسلوب . ومن هذه القصص : قصة البراق ، وسيف بن ذي يزن ، وسيرة بني هلال ، وسيرة عنتره .

3. القصص الدينية : ويدخل في هذا النوع كل ما اتصل بالأنبياء والصالحين من الحكايات والأخبار ولا يخفى عليك أن في القرآن الكريم قصصاً أخذ حيزاً كبيراً ، شمل الأنبياء وأقوامهم والصالحين وبعض أخبارهم وقد عُرف في تاريخنا لون من القصص عرف بقصص الأنبياء .. ومنه قصص الأنبياء المسمى بالعرائس للشعالبي . (انظر : سليمان ، 1965 : 141 - 145)

4. القصص الفلسفية : وهو لون من ألوان الكتابة الفلسفية بأسلوب قصصي ، ومن أبرز ما يمثل هذا اللون رسالة حي بن يقظان لكل من ابن طفيل وابن رشد . (انظر : سليمان ، 1965 : 243)

5. القصص اللغوية : ويمثل هذا اللون المقامات ، التي أقررت في وحدة خاصة في هذا المقرر ، تتبين من دراستها ملامحها وما فيها من سمات الفن القصصي .

سؤال التقويم الذاتي (2)

اذكر أنواع القصص في تراثنا الأدبي مع تعريف موجز لكل نوع .



ارجع إلى أحد الكتابين التاليين وارقأ بعض ما ورد فيه من القصص واكتب تقريراً عنه :

1. قصص العرب لمحمد أجمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاري .
2. جنّة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى لابن عاصم الغرناطي - تحقيق د. صلاح جرار .

4.2 عوامل نشأة القصة في الأدب العربي القديم

عزيزي الدارس

لعلك ترى في الناس تعلقاً بما يعرضه التلفاز من مسلسلات وأفلام . وما أظنك يغيب عن بالك أنها قصص ممثلة. ولعلك تذكر فيما تسمع من كبار السن ، وما تقرأ في الكتب أن الناس كانوا يتحلّقون في كثير من البلاد حول « الحكواتي » ، بقص عليهم أخبار السابقين . وكذلك كان الناس يسمرون في مجالسهم بأخبار شجعانهم وزعمانهم وعشاتهم وكلّ مميّز فيهم .

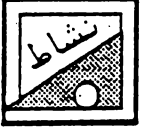
وهذا يشير إلى أن في الإنسان نزوعاً فطرياً إلى القصة ، ويمكن أن نجمل عوامل نشوء القصة في أدبنا القديم في العوامل التالية :

1. تشبع القصة لدى الإنسان حاجة نفسية ، فهو يرى في بعض شخصياتها صورة نفسه ، ولذلك يتعاطف معها إلى درجة الانفعال الموصل إلى البكاء ، أو الصراخ ، أو الفرح الشديد .
2. وتلبي القصة حاجة اجتماعية ، حيث تسجّل فيها المفاخر ، وتنقل بها العادات والتقاليد والقيم من جيل إلى جيل ، يستأنس اللاحق بما كان لدى السابق من بطولة وكرم ومجدة ومروءة .
3. وقد تكون القصة بديلاً للواقع السيء أو تعويضاً عنه . ولعلنا في ضوء هذا ندرك لم ظهرت السير الشعبية البطولية في العصور التي توقفت فيها الفتوحات ، وأفتقدت فيها البطولات ، أو لنقل كان العربي فيها على هامش الأحداث والحياة ، واتسمت حياته بالجمود .
4. وتلبي القصة حاجة عقلية فكرية ، وبخاصة في القصص الفلسفية ، حيث يلجأ الكاتب إلى الأسلوب القصصي ليعرض قضية فكرية في أسلوب مبسّتر قريب .
5. وتؤدي القصة وظيفة تربوية ، فهي وسيلة من وسائل التربية المهمة ، حيث توحى أحداث القصة وشخصياتها للقارئ أو السامع بالسلوك المرغوب ، وتنفره من السلوك السيء ، ويرى قيم الخير

والشر مجسدة في شخصيات القصة وأحداثها ، مما يولد في نفسه ميلاً إلى الخير وإعراضاً عن الشر .

سؤال التقويم الذاتي (3)

ما عوامل نشأة القصة في أدبنا العربي القديم ؟



نشاط :

اكتب مقالاً موضوعه : « لماذا يتعلق الناس بالقصة » وحاول أن تستفيد في كتابته من مشاهداتك وخبراتك في تعلق الناس بالمسلسلات والأفلام ، وقراءة القصص .



5.2 خصائص الفن القصصي في الأدب العربي القديم

عزيزي الدارس ،

هل تجد من اليسير إصدار أحكام على القصص في أدبنا القديم ؟ إننا نجد أنفسنا أمام مصادر متنوعة وأساليب مختلفة . وستجد من دراستك للنصوص التي سأعرضها عليك مصداق ما أقوله .

وإذا كان من المنطقي أن يؤخر الحديث عن الخصائص بعد الوقوف على النصوص ، فإنني أردت أن أضع هذه الخصائص بين يديك لترى إن كانت موافقة لما تستخلصه من دراستك أم لا ؟ وقد تجد خصائص جديدة يمكن أن تضيفها إليها .

وأجمل لك الخصائص فيما يلي :

1. تنوع مصادر القصة :

من القصص ما هو عربي صميم ، ومنها ما هو مترجم ، وبعض المترجم أصابه التغيير الذي يجعله مقبولاً في تراثنا ، ولا يصادم ثوابت ثقافتنا .

2. تنوع القصص في طولها وقصرها :

من القصص ما هو خبير قصير محدود الحجم ، والأشخاص والأحداث . وهو إلى التاريخ أقرب منه

إلى العمل الفني . ومنها ما هو فوق ذلك طويلاً وفناً .

3. تنوع الأسلوب الأدبي :

من القصص ما جاء مرسلأ من قيود الصنعة والتأثق الأسلوبي ، ونجد هذا في القصص الإخبارية . ومنها ما أثقله البديع بقيوده ، ومنها ما اقترب من العامية ، كما هو واضح في أسلوب ألف ليلة وليلة ، والسير الشعبية .

4. تنوع الغاية :

تنوعت غايات رواة القصص ومنشئها . فمن القصص ما هو ذو غاية تربوية ، يُروى أو يُنشأ لما يحمله من العظة والعبرة . ومنها ما هو ذو هدف تعليمي يراد منه زيادة المعلومات وإفادة القارئ علماً جديداً ، ومنها ما يهدف إلى التسلية والترفيه .

ولكن علينا أن تشير إلى أن هذه الغايات قد تتداخل ويظهر بعضها دون بعض ، فيجتمع الهدف التعليمي مع التسلية ، أو الهدف الأخلاقي مع التعليمي

3. نصوص قصصية : دراسة وتحليل

1.3 نص من كتاب الفرج بعد الشدة

المؤلف :

القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي . ولد بالبصرة سنة 327 هـ . تولى القضاء في أكثر من مدينة في العراق والأهواز وله عدة مؤلفات . منها نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، وكتاب الفرج بعد الشدة الذي كان سبب تأليفه تعرضه لمحن عديدة ، وعزله من عمله أكثر من مرة . توفي سنة 384 .

الغاية من تأليف الكتاب :

قال المؤلف في مقدمة كتابه (1 : 52) :

« ووجدت أقوى ما يفزع إليه من أتاخ الدهر بمكروه عليه قراءة الأخبار التي تنبي عن فضل الله عز وجل على من حصل قلبه في محصلة .. وأنا إن شاء الله جامع في هذا الكتاب أخباراً من هذا الجنس والباب ، أرجو بها انشراح صدور ذوي الألباب ، عندما يدهمهم شدة ومصاب » .

النص :

واليك عزيزي الدارس نصاً من هذا الكتاب يمثل بعض ما ورد فيه ، ترى من خلاله لوناً من ألوان القصة الإخبارية قال التنوخي :

« حدثني فتى من الكتاب البغداديين ، يُعرف بأبي الحسن بن أبي الليث ، وكان أبوه من كتاب الجليل ، يتصرف مع لشكروز بن سهلان الديلمي ، أحد الأمراء - كان - في عسكر معز الدولة ، قال :

قرأت في بعض الكتب ، إذا دهلك أمر تخافه ، فبت وأنت طاهر ، على فراش طاهر ، وثياب كلها طاهرة ، واقرأ : « والشمس وضحاها » ، إلى آخر السورة ، سبعاً ، و « والليل إذا يغشى »¹ إلى آخر السورة ، سبعاً ، ثم قل : اللهم اجعل لي فرجاً ومخرجاً من أمري ، فإنه يأتيك في الليلة² [الأوكة] أو الثانية ، وإلى السابعة ، أت في منامك ، يقول لك : المخرج منه كذا وكذا .

قال : فحيست بعد هذا بسنين ، حبسة طالت حتى أيست من الفرج ، فذكرته يوماً وأنا

في الحبس ، ففعلت ذلك ، فلم أر في الليلة الأوكة ، ولا الثانية ، ولا الثالثة شيئاً ، فلما كان في الليلة الرابعة ، فعلت ذلك على الرسم ، فرأيت في منامي ، كأن رجلاً يقول لي: خلاصك على يد علي بن إبراهيم .

فأصبحت من غدٍ متعجباً ، ولم أكن أعرف رجلاً يقال له علي بن إبراهيم ، فلما كان بعد يومين ، دخل إليّ شاب لا أعرفه ، فقال لي : قد كفلت بما عليك ، فقم ، وإذا معه رسول إلى السجن بتسليمي إليه ، فقمتم معه ، فحملني إلى منزلي ، وسلمني فيه ، وانصرف .

فقلت لهم : من هذا ؟

فقالوا : رجل بزّاز من أهل الأهواز ، يقال له علي بن إبراهيم ، يكون في الكرخ ، قيل لنا إن صديق الذي حبسك ، فطرحنا أنفسنا عليه ، فتوسّط أمرك ، وضمن ما عليك ، وأخرجك .

قال مؤلف هذا الكتاب : فلما كان بعد سنين ، جاءني علي بن إبراهيم هذا ، وهو معاملي في البزّ منذ سنين كثيرة ، فذاكرته بالحديث ، فقال : نعم ، كان هذا الفتى قد حبسه عبدوس بن أخت أبي علي الحسن بن إبراهيم النصرانيّ ، خازن معزّ الدولة ، وطالبه بخمسة آلاف درهم ، كانت عليه من ضمانه ، وكان عبدوس لي صديقاً ، فجاءني من سألني خطابه في أمر هذا الرجل ، وجرى الأمر على ما عرفتك .

تأمّل هذا النص ، بأصله وما سبقه من توثيق الرواية وما لحقه من تحقّق من صحتها . إنك تجد نفسك أمام قصة واقعية ، أو خبر تاريخي موثّق . وليس لهذا النص مؤلف ، بل راوي ، ومؤلف سجّل . وليس لهذا الخبر قيمة من حيث الشخصيات التي ورد ذكرها فيه ، ولا يهمننا من هو هذا الفتى ، ولكن الذي يلفت نظرنا فيه هو الحدث ، أو الفكرة التي يمثلها : الفرج بعد الشدة . وبلغت نظرنا الوسيلة التي كان بها الفرج .

هل تجد في هذا النص ملامح فنية ؟

هل تجد صياغة جميلة ساحرة ؟

لا أجد شيئاً من هذا ... فاللغة التي صيغ بها هذا الخبر لغة تاريخ لا لغة أدب ، وطريقة سرد المؤلف

للخبر طريقة مؤرخ لا راوي أدب !!

ومع هذا .. فإن هذا اللون من القصص ما هو إلا صورة بدائية للقصة .. القصة الخبر الذي لم يخالطه

الفن . والقيمة الحقيقية فيه للفكرة لا للشخصية ! الفكرة بما تمثله من معتقد أو عادة أو سلوك . ولا شك في أن قيمة القصة الخبر ترتقي وفق ما يرد فيها من مضمون ، كما تزداد قيمتها إذا كانت تدور حول شخصية متميزة .

سؤال التقويم الذاتي (4)

ما رأيك في القصة / الخبر ؟ هل تجد فيها المتعة ؟ هل تجد لها قيمة ؟ هل تحس أنها لون من ألوان القصة ؟



نشاط :

ارجع إلى كتاب « الفرج بعد الشدة » وادرس مقدمته وانظر في بعض أجزائه واكتب تقريراً عنه .



2.3 نص من كتاب البخلاء الجاحظ

المؤلف :

هو كاتب العربية الشهير أبو عثمان عمرو بن بحر .. الجاحظ ، الذي ولد في البصرة حوالي سنة 160 هـ تلقى العلم على يدي كبار العلماء في عصره : الأخفش والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري. وتلقى الاعتزال عن النظام . وكان شديد التعلق بالكتب . وقد أثمرت عقليته وشدة تعلقه بالعلم عدداً كبيراً من الكتب التي ما يزال بعضها من أشهر كتب العربية التي لا يستغني عنها طالب أدب ، ومنها : البيان والتبيين والحيوان والبخلاء .. هذا فضلاً عن الرسائل في شتى الموضوعات .

وامتد العمر بالجاحظ صاحب العقل الذكي و « الروح الخفيفة » حتى جاوز الثمانين .. ومات ميتة غريبة .. حيث انهارت عليه كتبه التي أحبها ، وأفنى عمره بطالها . وكان ذلك سنة 255 هـ .

ولم تصلنا كتب الجاحظ جميعها التي بلغت حوالي مئة وسبعين كتاباً .

كتاب البخلاء : * أجبند البخلاء
* أخبار الضمير في العصر العباسي الأول
* لطائف الأعراف

يضم هذا الكتاب مجموعة كبيرة من القصص والأخبار التي يجمعها موضوع واحد هو البخل وأخبار أهله في العصر العباسي الأول . وكتاب البخلاء من تلك الكتب التي تصوّر لنا بعض الطبقات الاجتماعية ،

وتصلنا بالحياة في ذلك العصر ، وتمثل لنا بعض جوانبها . ولهذا الكتاب قيمة اجتماعية وتاريخية وفكرية وأدبية (انظر : المبارك ، 1979 : ص 12) .

ويبدو أن الجاحظ قد استوعب قدرًا كبيراً من أخبار البخلاء في أكثر من بلد ، حتى جاء كتابه جامعاً مصوراً لفلسفة البخلاء ، والأسس التي أقاموا عليها مذهبهم . إذ هو - كما يبدو في هذا الكتاب - ليس صفة عارضة بل منهج حياة . وتمتعك الجاحظ وهو يقلب لك أمر البخل على وجهه في القصص التي يتلو بعضها بعضاً ...

ومما يلفت النظر في كتاب البخلاء أنك تجد أسماء مشاهير من معاصري الجاحظ ، كما تجد قصصاً غير منسوبة إلى أشخاص معينين . وقد بين الجاحظ علة ذلك بقوله :

« وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إماماً بالخوف منهم ، وإماماً بالإكرام لهم » .

ولعلك أيها القارئ العزيز تجد فيما سأورده لك من مقتطفات « البخلاء » لوناً جديداً ، وأسلوباً آخر من أساليب القصص عند العرب .

قال الجاحظ :

نوادير أهل خراسان

نبدأ بأهل خراسان ، لإكثار الناس في أهل خراسان ، ونخص بذلك (أهل مرو) ، بقدر ما خصوا به :

المروزي وزائره

قال أصحابنا : يقول المروزي للزائر إذا أتاه ، وللجليس إذا طال جلوسه: تغديت اليوم ؟ فإن قال : نعم ، قال : لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب ، وإن قال : لا ، قال : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح . فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير .

ابن أبي كريمة والوضوء بالعذب

وكننت في منزل ابن أبي كريمة ، وأصله من مرو ، فرآني أتوضأ من كوز خزف ، فقال:

سبحان الله ! تتوضأ بالعذب ، والبئر لك معرصة ؟ قلتُ : ليس بعذب ، إنما هو من ماء البئر . قال : ففسد علينا موزنا بالملوحة . فلم أدر كيف أتخلص منه .

أبخل من خلق الله

وحدثني عمرو بن نهيري قال : تغذيت يوماً عند الكندي ، فدخل عليه رجل كان له جاراً وكان لي صديقاً ، فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل ، وكان أبخل من خلق الله ، قال : فاستحييت منه ، فقلت : سبحان الله ! لو دنوت فأصبتَ معنا مما نأكل . قال : قد والله فعلتُ . فقال الكندي : ما بعدَ الله شيء . قال عمرو : فكثفَه ، والله ، كثفأ لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه ولو مدَّ يده لكان كافراً أو لكان قد جعل مع الله ، جلَّ ذكره ، شيئاً .

وليس هذا الحديث لأهل مرو ، ولكنه من شكل الحديث الأول .

البخل طبع في مرو

وقال ثمامة : لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لافظ ، يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها فذأم الدجاجة ، إلا ديكة مرو ، فإنني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب ، قال : فعلت أن يبخلهم في طبع البلاد وفي جواهر الماء ، فمن ثم عمَّ جميع حيوانهم .

فحدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد ، فقال : كنتُ عند شيخ من أهل مرو ، وصبي له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له ، إمّا عابثاً وإمّا ممتحناً : أطمعني من خبزكم ؟ قال : لا تريده ، هو مرّ . فقلت : فاسقني من مائكم . قال : لا تريده ، هو مالح . قلتُ : هات لي من كذا وكذا . قال : لا تريده ، هو كذا وكذا . إلى أن عدت أصنافاً كثيرة ، كل ذلك يمنعني ويبغضه إليّ . فضحك أبوه وقال : ما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع ؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطبنتهم .

البخل حتى في نور المصباح

وزعم أصحابنا أن خراسانية توافقوا في منزل ، وصبروا عن الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر . ثم إنهم تناهدوا وتخرجوا ، وأبى واحدٌ منهم أن يعينهم ، وأن يدخل في الغرم معهم . فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ، ولا يزال ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح ، فإذا أطفأوه أطلقوا عينيه .

(البخلاء ، 30 - 32)

قصة أهل البصرة من المسجدين

قال أصحابنا من المسجدين : اجتمع ناسٌ في المسجد ، ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة ، والتشمير للمال ، من أصحاب الجمع والمنع . وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب ، كالحلف الذي يجمع على التناصر . وكانوا إذا التقوا في حلقتهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه ، التماساً للفائدة ، واستمئاعاً بذكره .

الحمار والماء الأجاج

فقال شيخ منهم : ماء بثرنا ، كما قد علمتم ، مالحٌ أجاجٌ ، لا يقره الحمار ولا تسيغه الإبل وتموت عليه النخل ، والنهر منّا بعيد وفي تكلف العذب علينا مؤونة . فكنا نمزج منه للحمار ، فاعتل منه وانتقض علينا من أجله ، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفاً . وكنت أنا والنعجة كثيراً ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودنا منه مثل ما اعتري جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلاً . ثم انفتح لي فيه بابٌ من الإصلاح ، فعمدت إلى ذلك المتوضأ ، فجعلت في ناحية منه حفرةً ، وصهرجتها وملستها ، حتى صارت كأنها صخرةً منقورة ، وصورت إليها المسيل . فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافياً لم يخالطه شيء . ولولا التعبد لكان جلد المتفوط أحق بالنتن من جلد الجنب ، فمقادير طيب الجلود واحدة ، والماء على حاله . والحمار أيضاً لا تفرز له من ماء الجنابة ، وليس علينا حرج في سقيه منه . وما علمنا أن كتاباً حرّمه ولا سنة نهت عنه . فربحنا هذه منذ أيام ، وأسقطنا مؤونة عن النفس والمال .

قال القوم : هذا بتوفيق الله ومَنّته . (البخلاء ، 47 - 48)

أجهز على الجرحى

وحدثني صاحب لي قال : دخلتُ على فلان بن فلان ، وإذا المائدة موضوعة بعدُ ، وإذا القوم قد أكلوا ورفعوا أيديهم . فمددت يدي لأكل فقال : أجهز على الجرحى ، ولا تعرض للأصحاء . يقول اعرض للدجاج التي قد نيل منها ، وللفرخ المنزوع الفخذ ، فأما الصحيح فلا تعرض له . وكذلك الرغيف الذي قد نيل منه ، وأصابه بعض المرق .
(البخلاء ، 65 - 66)

الولد سر أبيه

وقال لي هذا الرجل : أكلنا عنده يوماً ، وأبوه حاضر ، ونُني له يجيء ويذهب . فاختلف مراراً ، كل ذلك يرانا نأكل . فقال الصبي : كم تأكلون لا أطعم الله بطونكم ! فقال أبوه ، وهو جدّ الصبي : ابني وربّ الكعبة ! (البخلاء ، 66)

أخي الدارس،

تعطيك هذه المقتطفات من كتاب البخلاء صورة عنه ، أرجو أن تدفعك إلى قراءته كاملاً ، والاستمتاع بما فيه ، والإفادة منه .

ولعلك لاحظت أن الجاحظ في هذه المقتطفات أشار إلى نوعين من البخلاء : بخلاء المناطق (أهل خراسان) وطوائف من البخلاء (المسجدين) .

وربما يذكرك هذا بأمر معاصر أظنه لا يغيب عنك . فالناس ينسبون أهل بعض البلاد - ظلماً أو حقاً إلى البخل . وقد يشمل هذا الوصف أهل قطر ، كما قد يخصّ أهل مدينة أو قرية . وهذا الذي تجده في عصرك هو الذي صورّه الجاحظ وفق ما كان شأنه في عصره .

ومما يلفت النظر في حديث الجاحظ عن البخلاء أو لنقل في رواية الجاحظ لأحوال البخلاء تنوع المنسوين إلى البخل . فمنهم الرجال والنساء ، والكبار والصغار ، بل وصل البخل إلى « ديكة مرو » !!

وللبخل كما يبدو في هذه الحكايات صورتان رئيستان : أولاهما : الحرص الشديد على استخدام كل شيء استخداماً كاملاً ، وعدم إهدار شيء مما أوتيه الإنسان ... وهذا واضح في قصة المسجدين مع الماء .

والأخرى : منع الخير عن الآخرين ، وهذا واضح في بقية الحكايات .

والبناء الفني لهذه الحكايات يختلف من حكاية إلى أخرى . فمنها الحكاية الموجزة التي لا تجاوز السطرين أو الثلاثة ومنها ما فوق ذلك . ولكنها في معظمها لقطات سريعة ذكية موحية ، اختارها الجاحظ لتمثل طوائف المجتمع المختلفة . ونكشف لك جوانب خفية لشخصيات شهيرة ، فتجد في القصص أسماء : أحمد بن خلف اليزيدي ، وخالد بن يزيد ، وثمامة بن أشرس ، وخالد بن عبدالله القسري ، وأبي نواس ، والأصمعي ...

وإذا كان الجاحظ جامعاً لهذه الحكايات كما يبدو من سياق الكتاب ، فإنه لم يورد ما أورده إلا وهو يريد من كل حكاية مقصداً محدداً ... يصور به البلاد وأهلها .. والنفوس ودخائلها ..

لقد سلك الجاحظ « مسلك التصوير الدقيق للهيئات والأوضاع والأشكال ، وهي في الغالب هيئات مضحكة ، وأوضاع هزلية ، ولكنها على ما يبدو منها من تصوير الظواهر الحسية ، غنيّة بما فيها من تحليل لدخائل النفوس ، وتصوير لمختلف العواطف التي تجيش بها الصدور في شتى المواقف والظروف . وتظاهر في هذا التصوير بالوقوف موقف المصور الناقل ، فجردّ القصة عن رأيه الشخصي فيما يعرضه من أخلاق وعادات ، اللهم إلا ما يبديه أحياناً من وراء سخريته وابتساماته من نقد خفي يتلون حسب الظروف وأحوال المتكلمين ، غنيّ بمفرداته ، دقيق في دلالاته ، واضح في معانيه ، مليء بالصور البديعة ، هزلي في لهجته وروحه . » (المابرك ، 1979 : ص 42)

وما يلفت النظر في اللغة التي صيغت بها هذه الحكايات أنها تلائم ما يصفه أو يصوره ، فهر يورد بعض الكلام على ما فيه من خطأ ولحن ينتقل إليك الواقع بما فيه . وهذا مظهر من مظاهر الواقعية في أسلوب الجاحظ .

سلك الجاحظ أسلوباً جليلاً بالواقعية

(انظر : ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، 1983 : ص 163)

إن من حقاك أخي الدارس أن تسأل عن القصة في هذه الحكايات ، ولكن من حق هذه الحكايات عليك ألا تقيسها على فن القصة في عصرك ، فلكل عصر مقاييسه . ولعلك تلاحظ أن بعض القصص التي يحاولون الخروج على قواعد الفن القصصي المتعارف عليها قد حوّلوا بعض القصص القصيرة إلى حكايات قصيرة أو لوحات دالة ... تشبه بعض ما ورد لدى الجاحظ ، ومع هذا فلعل عصر مقاييسه . فهذه الحكايات التي رواها الجاحظ وجمعها ونسقها تمثل مجموعها « رواية البخلاء » !!

تدريب (1)



1. ما الأسس التي بنيت عليها فلسفة البخل كما تبدو في النصوص التي بين يديك ؟

2. هل تجد في هذه الحكايات الجذبة .. أم السخرية الهادئة ؟

العزائم
السيرة
السيرة الاقتصادية
السيرة الاجتماعية

بأقوالهم
في مظهر البخل

نشاط :



ارجع إلى مقدمة كتاب البخل وخص دوافع الجاحظ لتأليف الكتاب ، واستخلص المنهج الذي اتبعه

فيه .

سرعلم طليعة ودمنة هو عمير الدهم بلعق

3.3 نص من كتاب كليله ودمنة

لننتقل من جوّ القصة العربية إلى القصة المترجمة المعربة . فهي مترجمة لأنها منقولة من لغة أخرى ، وهي معربة لأن فيها آثار الثقافة العربية الإسلامية كما سيتبين لك .

وأظن أنك ستكتشف وأنت تقرأ في « كليله ودمنة » وغيره من القصص المترجمة أن اهتمام العرب بالقصة لم يكن مقتصرأ على ما حفظه الرواة من حكايات ، وما زاد عليها الخيال من زيادات ، وإنما امتد إلى ما عند الشعوب الأخرى من القصص . وإذا رجعت إلى كتاب « الفهرست » لابن النديم ، الذي هو سجل للثقافة الشائعة في تاريخنا حتى القرن وأخر القرن الرابع الهجري ، فإنك تجد في الفن الأول ، في المقالة الثامنة من الكتاب « أخبار المسامرين والمخرقين وأسماء الكتب المصنفة في الأسفار والخرافات » :

« قال محمد بن إسحاق : أول من صنّف الخرافات وجعل لها كتباً ، وأودعها الخزان ، وجعل بعض ذلك على ألسن الحيوان ، الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الأشغانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية ، ونقلته العرب إلى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ووثقوه ، وصنّفوا في معناه ما يشبهه . فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أنسانة ، ومعناه : ألف خرافة . وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لها عقل ودراية ، يقال لها : شهرزاد . فلما حصلت معه ابتدأت تخزفه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، وسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث ، إلى أن أتى عليها ألف ليلة ، وهو مع ذلك يطؤها ، إلى أن رزقت منه ولداً أظهرته ، وأوقفته على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال إليها واستبقاها ...

قال محمد بن اسحاق : ابتداءً أبو عبد الله محمد بن عيّدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . كل جزء قائم بذاته لا يعلّق بغيره ، وأحضر المسامرين ، فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنّفة في الأسمار والخرافات ما يحلو بنفسه ، وكان فاضلاً ، فاجتمع له من ذلك أربع مائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة . وأقلّ وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تميمه ألف سمر . ورأيت من ذلك عدة أجزاء « (ص 422 - 423) .

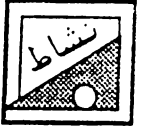
ولاحظ كيف سمي ابن اسحاق الذي نقل ابن النديم كلامه ، القصص خرافات وأسمارا . وباستطاعتك أن تعرف المزيد عن هذا الباب بالرجوع إلى ما ورد في كتاب الفهرست ففيه تفصيل .

ويحدثنا ابن النديم عن كتاب كليلة ودمنة فيقول :

« فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختُلف في أمره ، فقيل : عملته الهند ، وخبر ذلك في صدر الكتاب . وقيل : عملته ملوك الإسكانية ونحلته الهند ، وقيل : عملته الفرس ونحلته الهند . وقال قوم : إن الذي عمله بزرجمهر الحكيم أجزاء . والله أعلم بذلك » (ص 423) .

ويبدو أن هذا الكتاب قد لقي في العربية قبولا ، وأصاب رواجاً ... حيث نُقل إلى العربية شعراً كما تُرجم نثراً ... (انظر : الفهرست : ص 424) .

نشاط :



ارجع إلى كتاب كليلة ودمنة وادرس الأبواب الأولى منه واستخلص قصة الكتاب تأليفاً وانتشاراً .

لقد اكتسب عبدالله بن المقفع مترجم كليلة ودمنة شهرة واسعة لما لقيه هذا الكتاب من الانتشار . وهو فارسي الأصل . كان والده من كتاب الخراج في البصرة على عهد الحجاج ، وقد عني والده بتربيته وعاش في البادية فاكتسب فصاحة اللسان . وعندما قامت الدولة العباسية كتب لعيسى بن علي عمّ الخليفة المنصور ، وكان قد اكتسب خبرة الكتابة منذ أواخر العصر الأموي حيث كتب لعدد من الولاة . وقد اتهم ابن المقفع بالزندقة وقتل بسبب ذلك ، وقيل إنه قتل لأسباب سياسية . وكان مقتله في السنوات الأولى بعد الأربعين من القرن الهجري الثاني قيل في سنة 142 أو 143 أو 145 وكان مقتله وهو في سن الأربعين تقريباً .

لقد اخترت لك باباً قصيراً من أبواب كليلة ودمنة . وليست أبواب الكتاب متسارية في الطول ، فأرجو أن تقرأ هذا الباب قراءة واعية وتستمتع به .. وتسعى إلى قراءة الكتاب كله ...

باب السائح والصائغ

قال ديشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لي مثل الذي يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه .

قال الفيلسوف : أيها الملك ليس أضيع من جميل يصنع مع غير شاكر ولا أخسر من صانعه . كما أنه لا بذر أنى من بذر الجميل في قلوب الشاكرين ولا تجارة أريح من تجارته . ومع ذلك فإن المرء جدير أن يصنع المعروف إلى كل أحد ، فإنه إن ضاع المعروف عند الناس لا يضيع عند الله ، ولا سيما إلى ذوي الشكر والوفاء كيف كانت منزلتهم ، فلعله احتاج إليهم يوماً من الدهر فيكافئوه عليه .

غير أن الملوك وغيرهم من ذوي العقول إذا تعمدوا بمعرفتهم أحداً بختصونه به ينبغي لهم أن يضعوه موضعه ولا يضيّعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره . فينبغي للملوك أن لا يصطفوا أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه والمعرفة بوفائه ومودته وشكره . فإن من أقدم على المشهور بالاستقامة والعفة واسترسل إليه من غير اختبار ولا تجربة كان مخاطراً في ذلك مشرفاً منه على هلاك وفساد . ألا ترى أن الطبيب الرفيق العاقل لا يكتفي في مداواة المريض بالمعاينة فقط . لكنّه لا يقدم على علاجه إلا بعد تعرّف أحواله والجلس لعرقه ومعرفة طبيعته وسبب علته ، فإذا عرف ذلك كله أقدم على معالجته . ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريباً لقربته ولا أحداً من خاصتهم لشرفه إذا كان غير محتمل للصنعة فإنه إنما شرف بتشريفهم إياه . ولا أن يمنعوا معرفتهم وجميلهم عن بعيد لبعده أو حامل لخموله إذا كان عارفاً بحق ما يصطنع إليه مؤدياً لشكر ما أنعم عليه .

وقد قيل : لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر أحداً من الناس حتى البهائم ، ولكنّه خليق أن يبلوهم ويختبرهم ويكون ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم ، فقد يكون الخير عند من يُظنُّ به الشر ، والشرُّ عند من يُظنُّ به الخير .

وإن طبايع الخلق أيها الملك مختلفة وليس مما خلقه الله مما يمشي على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين أو يسبح في الماء شيء هو أفضل من الإنسان . ومع ذلك فربما تحذّر العاقل من الناس فلم يأمن أحداً منهم وأخذ ابن عرس فأدخله في كُفّه وأخرجه من الآخر ، وأخذ الطير الجارح فوضعه على يده فإذا صاد شيئاً أبقى له منه نصيباً . ومن الناس البر والفاجر ومن هؤلاء كل كفور كنود حتى لقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة وأشدّ محاماة عن حرمة وأشكر للمعروف وأقوم به . وقد مضى في ذلك مثل ضربه بعض الحكماء . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

مثل الحية والقرد والبير

قال الفيلسوف : زعموا أن جماعة احتفروا ركية فوقع فيها رجلٌ صانعٌ وحيّةٌ وقردٌ وبيرٌ . ومر بهم رجل سائح فأشرف على الركية فبصر بالرجل والحيّة والقرد والبير . ففكر في نفسه وقال : لست أعمل لأخرتي عملاً أفضل من أن أخلص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعداء . فقد قيل لم يؤجر مأجوراً بأعظم من أجر من استحيا نفساً هالكة ، ولا عوقب معاقب بأشد من عقاب من كفّ عن ذلك وهو قادر عليه ولو بمشقة ، مما خلا ذهاب نفسه .

فأخذ حبلاً وأدلاه إلى البئر فتعلّق به القرد لخفته فخرج ، ثم أدلاه ثانية فالتفت به الحية فخرجت ، ثم أدلاه ثالثة فتعلّق به البير فأخرجه . فشكرن له صنيعه وقلن له : لا تُخرج هذا الرجل من الركية فإنه ليس شيء أقل من شكر الإنسان . ثم قال له القرد : إن منزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها نوادرخت . فقال له البير : أنا أيضاً في أجمّة إلى جانب تلك المدينة . قالت الحية : وأنا في سور تلك المدينة . فإن أنت مررت بنا يوماً من الدهر واحتجت إلينا فصوّت علينا حتى نأتيك بما أسديت إلينا من المعروف .

فلم يلتفت السائح إلى ما ذكروا له من قلة شكر الإنسان وأدلى الحبل فأخرج الصانع فسجد له وقال : لقد أوليتني معروفاً ، فإن مررت يوماً من الدهر بمدينة نوادرخت فاسأل عن منزلي ، وأنا رجل صانع واسمي فلانٌ ، لعلّي أكافئك بما صنعت إليّ من المعروف . فانطلق الصانع إلى مدينته وانطلق السائح إلى وجهته .

فعرض بعد ذلك أن السائح اتفقت له حاجةٌ إلى تلك المدينة فانطلق ، فاستقبله القرد فسجد له وقبّل رجليه واعتذر إليه وقال : إن القرد لا يملكون شيئاً ، ولكن أقعد حتى أتيك . وانطلق القرد وأتاه بفاكهة طيبة فوضعتها بين يديه فأكل منها حاجته .

ثم إن السائح انطلق حتى دنا من باب المدينة ، فاستقبله البير فخر له ساجداً وقال له :
إنك قد أولتني معروفاً فاطمئن ساعة حتى آتيك . فانطلق البير فدخل في بعض الحيطان
إلى بنت الملك فقتلها وأخذ حليها فأتاه به من غير أن يعلم السائح من أين هو . فقال في
نفسه : هذه البهائم قد أولتني هذا الجزاء فكيف لو أتيت إلى الصانع فإنه وإن كان
معسراً لا يملك شيئاً فسبب هذا الحلبي فيستوفي ثمنه فيعطيني بعضها ويأخذ بعضه
وهو أعرف بشئنه .

فانطلق السائح فأتى إلى الصانع ، فلما رآه رحب به وأدخله إلى بيته فلما بصر بالحلي
معه عرفه وكان هو الذي صاغه لابنة الملك . فقال الصانع : اطمئن حتى آتيك بطعام
فلست أَرْضى لك ما في البيت .

ثم خرج وهو يقول : قد أصبتُ فرصتي . أريد أن أنطلق إلى الملك وأدله على ذلك
فتحسن منزلتي عنده .

فانطلق إلى باب الملك فأرسل إليه أن الذي قتل ابنتك وأخذ حليها عندي . فأرسل الملك
وأتى بالسائح ، فلما نظر الحلبي معه لم يمهله وأمر به أن يعذب ويظاف به في المدينة
ويصلب . فلما فعلوا به ذلك جعل السائح يبكي ويقول بأعلى صوته : لو أنني أطعت
القرود والحية والبرر فيما أمرتني به وأخبرتني من قلة شكر الإنسان لم بصر أمري إلى
هذا البلاء . وجعل يكرر هذا القول . فسمعت مقالته تلك الحية فخرجت من جحرها
فعرفته فاشتد عليها أمره فجعلت تحتال في خلاصه . فانطلقت حتى لدغت ابن الملك ،
فدعا الملك أهل العلم فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئاً .

ثم مضت الحية إلى أخت لها من الجن فأخبرتها بما صنع السائح إليها من المعروف وما وقع
فيه ، فرقت له وانطلقت إلى ابن الملك وترامت له وقالت : إنك لا تبرأ حتى يرقبك هذا
الرجل الذي عاقبتموه ظلماً .

وانطلقت الحية إلى السائح فدخلت إليه السحن وقالت له : هذا الذي كنت نهيته عنك من
اصطناع المعروف إلى هذا الإنسان ولم تطعني . وأنته بورق ينفع من سُمها وقالت له :
إذا جاؤا بك لترقي ابن الملك فاسقه من ماء هذا الورق فإنه يبرأ ، وإذا سألك الملك عن
حالك فاصدقه فإنك تنجو إن شاء الله تعالى . وإن ابن الملك أخبر أباه أنه سمع قاتلاً
يقول : إنك لن تبرأ حتى يرقبك السائح الذي حُبس ظلماً .

فدعا الملك بالسائح وأمره أن يرقى ولده فقال : لا أحسن الرقي ولكن أسقيه من ماء هذه
الشجرة فيبرأ بإذن الله تعالى . فسقاه فبرئ الغلام .

ففرح الملك بذلك وسأله عن قصته فأخبره ، فشكره الملك وأعطاه عطية حسن وأمر بالصانع أن يُصلب ، فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح.

ثم قال الفيلسوف للملك : ففي صنيع الصانع بالسائح وكفره له بعد استنقاذه إياه وشكر البهائم له وتخليص بعضها إياه عبرة لمن اعتبر وفكرة لمن افترى وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم قربوا أو بعدوا لما في ذلك من صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه .

(كليلة ودمنة ، 233 - 237)

أخي الدارس ،

لا أشك في أن قراءتك الراحية لهذا الباب من كليلة ودمنة تكشف لك حقيقة هذا الكتاب ، ولعلك لاحظت أن هيكل الباب يتضمن الأقسام التالية :

1. بدء الباب بعبارة مكررة في أكثر الأبواب :

« قد سمعتُ هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن .. »

2. مقدمة ذات صلة بالموضوع الذي ورد السؤال عنه تكون تمهيداً للمثل المضروب . ولعلك تنبهت إلى أنها أخذت حيزاً غير قصير .

3. المثل المضروب ، أو القصة ذات المغزى . وفي هذا القسم بيان لما طلبه الملك من الفيلسوف من خلال الحوادث والشخص من بشر وحيوان .

4. تعقيب ختامي ينهي به الفيلسوف المثل ، ويستخلص العبرة في صورة مباشرة .

وقد نجد في بعض الأبواب استطراداً وخروجاً من قصة إلى أخرى ، ثم عودة إلى القصة الأولى .

إن هيكل القصة في كليلة ودمنة يؤدي إلى تداخل بين شخصية الراوي والمستمع (بيديا ودبشليم) من جهة ، والشخصيات التي ترد في المثل المضروب بما فيها من شخصيات إنسانية : السائح ، والصانع ، والملك ، وابنه ، وابنته ، وشخصيات غير إنسانية : القرد ، والحية والبير ، والحية (الجنية) . وفي هذا الأسلوب طرافة وإثارة للاهتمام والفضول ، ولا سيما بإجراء الكلام على السنة الكائنات غير العاقلة . ولعله يوحى إلى

القارئ بأن هذه المخلوقات تدرك الحق والباطل ، وتعرف الخطأ والصواب ، فأنت أيها الإنسان العاقل أولى بذلك منها !

ولعله لا يغيب عن بالك أن ضرب المثل يعني أخذ العبرة ، ولكن من خلال الحدث والشخصية ، فالعظة أمر مقصود لذاته في قصص كليلة ودمنة ، يتجلى ذلك في كل جزء من أجزائها ، وفيها سعي مقصود إلى الإعلاء من شأن قيم معينة ، وهي هنا في هذه القصة : الرفاء والشكر ، وفيها بيان عاقبة ما يضادها من : نكران الجميل .. وفيها كذلك الحذر من تسدي إليه معروفاً ، فقد يكون كما تحب ، وقد ترى منه ما لا يسرك ، ويكون منه ما لا تتوقعه .

ومنشئ القصة يتردد بين الإشارة إلى أن المثل المضروب قصة متخيَّلة ، وذلك ببدء القصة بقوله :

« ^{ههنا} زعموا أن جماعة احتفروا ركيّة »

وبين إيراد معلومات توحى بصحة الحقائق ، كذكر اسم المدينة الي دارت فيها الأحداث : (نوادرخت). وهي على كل حال من الحيل الفنية التي أراد أن يخاطب بها العقل والوجدان معاً .

ألا ترى عزيزي الدارس أن هذا اللون من القصص يعدّ مرحلة متقدمة من مراحل القصة في تراثنا ، وبخاصة إذا وازنت بينها وبين النموذجين السابقين .

لقد عمل الخيال عمله الواضح ، ولئن كانت الغاية التعليمية فيها واضحة فإنها لا تنقص جمال البناء الفني . وإذا كانت الفكرة والبناء الفني للقصّة من إنشاء كاتب غير عربي ، فإن اللغة والأسلوب عربيان يكشفان لنا عن أسلوب ابن المقفع العربي المشرق .

بل لقد أشار الباحثون إلى أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية ، بل حوّر - كثيراً في جملة ومعانيه وترتيبها حتى يتفق والذوق العربي الإسلامي ، وذوق المتأدبين في عصره ، بل أضاف فصولاً من عنده... كتاب الفحص عن أمر دمنة ، ففيه نفحة إسلامية ظاهرة ، مثل - ومن يجزي بالخير خيراً ، وبالإحسان إحساناً إلا الله ... ومثل : لأن تعذب في الدنيا بجرمك خير من أن تعذب في الآخرة بجهنم مع الإثم .. وقد أثبت البحث أن ابن المقفع كان يحذف جملة من الأصل الفهلوي ، ويضع مكانها جملة أخرى توافق مزاج عصره وقد يضع فصلاً كاملاً .. » .


(أمين ، 219 - 220) وانظر (سعد الدين ، 1989 ، ص 142)

إن مما يلفت النظر في أسلوب ابن المقفع هذه القدرة المتميزة في نقل المعاني الجديدة إلى اللغة العربية في أسلوب عربي مشرق ، بعيد عن الزخرفة والزركشة التي اشتهر بها الفرس . ولم يعد كذلك إلى الإغراب


في اللغة أو محاولة التكلف في الأسلوب . وسلك ابن المقفع مسلك الإيجاز في التعبير ، القائم على الجمل القصيرة المعبرة .

(انظر ؛ سعد الدين ، 1989 ، ص : 229) (ضيف ، الفن ومذاهبه ، 140 - 144)

تدريب (2)

- 
1. يرى كثير من الدارس أن لكتاب كليلة ودمنة بُعداً سياسياً . وضّح هذا القول بالرجوع إلى الكتاب نفسه .
 2. وضّح البناء الفني الذي تقوم عليه فصول كليلة ودمنة بإجراء مقارنة بين هذا الفصل وفصل آخر تختاره .

نشاط :



اقترح عليك الرجوع إلى كتاب : كليلة ودمنة في الأدب العربي - للدكتورة ليلي سعد الدين ، ففيه دراسة لأصول هذا الكتاب في الفارسية والهندية .. وبيان لأثره في اللغة العربية .

4.3 نص من رسالة التوابع والزوابع

المؤلف :

هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد الكاتب الأندلسي القرطبي . الذي كان من أسرة ذات صلة بالحكم في الأندلس ، فقد كان جده وزيراً لعبد الرحمن الناصر ، وأديباً من كبار أدباء عصره . وقد ورث ابن شهيد عن والده مالاً كثيراً أضاعه في اللهو ، وكان ذا ثقافة واسعة ، وكان شاعراً كبيراً ، وكاتباً بارزاً ، ولم يرق إلى رتبة الوزارة . وقد غلب على أسلوبه السخرية والفكاهة . وأهم آثاره رسالة التوابع والزوابع . مات صغير السن حيث ولد سنة 382 وتوفي سنة 426 .

(انظر : ضيف ، عصر الدول والإمارات ، الأندلس ، 1979 ، ص 448 - 451)

الرسالة :

رسالة التوابع والزوابع هي ما بقي لنا من آثار ابن شهيد ، ولم ترد كاملة بل بقي منها ما أورده ابن بسام في كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » . وقد طبعت مستقلة في كتاب . وما بقي منها يقع في أربعة فصول ومدخل . والفصول هي :

الأول : توابع الشعراء . وذكر فيه شياطين كل من : امرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم ، وأبي تمام ، والبحتري ، وأبي نواس ، وأبي الطيب المتنبي .

الثاني : توابع الكتاب : ولقى فيه صاحب الجاحظ وعبد الحميد وصاحب الإقليلي ، وصاحب بديع الزمان ، وصاحب أبي اسحاق بن حُمام .

الثالث : نقاد الجن .

الرابع : حيوان الجن .

وقد جعل ابن شهيد هذه الرسالة وسيلة يعرض بعض القضايا الأدبية في عصره ، واتخذ الجن أبطالاً حملهم آراءه الأدبية في خصومه وحسّاده في السياسة والأدب .

كما جعلها وسيلة لإثبات قدرته الأدبية ، وعرض مهارته الفنية ، كل ذلك في أسلوب تتخلله السخرية

المرّة

وقد اتخذ ابن شهيد حيلة فنية استقاها من التراث ، وهي فكرة شياطين الشعر ، وأضاف إليها شياطين الكتاب ، وجعل المدخل إلى وادي الجن ظهور شيطان من شياطين الشعر اسمه : زهير بن نمير .

واليك هذا النص من الرسالة :

توابع الشعراء

شيطان امرئ القيس

تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء ، وما كان يألّفهم من التوابع والزوابع ، وقلت : هل حيلة في لقاء من اتفق منهم ؟ قال : حتى أستأذن شيخنا . وطار عني ثم انصرف كلّمح بالبصر ، وقد أذن له ، فقال : حُلّ على متن الجواد . فصرنا عليه : وسار بنا كالطائر بجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوّ والدوّ ، حتى التحمت أرضاً لا

كأرضنا، وشارفت جواً لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ؛ فقال لي : حللت أرض
الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن نبدأ ؟ قلت : الخطباء أولى بالتقديم ، لكنني إلى الشعراء
أشوق . قال : فمن تريد منهم ؟ قلت : صاحب امرئ القيس . فأمال العنان إلى وادي من
الأودية ذي دوحٍ تنكسر أشجاره ، وتترنم أطياره ، فصاح : يا عتبة بن نوفل ، بسقط
اللوى فحومل ، ويوم دارة جلجل ، إلا ما عرضت علينا وجهك ، وأنشدتنا من شعرك ،
وسمعت من الإنسي ، وعرفتنا كيف إجازتك له ؛ فظهر لنا فارسٌ على فرسٍ شقراء كأنها
تلتهب ، فقال : حيّك الله يا زهير ، وحيّاً صاحبك ؛ أهذا فتاهم ؟ قلتُ : هو هذا ، وأيُّ
جمرة يا عُتيبة ؛ فقال لي : أنشد : فقلتُ : السيد أولى بالإنشاد . فتطامح طرفه ،
واهتزّ عطفه ، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط، فسمت تحضر طولاً عنّا ، وكرّ
فاستقبلنا بالصعدة هازلاً لها ، ثم ركزها وجعل ينشد :

سما لك شوقٌ بعدما كان أقصراً

حتى أكملها ثم قال لي : أنشدُ ؛ فهممت بالحبيصة ، ثم اشتدّت قوى نفسي وأنشدت :

شَجَّتْهُ مَعَانٍ مِنْ سُلَيْمَى وَأَذْرُ

حتى انتهيت فيها إلى قولي :

وَمِنْ قُبَّةٍ لَا يُدْرِكُ الطَّرْفُ رَأْسَهَا ،	تَزِلُّ بِهَا زَيْحُ الصَّبَا فَتَحْدَرُ
تَكَلَّفْتُهَا وَاللَّيْلُ قَدْ جَاشَ بِحَرِّهْ ،	وَقَدْ جَعَلَتْ أُمُوجُهُ تَتَكَسَّرُ
وَمَنْ تَحْتَ حِضْنِي أبيضُ ذُو سَفَاسِقٍ ،	وَفِي الكَفِّ مِنْ عَسَالَةِ الحِطِّ أَسْمَرُ
هُمَا صَاحِبَايَ مِنْ لَدُنْ كُنْتُ بِأَفْعَا ،	مُقِيلَانِ مِنْ جَدِّ الفَتَى حِينَ يَعْشُرُ
فَإِذَا جَدَوْلٌ فِي الغِمْدِ تُسْقَى بِهِ المَنَى ،	وَإِذَا غُصْنٌ فِي الكَفِّ يُجْنَى فَيُشْمِرُ

فلما انتهيت تأملني عتبة ثم قال : اذهب فقد أجزتك . وغاب عنّا .

شيطان طرفة

فقال لي زهير : من تريد بعد ؟ قلت : صاحب طرفة . فجزعنا وادي عتبة ، وركضنا
حتى انتهينا إلى غيضةٍ شجرها شجران : سامٌ يفوح بهاراً ، وشحرٌ يعبق هندياً وغاراً .

فرأينا عيناً معينةً تسيل ، ويدور ماؤها فلكياً ولا يحول . فصاح به زهير : يا عنتر بن العجلان ، حلّ بك زهيرٌ وصاحبه ، فبخولة ، وما قطعت معها من ليلة ، إلا ما عرضت وجهك لنا ، فبدا إلينا راكبٌ جميل الوجه ، قد توشح السيف ، واشتمل عليه كساء خزّ، ويده حطّبيّ ، فقال : مرحباً بكما ، واستنشدني فقلت : الزعيم أولى بالإنشاد فأنشد :

لِسُعْدَى بِحِرْزَانِ الشُّرَيْفِ طُلُولُ

حتى أكملها ، فأنشدته من قصيدة :

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ بِالْعَتِيقِ مُحِيلِ

حتى انتهيتُ إلى قولي :

ولما هبطنا الغيثَ تُدَعِرُ وحشهُ	على كلِّ خُوَارِ العِنَانِ أُسَيْلِ
وشارتْ بناتُ الأعوجيّاتِ بالضحى	أبَابِيلَ ، مِنْ أعْطَافِ غيرِ وِبِيلِ
مُسْرَمَةٌ تَعْتَدُهَا مِنْ خِيَارِهَا ،	لِطَرْدِ قَنَيْصِرٍ ، أَوْ لِطَرْدِ رَعِيلِ
إذا ما تَغَنَّى الصُّحْبُ فَوْقَ مُتُونِهَا	ضُحِيًّا ، أَجَابَتْ تَحْتَهُمْ بِصَهِيلِ
نَدُوسُ بِهَا أَبْكَارَ نَوْرِ كَانَهُ	رِدَاءُ عَرُوسٍ أَوْ ذِنْتَ بِحَلْسِيلِ
رَمِينَا بِهَا عُرْضَ الصُّوَارِ فَأَقْعَصَتْ	أَغْنَى قَتْلِنَاهُ بِغَيْرِ قَتِيلِ
وبادرَ أصحابي النُّزُولَ ، فأقبلتْ	كِرَادِيْسَ مِنْ غَضِّ الشَّوَاءِ نَشِيلِ
فَمَسَّحَ بِالْحُوذَانِ مِنْهُ أَكْفُنَا ،	إِذَا مَا اقْتَنَصْنَا مِنْهُ غَيْرَ قَلِيلِ
فقلنا لساقبها : أدرها سلافةً	شَمُولاً ، وَمِنْ عَيْنِكَ صَرَفَ شَمُولِ
فقام بكأسيه مطيعاً لأمرنا ،	يَمِيلُ بِهِ الإِدْلالَ كُلَّ مَمِيلِ
وشعشع راحيه ، فما زال مائلاً	بِرَأْسِ كَرِيمٍ مِنْهُمْ وَتَلِيلِ
إلى أن ثناهم راكدين ، لما احتسوا ،	خَلِيْعِينَ مِنْ بَطْشِ وَفَضْلِ عَقُولِ
نشاوى على الزهراء ، صرعى كأنهم	أَسَاطِينُ قَصْرِ ، أَوْ جَذُوعُ نَخِيلِ

فصاح عنترٌ : لله أنت ا اذهب فإنك مجازٌ . وغاب عنا . ثم ملنا عنه .

توابع الكتاب

صاحب الجاحظ وعبد الحميد

فقال لي زهير : من تريد بعده ؟ فقلت : مل بي إلى الخطباء ، فقد قضيت وطراً من الشعراء . فركضنا حيناً طاعنين في مطلع الشمس ، ولقينا فارساً أسراً إلى زهير ، والمجزع عنا ، فقال لي زهير : جمعت لك خطباء الجن بمرج دهمان ، وبيننا وبينهم فرسخان ، فقد كفبت العناء إليهم على انفرادهم . قلت : لم ذاك ؟ قال : للفرق بين كلامين اختلف فيه فتیان الجن .

وانتهبنا إلى المريج فإذا بناد عظيم ، قد جمع كل زعيم ، فصاح زهير : السلام على فرسان الكلام . فردوا وأشاروا بالنزول . فأفرجوا حتى صرنا مركز هالة مجلسهم ، والكل منهم ناظرٌ إلى شيخ أصلع ، جاحظ العين اليمنى ، على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة . فقلت سرّاً لزهير : من ذلك ؟ قال : عتبة ابن أرقم صاحب الجاحظ ، وكنيته أبو عيينة . قلت : بأبي هو ! لیس رغبتني سواه ، وغير صاحب عبد الحميد . فقال لي : إنه ذلك الشيخ الذي إلى جنبه . وعرفه صغوي إليه وقولي فيه . فاستدناني وأخذ في الكلام معي ، فصمت أهل المجلس ، فقال : إنك الخطيب ، وحائكُ للكلام مجيد ، لولا أنك مغرى بالسجع ، فكلامك نظمٌ لا نثر .

فقلت في نفسي : قرعك ، بالله ، بقارعتة ، وجاءك بمائلته . ثم قلت له : ليس هذا ، أعزك الله ، مني جهلاً بأمر السجع ، وما في المائلة والمقابلة من فضل ، ولكني عدت ببلدي فرسان الكلام ، ودُهيت بغباوة أهل الزمان ، وبالحرأ أن أحركهم بالازدواج . ولو فرشت للكلام فيهم طولقاً ، وتحركت لهم حركة مشولم ، لكان أرفع لي عندهم ، وأولج في نفوسهم .

فقال : أهذا على تلك المناظر ، وكبر تلك المحابر ، وكمال تلك الطيالس ؟ قلت : نعم ، إنها لحاء الشجر ، وليس ثم ثمرٌ ولا عبق . قال لي : صدقت ، إنني أراك قد مائلت معي . قلت : كما سمعت . قال : فكيف كلامهم بينهم ؟ قلت : ليس لسبيوره فيه عمل ، ولا للفراهيدي إليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة . إنما هي لكنةٌ أعجميةٌ يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط . فصاح : إننا لله ، ذهبت العرب وكلامها ؛ ارمهم يا هذا بسجع الكهان ، فعسى أن ينفعك عندهم ، ويطير لك ذكراً فيهم . وما أراك ، مع ذلك ، إلا ثقيل الرطاة عليهم ، كرهه المجيء إليهم .

فقال الشيخ الذي إلى جانبه ، وقد علمت أنه صاحب عبد الحميد ، ونفسي مرتقبة إلى ما يكون منه : لا يغرنك منه ، أبا عيينة ، ما تكلف لك من المماثلة ، إن السجع لطبعه ، وإن ما أسمعك كلفة . ولو امتد به طلق الكلام ، وجرت أفراسه في ميدان البيان ، لصلى كودنه وكل برثنه . وما أراه إلا من اللكن الذين ذكر ، وإلا فما للفصاحة لا تهدر ، ولا للأعرابية لا تومض ؟

فقلت في نفسي : طبع عبد الحميد ومساقه ، ورب الكعبة ! فقلت له : لقد عجلت ، أبا هبيرة ، - وقد كان زهير عرفني بكنته - إن قوسك لنبع ، وإن ماء سهمك لسم ، أحماراً رميت أم إنساناً ، وقعقة طلبت أم بياناً ؟ وأبيك ، إن البيان لصعب ، وإنك منه لفي عباءة تتكشف عنها أستاه معانيك ، تكشف است العنز عن ذنبها . الزمان دفء لا قر ، والكلام عراقي لا شامي . إنني لأرى من دم اليربوع بكفئك ، وألمح من كشي الضب على ماضغيك . فتبسم إلي وقال : أهكذا أنت يا أطيلس ، تركب لكل نهجه ، وتعج إليه عجه ؟ فقلت : الذئب أطلس ، وإن التيس ما علمت !

فصاح به أبو عيينة : لا تعرض له ، وبالحرأ أن تخلص منه . فقلت : الحمد لله خالق الأنام في بطوم الأتعام ! فقال : إنها كافية لو كان له حجر . فبسطاني وسألاني أن أقرأ عليهما من رسالتي في صفة البرد والنار والحطب فاستحسنها .

(ص 115 - 118)

عززي الدارس

أرجو أن تقرأ النص قراءة تدبر وتأمل لتدرك ملامح رسالة « التوايع والزوايع » ، ولتضعها في الموقع المناسب في تيار القصة العربية .

ولا بد أن بلفت نظرك أنها « رسالة » .. وهي رسالة أدبية ، لا رسالة شخصية ولا ديوانية .. كما سبتين لك في الوحدة الخاصة بالرسائل . ومع كونها رسالة من حيث الشكل أو التسمية ، فإنها تدرج في تيار القصة العربية القديمة لامتلاكها خصائص القصة

لقد تبين لك أن الرسالة بدأت بحيلة فنية للوصول إلى عالم شياطين الأدب . ولعلك لاحظت أن في الرسالة غمطاً مكرراً في لقاء الشعراء والأدباء .. فبعد تحديد الشيطان المطلوب لقاءه ينادي الشيطان المرافق طالباً من تابع الأديب أن يكشف اللثام عن وجهه ، ويظهر لابن شهيد ورفيقه . فيظهر ويتم التعارف الذي لا يخلو من مدح لابن شهيد . ثم ينشد التابع من الشعر الذي ظهر على لسان صاحبة الإنسي !! ثم ينشد ابن

شهيد من شعره هو ، ليظهر أنه متفوق على غيره من الشعراء ، فينال استحسان التابع ، وينال إجازته ،
ويعلن للقارئ تلك الشهادة بأنه شاعر ماهر !

ولعلك وجدت الشيء نفسه في حوارهِ مع تابعي الجاحظ وعبد الحميد ، فابن شهيد هو الكاتب المتميز
في عصره ، وهو يشكو إلى التابعين أهل زمانه لابتعادهم عن كلام العرب وأسلوبهم ، وعلى الرغم من حدة
الحوار بين ابن شهيد وتابع عبد الحميد فإن ابن شهيد خرج منتصراً ، وحاز على إعجابهما واستحسانهما لنثره

وهذا يعني أن ابن شهيد أراد أن يقول : إنه شاعر متميز ، وناثر مجيد ، وذلك بشهادة توابع الشعراء
والكتاب المشهورين في تاريخنا الأدبي . وفي هذا شكوى من أهل زمانه لم يضعوه في المكان الذي وضع
فيه نفسه .

ولابن شهيد بعض النظرات النقدية فهو يرى أن الخطباء أولى بالتقديم من الشعراء . وهو يرى أدباء
عصره بمنأى عن أسلوب العرب ومنهجهم في اللغة والأدب .

وتبدو الفكاهة والسخرية في عدد من مواطن الرسالة ، وبخاصة في حديثه عن حيوان الخنزير . فتبدو
بغلة شاعرة أو حمار شاعر !! ولنقرأ هذا النص من حوارهِ مع البغلة الشاعرة ، لترى كيف يلزم ويفسر المسألة
والأدباء في عصره بهذه السخرية المرة :

« وقالت لي البغلة : أما تعرفني أبا عامر !

قلت : لو كانت ثمّ علامة !

فأماطت لثامها ، فإذا هي بغلة أبي عيسى ، والحال على خدها ، فتباكيننا طويلاً ، وأخذنا في ذكر
أيامنا ، فقالت : ما أبقت الأيام منك ؟ قلت : ما ترين !!

قالت : شبّ عمرو عن الطوق ! فما فعل الأحيّة بعدي ، أهم على العهد ؟

قلت : شبّ الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكرت الخلائن ، ومن إخوانك من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى

الوزارة !!!

فتنفست الصعداء وقالت : سقاها الله سبيل العهد ، وإن حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود ، بحرمة

الأدب إلا ما أقرأتهم مني السلام ؟ !

قلت : كما تأمرين !!

ولعلك تلاحظ أن السجع سمة واضحة في أسلوب ابن شهيد ، ولكنه غير ملتزم في كل الجمل . ولدى ابن شهيد ميل إلى غريب الألفاظ ، ربما لإظهار تميّزه على أقرانه ، وتبصره بلغة العرب القديمة !!

(انظر : ضيف ، الفن ومذاهبه ، ص 323 - 324)

ألا ترى أيها الدارس الكريم أن ابن شهيد يمتلك خيالا خصباً ، وقد تمثل ذلك في تخيل هذه الرحلة إلى عالم الجن ، وفي تخيل ما تصوّره من أحوال ذلك العالم ، ولئن كانت لفكرة شياطين الشعراء جذور في تراثنا الأدبي فإن ابن شهيد وسّعها لتشمل الناثرين .. كذلك . ولئن كان الجن وعالمه من حقائق العقيدة الدينية فإن ما أورده الكاتب من أحوال هذا العالم وما فيه هو من خيالات الكاتب . وقد وصل به الخيال إلى أن أنطق حيوان الجن بالشعر والنقد .

إن أسلوب القص واضح في الرسالة ، فهي نوع من الرحلة الغيبية إلى عالم مستور ، ولئن كانت أحداثها رتيبة بما تعرض من لقاءات الكاتب مع التوابع ، فإنها قد تنوعت شخصياتها ، ولئن كانت الحبكة رتيبة في القسم الأول من الرسالة ، فإن انتقال الكاتب من عالم الشعر إلى عالم النثر ثم إلى مجلس النقد الجنّي ، ثم إلى حيوان الجن وشعره ، كل هذا قدّم ألواناً من المواقف التي فيها إثارة وتشويق . وفي الرسالة تعميق لفكرة شياطين الشعر وصياغة جديدة لها .

ولا يخفى عليك عزيزي الدارس أن البطل الأوحّد في الرسالة هو كاتبها ، وأن الشخصيات التي أوردها ما هي إلا ألقنة لعرض شعره ونثره ، ومعارض يرقى عليها إلى عالم التميّز الأدبي !!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرسالة

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1. ما النمط الذي اتخذه أسلوب القص في النص الذي بين يديك ؟
2. ما الصورة التي ارتسمت لديك لابن شهيد من مطالعتك للنص ؟
3. أيهما أقرب إلى نفسك أسلوب ابن شهيد أم أسلوب ابن المقفع ؟ ولماذا ؟



نشاط :

ارجع إلى معجم من المعاجم الميسرة بين يديك وابحث عن معنى : التوابع والزوابع .



5.3 نص من رسالة الغفران

المؤلف :

هو أبو العلاء المعري ، أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي ، ولد سنة 363 هـ ، اللغوي الشاعر الناصر المشهور ، صاحب اللزوميات وسقط الزند ، وشارح ديوان المتنبى ، وديوان البحري ، وصاحب رسالة الغفران الشهيرة . وغير ذلك من الكتب . توفي سنة 449 هـ .

الكتاب :

رسالة الغفران هي رسالة أدبية ردّ بها المعري على صاحب له هو علي بن منصور ، المعروف بابن القارح . والرسالة قسمان : الأول هو فصل تمهيدي في الردّ ، وقد طال طولاً أحسن به المعري فقال في نهايته « وقد أطلت في هذا الفصل ، ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة » . وهذا القسم هو الذي اشتهر من الرسالة ، ففيه صور المعري الرحلة إلى العالم الآخر ... وتخيل مصير صاحبه ابن القارح هناك ، وجال معه في الجنة والنار والمحشر .

وفي القسم الثاني ، الذي هو الردّ المباشر على رسالة ابن القارح حديث عن الزندقة والزنادقة في تاريخ الإسلام .

ولعلّ تسمية الرسالة بالغفران راجع إلى حديث ابن القارح عن توبته ، مما ولد صدى في رسالة المعري ، صور فيها كيف تقبل الله توبته وأدخله الجنة .

عزيزي الدارس :

لقد تضمّن الكتاب المطبوع من رسالة الغفران الرسالة بقسميها ورسالة ابن القارح . وأظن أن من المهم الاطلاع على الرسالة والرد ليفهم القارئ حقيقة رسالة الغفران . وإليك النص التالي من القسم الأول :

وقد وصلت الرسالة التي بحرّها بالحكم مسجوراً ، ومن قرأها مأجوراً ، إذ كانت تأمر بتقبّل الشرع ، وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع . وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة ؛ ومثلها شفع ونفع ، وقرب عند الله ورفع . وألفيتها مفتوحة بتمجيد ، صدر عن بليغ مجيد ، وفي قدرة ربنا ، جلّت عظمته ، أن يجعل كل حرف منها شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور ؛ يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين ، ويذكره ذكر محب خدين . ولعله ، سبحانه ، قد نصب لسطورها المنجية من

الذهب ، معاريج من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء ،
وتكشف سجوف الظلماء ، بدليل الآية : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح
يرفعه » .

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة
كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » .
وفي تلك السطور كلمٌ كثيرٌ ، كله عند الباري ، تقدّس ، أثيرٌ .

رواية الغفران

الفصل الأول

في الجنة

نعيم الخلد

فقد عُرس لمولاي الشيخ الجليل ، إن شاء الله ، بذلك الثناء ، شجرٌ في الجنة لذيد
اجتناه ، كلُّ شجرة منه تأخذ ما بين المشرق والمغرب بظل غاطٍ ، ليست في الأعين كذات
أنواط ، وذات أنواط ، كما يعلم ، شجرةً كانوا يعظمونها في الجاهلية . وقد روي أن
بعض الناس قال : « يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » ، وقال
بعض الشعراء :

لنا المهيمِنُ يكفيننا أعادينا ، كما رَقضنا إليه ذات أنواطٍ

والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجر قيامٌ وقعود ، وبالمغفرة نيلت السعود ، يقولون :
والله القادر على كل عزيز : نحن وهذه الشجر صلُّ من الله لعلي بن منصور ، نخباً له
إلى نفخ الصور .

وتجبري في أصول ذلك الشجر ، أنهارٌ تُختلج من ماء الحيوان ، والكوثر يمدها في كل
أوان ؛ من شرب منها النغبة فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت . وسعدٌ من اللبن
متخرقات ، لا تغير بأن تطول الأوقات . وجعافر من الرحيق المختوم ، عزّ المقتدر على
كل محتوم . تلك هي الراح الدائمة ، لا النسيمة ولا الذائمة ، بل هي كما قال علقمة
مفترياً ، ولم يكن لعنفرٍ مقترياً :

تشفي الصداعَ ولا يؤذيه صالِبُها ، ولا يخالطُ منها الرأسَ تدويمُ

ويعمد إليها المغترف بكؤوس من العسجد ، وأباريق خلقت من الزبرجد ، ينظر منها
الناظر إلى بدني ، ما حلم به أبو الهندي ، رحمه الله ، فلقد آثر شراب الفانية ، ورغب
في الذنية الدانية ، ولا ريب أنه يروي ديوانه ، وهو القائل :

سُيغني أبا الهندي عن وطبِ سالم ، أباريقُ لم يعلّقْ بها وضراً الزيد

مُقدّمةً قرّاً ، كأن رقابها رقابُ بناتِ الماء أفرعها الرعدُ

هكذا ينشد على الإقواء ، وبعضهم ينشد :

رقابُ بناتِ الماء ريعت من الرعدِ

والرواية الأولى إنشاد النحويين . وأبو الهندي إسلامي ، واسمه عبد المؤمن بن عبد
القدوس ، وهذان اسمان شرعيان ، وما استشهد بهذا البيت إلا وقائله عند المستشهد
فصيح . فإن كان أبو الهندي ممن كتب وعرف حروف المعجم فقد أساء في الإقواء ، وإن
كان بنى الأبيات على السكون ، فقد صحّ قول شعيب بن مسعدة ، في أن الطويل من
الشعر له أربعة أضرب .

ولو رأى تلك الأباريق أبو زيد لعلم أنه كالعبد الماهن أو العبيد ، وأنه ما تشبّب بخير ،
ورضي بقليل المير ، وهزى بقوله :

وأباريقُ مثلُ أعناقِ طيرِ الـ ماءٍ قد جيبَ فوقهنّ خنيفُ

هيهات هذه الأباريق ، تحملها أباريق ، كأنها في الحسن الأباريق . فالأولى هي الأباريق
المعروفة ، والثانية من قولهم : جارية إبريق ، إذا كانت تبرق من حسنها ، قال الشاعر :

رغيداءَ إبريقٍ كأن رُضابها جنى النحل ممزوجاً بصهباء تاجرٍ

والثالثة ، من قولهم : سيفُ إبريق ، مأخوذة من البريق ، قال ابن أحمر :

تقلدت إبريقاً ، وعلقت جعبةً لتهلك حياً ذا زهاءٍ وجاملٍ

ولو نظر إليها علقمة لبرق وفرق ، وظن أنه قد طرق ، وأين يراها المسكين علقمة ، ولعله
في نار لا تغير ، ماؤها للشارب وغير ؟ ما ابن عبدة وما فريقه ؟ خسرو وكسر إبريقه ؟
أليس هو القائل ؟ :

كَانَ إِبْرَيْقَهُمْ طَبِيٌّ بِرَابِيسَةَ مَجْلَلٌ ، بِسَبَا الْكُتَّانِ مَفْدُومٌ
أَبْيَضُ أَسْرَزَةُ لِلضُّحِّ رَاقِبُهُ ، مُقْلَدٌ قَضْبَ الرِّيحَانِ ، مَفْغُومٌ

نظرةً إلى تلك الأباريق ، خيرٌ من بنت الكرمة العاجلية ، ومن كل ريق ، ضنته هذه
الدار الخادعة ، التي هي لكل شمم جادعاً .

(ص 21 - 25)

ندمان الجنة - علماء اللغة

وكأنني به ، أدام الله الجمال ببقائه ، إذا استحق تلك الرتبة ، بيقين التوبة ، وقد اصطفى
له ندامي من أدباء الفردوس : كأخي ثماله ، وأخي دوس ، ويونس بن حبيب انضبي ،
وابن مسعدة المجاشعي ، فهم كما جاء في الكتاب العزيز : « ونزعنا ما في صدورهم
من غل إخواناً على سرر متقابلين ، لا يسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » :
فصدر أحمد بن يحيى هنالك قد غسل من الحقد على محمد بن يزيد ، فصارا
يتصافيان ويتواقيان ، كأنهما ندمانا جذيمة ، مالك وعقيل ، جمعهما مبيت ومقيل .
وأبو بشر ، عمرو بن عثمان سيبويه قد رُحضت سويداء قلبه من الضغن على علي بن
حمزة الكسائي وأصحابه ، لما فعلوا به في مجلس البرامكة . وأبو عبيدة صافي الطوية
لعبد الملك بن قريش ، قد ارتفعت خلتها عن الرب : فهما كأريد ولبيد أخوان ، أو ابني
نورية فيما سبق من الأوان ، أو صخر ومعاوية ولدي عمرو ، وقد أخمدا من الإحن كل
جمر . « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى
الدار » . وهو ، أيد الله العلم بحياته ، معهم كما قال البكري :

نَازَعَتْهُمُ قَضْبَ الرِّيحَانِ مُرْتَفِقًا ، وَقَهْوَةٌ مَزَّةٌ ، رَاوُوقُهَا حَضِلٌ
لَا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهِيَ رَاهِنَةٌ إِلَّا بِهَاتِ ، وَإِنْ عَلَوْا وَإِنْ نَهَلُوا
يَسْعَى بِهَا دَوْرُجَاجَاتٍ لَهُ نُطْفُفٌ مُقْلَصٌ أَسْفَلَ السَّرْبَالِ ، مُعْتَمِلٌ
وَمُسْتَجِيبٌ لَصَوْتِ الصَّنِيعِ بِسَمْعِهِ إِذَا تُرْجِعَ فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفَضْلُ

وأبو عبيدة يذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان ، والأصمعي ينشدهم من الشعر ما
أحسن قائله كل الإحسان .

وتهش نفوسهم للعب فيقذفون تلك الأنية في أنهار الرحيق ، ويصفقها الماذي المعترض

أي تصفيق ؛ وتقترع تلك الآنية ، فيسمع لها أصوات ، تبعث بمثلها الأوامر . فيقول الشيخ ، حسن الله الأيام بطول عمره : آه لمصرع الأعشى ميمون ، وكم أعمل من مطية أمون !! ولقد رددت أنه ما صدته قريش لما توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما ذكرته الساعة لما تقارعت هذه الآنية بقوله في الحائية :

وشمولٍ محسبُ العينُ ، إذا	صفتُ ، جندعها نور الذهب
مثل ريح المسك ذاك ريحها ،	صبَّها الساقى إذا قيل : توح
من زقاق التجر في باطيةٍ	جونةٍ ، حاريةٍ ، ذات روح
ذات غورٍ ، ما تبالي يومها ،	عرف الإبريق منها والقده
وإذا ما الراح فيها أزدت	أفل الإزباد عنها ، فمصح
وإذا مكوكها صادمه	جانباها ، كرّ فيها فسبح
فترامت بزجاج معمّلٍ ،	يخلف النازح منها ما نوح
وإذا غاضت رفعا زقنا	طلّق الأوداج فيها فانسح

ولو أنه أسلم ، لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس ، فينشدنا غريب الأوزان ، مما نظم في دار الأحزان ؛ ويحدثنا حديثه مع هوذة بن علي ، وعامر بن الطفيل ، ويزيد بن مسهر ، وعلقمة بن علاثة ، وسلامة بن ذي قانث ، وغيرهم ممن مدحه أو هجاه ، وخافه في الزمن أو رجاه .

نزهة في الجنة

ثم إنّه ، أدام الله تمكينه ، يخطر له حديث شيء كان يسمى النزهة في الدار الفانية ، فيركب نجيباً من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ، في سجسج بعد عن الحر والقر ، ومعه إناء فيهيج ، فيسير في الجنة على غير منهج ؛ ومعه شيء من طعام الخلود ، ذخر لوالد سعد أو مولود ، فإذا رأى نجيبه يملع بين كشيات العنبر ، وضميران وصل بصعير ، رفع صورته متمثلاً بقول البكري :

لبت شعري متى تحبُّ بنا النأ

نحو العذيب فالصيبون

محبباً زكرةً ، رخبز رقاق ، وحباقاً ، وقطعة من نون

يعني بالحباق البقل .

(ص 41 - 45)

مع زهير

وينظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين متيفين ، فيقول في نفسه : لأبلغن هذين القصرين فأسال لمن هما ؟ فإذا قرب إليهما رأى على أحدهما مكتوباً : « هذا القصر لزهير بن أبي سلمى المزني » وعلى الآخر : هذا القصر لعبيد بن الأبرص الأسدي « فيعجب من ذلك ويقول : هذان ماتا في الجاهلية ، ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء ؛ وسوف ألتمس لقاء هذين الرجلين فأسالهما بم غفر لهما . فيبتدئ بزهير فيجده شاباً كالزهرة الجنية ، قد وهب له قصر من ونية ، كأنه ما لبس جلباب هرم ، ولا تأفف من البرم . وكأنه لم يقل في الميمية :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً ، لا أبالك ، يسأم ،

ولم يقل في الأخرى :

ألم ترني عُمُرْتُ تسعين حجةً ، وعشرأُ تباعاً عشتها ، وثمانيا ؟

فيقول : جبر جبر ! أنت أبو كعب ويجبر ؟ فيقول : نعم . فيقول ، أدام الله عزه : بم غفر لك وقد كنت في زمان الفترة والناس هملٌ ، لا يحسن منهم العمل ؟ فيقول : كانت نفسي من الباطل نفوراً ، فصادفت ملكاً غفوراً ، وكنت مؤمناً بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء ، فمن تعلق به من سكان الأرض سلم ؛ فعلمت أنه أمرٌ من أمر الله ، فأوصيت بنيّ وقلت لهم عند الموت : إن قام قائمٌ يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه . ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين . وقلت في الميمية ، والجاهلية على السكنة والسفه ضارب بالجران :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ، ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر ، فيوضع في كتاب ، فيدخر ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم

فيقول : ألسنت القائل ؟ :

وقد أغذو على ثبة كرام نشاوى واجدين لما نشاء

يجرون البرود وقد تمشت حميا الكأس فيهم والغناء

أفأطلقت لك الخمر كغيرك من أصحاب الخلود ؟ أم حرمت عليك مثلما حرمت على
أعشى قيس ؟ فيقول زهير : إن أخا بكر أدرك محمداً فوجبت عليه الحجة ، لأنه بعث
بتحريم الخمر ، وحظر ما قبح من أمر ، وهلك أنا والخمر كغيرها من الأشياء ، يشربها
أتباع الأنبياء ، فلا حجة عليّ .

فيدعوه الشيخ إلى المنادمة ، فيجده من ظراف الندماء ، فيسأله عن أخبار القدماء .

ومع المنصف باطية من الزمرد ، فيها من الرحيق المختوم شيءٌ يمزج بزنجبيل ، والماء أخذ
من سلسبيل . فيقول ، زاد الله في أنفاسه : أين هذه الباطية من التي ذكرها السروي
في قوله :

ولنا باطية مملوءة جونة ، يتبعها برذبنها

فإذا ما حارثت أو بكأت فتُ عن خاتم أخرى طينها ؟

(ص 50 - 52)

أخي الدارس

أرجو أن يكون هذا النص قد وضع بعض ملامح رسالة الغفران . فالغفران كما رأيت رحلة متخيلة ،
بطلها ابن القارح ، وراويها المعري ، وأحداثها تمتد من الجنة إلى المحشر إلى جنة الجن إلى الجحيم .. ثم
العودة إلى الجنة والنزعة القصصية فيها واضحة .. فالقص أو الحكاية أمر واضح من خلال المشاهد والحوار
والشخصيات والوصف الدقيق . وقد تجلت في رسالة الغفران ثقافة المعري الواسعة فتحت كل كلمة من كلماتها
مخزون ثقافي عميق في مجال اللغة والأدب والدين .. ففيها الأمثال ، والإشارات التاريخية ، والاستشهاد
بالشعر الغريب .. وما فيه من مسائل عريضة ، تتعلق بروايته أو نحوه أو وزنه ، وقد ألزم المعري نفسه
الإغراب في ألفاظ الرسالة وهو يضيف إلى الإغراب زخارف السجع والجناس . وتأمل الجمل التالية :

... من شرب منها النغبة فلا موت ، قد أمن هنالك القوت .

... وجعافر من الرحيق المختوم ، عزّ المتندر على كل محطوم .

... تلك هي الراح الدائمة ، لا الذميمة ولا اللائمة .

... فلقد أثر شراب الغانية ، ورجب في الذنية الدانية .

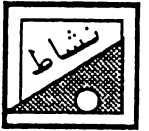
... ولو نظر إليها عنقمة لهرق وفرق ، وظن أنه قد طرق .

ولعلك تلاحظ أن المعري حريص على السجع والتجنيس معاً في الغالب ، ولكنك لا بد ولاحظت أنه لم يلتزم السجع في الرسالة كلها .

وإن مما يلفت النظر هذا الخيال الواسع الذي مكّن المعري من رسم صور النعيم . فهل ترى أن هذه الصور كلها مبتكرة من عنده ، أم أن لها جذوراً في الأصول الإسلامية ؟

أظن أنه لا يخفى عليك ما جاء به القرآن والسنة النبوية من أوصاف الجنة والنار . وأظن أنك تعلم أن عدداً من المؤلفين جمعوا أخبار الجنة والنار .. والعالم الآخر على وجه العموم ... في مؤلفات مستقلة .. ومن هؤلاء ابن القيم في كتابه « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » .

نشاط :



لعل من المفيد أن ترجع إلى هذا الكتاب ، وتجري موازنة بين ما ورد فيه وما ورد في رسالة الغفران .

عزيزي الدارس !

لعلنا نستطيع أن نلخص أبرز خصائص غفران المعري بما يلي :

1. الخيال الواسع .
2. ظهور الثقافة الغزيرة .
3. الإغراب في اللغة .
4. العناية بالسجع والجناس .

أخي الدارس

رسالة الغفران تذكر بأثر عالمي لقي شهرة واسعة هو الكومبيديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي . وقد أجريت دراسات لبحث العلاقة بين الأثرين . والباحثون بين مشتبته لهذه الصلة وناف لها . فهل اطلع دانتي على غفران المعري فتأثر بها ؟ أم أنه اطلع على قصة الإسراء والمعراج ؟

ولا يخفى عليك أن الإسراء والمعراج رحلة إلى عالم السماوات .. اطلع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم على العالم الآخر بما فيه !

إن بعض الباحثين يسعى إلى تسجيل حق السبق .. أو إثبات فضل الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوروبية ، أو القول بأن هذا العمل الشهير - الكوميديا الإلهية - ثمرة اطلاع دانتي على رسالة الغفران أو غيرها .. وفي هذا السعي شيء من مجانبة الحقيقة . أو الادعاء الأجوف بالفضل ! وعلينا أن نتذكر أن ثقافة الإنسان لا تسلبه حقه في القدرة الفنية المتميزة .

ولم يقتصر البحث على تأثير رسالة الغفران في الأدب العالمي ، بل ورد السؤال عن أثرها في رسالة التوابع والزوابع . وأظن أن كلا منهما من وادٍ مختلف عن الأخرى .

تدريب (3) *تدريب (3) تطلعنا على توجيهي على عالم الغيب*

وازن بين رسالة التوابع والزوابع ورسالة الغفران في الموضوع والأسلوب .

سؤال التقويم الذاتي (6)

التعقيد سمة من سمات أسلوب المعري ، وضّح ذلك بالأمثلة .

أتظن أن حديث القصة في أدبنا القديم قد انتهى ؟ أو أننا قد استوفيناها ؟

إن له شأناً لو تتبعناه لطلال بنا الرحيل . وكل ما عملناه أننا اقتطفنا لك من هنا ومن هناك قطوفاً أرجو أن تدفعك إلى المزيد من الاطلاع . فهناك السير الشعبية التي أشبعت النزعة القصصية لدى أمتنا دهرأ طويلاً ... سيرة عنترة ، والملك سيف ، والأميرة ذات الهمة ، وكذلك ألف ليلة وليلة ، التي ضمت ثقافة شعوب مختلفة وبيئات مختلفة .

ولكن ، أرجو أن يكون قد تبين لك مما سبق صورة عن القصص في أدبنا القديم . ولعله قد بات من الجليّ لديك أن في ذلك الأدب ألواناً من القصة ، ذات المنهج الخاص ، والطعم الخاص ، وأنه لا ينبغي أن نربطها فنياً بالقصص الحديثة ، وما شاع فيها من أساليب فنية ، وإنما نربطها بالنزعة القصصية التي هي مشاع بين البشر ، والتي تأخذ أشكالاً متنوعة ، ابتداءً من الأساطير وحكاية أخبار السابقين ، وابتكار القصص الإنسانية ، أو قصص الحيوان ، وانتهاءً بالرواية الحديثة التي تأخذ من الراقع ، وتعيد ترتيبه وصياغته وفق نظرة الكاتب ، لتقدم رؤية جديدة للإنسان والمجتمع والحياة .

5. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية

أرجو أن تكون قد ازددت بدراسة هذه الوحدة معلومات جديدة ، واكتسبت مهارات جديدة ، وتكونت لديك مواقف جديدة تجاه تراثنا الأدبي . وسيكون لك في الوحدة التالية لقاء مع فن آخر من فنون القول في أدبنا القديم هو : المقامات . هذا الفن الذي كثر فيه القول ، والأخذ والرد ، في الدراسات الأدبية الحديثة ، فهناك من يجعلها فناً قائماً بذاته ، وهناك من يدخلها في تيار القصة ، وهناك من يجردها من الغاية الفنية ويجعلها أقرب إلى الغاية التعليمية .

فما حقيقة المقامات ؟

وما أصولها الفنية ؟

وما غاياتها وما أنماط التعبير الفني فيها ؟

ذلك ما ستعرفه في الوحدة التالية !

6. إجابة التدريبات

تدريب (1)

1. يحاول الجاحظ من خلال النصوص بيان الأسس التي بنى عليها البخلاء وجهة نظرهم ، وهي :

الأساس الأول : الوراثة ، حيث يظهر ذلك في أكثر من قصة ومنها قصة الطفل البخيل الذي سئل عن الطعام والماء ... الخ ... وقد عقب الجاحظ على القصة بقوله « يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم » . وكذلك قصة الطفل الذي استكثر أكل الضيوف ، وقال لهم : « كم تأكلون ، لا أطعم الله بطونكم ، فقال أبوه ، وهو جدّ الصبي : ابن ورب الكعبة » .

الأساس الثاني : البيئة ، ويمكن أن يستدل على ذلك بقصة دبكة مرو ، كما قال الراوي : « فإني رأيت دبكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحبّ ، قال : فعلت أن بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء ، فمن ثم عمّ جميع حيواناتهم » .

الأساس الثالث : الاقتصاد ، وذلك واضح في قصة المسجدين « من ينتحل الاقتصاد في النفقة ، والتشهير للمال من أصحاب الجمع والمنع » .

الأساس الرابع : البيئة الاجتماعية ، وذلك واضح في قصة الصبي الذي استكثر على الأكلين كثرة أكلهم ، وإن كانت تدرج في باب الوراثة ، فإنها كذلك تمثل البيئة الاجتماعية ، حيث اكتسب ذلك الصبي بعض أخلاق أهله الذين نشأ بينهم .

2. لعل من الواضح أن الجاحظ قد لجأ إلى أسلوب السخرية الهادئة ، التي قد تبدو في مظهر الجدّ . ولكنها تستوقف القارئ المتأمل ، ولا بد أنها تستثير الضحك من الأعماق ، ويقف مشدوداً أمام فلسفة البخل لدى المسجدين ، أو لدى الدبكة البخيلة ، أو الأطفال الذين تشربت عقولهم فلسفة البخل . لقد استطاع الجاحظ أن يسخر من بخلاته سخرية هادئة ، لا تضعه في موقف المتحيز ضدّهم تحيزاً مباشراً ، أو المتحامل عليهم ، بل تبدو في ظاهر الأمر أقرب إلى الموضوعية .

ولعل من المفيد أن تطلع على كتاب : سخرية الجاحظ من بخلاته ، من تأليف الدكتور محمد بركات أبو علي ، للتعلم في هذه القضية .

تدريب (2)

1. البعد السياسي لكتاب كليلة ودمنة :

كتاب كليلة ودمنة في ظاهره حكايات على السنة الحيوان . ولكنه في حقيقته كتاب سياسة واجتماع وأخلاق . ولو رجعت إلى الباب الخاص بقصة تأليفه لعلمت أن السياسية هي سبب التأليف .

وإذا ذهبت تدرس فصول الكتاب ، فإنك تجد أن السائل هو الملك ، والمجيب هو الفيلسوف . وكثير من الأسئلة ذات صلة بسياسة الرعية . ثم إن البعد السياسي يتجلى في اختيار ابن المقفع لهذا الكتاب لترجمته ، وكأنه كان يريد أن يقول للسياسة في عصره : هذا نموذج من نماذج الظلم السياسي ، الذي انتهى بفضل حكمة حكيم إلى العدل بين الناس ، واتباع طريق الإصلاح .

ولعل مما يزيد الأمر بياناً أن مقتل ابن المقفع نفسه ، قد قيل فيه أقوال ، منها اتهامه بالزندقة ، ومنها سبب سياسي ، وذلك بالعهد الذي كتبه للصلح بين الخليفة المنصور وعمه ، وكان فيها قاسياً على الخليفة . وقيل غير ذلك ، فالسياسة واضحة في سبب تأليف الكتاب ، ومنهجه ، ومضمونه ، وترجمته .

2. البناء الفني لفصول كتاب كليلة ودمنة :

البناء الفني للفصل الذي درسناه واضح ، وقد بيناه لك في التعليق . ومنهج إجابة هذا السؤال هو أن تختار أي فصل ، ثم تقوم بالنظر فيه وفق ما نظرنا في الفصل هذا ، ثم ترى : هل الفصل مكوّن من قصة واحدة ؟ أم أن فيه تداخلاً في القصص ؟ وهل كان دور الملك في القصة الاستماع من أولها إلى آخرها أم أنه كان يتدخل بالسؤال بين حين وآخر .. وهكذا ... حتى يتضح لك البناء الفني من خلال فصلين ، وتكون أكثر خبرة ودراية بكتاب كليلة ودمنة .

تدريب (3)

الموازنة بين رسالة التوابع والزوابع ورسالة الغفران :

الرحلتان كلتاها توجه إلى عالم الغيب ، ولكن رحلة ابن شهيد كانت إلى وادي الجن وعالمهم ، ورحلة المعري كانت إلى الجنة والبعث والنار . وقد نتج عن اختلاف الوجهتين الاختلاف في المضمون ، والاختلاف في المدى الذي وصل إليه كل منهما . فمجال المعري أوسع من مجال ابن شهيد . وإذا كان ابن شهيد قد لقي توابع الشعراء والأدباء ، فقد لقي المعري الشعراء والأدباء واللغويين أنفسهم .

والبطل في رسالة التوابع هو الكاتب نفسه ، وأما في الغفران فالبطل أو الشخصية الرئيسية هو ابن القارح ، والمعري راوٍ للقصة .

وإذا كان هدف ابن شهيد أن يعلي من مكانة نفسه ، ويبرز قدرته الأدبية ، فقد كان من أهداف المعري إبراز ثقافته الواسعة ، وبخاصة في اللغة حيث لجأ إلى الإغراب في الألفاظ إلى درجة لافتة للنظر .
وكلا الكاتبين لجأ إلى شيء من المحسنات وبخاصة الجناس والسجع . والسجع لدى ابن شهيد أكثر ظهوراً ، والجناس متلازم لدى المعري مع السجع في الغالب ، ولزم في سجعه ما لا يلزمه .

7. المصادر والمراجع

1. بيديا ، كلية ودمنة ، تعريب عبدالله بن المقفع ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 1984 .
2. التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالحي ، دار صادر ، بيروت .
3. الجاحظ ، البخلاء ، دار صادر ، بيروت .
4. ابن الجوزي ، كتاب القصاص والمذكرين ، تحقيق محمد لطفي الصباغ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1983 .
5. خورشيد ، فاروق ، الرواية العربية في عصر التجميع ، دار الشروق ، القاهرة ، ط 2 ، 1975 .
6. سليمان ، موسى ، الأدب القصصي عند العرب ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 3 ، 1960 .
7. شاخت وبوزورث ، تراث الإسلام ، القسم الثاني ، ترجمة حسين مؤنس ورفيقيه ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1978 .
8. ابن شهيد ، رسالة التواضع والزوابع ، دار صادر ، بيروت ، 1980 .
9. ضيف ، شوقي ، عصر الدول والإمارات - الأندلس ، دار المعارف ، القاهرة ، 1989 .
10. ضيف ، شوقي ، عصر الدول والإمارات - مصر والشام ، دار المعارف ، القاهرة ، 1984 .
11. ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1983 .
12. المبارك ، محمد ، فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ ، دار الفكر ، دمشق ، ط 2 ، 1979 .
13. المعري ، أبو العلاء ، رسالة الغفران ، دار صادر ، بيروت ،
14. النجم ، وديعة طه ، القصص والقصص في الأدب الإسلامي ، وزارة الإعلام ، الكويت ، 1972 .
15. ابن النديم ، الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت .
16. ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وزميليه ، دار المعرفة ، بيروت .

الوحدة السادسة

المقامات

المحتويات

الموضوع	الصفحة
1. المقدمة	265
1.1 التمهيد	265
2.1 أهداف الوحدة	265
3.1 أقسام الوحدة	266
4.1 القراءات المساعدة	267
5.1 الوسائط المساندة	267
6.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة	267
2. المقامات	268
1.2 المقامة : تعريفها ، خصائصها ، أصولها الفنية	268
1.1.2 تعريف المقامة لغة واصطلاحاً والخصائص العامة لها	268
2.1.2 الأصول الفنية التي اعتمدت عليها المقامة حتى استوت فناً أدبياً متميزاً	271
2.2 مقامات الهمذاني	275
1.2.2 صاحب المقامات	275
2.2.2 مصادر مقامات الهمذاني ودراعي تأليفها	277
3.2.2 عدد مقامات بديع الزمان	280
4.2.2 الخصائص الأسلوبية والبناء الفني للمقامات	282
3.2 مقامات الحريري	284
1.3.2 الحريري	284
2.3.2 تأليفه المقامات وعلاقتها بمقامات بديع الزمان	285

286	3.3.2 أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين مقامات الحريري ومقامات الهمذاني
291	4.3.2 أسباب انتشار مقامات الحريري وكثرة محاكاتها
293	4.2 أشهر المقامات وكتابتها بعد الهمذاني والحريري وأثر المقامات العربية في الآداب الأخرى
293	1.4.2 أشهر المقامات وكتابتها بعد الهمذاني والحريري
300	2.4.2 أثر المقامات العربية في الآداب الأخرى
303	5.2 الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للمقامات والوظيفة التربوية والتعليمية لها ، وصلة ذلك
	بخصائصها الفنية
303	1.5.2 الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للمقامات
307	2.5.2 الوظيفة التربوية والتعليمية للمقامات
	6.2 شخصية البطل وشخصية الراوية في المقامات والخصائص الفنية لها وصلتها بفن القصة
311	القصيرة في العصري الحديث .
311	1.6.2 شخصيتا البطل والراوية في المقامة .
313	2.6.2 الخصائص الفنية للمقامة من خلال صلتها بالقصة القصيرة في العصر الحديث .
318	3. الخلاصة
319	4. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية
320	5. إجابة التدريبات
328	6. المصادر والمراجع
326	7. الملاحق

1. مقدمة

1.1 التمهيد

عزيزي الطالب ، أرحب بك وأدعوك إلى دراسة الوحدة السادسة من مقرر " فنون النشر القديم " وموضوعها : المقامات .

ولعلك تعلم أن المقامات فن نشري عربي ازدهر في رحاب العربية ، فكان نموذجاً للإبداع النشري عند العرب في عصور الازدهار ، وهو إبداع عربي أصيل لم ينقله العرب عن أمم أخرى ، بل هم الذين كانوا سباقين إلى إبداعه ، وعنهم أخذت بعض الأمم هذا الفن .

وقد سبقت المقامات عند العرب بمحاولات نشرية شكّلت الأصول المبكرة لصياغة الأنماط المتعددة لفن المقامات . كما كانت المقامات ذاتها أصلاً تطورت عنه بعض فنون النشر الأخرى . ومن ذلك رأي بعض المحدثين في تأثير فن المقامات عند العرب في نشأة القصة القصيرة .

ولا يخفى عليك ، أخي الطالب ، أن من المقاميين العرب من ارتبطت شهرتهم بما أبدعوا من مقامات مثل بديع الزمان الهمذاني والحريري اللذين كانا من أعظم كتّاب النشر في تاريخ العربية .

2.1 الأهداف

نتوقع منك عزيزي الدارس ، بعد دراسة هذه الوحدة ، وتنفيذ ما يطلب إليك فيها ، أن تصبح قادراً على أن :

1. تكون فكرة عن نشأة فن المقامة وتطوره .
2. تكون فكرة محددة عن الأصول الفنية للمقامة .
3. تكون فكرة واضحة عن أشهر المقامات التي وضعها العرب .
4. تتعرف الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للمقامات .
5. تتعرف أنماط التعبير اللغوي عند المقاميين وتستوعبها .
6. تكون فكرة واضحة عن الصلة بين فن المقامة وفن القصة القصيرة عند العرب في العصر الحاضر .
7. تتعرف أشهر كتاب المقامات .
8. تستخرج الخصائص الفنية للمقامات .

3.1 أقسام الوحدة

تتكون هذه الوحدة الدراسية من ستة أقسام :

- أولها : يشتمل على تعريف المقامة لغة واصطلاحاً ، وبيان الخصائص العامة لها ، ثم التعرف على الأصول الفنية التي اعتمدت عليها حتى استوت فناً أدبياً متميزاً .
- ثانيها : خُصص لبحث مقامات الهمداني ، فاشتمل على التعرف ببديع الزمان الهمداني ، ومعرفة مصادر مقاماته وعددها ودواعي تأليفها ، ثم الخصائص الأسلوبية والبناء الفني للمقامات .
- ثالثهما : خُصص لبحث مقامات الحريري ، فاشتمل على التعرف بالحريري ، وسبب تأليفه لمقاماته ، ثم بحث صلتها بمقامات الهمداني ، وبيان أوجه الشبه والاختلاف بينهما ، وأخيراً بحث أسباب انتشار مقامات الحريري وكثرة محاكاة اللاحقين لها .
- رابعهما : عُني بعرض أشهر المقامات وكُتابها بعد الهمداني والحريري ، ثم بيان أثر المقامات العربية في الآداب الأخرى .
- خامسها : دراسة الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للمقامات ، وكذلك الوظيفة التربوية والتعليمية لها ، ثم صلة ذلك بالخصائص الفنية للمقامات .
- سادسها : دراسة شخصية البطل وشخصية الراوية في المقامات ثم الخصائص الفنية للمقامات بعامة . وأخيراً بحث الصلة بين هذا الفن وفن القصة القصيرة في العصر الحاضر .

4.1 قراءات مساعدة

ويحسن بك عزيزي الطالب أن ترجع إلى غير كتاب من الكتب التالية التي تساعد على تزويدك بنماذج غنية من المقامات ، بالإضافة إلى قضايا متعددة تتعلق بتلك النماذج :

1. بديع الزمان الهمذاني ، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار الكتب العلمية دون تاريخ (د . ت) .
2. الحريري ، شرح مقامات الحريري ، أبو العباس الشريشي ، تصحيح محمد عبد المنعم خفاجي ، بيروت ، المكتبة الثقافية 1372 هـ - 1952 م .
3. أبو علي القالي ، كتاب الأمالي ، بيروت ، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة 1407 هـ - 1987 م الجزء الأول " من أحاديث أبي نعيم " في الصفحات 16 ، 65 ، 113 ، 194 ، 220 .
4. أبو اسحاق الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق د. زكي مبارك ، بيروت ، دار الجيل ، د . ت . ج 1 ص 305 .
5. د. شوقي ضيف ، المقامة ، مصر ، دار المعارف ، 1987 م .
6. د. يوسف نور عوض ، فن المقامات بين المشرق والمغرب ، مكة المكرمة مكتبة الطالب الجامعي 1406 هـ - 1986 م .

5.1 الوسائط المساندة

6.1 ما تحتاج إليه في دراسة هذه الوحدة

اقرأ المادة العلمية الواردة في هذه الوحدة ، واطلع على المراجع المقترحة ، واحرص على القيام بما طلب منك من إجابة أسئلة التقويم الذاتي والتدريبات ، ففي هذا كله ما يعينك على تحقيق الأهداف المشروخة من دراسة هذه الوحدة ، ويفتح لك آفاق المعرفة في مجال فنون النثر العربي القديم .

1.2 المقامة ؛ تعريفها ، خصائصها ، أصولها الفنية .

1.1.2 تعريف المقامة لغة واصطلاحاً والخصائص العامة لها :

يحسن بنا ، عزيزي الطالب ، قبل الحديث عن المقامة بوصفها فناً أدبياً ، أن ننظر في الأصل اللغوي لكلمة مقامة ؛ لنرى إن كان يفيدنا في تحديد ملامح هذا الفن الأدبي .

يقول ابن منظور صاحب " لسان العرب " في ختام مادة " قوم " : " المقام والمقامة : المجلس ، ومقامات الناس : مجالسهم ؛ قال العباس بن مرداس أنشده ابن بري :

فأبى ما وأيسك كان شراً فقيداً إلى المقامة لا يراها

ويقال للجماعة يجتمعون في مجلس : مقامة ؛ ومنه قول لبيد :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن ، لدى باب الحصير قيام

الحصير : الملك ههنا ، والجمع مقامات ؛ أنشد ابن بري لزهير :

وفيهم مقامات حسان وجورهم وأندبئة ينتابها القسورُ والفعل

ومقامات الناس : مجالسهم أيضاً . والمقامة والمقام : الموضع الذي تتروم فيه ، والمقامة : السادة " (لسان العرب ، مادة قوم) .

فأنت ترى معي ، عزيزي الطالب ، أن الأصل في المقامة أنها تطلق على المجلس ، ثم أصبحت تطلق على القوم الذين يجتمعون فيه ، وهذا المعنى لا يساعدنا كثيراً على تصور طبيعة المقامة الأدبية . لذلك لا بد لنا من الرجوع إلى نصوص الشعر الجاهلي والإسلامي لتبيين معنى كلمة مقامة ومقام وربط ذلك المعنى بالسياق العام للشعر كما فعل أحد الباحثين فأورد قول عبده بن الطبيب :

ومقام أيام لهن فضيلة عند الحفيظة والمجامع تجمع

وأورد قوله كذلك :

ومقام خصم قائم طلقاته من زل طار له ثناء أشنع

وذلك في سياق القصيدة كاملة ، ثم أورد الباحث أبياتاً ترد فيها هاتان الكلمتان في سياق شعري

لسويد بن أبي كاهل ، وأبياتاً مفردة لنهشل الدارمي وحמיד بن ثور ومالك بن حريم ونهار بن توسعة والقتال الكلابي ، نخلص من ذلك كله إلى القول " المقامة ، على ما استبان من النصوص السابقة ، حلقة يتحلّق فيها الناس ما بين قائم وقاعد ، يتسمعون لمتلاسنين يتهاجيان ، أو يتفاخران ، أو يتماذحان ، أو يقومان بكل ذلك ، ثم إن أولئك الناس قد ينضمّون لأحدهما ، وبخاصة للمنتصر منهما . وعلى هذا تبدو المقامة وكأنها عادة من عادات العرب الجاهليين ، بل هي عادة من عاداتهم . ولنا أن نتصور أن الشعر الجاهلي كان ينشد في هذه (المقامات) ، وأن سامعيه كانوا يتقبلونه أو ينتقدونه ذلك النقد البسيط الذي عُرف عن العصر الجاهلي " (حمّودي 1985 : ص 20) .

فهذا التعريف يوسع الدلالة اللغوية لكلمة المقامة ، ويمهد لتطوير معناها في الاتجاه الذي تطور فيه بشكل أكبر ، لتدل بعد ذلك على الظرف أو الموقف المرتبط بأوضاع المتلقين ، أو الخطبة الدينية ، والموعظة الأخلاقية ؛ على نحو ما نرى في " مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك " في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري . ويشير ابن المدبّر في " الرسالة العذراء " إلى كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب " مثلما يورد ابن عبد ربه في العقد الفريد ؛ مقامات العباد عند الخلفاء " (انظر : السعافين ، 1987 : ص 15) .

ترى معي أننا اقتربنا من المعنى الاصطلاحي لكلمة المقامة الذي رأيناه أول مرّة عند بديع الزمان الهمذاني في مقاماته الشهيرة . فهو يذكر المقامة للدلالة بشكل صريح على العمل الفني برمته ؛ وهي بذلك تشبه الخبر أو الحديث الذي كانوا يتناقلونه بتسامه ، فقد ذكر هذه الكلمة في المقامة الأسدية ، والمقامة الجرجانية ، والمقامة والرعيّة والمقامة الرصافية .

فقال في الأسدية : " كان يبلغني من مقامات الإسكندري ومقالاته ما بصفى إليه الثفور ، وينتفض له العصفور ، ويروي لنا من شعره ، ما يمتزج بأجزاء النفس رقة " (الهمذاني ، ص 35) . فالإسكندري له مقامات ومقالات وشعر ، فالمقامات فن غير فن المقالات وغير فن الشعر كما يبدو من كلامه .

ولجده في المقامة الجرجانية يذكر بيت زهير مع بيت آخر ، ويُغيّر الضمير في أول البيت فيقول :

" فبنا مقامات حسان وجوههم وأندية بنتابها القول والفعل
على مكثريهم رزق من يعترهم وعند المقلّين السماحة والبذل "

(الهمذاني ، ص 57)

وأصل البيت " وفيهم مقامات ... " وليس فينا . بهذا نرى بديع الزمان الهمذاني يصل بين استعمال الجاهليين لكلمة مقامات وما أراده هو من استعمال لها .

أما أوضح استعمال لكلمة مقامة عنده للدلالة على العمل الأدبي بتسامه فقولته في المقامة الوعظية: "قال عيسى بن هشام فقلت للحاضرين: من هذا؟ قال: غريب قد طراً لا أعرف شخصه، فاصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبيء بعلامته، فصبرت" (الهمذاني، ص 179).

فالمقامة هنا تعني الحديث بتسامه من بدايته حتى نهايته؛ لذلك فقد ذكر شوقي ضيف أن المقامات عند البديع حديث في شكل "قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها ويتخذ لقصصه جميعاً راوياً واحداً هو عيسى بن هشام، كما يتخذ لها بطلاً واحداً هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحاذا لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم، وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم" (ضيف، 1987: ص 8).

ولو تريت الدكتور شوقي ضيف لما قطع بأن لها بطلاً واحداً هو أبو الفتح الإسكندري بوصفه الذي ذكره، فعند الهمذاني مقامات ليس فيها أي ذكر للبطل أبي الفتح؛ مثل المقامة البخارية، والتميمية والأهوازية، والبغدادية والغيلانية، والخلفية، والصيعرية، والمغزلية، والنهدية.

كما أن عنده مقامات فيها بطل بلا تسميه، فقد يكون الإسكندري وقد يكون غيره؛ كالمقامة الشعرية، والمقامة الصفرية. وقد يشترك في مقامات أخرى البطل والراوي في البطولة معاً كما في المقامة الموصلية.

تعريف المقامة

لذا يمكن القول إن المقامة "قصة قصيرة بطلها نموذج إنساني مُكَّد ومتسول لها راوٍ ويطل وتقوم على حدث ظريف مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لونا من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية وضعت في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية" (عوض، 1986: ص 12).

وهذا التعريف، عزيزي الطالب، ينطبق على مقامة بديع الزمان الهمذاني حسب، أما فن المقامة بعده فقد طراً عليه كثير من التغيير، فكان بعض المقلدين له محافظاً على الأصل ما أمكن مثل الحريري. وقد وجدنا غير كاتب من كتّاب المقامات قد قصرها على الموقف البرعظي - غالباً - نأسقط شخصية الراوي وشخصية البطل معاً، كما فعل الزمخشري الذي كان يبدأ مقارنته بمخاطبة نفسية بقوله "يا أبا القاسم" ثم يبدأ موعظته.

أما السيوطي فجعل مقامته مناظرة بين شيئين أو عدة أشياء تتبارز وتتفاضل فيما بينها فيتحدث كل عن نفسه مبيناً فضله على غير كما فعل مع الرياحين السبع والمواقيت السبع وهكذا.

تدريب (1)



هل يمكن وضع تعريف جامع للمقامة دون أو تقع في التعميم أو القسر ؟ لا يعلم لغيره مختلفه في الكلام الى امرى
على ضوء إجابتك ناقش التعريفين السابقين للمقامة عند الهمذاني أولاً والمقامة بصورة عامة ثانياً
وبيّن ما فيهما من تعميم أو قصور .

نشاط



ارجع إلى مقامات الهمذاني واستخرج المواطن التي استخدم فيها كلمة "مقامة" ، وبين المعنى المقصود
منها في كل موطن إن استطعت .

2.1.3 الأصول الفنية التي اعتمدت عليها المقامة حتى استوت فناً أدبياً متميزاً .

عززي الطالب ، لعلك تتفق معنا حول أصالة هذا الفن في العربية ، فليس هناك من سند لما ذهب إليه
أحمد ضيف من أن أصل المقامة فارسي (مبارك ، 1975 : ص 203) وذلك لأن الفارسية لم تعرف
المقامات قبل القاضي حميد الدين البلخي المتوفى سنة 559 هـ ، الذي أنشأ " مقامات حميدي " ، وصرح في
المتدّمة أنه ترسم في مقاماته خطى البديع والحريري ، وأنه أراد أن يدخل هذا الفن إلى اللغة الفارسية حتى
يعرف به مواطنيه (انظر ، عرض ، 1986 : ص 13) .

فإذا اتفقنا على أن المقامات استوت فناً أدبياً على يدي بديع الزمان الهمذاني ، فلا بأس في المضي
خلف المؤثرات التي جعلته يُنشئ هذا الفن الجديد . وأول إشارة إلى الأثر الذي استوحى منه بديع الزمان
مقاماته لجدها عند المحصري القيرواني صاحب كتاب " زهر الآداب وثمر الألباب " الذي قال عن الهمذاني إنه "
لما رأى أبا بكر محمد بن الحسين ابن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع
صدره ، واستنخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضائر ، في معارض
أعجمية ، وألغاز حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبتها الأسماع ، وتوسع
فيها ، إذ صرفت ألقابها ومعانيها ، في وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة في
الكديبة ، تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ومعنى ... " (المحصري ، ج 1 ص
305) .

لم نظفر عند القدماء بغير هذا الرأي حول نشأة مقامات البديع ، ولسنا نعرف على وجه التحديد أحاديث ابن دريد المشار إليها . وقد رأى غير واحد من المحدثين أن من هذه الأحاديث ما مجده في كتاب الأمالي للقالبي مروياً عن ابن دريد ، ومنها خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام " (القالي ، 1987 ، ج 1 ، ص 113) وحديثه في وصف الفرس (القالي ، 1987 ، ج 1 ، ص 41) وأحاديثه في الوصايا والحكم (القالي ، 1987 ، ج 1 ص 194) ، و (القالي ، 1987 ، ج 1 ص 195) . وعليه فقد تابع غير واحد من المحدثين رأي الحصري حتى وازن أحدهم بين هذه الأحاديث ومقامات البديع انطلاقاً من الموافقة على هذا الرأي (فاعور ، 1983) وهي رسالة ماجستير تحت عنوان مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد ، اكرام فاعور ، اشراف د. عمر فروخ ، بيروت ، دار اقرأ (1983) .

وعلى الرغم من شيوع الرأي القائل بتأثير ابن دريد بديع الزمان في إنشاء المقامات فإن باحثين يشورون ضد هذا ، ويرشك أحدهم أن ينكره انكاراً تاماً ، مع الذهاب إلى أن أحد أهم المؤثرات في بديع الزمان هو استاذة ابن فارس (انظر حمودي ، 1985) . الذي أثر في تلميذه بعلمه وشخصيته معاً ، حتى كاد يحصر د. حمودي التأثير بابن فارس حسب ، فجعل عنوان الكتاب " المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان " .

لكن النظر الفاحص ، أخي الطالب ، يؤدي بنا إلى رصد مجموعة من المؤثرات التي شكلت الدافع عند بديع الزمان مجتمعة لكتابة المقامات ، ولعلك تتفق معنا في أن هذه المؤثرات يجب أن تقسم قسمين :

الأول : (مؤثرات فنية) هي مجموعة من الأعمال الأدبية السابقة مثل مقامات الروعاظ والقصاص ، وأحاديث الأعراب بعامة ، بالإضافة إلى رسالة التريب والتدوير للجاحظ ، وحكاية أبي القاسم البغدادي لأبي المظهر الأزدي .

الثاني : (مجموعة الظروف البيئية والاجتماعية) التي أحاطت بالمؤلف وكانت تسود في عصره من قيم ومعايير ، وقسوة حياة ، بالإضافة إلى وجود بعض الشخصيات التي عايشها المؤلف ، وكانت مادة صالحة لتشكيل النموذج الإنساني الذي جعله بطل مقاماته مثل شخصية أستاذة أحمد بن فارس .

ودليلنا في التثبت من هذا الأثر أو ذاك هو شاهد من الشكل الفني الذي تتسم به المقامة ، أو المضمون الذي تحمله ، وبغير هذا يصعب علينا أن نجزم بصدق ما نذهب إليه .

لذلك يمكن القول أن أحاديث ابن دريد التي وردت في كتاب الأمالي قد أثرت في مقامات الهمذاني ، في بعض أوجه الصياغة الفنية . كما أنها تلتقي مع المقامات في غايتها التعليمية وفي تركيزها على الكدبة والحيلة .



حتى تتضح لك هذه النقطة ارجع إلى "خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام . (ر القالي ، 1987 ، ج 1 ص 113) ووازن بينها وبين المقامة الأصفهانية لبديع الزمان .

وعلينا ، عزيزي الطالب ، ألا ننكر أثر ابن فارس في بديع الزمان ؛ فقد ألح ابن خلكان إلى أن الحريري اقتبس أسلوبه في المقامات بالإضافة إلى البديع عن ابن فارس . والذي لا شك فيه أن شخصية ابن فارس النحوية قد طغت عند المؤرخين على النواحي الفنية عنده فقد كان يجمع إلى جانب شخصيته العلمية شخصية فنية ذات ذوق وظرف (الثعالبي ، 1983 ، ج 3 ، ص 400) ؛ لذا فقد أفاض أحد الباحثين بذكر ابن فارس في بديع الزمان مبيناً أن أساس التأثير هي تلك السمات الفنية في شخصية ابن فارس لا في كتاباته (حمودي ، 1985 ، ص 93 - 107) .

أما النماذج الفنية المتعددة التي كانت سابقة على المقامات ، ونرجح أن بديع الزمان استلهمها في مقاماته ؛ فمنها مقامات الرعاظ والقصاص التي نجدتها مبثوثة في كتب الأدب مثل عيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي . وفي هذه المقامات الرعظية والتقصص يكون الخطيب يمتلك أسلوب لغوي يقوم على السجع مع سرعة بديهة وتنوع في الاستشهاد بالآيات والأحاديث وتتضمن تلك المقامات موضوعات فنية غير الرعظ ، مثل شكوى الفقر ، وضيق سبل العيش .

وكل هذه السمات تجعلها قريبة من فن المقامات وتصلح لأن تكون أصلاً لها .

ونجد أحاديث الأعراب وخطبهم وموضوعاتهم تشكل مادة مفيدة في التعرف على أصول المقامات ؛ *المضمون تصدق على الكديبة و الفقرة الجوع* فهي في غالبها أحاديث مسجوعة تقوم على الكديبة ووصف الفقر والجوع ، أي أنها تشكل مادة للمقامات في مستوي الشكل والمضمون . (انظر البيهقي ، ج 2 ، ص 420 - 424) . فقد ذكر قول أعرابي " فقال: رحم الله امرأ لم ينج أذنه كلامي وقدم لمعاده من سوء مقامي ، فإن البلاد مجدبة ، والحال مسغبة ، والحياء زاجر ينهي عن كلامكم ، والفقر عاذر يدعو إلى إخباركم ، فرحم الله امرأ وأسى بئير ، أو دعا بخير ! فقال رجل : ممن يا أعرابي ؟ فقال : أخ في كتاب الله ، وجار في بلاد الله ، وطالب خير من رزق الله " (البيهقي ، ج 2 ص 423) . فالشكل اللغوي ، لغة مسجوعة ، والمضمون كديبة وطلب رزق من المحسنين كما ترى .

أما حكايات البخلاء والمكدين واللصوص والظرفاء والشطار والعيارين ، فقد شكلت مادة أدبية مناسبة تماماً لما أراد بديع الزمان ، فإن هذه النماذج التي أرسى قواعدها الجاحظ في كتبه غدت نماذج أدبية وإنسانية لا بد لكل متأدب بعده من أن يطلع عليها ويُلَم بها . ويدعو إلى الاهتمام بها أنها شخصيات كانت ماثلة في القرن الرابع الهجري أي في عصره هو ، أقصد الهمذاني ؛ لذلك كان يجدها في مستوى الفن الأدبي عند

القدماء ، ويعاينها في المجتمع الذي يعيش فيه . فعدت بذلك شخصيات حقيقية في تمثيلها للواقع ، وإن لم تكن في أصلها سوى شخصيات من صنع البديع ذاته .

وليس أدل على ذلك من أن بديع الزمان قد جعل عنوان إحدى مقاماته المقامة الساسانية ، وتحدث عن كتيبة من الساسانيين ، بقيادة أبي الفتح الإسكندري . وهؤلاء هم الجماعة التي لجدها إلى اليوم بأشكال متعددة ؛ إلا أن صفاتهم وخصائصهم تكاد تكون واحدة على مرّ العصور .

فالساسانيون ، عزيزي الطالب ، هم النور في بلادنا أو الفجر أو الزط أو سمهم ما شئت حسب البلد التي تكون فيهم . طابعهم معروفة للجميع ، وصناعتهم لا تخفى على أحد ، وحيلهم لا يغيرها الزمان ، إلا أنها تنمو في كل زمان .

ومن سؤلاه نجد شعراء الكدية ، زمن الهمداني ، أمثال أبي دلف الخزرجي والأحنف العكبري اللذين ذاع شعرهما في الكدية ؛ فالعكبري كما يقول الثعالبي " شاعر المكذّين وظيفهم ومليح الجملة والتفضيل منهم ، وقرأت للصاحب فصلاً في ذكره ، فأوردته ، وهو : لو انشدتك ما أنشد فيه الأحنف العكبري لنفسه ، ، وهو فريد بني ساسان اليوم بمدينة السلام وحسن الطريقة في الشعر ، لامتلأت عجباً من ظرفه وإعجاباً بنظمه... " (الثعالبي ج 3 ، ص 137) ثم يورد شعراً له يفتخر فيه بقومه بني ساسان وحرفتهم وحيلهم .

أما حكاية أبي القاسم البغدادي لأبي المطهر الأزدي ، فهي من الحكايات التي تقترب في جوهرها من المقامات ، وقد تكون من المؤثرات في بديع الزمان الهمداني ، إذ هي تشتمل على وصف العبث والمجون في حياة البغداديين وعلى وصف مظاهر الحضارة في تلك المدينة ومقارنتها بغيرها من المدن والمناطق كأصفهان . وشخصية أبي القاسم فيها تشبه إلى حد كبير شخصية أبي الفتح الإسكندري في قدرته البيانية على الوصف والتلون والخذاع ، فالبديع يقلد أبا المطهر في بعض أسلوبه إذ يقول في وصف ثقليل : " يا أول ليلة الغريب ، إذ بعد عن الحبيب ، يا طلعة الرقيب ، يا يوم الأربعاء في آخر صفر ، يا لقاء الكابوس في وقت السحر ، يا خراجاً بلا غلّة ، يا صفرأ مقروناً بعلّة " (الأزدي ، 1902 : ص 120) .

فقد اتبع الهمداني هذا الأسلوب في المقامة الدينارية حيث طلب عيسى بن هشام من الاسكندري وأحد بني ساسان أن يتشاقما كي يظفر أحدهما بالدينار ؛ فعمد إلى قول شبيه بهذا ؛ فقال أبو الفتح في شتم صاحبه : " يا برد العجوز ، يا كرية تموز ، يا وسخ الكوز ، يا درهماً لا يجوز ، يا حديث المغنين ، يا سنة البروس ، يا كركب النحوس ، يا وطأ الكابوس ... " (الهمداني ، ص 376) .

تدريب (2)



* اذكر نوعي الدليل اللذين يمكن لنا استخدامهما للتثبت من وجود الأثر لمؤثر ما في بديع الزمان عند إنشاء مقاماته .

** اذكر أوجه التشابه منفصلة بين الفقرة المأخوذة من حكاية أبي القاسم البغدادي ومقابلتها المأخوذة من المقامة الدينارية للهمداني .

أسئلة التقويم الذاتي (1)



1. كيف يمكن لأهبات من الشعر الجاهلي أن تساعدنا في الفصل بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة مقامة ؟

2. هات تعريفاً للمقامة عند الهمداني .

3. عدد أهم الأصول الفنية التي أثرت في بديع الزمان حين أنشأ مقاماته .

4. اذكر كتابين من كتب الأدب تضمنت خطباً أو مقامات وعظية أفاد منها الهمداني .

2.2 مقامات الهمداني

1.2.2 صاحب المقامات :

قبل أن ندرس مقامات بديع الزمان الهمداني ، يجدر بنا ، عزيزي الطالب ، أن نلّم ببُنْذة عن حياة صاحبها : فهو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الملقب ببديع الزمان ، ولد في همدان ، وهي مدينة جبلية في إيران سنة 358 هـ . وفي رسائله دلالات متعددة تشير إلى أنه من أسرة عربية كريمة استوطنت هناك ، يقول في رسالة بعث بها إلى الشيخ ابن أحمد الإسفراييني " إني عبد الشيخ ، واسمي أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المررد ، ومضر المحتد " (الحموي ، 1299 هـ ، ص 8) .

وقد أفرد الشعالي في بتيمة الدهر ترجمة طويلة له ، وصفه في مفتتحها بأنه " معجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وركر عطار ، وفرد الدهر ، وغرّة العصر ، ومن لم يُلْقَ نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس . ومن لم يُدرك قرينه في ظرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته ، ولم يُرَ ولم يُرَوَّ أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء بمثل اعجازه وسحره ، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب " (الشعالي ، 1983 ، ج 4 ، ص 293) .

وهو كما علمت تلمذ في همدان للعلامة أحمد بن فارس ، وكان كثير الترحال ؛ فتلمذ كذلك للصاحب ابن عباد في الري ، الذي أفاد من ترسله وسعة اطلاعه ومذهبه في التفكير والإثشاء . وكان الصاحب بن عباد على اتصال بشعراء الكندية الجوالين كابن سكرة وابن الحجاج وأبي دلف الخزرجي ولا شك في أن الهمداني قد أفاد من الاطلاع على شعر هؤلاء في مقاماته .

تدريب (3)

اذكر أثر تلمذة الهمداني لأحمد بن فارس وللصاحب بن عباد في موضوع مقاماته وأسلوبها .



ترك لنا الهمداني ديوان شعر ، ومجموعة من الرسائل بالإضافة إلى مقاماته المشهورة التي تعد أفضل أثر أدبي له .

وعلى الرغم من علمه الغزير ، وتجواله الكثير ، فإنه كان برماً بزمانه يُكثر من الشكوى لإحساسه بالظلم الواقع عليه من مجتمعه ، فاستمع إليه ، عزيزي الطالب ، بقول مخاطباً نفسه : " يا أبا الفضل ليس هذا بزمانك ، وليست هذه بدارك ، ولا السوق سوق متاعك ، بنست الكتب وما وسعت ، والأقلام وما نسقت ، والمحابر وما رستت ، والأسجاع إذا اتسقت ، واللوم ولا هذي العلوم " (الحمري ص 125) .

لعلك ترى معي أن هذه شكوى من أدبرت عنه الدنيا فلم ير من خيرها شيئاً حتى شعر أن هذه ليست داره ، ولا بضاعته تناسب سوقها .

ومع أنه كان كثير العلم ، واسع العقل ، قادراً على إفحام علامة خراسان ، أبي بكر الخوارزمي ، في المناظرة الشهيرة التي جرت بينهما في نيسابور (الحمري ، 1972) ، إلا أنه كان يشعر بضيق وحنق لشدة فقره وعداوة الناس له . إذ كان قليل الحيلة ، غير بارع في الوقوف على أبواب الأمراء طلباً للأعطيات . كما أنه كان عربياً يعتد بعرويته في بيئة فارسية تسودها النظرة العرقية العنصرية . وكان يؤمن بمذهبه السني ولا يقبل بأفكار المعتزلة أو الشيعة الذين كانت لهم الصولة والجولة في تلك البلاد . وقد قُدِّرَ لهذه العبقرية أن تهدأ مبكرة فتُوفى الهمداني سنة 398 هـ عن أربعين سنة حسب .

2.2.2 مصادر مقامات الهمداني ودواعي تأليفها

بات معلوماً لديك ، عزيزي الطالب ، أن الهمداني كان مطلعاً اطلاعاً واسعاً على أدب الكدية السابق عليه بشقيه الشعري والنثري ، فقد قرأ أحاديث الأعراب في الكدية التي رواها ابن دريد ، كما التفتي في الري بشاعر الكدية أبي دلف الخزرجي شاعر بني ساسان الأول ، الذي أثار شخصيته ومغامراته وشعره خيال الهمداني فاخترم ذهنه بالفكرة ، ونضجت واضحة بينة القسماط يوم نزل نيسابور (الكك ، 1960 : ص 63) .

وعلمت كذلك تميز شخصية أستاذه ، أحمد بن فارس ، الذي وصفه الثعالبي في يتيمة الدهر مشيراً إلى تلمذة البديع له فقال عنه " كان بهمدان من أعيان العلم ، وأفراد الدهر ، يجمع إتقان العلماء ، وظرف الكتاب والشعراء ، وهو بالجبل كابن لنكك بالعراق ، وابن خالويه بالشام وابن العلاف بفارس ، وأبي بكر الخوارزمي بخراسان ، وله كتب بديعة ورسائل مفيدة ، وأشعار مليحة ، وتلاميذه كثيرة منهم بديع الزمان " (الثعالبي ، 1983 ، ج3 ص 463) . وليس من شك في أن هذه الشخصية التي تمتع بها أحمد بن فارس كانت من المصادر المهمة عند بديع الزمان حين أنشأ مقاماته .

ومن المصادر الأخرى التي يمكن تلمسها ، تلك النماذج الإنسانية التي بكتها كتب الأدب على يد الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه وغيرهم ممن صاغوا في أعمالهم تلك النماذج ، أو نقلوا الأحاديث والأخبار التي شكّلت نماذجهم تلك . أضف إلى تلك النماذج الإنسانية الأدبية ، ما كنت تحجده في مجتمع القرن الرابع الهجري من شخصيات حقيقية كان بصدفها البديع في حياته اليومية ، وتصلح لأن تكون نموذجاً لعمل أدبي كالذي صنعه الهمداني . فالقرن الرابع الهجري حفل بمظاهر الترف والحضارة والبذخ ، في مقابل مظاهر الفقر والجوع والحرمان ؛ فلا بد من ظهور شخصيات تحترف التسول والكدية والحيل الاجتماعية الفاسدة ؛ لتتال من الموسرين في حالات ظرفهم وتندرهم . كل ذلك شكّل مادة صالحة لإبداع المقامات على يدي رجل كثير التجوال في تلك الأمصار والولايات المتباعدة فيما بينها والمتباينة .

أملاً دواعي التأليف القريبة ، فكانت تتمثل في محاولة بديع الزمان إظهار البراعة اللغوية أمام من يستمعون إليه ؛ فقد ذكر الشريشي شارح مقامات الحريري أن أصل المقامات التي أنشأها البديع كانت ارجحاً . وأن البديع كان يقول لأصحابه في آخر مجلسه ، اقترحوا غرضاً نبني عليه مقامة ، فيقترحون ما شاموا ، فيملي عليهم المقامة ارجحاً في الغرض الذي اقترحوه . وهذا أقوى دليل ، إن صح ، على فضل البديع " (الشريشي ، 1952 ، ج1 ص 15) .

ولا يخفى عليك . عزيزي الطالب ، أن هذا الهدف يؤدي إلى الغاية التعليمية ، فعندما يعمد بديع الزمان إلى المفردات الغريبة في التراكيب القوية المسجوعة ، ويرواح بين النثر والشعر في هذه المقامات في ختام المجلس ، فإنه يهدف ، من ذلك كله ، إلى تمكين طلبته من امتلاك ناصية هذه الأساليب جميعاً .

وقد أدت هذه الغاية التعليمية إلى نوع من النقد الأدبي في بعض المقامات . إذ لجأ بديع الزمان في المقامة العراقية ، والمقامة الشعرية إلى الحديث عن الأحاجي والألغاز حول الأبيات الشعرية ؛ ليجعل تلك الأبيات حاضرة في أذهان التلاميذ ، مع ما تحوي من خصائص وألغاز .

فاستمع إلى هذه الفقرة من المقامة العراقية التي يسأل فيها عيسى بن هشام أبا الفتح الاسكندري عن أصله وداره فيقول " أنا عيسى الأصل ، اسكندري الدار ، فقلت : ما هذا اللسان ؟ ومن أين هذا البيان ؟ فقال : من العلم ، وضت صعا به ، وخضت بحاره ، فقلت : بأي العلوم تتحلى ؟ فقال : لي في كل كنانة سهم فأيتها تحسبه ؟ فقلت : الشعر . فقال : هل قالت العرب بيتاً لا يمكن حله ؟ وهل نظمت مدحاً لم يعرف أهله ؟ وهل لها بيت سجع وضعه ، وحسن قطعه ؟ وأي بيت لا يقرأ دمه ؟ .. " (الهمذاني ، ص : 186 - 187) . ويذكر أسئلة كثيرة على هذه الشاكلة ، ثم يعود ويعطي الإجابة عليها بعد أن يعجز عيسى بن هشام عن الإجابة ، فيورد الاسكندري أبيات الشعر التي هي حل تلك المسائل ، وقد يكون في هذه المقامة من التعجيز أكثر مما فيها من النقد والتعليم .

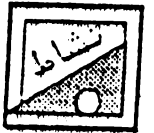
تدريب (4)

ارجع إلى المقامة العراقية واكتب أبيات الشعر التي عدّها الاسكندري أجربة لهذه الأسئلة التي ألقاها على عيسى بن هشام تعجيزاً .



نشاط

ارجع إلى المقامة الشعرية وحاول أن تتبيّن الجوانب التعليمية والنقدية فيها .



أما مقامته القرىضية فقد عرض فيها لخصائص الشعراء المشهورين أمثال امرئ القيس ، وطرفة بن العبد ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، والفرزدق ، وجريير . ووازن بين شعر القدماء والمحدثين ؛ فراجع كفة شعر المتقدمين منهم (الهمذاني ، ص ص 10 - 17)

وإذا نظرت ، عزيزي الطالب ، في مقامته الجاحظية ، فإنك ستجد البعد النقدي فيها يتجلى بوضوح تام ؛ فهو يعرض فيها بالجاحظ ، وكأنه يهدف من ذلك إلى تقديم نفسه عليه بأنه جمع النثر إلى الشعر ، وأوغل في الصناعة البديعية ، بينما لم يكن الجاحظ متمرساً بالصناعة البديعية وكان مقلداً من الشعر؛ فكان مجرد ناثر مترسل . (الهمذاني ، ص ص 84 - 89) .

والحق من شك عندنا في أن النقد الاجتماعي كان من أهم الدواعي التي جعلت البديع يكتب مقاماته ،
لأنه يمدح فيها نقداً اجتماعياً متنوعاً وكثيراً لجوانب الحياة في المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري ،
ويكزن لنا أن نتعرف إلى خصائص الطبقات الاجتماعية وسماها في المجتمع العربي الإسلامي إذ ذاك من خلال
المقامات المتعددة التي صورت ذلك كله بتفصيل كبير .

من ذلك أن أهل مدينة السلام يأتي وصفهم في المقامات بأنهم أهل عبث وظرف يمكن لأحدهم أن يخدع
أهل القرى بأبسط الأساليب . وعيسى بن هشام ذاته يكون في بغداد فيتحلّى بأخلاق أهلها ، فلا يتورع عن
توريث السوادبي الذي يسوق بالجهد حماره ، فيتظاهر عيسى بن هشام بمعرفته ثم يدعوه إلى الطعام في أحد
الأسواق ، موهماً ذلك السوادبي بأنه يستضيفه على نفقته ، لكنه بعد أن يشبع ويأكل الحلوى يتظاهر
بالذهاب لإحضار الماء للسوادبي ليشرب ، ثم ينتحي مكاناً يرى منه السوادبي وهو لا يراه . وبعد أن يببط ،
يقوم السوادبي إلى حماره ، فيأخذ الشواء بإزاره ويقول له " أين ثمن ما أكلت ؟ " فيجيب " أكلته ضيفاً ،
فلكم لكمة وثنى عليه بلطمة ثم قال الشواء : هاك ومتى دعوناك زن يا أبا القحة عشرين ، فجعل السوادبي
يكي ويحل عقدة بأسنانه ... " (الهمداني ، ص 70 - 73) .

فإن المدينة ، كما بصره الهمداني ، يمتاز بالخبث وسوء الطباع بينما يمتاز ابن القرية بالبساطة
والسذاجة . وقد حفلت المقامات الهمدانية بتصوير المكدين واللصوص والطارين وحيلهم وخدعهم للناس
والأمراء والقضاة ، وأساليبهم في السرقة والنهب .

إذن يمكن وصف مقامات بديع الزمان بأنها " شريط سينمائي فوضوي لشتى مظاهر الفساد والإنسداد ،
ومسجل حافل للحياة ذات الوجهين في الخبث والرياء والنفاق تحت بردة التقى والزهد والورع " (الكك ،
1960 ، ص 71) .

وكان مما أبرزه في المقامة النيسابورية تقمته على القضاء وفساد أهله ، واستخدامه مطية للاحتيال
بشرف عن طريق الدين والشرع . وهو في هذا الجانب يقدم نقداً بأسلوب ساخط . في حين لمجده يقدم نقداً
اجتماعياً هزلياً لغير مظهر من المظاهر الاجتماعية ، كما في المقامة المضيرية التي تبين هزل البديع وفكاهته ،
وتفصح في الوقت ذاته عن حنق الاسكندري وتضرره من المظهر الاجتماعي الثقيل .

ولملك ، عزيزي الطالب ، إن قرأت المقامات الحمدانية ، والمغزلية ، والأسدية ، ستوافقني أن من
دواعي تأليف هذه المقامات وغيرها عند الهمداني هو الوصف المحض ^(٣) ، فهو في الأولى يوغل في وصف الخيل
لذات الوصف ، وفي الثانية يوغل في وصف المغزل لذات المغزل أما في الأخيرة " الأسدية " فتعثر على وصف
لمغامرة طريفة ، أو أقصوصة وصفية تروي مهاجمة أسد يسفر كان عيسى بن هشام أحده .

وقد يكون من دوافعه الأخرى الدافع الديني ^(٤) ، ففي المقامة الوعظية نجد نطاً ارشادياً يميل إلى الترهيب

تارة وإلى الترغيب طوراً . كما أنه في مقامات أخرى ، يدير نقاشاً دينياً ، فيعرض لمسائل بين السنة ، والشيعية ، والأشاعرة ، والمعتزلة .

فهو في المقامة المارستانية يدافع عن عقيدة أهل السنة وذلك بتسفيه مجموع من آراء المعتزلة على لسان مجنون المارستان ، ويقف في واحدة من المسائل إلى جانب الأشاعرة ضد المعتزلة في المقامة الخلوانية وذلك عندما يتحدث عن الاستطاعة ؛ فيقول على لسان الخلافة : " فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت حلقت رأسك . (الهمذاني ، ص ص 238 - 242) .

وأخيراً . فإن التكبُّب كان أحد أهم الأهداف أو الدواعي التي حدث بالبديع إلى تأليف مقاماته . فهو قد " ألف ست مقامات في مدح أمير سجستان ، خلف بن أحمد ، وهي المقامات : الناجمية ، والخلفية ، والنيسابورية ، والملوكية ، والتميمية ، والسارية " (الكك ، 1960 ، ص 81) . وقد ألفها مضارعاً بها شعر التكبُّب عند الشعراء ، ويقول فكتور السكك " يزعم مرجو ليوث أن الهمذاني أهدى مجموعة مقاماته إلى الأمير خلف ، لكن ذلك غير ثابت تحقيقاً ، ومهما يكن من أمر فالواقع أن البديع سخر مقاماته للتكبُّب " (الكك ، 1960 ، ص 81) .

واستمع ، عزيزي الطالب ، إلى القول الذي علّق به الدكتور شوقي ضيف على المقامة الملوكية: " وهذا مدح ظاهر ، فالمقامة لم تتعرض للكدية وإنما تعرضت لهذا المدح الذي يدل دلالة بيّنة على أن النثر أخذ يزاحم الشعر ، فالهمذاني فيها يصوغ النثر مدحاً " (ضيف ، 1987 ، ص 82) .

3.2.2 عدد مقامات بديع الزمان :

يذكر الثعالبي أن بديع الزمان قد أملى أربعمائة مقامة بنيسابور (الثعالبي ، ج 4 ، ص 294) ، ويذكر الحصري في زهر الآداب أن المقامات أربعمائة (الحصري ، 1972 ، ج 1 ص 305) ، كذلك يذكر الهمذاني ذاته هذا العدد تحديداً في رسالة له ينال فيها من قصيدة للخوارزمي فيقول : " ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ... أو يقصر سعيه ويتدارك وهنه ، فيعلم أن من أعلى من مقامات الكدية أربعمائه لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى وهو لا يقدر منها على عشر حقيقاً بكشف عبوره " (الكك ، 1960 ، ص 63 حاشية) .

وإذا نظرت ، عزيزي الطالب ، في نسخ كتاب مقامات بديع الزمان الموجودة بين أيدنا ، على اختلافها ، نستجد أن العدد الذي وصل إليها منها اثنتان وخمسون حسب ، وفي إحدى النسخ إحدى وخمسون حسب . والسؤال ، أين ذهبت بقية تلك المقامات ؟

حاول غير واحد من الدارسين المحدثين التثبيت من عدد المقامات في الأصل وموازنته بما وصل إلينا منها فكانت لهم آراء شتى نعرضها فيما يلي :
آراء في عدد مقامات المهذبي .

- أولاً : مقامات البديع اثنتان وخمسون مقامة عارض فيها أربعين حديثاً لابن دريد (مبارك 1975 ، ج 1 ص 206) .

- ثانياً : هي في الأصل أربعون مقامة في الكدية أملاها البديع ، وحركت الكلمة إلى أربعمائة ، وتتابع على ذلك النساخ ، إذ كيف يضيع هذا العدد من المقامات على كلف الناس بها ، ويذكر صاحب هذا الرأي وهو الدكتور عبد الوهاب عزام أننا إذا عددنا مقامات الكدية الصريحة وجدناها خمساً وثلاثين ، ويجوز أن البديع عدّ خمساً أخرى من مقامات الكدية ، فإن صح هذا يكون قد أملى الأربعين في نيسابور ، ثم أملى الأخريات بعد ذلك كالمقامات الست التي مدح بها خلف بن أحمد (الشكعة 1975 ، ص ص 341 - 342) .

- ثالثاً : كانت المقامات في الأصل أربعمائة مقامة ، لكنها لم تكن بمستوى فني متطور ، بل كان بعضها أشبه بمقامة بدائية ، ذلك أن الشريشي يقول " وفيها مقامات تبلغ عشرة أسطار " (الشريشي ، ج 1 ص 15) . وهذا ما دعا الرافعي إلى القول " هذا هو السبب في أنه لم ينته إلينا من المقامات الأثنتين ، فيكون الباقي مما أهملوه ، إذ كان أشبه بالعبث من القول ولا يجري إلا مجرى النادرة والحديث دون الصنعة والكتابة " (الكك ، 1960 ، ص 64) .

ولعلك توافقتني ، أخي الدارس ، في أن ما ذهب إليه أصحاب هذا الرأي الأخير أقرب الأقوال إلى الصحة ، أي أنها أربعمائة مقامة أسقط النساخ والنقلة أغلبها لأنها كانت دون المستوى الفني ، وأبقوا على المقامات الاثنتين والخمسين لأنها حققت نضج هذا الفن الأدبي .

تدريب (5)

اختلف الباحثون في تحديد عدد مقامات المهذبي فتباينت آراؤهم ، اذكر سبب اختلافهم وعدد الآراء ورجِّع أحدها .



4.2.2 الخصائص الأسلوبية والبناء الفني للمقامات

إن هذه المقامات التي نافت على الخمسين بقليل تتفاوت فيما بينها من حيث الموضوع ، ودور الراوي وشخصية البطل ، لذلك فإن فيها مقامات تفوق غيرها في الخصائص الأسلوبية والبناء الفني معاً ، وذلك تبعاً لمقدار العناية التي كان يوليها البديع لكل منها . أما السمة العامة لها جميعاً فهي أنها تبدأ برواية على لسان عيسى بن هشام ، يتحدث فيها عن اغترابه ثم مصادفته - في الغالب - لأبي الفتح الإسكندري في مقام ما . مع التنبيه على أن عدداً من المقامات تخلو من ذكر أبي الفتح ، فتتحدث عن بطل من غير إيراد اسمه . كما نجد في غير مقامة أن الراوي يصبح شريكاً للإسكندري في البطولة والمغامرة .

ويمكن لنا ، عزيزي الطالب ، أن نلخص السمات العامة لأسلوب المقامات عنده بنقاط هي :

أولاً : الإكثار من الشعر في المقامات بشكل لافت للنظر ، أما مقتبساً رأمًا من إنشاد البديع ذاته فلا تكاد تخلو مقامة من هذه الظاهرة ، ولا تكاد الأبيات تقل في عددها عن الخمسة أبيات ؛ بل في كثير منها تزيد على ذلك .

ثانياً : الإكثار من الاقتباس من القرآن والحديث ، والعناية الكبيرة بإيراد الأمثال مقتبسة أو مبتكرة . يذكرها متلاحقة متتالية ، كأن يقول في المقامة الجاهظية : " يا قوم لكل عمل رجال ولكل مقام مقال ، ولكن دار ساكبة ، ولكل زمان جاحظ " (الهمذاني ، ص 86) . وفي المقامة العمرية " وكنت عندهم أعقل من عبد الله بن عباس ، وأظرف من أبي نواس ، وأسخر من حاتم وأشجع من عمرو ، وأبلغ من سحبان وائل ، وأدهى من قُصير ، وأشعر من جرير " (الهمذاني ، ص ص 336 - 349) .

ثالثاً : وجود كثير من الجمل المشتركة بين مقاماته ورسائله " فهو يقول في المقامة النيسابورية " فكيف يصعد إلى الكعبة " قال : أما إنني أريد كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ، ومشعر الكرم لا مشعر الحرم ، وبيت السبي لا بيت الهدى ، وقبلة الصلوات لا قبلة الصلاة ، ومنى الضيف لا منى الخيف " (الهمذاني ، ص ص 309 - 310) وتعرش على هذه الجمل ذاتها مع تحوير أحياناً في موضعين (انظر الشعالي ، 1983 ، ج 4 ص 297 الهمذاني (رسائل) ، ص 68) .

رابعاً : لا يخلو أسلوبه من تأثر بالثقافة الفارسية ، وذلك من خلال طغيان الوصف والتفصيل عنده كما في المقامة المضيرية ، إذ الشعب الفارسي مشهور بالإفراط في الوصف والتفصيل حتى الثرثرة كما يصفه بعض المستشرقين . ول نجد بعض التعبيرات عند بديع الزمان ذات مسحة فارسية كقوله في المقامة الحلوانية " هب أن هذا الرأس ليس ، وأنا لم نر هذا التيس " (الهمذاني ، ص 236) فكلمة " ليس " هي ترجمة للكلمة الفارسية " نيس " وهي تأكيد عند الفرس في آخر الجملة ، الأمر الذي جعلها غير مألوفة في العربية (الشكعة ، 1975 ، ص 369) .

خامساً : أما الجانب البلاغي المتمثل في البيان والبديع اللفظي في المقامات فهو أهم سمة أسلوبية واضحة في البناء الفني لتلك المقامات . فهي تحفل بوجود الاستعارات المبهوثة هنا وهناك ، وكذلك الجناس والتلاعب اللفظي ، أما السجع فلعله أظهر سمة فيها على الإطلاق .

ولعلك تعلم ، عزيزي الطالب ، أن الكُتَّاب بعامة في القرن الرابع الهجري ، عصر بديع الزمان الهمذاني ، قد قدموا صيغة السجع على غيرها ؛ فابن العميد عُنِيَ بها في رسائله ، وكانت مشار إعجاب تلاميذه ، وكان لا بد لبديع الزمان من العناية بها كذلك دون غيرها من الصيغ ، لينال استحسان معاصريه .

والبديع كاتبٌ يظهر براعة فائقة في استخدام السجع وهو حقاً لا يلتزم هذه الصيغة دائماً لكنه يجنح إليها غالباً ، فالأصل عنده أن يسجع ، ولا يترك السجع إلا نادراً . وسجعه يجري مع الطبع الأنيق ، لم يشد شداً لتأدية وظيفته مرغماً فينحت نحتاً ، ففقراته تأتي طلقة تنم عن بدهاءة وقرحة فيأضة دفاعة لا مكدودة ولا مقلقة (الكك ، 1960 ، ص 87) .

إن الكلمة لا تجر الهمذاني إلى حيث لا يريد أن يصل بالمعنى المعقود بذهنه ، فتتحكم به كلمة أو سجعه ، لكنه ينزل اللفظة حيث يريد ، ويأتي بالسجعة ساعة يريد ، مطابقاً لما يعبر عنه ؛ فالفكرة عنده تجر الكلمة في مرونة عجيبة . فلا ينحرف بذلك عن الموضوع الذي يعالجه ؛ لذلك تكون جملة قصيرة تحقق الرشاقة . فإذا أراد تغيير السجعة أطال الجملة قليلاً من غير أن يشعر بأنه غير السجعة ؛ لأنك تذهب بهدوء وراء المعنى المترابط بإحكام ، فتتسى السجعة لبرهة قصيرة ثم يعود جرسها وقد تغيرت دون أن تنفر نفسك منها .

وهذه الخاصية في سجعه جعلته يُقرب في بعض المقامات بكلمات حوشية وصعبة تناسب الموضوع ، إلا أن سهولة السجع وجماله ولطفه تجعل بين تلك الألفاظ الغريبة والنفس ألفة على الرغم من استغراق معناها أحياناً . وفي مقابل ذلك جاءت بعض المقامات سهلة الألفاظ لا وعورة فيها وذلك حيث يكون الغرض الطرفة والنكاهة ؛ لأن النفس تحب إدراك المعنى الفكه والطريف دونما جهد يذكر . بهذا كله أمكن للهمذاني أن يحقق في مقاماته جانبي التعليم والترفيه معاً بأسلوب أخاذ . وحتى ندرك جمال أسلوبه ، وجودة سجعته في مقاماته لا بأس في أن نستمع إلى مُفتتح المقامة المطلوبة حيث يقول : " اجتمعت يوماً بجماعة كأنهم زهر الربيع ، أو نجوم الليل بعد هزيع ، بوجوه مضية ، وأخلاق رضية ، قد تناسبوا في الزي والحال ، وتشابهوا في حسن الأحوال ، فأخذنا نتجاذب أذبال المذاكرة ، وفتح أبواب المحاضرة ، وفي وسطنا شاب قصير بين الرجال ، محفوف السبال ، لا ينبس بحرف ولا يخوض معنا في وصف ، حتى انتهى بنا الكلام إلى مدح الفنى وأهله ، وذكر المال وفضله ، وأنه زينة الرجال ، وغاية الكمال ، فكأنما هب من رقدة ، أو حضر بعد غيبته ، وفتح ديوانه ، وأطلق لسانه ، فقال : صد لقد عجزتم عن شيء عدتموه ، وقصرتم عن طلبه فهجنتموه ، وخذعتم عن الباقي بالفاني ، وشغلتم عن النائي بالداني ... " (الهمذاني ، ص 439 - 440) .

أسئلة التقويم الذاتي (2)



1. عدد دواعي تأليف المقامات التي أنشأها الهمذاني .
2. تحدث عن أثر الحياة الاجتماعية في القرن الرابع الهجري في صياغة شخصية أبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان الهمذاني .
3. من أظهر سمات أسلوب الهمذاني في المقامات استخدام السجع ، اذكر أثر السجع في المعاني والأفكار التي كان يريد الهمذاني إيصالها من خلال مقاماته .

3.2 مقامات الحريري

1.3.2 الحريري

هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري ، ولد لأسرة عربية سنة 446 هـ بضاحية من ضواحي البصرة تسمى " المشان " ثم تحول إلى البصرة في شبابه فدرس العلوم الدينية واللغوية والنحوية ، وحقق في ذلك كله ، وبرع غاية البراعة ؛ مما جعله يتصل بخلفاء بغداد ووزراء الخلافة ، متقلباً في مناصب متعددة .

ولتعلم ، عزيزي الطالب ، فإن الحريري ترك لنا عدداً من الآثار الأدبية والدينية والنحوية ، فله كتاب بعنوان " درة الفواص في أوام الخواص " وله ملحة الإعراب المنظومة في النحو ، وشرح الملحة ، وديوان رسائل ، بالإضافة إلى شعر كثير منه شعره في المقامات . وأخيراً فقد ترك لنا الأثر الأدبي الخالد وهو المقامات .

يقول عنه باقوت الحموي في معجم الأدباء " كان الحريري من أعيان دهره وفريد عصره ، ومن لحق طبقة الأوائل ، وغير عليهم في الفضائل " (الحموي ، ج 16 ، ص 283) وقد عاش هذا الأديب عيشة رغيدة ، فكانت له ضياغ في بلده قرب البصرة يُكثر النزول بها والإقامة فيها ، ورزق بأبناء ثلاثة هم عبيد الله وعلم الله ومحمد ، كان أوكهم قاضياً للبصرة ، وكان الثاني موظفاً في ديوان بغداد ، أما الثالث فورث وظيفة أبيه فكان الناس يأخذون عنه مقامات أبيه ويشرح لهم ما فيها من صعوبات لغوية ؛ وبذلك يكون ابنه هذا أولاً سلسلة شراح المقامات . وقد وافت المنية الحريري في البصرة سنة 515 هـ ، وقيل سنة 516 هـ (ضيف ، 1987 ، ص 44 - 47) .

2.3.2 تأليفه المقامات، وعلاقتها بمقامات بديع الزمان الهمذاني :

روى ابن خلكان أن أبا القاسم عبد الله ، ولد الحريري ؛ ذكر أن أباه كان جالساً في مسجد بني حرام ، فدخل عليه رجل رث الثياب عليه أهبة السفر ، وكان فصيحاً بليغاً ، فسأله الناس عن بلدته فقال إنّه من سروج ، وكنيته أبو زيد ، فأوحى ذلك للحريري كتابة مقامته الحرامية ، وجعل لها بطلاً هو أبو زيد السروجي ، فلما اطلع عليها الوزير شرف الدين أبو نصر أنوشروان ، وزير الأمام المسترشد ، أعجب بها وطلب إليه الحريري أن يضم إليها أخوات لها فكتب خمسين مقامة ، ويورد ياقوت الحموي قصة شبيهة بهذه القصة مع اختلاف يسير في التفاصيل (الحموي ، ج 16 ، ص 263) .

وأشار الحريري في مقدّمة مقاماته إلى طرف من ذلك حين قال : " فأشار من إشارته حكم ، وطاعته غنم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلف فيها تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع " (الحريري ، ص 11) . ولعل الذي أشار عليه بذلك هو الوزير شرف الدين أبو نصر ، لكن ابن جهور يقول إن الذي أشار عليه بذلك هو " المستظهر بالله العباسي ، وكان لهذا المستظهر رغبة في الطلب ، وحظ من الأدب وعناية بأهل العلم " (الشريشي ، 1952 ، ج 1 ص 17) .

فإذا ذهبنا ، عزيزي الطالب ، مع الرأي الأوّل يكون بدء إنشاء المقامات في (البصرة) ، حيث الوزير شرف الدين ، وإذا ذهبنا مع الرأي الثاني يكون بدء إنشائها في بغداد ، حيث المستظهر بالله .

ولعلك توافقني الرأي في أن بدء إنشائها كان في البصرة ؛ لتوكيد الحريري أنه بدأها بتأليف المقامة الحرامية بعد حادثة السروجي معه هناك .

وما أنه حاكي الهمذاني في مقاماته ، فقد قال " أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي ، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري " (الحريري ، ص 12 - 13) . وتحري أن تكن مقاماته مقاربة في عددها لمقامات الهمذاني فجعلها خمسين مقامة . وبهذا يكون وافقه في وجود شخصية الراوية وشخصية البطل وفي عدد المقامات .

الحريري وأمه الهذلي في
وجود شخصية الراوية
عن المقامات
البصري

نشاط

ارجع إلى مقامات الحريري واقرأ المقدّمة وتعرّف بنفسك على مدى تأثيره بالهمذاني وعلى سبب تأليفه المقامات .



وقد وسع الحريري المقامة واسترسل فيها فجات أطول من مقامة الهمذاني بصورة واضحة . وجعلها تزخر بالموضوعات اللغوية والنحوية والألغاز والأحاجي والفتاوي وأساليب الحجاج ، وتزدهي بالفنون البديعية المتعددة . ولكن قلّ اهتمامها بالناحية المضمونية الاجتماعية التي كان الهمذاني يُعنى بها بشكل كبير .

ولعلك تتفق معي ، عزيزي الدارس ، في أن هذا الأمر يعلل لنا كثرة الدراسات التي كُتبت حول بديع الزمان ومقاماته ؛ لأنه هو مؤسس هذا الفن ، ولأنه ناقد لطبيعة الحياة في عصره . على أنه يجب أن نلتفت إلى طبيعة الدراسات التي كتبت عن الحريري ومقاماته ، فقد عُتبت هذه الدراسات بأسلوب المقامات ولم تُعن كثيراً بشخصية صاحبها أو بمضمونها . بل إننا نجد اللاحقين قد أكثروا من شروحيها والتعليق عليها ووضع الحواشي لها لحل معاصها اللغوي والنحوي والأحاجي والألغاز .

نشاط

اذكر ثلاثة من الكتب التي تحدّثت عن الهمذاني ، واذكر ثلاثة من شروح اللاحقين لمقامات الحريري .

إن من أوجه الاختلاف الجديرة بالعناية بين مقامات كل منهما ، أن مقامات الهمذاني تفاوتت في بنائها الفني ، فقد جاء بعضها أوكياً ، فيما جاء ما هو أكثر تعقيداً ، وذلك دلالة على تطور هذا الفن ونضجه على يديه . أما مقامات الحريري فينظمها خيط واحد وتكاد تتشابه في شكل بنائها بصورة واضحة مع ملاحظة طبيعة الموضوع الذي تطرقه ، ويستدعي شكلاً فنياً معيناً .

وتعال معي ، أخي الطالب ، نستعرض عناوين المقامات عند كل من الهمذاني والحريري لنجدها متقاربة ؛ وإن كان الهمذاني لا يتعدى تسميات لمناطق العراق وفارس بينما يعمد الحريري إلى ذكر أسماء أماكن بعيدة ، كالمقامة الصناعية والدمياطية والإسكندرية والدمشقية والمكية . أما المقامات التي اشتركت في الاسم بينهما فمنها ، البصرية ، الساسانية ، والشيرازية ، الخلوانية ، والكوفية ، والبغدادية ، والشعرية.

ومهما يكن من أمر ، فإن الفروق بين مقامات الهمذاني والحريري تبقى طفيفة ، فهي تلتقي إلى حد كبير في الموضوعات والأغراض العامة ، وهذا يزداد وضوحاً حين نتناول مجموعة من الأغراض التي انصبت مقامات الحريري عليها ونوازن بينها وبين أغراض مقامات الهمذاني ؛ وهي :

أولاً : الكدية :

إن هذا الغرض ملازم للمقامات عندهما معاً ، لكن الكدية عند الهمذاني تشكل قمة المأساة للبطل . أما الحريري ، فقد جاءت الكدية عنده مرآة تعكس ظُرف البطل وحنكته ومكره ؛ لأن الحريري يقلد في هذا الجانب ولا يصور الواقع الاجتماعي بدقة . أما دور الراوي عندهما فهو دور واحد جوهره كشف الخداع الذي يقوم به البطل .

الراوي كشف الخداع الذي يقوم به البطل

ثانياً : الألفاظ : لبيت عنان لميرة عن الحريري البرسه الطرزان

لقت الألفاظ عناية في مقامات الحريري أكبر مما لقيته في مقامات الهمذاني ، وكانت ألفاظ الحريري محكمة ، تحتاج إلى ثقافة عالية ليستطيع السامع حلها ، وكان يتفرد بحلها البطل دائماً ، أو من يعلمهم البطل من الصبيان أو المستعنين ، ومن ذلك اختصاص السروجي وولده إلى قاضي المعرة في شأن جارية أعارها السرجي لولده ففرط فيها . وبعد حجاج كل منهما على صاحبه أمام القاضي يتبين أن الجارية هي في واقع الأمر إبرة لكن القاضي أشكل عليه الأمر حتى أخبراه هما بها ؛ فعجب من بلاغتهما . ولجند الألفاظ في المقامة الفرضية كذلك .

البطل دائماً يتفرد بحل الأمر مع تعليمهم لهسان من يستحسن

نشاط

ارجع إلى المقامة الفرضية عند الحريري ، وحاول أن تتعرف إلى الألفاظ التي أودعها فيها .

ثالثاً : الأحاجي : للتسلية والتعليم معاً . الحريري اهتم بالتر

توسع الحريري في الألفاظ كثيراً ، فاستخدم ضرباً آخر منها يُعرف بالأحاجي ، التي كانت تهدف إلى التسلية والتعليم معاً . ولجند ذلك ، عزيزي الطالب ، في المقامة الملطية والمقامة النجرانية . فقد ذكر في هذه المقامة الأخيرة أبياتاً شعرية يلفز بها أمام جماعة من الناس في مروحة الخيش ، وحابول النحل ، والأظفار ، والقلم ؛ فقال في القلم :

ومأموم به عُرف الإمام

كما باهت بصحبته الكرام

له إذ يرتوي طيشان صادٍ

ويسكن حين يعروه الأرام

(الحريري ، ص 362)

ونجد مثل هذا أو قريباً منه في المقامة الشتوية ؛ وبذلك انمازت مقامات الحريري بكثرة اهتمامها بالألفاظ والأحاجي التي غرضها التسلية والتعليم .

رابعاً : البلاغة ؛ أسلوب الحريري فؤاد فريد

ومثلما توسع في الألفاظ ، فقد توسع الحريري كثيراً في فنون البلاغة المتعددة ؛ لذلك جاءت مقاماته ، في أسلوب صنعتها ، نموذجاً أعلى يُحتذى ، وانماز بهذا الأسلوب حتى طغت مقاماته على مقامات الهمذاني عند اللاحقين ؛ فأصبح همهم أن يقلدوه في أسلوبه الفذ الفريد ، وبلغ به حبه الصنعة أن جعل بطله السروجي ينمى في المقامة المراغية على جماعة من القوم إسرانهم في تفضيل القدماء على المحدثين ، إذ ذكروا " أنه لم يبق من ينقح الإنشاء ، ويتصرف فيه كيف شاء ولا خلف بعد السلف من يبتدع رسالة عذراء ، وإن المفلق من كتاب هذا الأوان ، المتمكن من أزمّة البيان ، كالعيال على الأوائل " (الحريري ، ص 51) .

فانبرى لهم السروجي واعترض عليهم ، بقوله : " لقد جنتم شيئاً إداً ، وجرتم عن القصد جدا ؛ وعظمتهم العظام الرفات ، وانتم في الميل إلى من فات ، وغمصتم جيلكم الذين فيهم لكم لدات .. أنسيتم يا جهابذة النقد ... ما أهرزته طوارف القرائح ، وبرز فيه الجذع على القارح ، من العبارات المهذبة ، والاستعارات المستعملية ، والرسائل الموشحة ، والأساجيع المستملحة ، وهل للقدماء ، إذا أنعم النظر من حضر ، غير المعاني المطروقة الموارد ، المعقولة الشوارد " (الحريري ، ص ص 52 - 53) .

وهكذا ترى أن السروجي تشدد للبلاغة ، ورفع من شأن الصناعة كثيراً ؛ مما جعل بعضهم يطلب إليه أن يظهر براعته بأن يكتب رسالة إلى الوالي إحدى كلمتيها جميع حروفها معجمة ، وحروف الأخرى مهملة فنعمل ذلك ببراعة فائقة ، قال منها " الكرم ثبت الله جيش سعدوك يزين ، واللؤم غض الدهر جفن حسودك يشين ... " إلى آخر الرسالة (الحريري ، ص 59) فكلمة الكرم " حروفها مهملة ، وبعدها كلمة " ثبت " حروفها معجمة ؛ وهكذا .

ولتعلم ، أخي الطالب ، أن هذا الكلف بالبلاغة والصنعة اللفظية والتزويق الأسلوبي قد دعا الحريري إلى تقديم نماذج بديعية لم تكن مطروقة قبلة ، وهي تدل دلالة قاطعة على حذق لغوي يعز نظيره . فكتب المقامة الرقطاء التي يكون فيها تناوب بين الحروف المهملة والحروف المعجمة بانتظام ، فلا يتوالى مهملان ولا يتوالى معجمان ، بل يتناوبان ، ومنها قوله : " أخلاق سيدنا محب ، ويعقوته يلب ، وقربه تحف ونأيه تلف وخلته نسب ، وقطيعته نصب ، وغربه ذلق ، ... " (الحريري ، ص 222) .

ومن نماذجه الفنية ، الجمل التي تقرأ بعكس حروفها فتؤدي المعنى ذاته ، وهو ما لم يستحل بانعكاس ، كقوله في المقامة المغربية " ساكب كاس " و " لم أخامل " ، " من يرب إذا برّينم " (الحريري ص 139 - 141) . وجعل ذلك في النثر كما جعله في الشعر .

وقد أدى به غرامه بهذه الفذلكات اللفظية إلى كتابه فقرات كاملة تقرأ من أولها بوجه ، ومن آخرها بوجه ، وأسماءها المقامة القهقرية التي قال فيها " الإنسان صنيعه الإحسان ، وربّ الجميل ، فعل الندب ، وشيمة الحر ، ذخيرة الحمد ، وكسب الشكر ، استثمار السعادة .. " (الحريري ص 147) فهي تقرأ كذلك استثمار السعادة كسب الشكر ، وذخيرة الحمد ، شيمة الحر ، وفعل الندب ، رب الجميل ، وصنيعه الإحسان ، الإنسان .

ولعلك تتفق معي ، عزيزي الطالب ، في أن غزارة هذه الجوانب البلاغية والصنعة اللفظية الغربية كان لها أثر كبير في انتشار مقامات الحريري وكثرة محاكاتها عند اللاحقين .

تدريب (7)

اذكر أربعة من النماذج البديعية التي اخترعها الحريري في مقاماته ، وأعط أمثلة عليها .



خامساً : التعليم

تلتقي مقامات الحريري في غابتها التعليمية مع مقامات البديع ؛ غير أن هذه الصفة في مقامات الحريري أظهر . ومن ذلك ، مقامته النحوية التي يقدم فيها السروجي مادة نحوية تصلح أن تشكل دروساً كاملة في النحو ، كما تظهر هذه الغاية بصورة جلية في المقامة الحلبية التي يكون فيها السروجي معلماً لمجموعة من الصبية .

وقد كان في الطيبة فقيه العرب ، يجتمع حوله الناس ؛ فيسألونه مسائل شتى فيجيبهم عليها بطلاقة مهما كانت صعوبتها .

سادساً : القيم الاجتماعية

لسنا نشك ، عزيزي الطالب ، في أن مقامات الهمذاني كانت أغنى من مقامات الحريري بكثير في

تناولها القيم الاجتماعية السائدة في عصر مؤلفها . لكن ذلك لا يمنع أن نجد عند الحريري إشارات إلى بعض القيم الاجتماعية تلك ؛ ومن ذلك ما جاء في المقامة الفرثية من ازدراء الناس للسروجي ؛ لثاثة ثيابه ، ثم تراجعهم بعد أن رأوا علمه وقوة حجته وطلبهم إليه الانضمام إليهم ، لكنه رفض وعلمهم ألا يزدروا إنساناً دون أن يخبروا كنهه .

أما المقامة الساسانية التي أوصى بها السروجي ابنه بأن يتمسك بالكديّة، لأنه لا يوجد ما هو أنفع منها صناعة ، فهي في جوهرها تعريض بواقع المجتمع الذي يجعل واحداً مثل السروجي كثير العلم قوي الحجّة نابه العقل متبحراً في اللغة لا يقدر على كسب العيش الشريف ، فيلجأ إلى الكديّة مستعيناً بتلك العلوم للاحتيال فيوصي ابنه بها . (عوض ، 1986 : ص ص 187 - 188) .

4.3.2 أسباب انتشار مقامات الحريري كثرة محاكاتها

على الرغم من التشابه الكبير بين مقامات الهمداني ومقامات الحريري ، فإننا لا نشك في أن مقامات الحريري قد فاقت في شهرتها وكثرة شروحيها ومحاكاتها مقامات الهمداني ؛ لأن شواهد الحال تؤكد هذا . ويكفي أن ننظر في الثبت العظيم لتلك الشروح التي ذكرها حاجي خليفة في " كشف الظنون " ؛ فممن شرحها المطرزي ، والعكبري ، والفنجديهي ، والشريشي ، وابن ظفر ، غيرهم كثير .

وقد توافقنا الرأي ، عزيزي الطالب ، إذا عزونا كثرة تلك الشروح وكثرة المحاكاة لهذه المقامات إلى أمرين هما :

الأول: براعة الحريري وتفوقه على الهمداني في الأسلوب والصياغة والبناء الفني ، وذلك على حساب الغوص في القضايا الاجتماعية ؛ فأصبحت المقامة بحاجة إلى شرح للمسائل الفنية المتعددة فيها . وكذلك أغرت اللاحقين في أن يحاكروا ذلك الأسلوب الفني وأن يجاروه .

الثاني: هو بروز الجانب التعليمي بصورة كبيرة ؛ إذ حوت هذه المقامات التي كتبها الحريري من المسائل النحوية واللغوية والفقهية الكثير الكثير ، بأسلوب فني سهل التناول والدرس والبحث ؛ لما فيه من تسلية وفكاهة وامتاع ، مما نشط أقلام الشارحين لتعليم التلاميذ ما ورد فيها .

وبعد :

فإن الحريري عمد إلى الأسلوب الفكاهي ؛ ليصل إلى تسلية الناس والتسرية عنهم ، بأن يرفع جانباً من ثقل الحياة التي تخيم على أفتدتهم . لهذا ، ذاعت المقامات وأقبل الناس عليها ، ومما ساعد على ذلك أن

الحريري يمتاز بسلاسة الأسلوب وانقياد الكلمات له انقياداً تاماً حتى كأنه ينضج من بحر لا قرار له . وقد أغراه هذا الأمر ، فعمد إلى الألفاظ الصعبة والشعوزة اللغوية ، والتعمية النحوية والفقهيية ، والأحاجي والألفاظ ، نشراً وشعراً ، دون أن يخشى على سامعيه الملل أو السأم ، فسحر البيان الذي امتلكه جعله واثقاً كل الثقة بإقبال الناس على قراءة مقاماته .

استمع ، عزيزي الطالب ، إلى هذه الفقرات التي تخلبك بأسلوبها ! فتنسى أنك أمام حشد من المعلومات التي قد لا تكون على اطلاع تام عليها ، أو أنت بحاجة إلى أن تُشرح لك ، لكنك لا تحس بغريتها عنك ، يقول السروجي في المقامة الساسانية في أثناء نصحه لابنه بأن يتخذ من الكدية حرفة له : " إن الارتكاض بابها ، والنشاط جلبابها ، والفظنة مصباحها ، والقحة سلاحها ، فكن أجول من قطرب ، وأسرى من جندب... فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان ، من طلب جلب ، ومن جال نال ، وإياك والكسل ، فإنه عنوان النحوس ، ولبوس ذوي البوس ... ولهذا قيل في المثل : من جسر أيسر ، ومن هاب خاب ، ثم أبرز يا بُني في بكور أبي زاجر ، جراً أبي الحارث ، وجزامة أبي مرة ، وختل أبي جعدة ، وحرص أبي عقبة ، ونشاط أبي وثاب ، ومكر أبي الحصين ، وصبر أبي أيوب ، وتلطف أبي غزوان ، وتلون أبي براقش ، وحيلة قصير ، ودهاء عمرو ، ولطف الشعبي ، واحتمل الأحنف ، وفظنة إياس ، ومجانة أبي نواس ، وطمع أشعب ، وعارضة أبي العيناء ، واخلب بصوغ اللسان ، وأخدع بسحر البيان " (الحريري ، ص ص 436 - 438) .

إنك تقرأ هذا الكلام بنهم ولا تحس بجهلك بأبعاده ومعانيه لأن الإيقاع يساعدك على الالتفات إلى الشكل أكثر من المضمون . وهذه مادة كما ترى غنية صالحة للشرح ليستعرضوا وبحثوا في شخصية أبي فلان أو فلان الذي التقط الحريري أظهر صفة فيه ، وضّمها إلى صفات ظاهرة في غيره ، وأرادها مجموعة في ولده ؛ ليكون نموذجاً للساساني المحترف .

فالحريري يضع بين أيدينا نصاً غنياً بالمعلومات ، وجميلاً في أسلوبه وصياغته .

بقي أن نشير إلى أن هذه المقامات لم تقف عند حدود كثرة الشروح أو التأثير في المقاميين المتأخرين أمثال الزمخشري ، والسيوطي ، والسرقسطي ، وابن الصبقل الجزري ، بل تعدّت ذلك إلى آفاق أوسع ، فترجمت إلى مجموعة من اللغات الأجنبية مثل الإنجليزية ، والألمانية والفرنسية والفارسية وغيرها .

أسئلة التقويم الذاتي (3)



1. اذكر الآثار المتعددة التي تركها لنا الحريري .
2. ما أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين مقامات الحريري ومقامات الهمذاني من حيث الموضوعات .
3. اذكر أسباب انتشار مقامات الحريري وكثرة محاكاة اللاحقين لها .
4. اذكر خمسة من شراح مقامات الحريري ، وخمسة ممن تأثروا به في مقاماتهم ، وأربع لغات أجنبية ترجمت إليها تلك المقامات .

الإيجاز في الترجمة
العامة للطلبة

السيد الشريف
الحريري

4.2 أشهر المقامات وكتابتها بعد الهمذاني والحريري : وأثر المقامات العربية في الآداب الأخرى .

القرن 14 هـ

1.4.2 أشهر المقامات وكتابتها بعد الهمذاني والحريري .

علت ، عزيزي الطالب ، أن المقامة استوت فناً أدبياً على يدي بديع الزمان الهمذاني ، في نهاية القرن الرابع الهجري ، ثم قلده الحريري في مقاماته التي طارت شهرتها في الآفاق ، فطفت على سابقتها . لكن الحريري لم يكن أول من قلّد على الهمذاني ، فقد سبقه إلى ذلك غير واحد من الأدهاء منهم أبو النصر السعدي المتوفى سنة 405 هـ ، وأبو القاسم عبد الله بن نايقا المتوفى سنة 485 هـ .

أما بعد الحريري فقد وجدنا عشرات الكتاب من المبدعين العرب في المشرق والمغرب والأندلس يكتبون المقامات على مرّ العصور حتى العصر الحاضر ؛ بحيث لم يخل قرن من محاولات عدة لإبداع المقامات . وعلى الرغم من تنوع اتجاهات هؤلاء المقاميين وكثرتهم ، فقد بقيت مقاماتهم ، بعامة ، ترتبط بمقامات الهمذاني والحريري بنسب ، فأسست معها حدود ذلك الفن العربي المتميز .

وما أنه ليس بمقدورنا أن نعرف بتلك المقامات ، وكتابتها جميعاً ؛ لكثرتها ولضيق المقام ، فقد رأينا أن ننتقي مجموعة منها ، فنعرض لها باقتضاب . وقد رأينا كذلك أن نطلعك ، عزيزي الطالب ، على قائمة تفصيلية رُغف بالمقامات، وبأصحابها على مرّ العصور حسب استطاعتها . وتوخينا من اختيار المجموعة التي انتقيناها منها أن تكون ؛ ممثلة لمراحل تطور هذا الفن المتعددة . ومعرفة بالمقامات المشرقية والمغربية ما أمكن ، ودالة على مقدار التنوع الحاصل في نماذج هذا الفن عبر تاريخه الطويل .

لذا سنعرض للمقامات التالية :

- 1- مقامات ابن نايقا .
- 2- مقامات السرقسطي .
- 3- مقامات الزمخشري .
- 4- المقامات الزينية .
- 5- مقامات السيوطي .
- 6- مقامات اليازجي .

1. مقامات ابن نايقا : هرفه لهنفة للهنفة رطله لشكري ربه الة سه رادي

نعرض لهذه المقامات ؛ لأنها تمثل مرحلة المقامات بين الهمذاني والحريري ، فصاحبها هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن نايقا ، المولود في بغداد سنة 436 هـ والمتوفى فيها سنة 485 هـ . من مؤلفاته مجموع بيماه " ملح المالحه " ، وكتاب " الجمان في تشبيهات القرآن " ، وديوان شعر ، وديوان رسائل ، بالإضافة إلى مقاماته التسع التي أنشأها محاكاة لمقامات الهمذاني (عوض ، 1986 : ص 160) .

بصرح ابن نايقا أن هدفه من إنشاء المقامات هو الصنعة اللفظية لذلك وجدناه لا يحفل بتصوير القيم الإنسانية الفكرية العالية ، ومن ثم جاءت مقاماته محض مفارقات طريفة قام بها بطله البشكري ، الذي يتخذ الكدية حرفة له ، وقد جعل لهذه المقامات غير راية ، فيما أسند البطولة إلى البشكري حسب . ولعل قصورها عن جمال اللفظ الذي وجدناه عند الهمذاني ، ومن ثم عند الحريري قد جعلها أقل ذيرعاً وشهرة . (ضيف ، 1987 : ص 76) .

50 مقامة

2. مقامات السرقسطي : عوض الحفلات المغربية ولازلسية الرادي : المنذر سبيهم البطل السورسك ولله السابن به عماد

مؤلف هذه المقامات هو محمد بن يوسف التميمي السرقسطي الأندلسي المتوفى سنة 538 هـ . وعنايتنا بمقاماته هذه تأتي من اعتقادنا بأنها تمثل نموذج المقامات المغربية والأندلسية .

جاء في مقدمة مقاماته " هذه خمسون مقامة أنشأها أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي بقرطبة من مدن الأندلس عند وقوفه على ما أنشأه الرئيس أو محمد الحريري بالبصرة ، أتعب فيها خاطره ، وأسهر ناظره ، ولزم في نظمها ونثرها ما يلزم فجات على غابة الجودة والله أعلم " (عوض ، 1986 : ص 305) .

هي إذن خمسون مقامة بعدد مقامات الحريري ، وفيها تركيز على الصناعة اللفظية قدر الطاقة ، وفيها لزوم ما لا يلزم ، وقد جعل لها راوية أسماء المنذر بن حمام ، ينقل مغامرات الشيخ المحتال ، السدوسي ، عن السائب بن تمام . فحافظ على الأصول الفنية للمقامة الهمدانية والحريرية ، كما راعى التشابه في الموضوعات . وبلغ به التقليد أن جعل أسماء كثير من مقاماته أسماء مناطق مشرقية كما فعل الحريري والهمداني من قبل ، وذلك على الرغم من أنه كان يعيش في بلاد الأندلس والمغرب ، وكان بمقدوره أن يتحلل من التقليد في هذا الجانب ويضع أسماء أماكن مغربية . وأندلسية لا مشرقية .

ولو رجعت ، عزيزي الطالب ، إلى هذه المقامات لوجدت أن صاحبها يهمل ذكر الراوية في بعضها فلا يذكره ، كما أنه يجعل السائب بن تمام يشارك البطل ، الشيخ المحتال السدوسي بعض المغامرات ، وكان يقسو على بطله في أحيان كثيرة ، فلا نحس بتعاطف معه كما كنا نرى عن الهمداني . (عوض ، 1986 : ص 310) .

3. مقامات الزمخشري : ٥٠ مقامة ، ذكره على الوعظ والاعتقاد .

مؤلف هذه المقامات أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، صاحب تفسير الكشاف المشهور ، وصاحب كتاب أساس البلاغة . توفي سنة 538 هـ . أنشأ خمسين مقامة ، تصلح لأن تكون نموذجاً للمقامات الوعظية ذات المضمون الصرفي . فهي تختلف عن مقامات الهمداني والحريري في أنها تقتصر على الوعظ والإرشاد والنصح الديني . كما أنها تهمل من الوجهة الفنية وجود البطل والراوية .

يبدأ الزمخشري مقامته بقوله مخاطباً نفسه " يا أبا القاسم " ويتلو ذلك الموعظة التي يسترسل فيها حتى النهاية . ولك أن تتعرف إلى تلك المقامات باستعراض عناوينها المتعددة التي منها : مقامة التقوى ، ومقامة الحذر ، ومقامة الاعتبار ، ومقامة الطاعة ، ومقامة الاستقامة ، ومقامة التوحيد ، وهكذا .

وحتى تتبين ، عزيزي الطالب ، كيف وضحت الغاية الدينية فيها كل الرضوح ، استمع إليه في مقامة المراقبة إذ يقول " يا أبا القاسم ، ما أنت وإن خلوت وحدك بفريد ، معك من هو أقرب إليك من حبل الوريد ، وجنابتك حفيظان يتلتيان ، لا يغفلان ولا ينفيان . وما يدريك ما لم تنظر بعيني الفطنة والعقل ، إنك رميت بخصم ألدّ وشاهدي عدل " (الزمخشري ، 1987 ، ص 178) .

ويختتم مقاماته بخمس منها هي : مقامة النحو ، ومقامة العروض ، ومقامة القوافي ، ومقامة الديوان ، ومقامة أيام العرب . يدخل فيها الجانب النحوي أو العروض أو غيرها بهدف التسلية والإضحاك مع التزامه أخيراً بالموقف الوعظي . كأن يقول في مقامة النحو " يا أبا القاسم ، أعجزت أن تكون مثل همزة الاستفهام

٥٠ مقامة

إذ أخذت ، على ضعفها ، صدر الكلام ، لبتك أشبهتها متقدماً في الخير مع المتقدمين . ولم تشبه في تأخر حرف التانيث " (الزمخشري ، 1987 : ص 218) .

فأنت ترى معي أن الغاية هنا وعظيمة تعليمية فيها ترفيه دون إسراف ؛ ولذلك فإن الزمخشري قلل من ترصيع المقامات بالفنون البديعية أو الشعر ، فأبقى النثر هو الغالب حتى غاب الشعر غياباً تاماً عن بعض المقامات .

الزمخشري على ما لفتوه لبديعية الشعر

٥١ مقامات تعليمية

4. المقامات الزينية :

وكما بانكم ابنه زيني الحريري

صاحب هذه المقامات هو أبو الندى معد بن نصر الله المعروف بابن الصبقل الجزري ، المتوفى سنة 701 هـ . وقد فرغ منها سنة 672 ، ووسمها باسم ابنه زين الدين ، وأنشأها برسمه ، طلباً لتجويد ذكره ، وأرباً في تخليد ذكره ؛ لأن هذا الولد هو الذي طلب إلى أبيه أن ينشئ له مقامات يحاكي بها مقامات الحريري .

وعده مقاماته خمسون مقامة . قصد منها أن تكون تعليمية في المقام الأول ، فهو يقول في المقدمة: "فما نفتحها برند الفصاحة والشيخ ، على سبيل الترشيع ، وما نفتحها للفظن العليم ، إلا على مهيع التعليم" (الجزري ، 1980 : ص 80) . ويقول كذلك : " أودعتها من الأفانين الصادحة الأدبية ، والقرانين الواضحة الطيبة ، ومن النكتب الفقهية ، والأصول المتداولة النحوية ، وحليتها بالزلز المنثور ، وأخليتها من شطر المعنى للحديث المأثور ، ونسبت مجمرع ذلك إلى أبي نصر المصري ، وعزوت روايته إلى القاسم بن جريال الدمشقي ، ولم أرصع بها شعراً من غير نظم بديهتي ، ولا نثراً من غير رقم قريحتي " (الجزري ، 1980 : ص 78) .

فهو يسير على خطى الحريري ، وما زال يفعل ذلك حتى عدّه بعض معاصريه بأنه بزّ الحريري في مقاماته .

يبدأ الراوي " القاسم بن جريال " المقامة بالحديث عن غريته كما هو الشأن في المقامات الحريرية ، ثم يتحدث عن مجموعة الحوادث التي وقعت له في تلك المقامة . ذلك أن ابن الصبقل الجزري لم يقصر المقامة على حادث واحد بل عدد الحوادث في كل واحدة منها . وقد دأب كغيره من المقاميين السابقين على تسمية المقامة باسم المكان الذي حدث فيه فمنها المصرية والقدسية والنيسابورية والرهاوية وهكذا . وكذلك اسمى بعضها بالمقامة الصوفية أو المقامة الضبطاء . وجدير بالذكر أن عنايته بالصناعة اللفظية جعلت عنده مقامة رقطاء وأخرى تجنيسية وهكذا .



5. مقامات السيوطي :

لعلك تعلم ، عزيزي الطالب ، أن جلال الدين السيوطي هو أحد أعلام الثقافة في نهاية القرن التاسع الهجري وأوائل القرن العاشر ، فقد توفى سنة 911 هـ بعد أن ترك تأليف في العلوم المختلفة من تفسير وحديث وفقه ونحو ولغة وحرف وأصول وبيان وتصوف وتاريخ وآداب . يتحدث عن مؤلفاته في كتابه "حسن المحاضرة" فيقول : " بلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه " (السيوطي ، 1967 ، ج1 ص 155) وتقع من بين مؤلفاته تلك على عدد من المقامات المتنوعة وقد حقق أحد الباحثين المقامات الأدبية والطبية منها فبلغت ست مقامات هي : مقامة الرياحين ، ومقامة الطيب ، والمقامة التفاحية ، ومقامة الخضروات ، والمقامة الفستقية ، والمقامة اللؤلؤية في اليواقيت السبع السنية .

جاءت هذه المقامات في حلة لم نعهدها في المقامات قبل السيوطي ؛ فقد جعل الأساس فيها مناظرة ومحاجة بين سبعة أصناف - في الغالب - من الرياحين أو الخضروات أو اليواقيت ، بحيث يتحدث كل صنف منها عن نفسه مبيناً مزاياه والصفات التي اتصفت بها فعلته أفضل من بقية الأصناف من نوعية ، معتمداً على الحجج البيانية والاستشهاد بالأدلة من آيات وأحاديث وأقوال الناس فيها شعراً أو نثراً . ثم تقدم هذه الأصناف حججها أمام القاضي - ولعله المؤلف ذاته - فيحكم لأحدها بالسبق والتقدم فترضى بقية الأطراف بحكمة .

ففي مقامة الرياحين ، نجد أصنافاً من الرياحين أو النباتات العطرية تتناظر هي : الورد ، والنرجس ، والبان ، والنسرين ، والبنفسج ، والتيلوفر ، والآس والريحان . وفي مقامة الخضروات ، نجد القرع والهندبا ، والخس ، والرجلة ، والبامية ، والملوخية ، والخبازي . وفي المقامة اللؤلؤية . في اليواقيت السبع السنية ، نجد الباقوت ، واللؤلؤ ، والزمرد والمرجان ، والزبرجد ، والعقيق ، والفيروزج ، وهكذا .

ومن الأمثلة على أسلوب المحاجة والمناظرة في مقاماته أن يقدم كل نبات أو حجر كريم صفات ذاته على لسانه أمام القاضي ؛ ففي المقامة الفستقية أجرى المناظرة بين الفستق ، واللوز ، والجوز ، والبندق ، والقسطل ، وحب الزلم ، وحب الصنوبر ، فخصائص الجوز يذكرها السيوطي دون أن يجعل النبات هو المتحدث فيها كما كان الأمر في الرياحين ؛ يقول : " أما الجوز فشديد الحرارة والإسخان ، كثير الإضرار بالإنسان ، وله في المعدة الباردة نفع ، ومن منافعة أنه يُسهل الديدان ، وحب القرع وهو دواء لجميع السموم ،

وتسكين للمغص معلوم ، وأكثر نفعه للمعالج في الطلاء من الخارج ، على القوياء والملتوى من الأعصاب ،
والثدي الوارم وعضة البشر والكلاب ، وفيه يقول الشاعر :

تأمل الجوز نسي أطباقه لتسرى راووق حسن عليه غير مخطوط

كأنه كسر من صندل خرطت فيها بدائع من نقش وتخطيط

(السيوطي ، 1988 : ص ص 127 - 128) .

أما في مقامة الرياحين فقد قال مثلاً : " فعطف عليه الآس وقال : يا ربحان أتريد أن تسود وأنت
مشبه بهامات العبيد السرد ، ألم يغنك عن مقصوري قول الشهاب المنصوري :

أهلاً وسهلاً بربحاننا كأنه هامات تكروري

(السيوطي ، 1988 : ص 58)

فالغاية التعليمية غيرخافية في هذه المقامات التي تعطيك المعلومات الأدبية والطبية بصورة مباشرة ،
مما يجعلها غير مرغلة في الصناعة اللفظية ؛ لأن الهدف الرئيس بيان فوائد هذه الأشياء من الناحية الطبية
في المقام الأول ، كما أن هذه المقامات استغنت من الناحية الفنية عن وجود البطل والراوي معاً ، وجعلت
النباتات أو غيرها من الأشياء غير الأدمية هي التي تتحدث فيما يقضي إنسان بينها .

ولتعلم ، عزيزي الطالب ، أن السيوطي قد جلى في باب المقامات ونوع فيها الكثير فكتب المقامة
النبلية ، ومقامة الكاوي على تاريخ السخاري ، ومقامة رشف الزلال من السحر الحلال التي كان لها أسلوب
آخر وموضوع مختلف بحث فيها تفضيل الزواج ورغب الشباب فيه . ولعل له غير هذه المقامات الكثير
(عرض ، 1986 : ص ص 258 - 261) .

نشاط

ارجع ، عزيزي الطالب إلى مقامات السيوطي المطبوعة وتمتع بقراءتها وحاول أن تستخلص خصائص
أسلوبها والفوائد العلمية الطبية التي اشتملت عليها .



6. مقامات اليازجي :

ولد ناصيف اليازجي في كفرشيما ببلنات سنة 1800 م ، وتوفي سنة 1871 م ، لذلك فإن مقاماته مثل فن المقامات في العصر الحديث ، أي هي نموذج لمقامات القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) .

كان اليازجي متمكناً في علوم العربية على اختلافها ، من نحو وصرف ولغة ، وكان يكتب المنظومات الشعرية التعليمية في هذه العلوم ، مما سهل عليه أن يزواج في مقاماته بين النثر والشعر ، مقلداً في ذلك الحريري تقليداً دقيقاً برع فيه وقد ذكر في مقدمة مقاماته كلفه بالحريري وتقليده له مع الإقرار بأن هذا الأخير أي الحريري كان مبدعاً بارعاً لا تسهل مجاراته .

لقد زاد اليازجي في عدد المقامات فجعلها ستين مقامة بدلاً من خمسين ، كما كان الأمر عند أغلب القدماء . وجعل لها راوية هو سهيل بن عباد ، وبطلاً هو ميمون بن خزام . وقد كان يلصق بالبطل في كثير من المقامات ابنته (ليلي) وغلّامه (رجبا) ، ووقف أولى تلك المقامات ليتم التعارف فيها بين الراوية والبطل كما هو الشأن عند الحريري .

ويتضح ، عزيزي الطالب ، أثر محاكاة الحريري عنده بشكل كبير ، في أسماء المقامات ، وفي التركيز على الصنعة اللفظية ، وإيراد المعلومات النحوية واللفوية الكثيرة حتى أصبحت مقاماته موسوعة في هذه المجالات . ولعله فاق الحريري في جانب كبير من التراكيب والأساليب ، فكان متقدماً بين أصحاب المقامات .

يقول الدكتور شوقي ضيف عن مقامات اليازجي " نال بها قصب السبق لا بين معاصريه فحسب ، بل بين كل من جاوا بعد الحريري ، إذ عرف كيف يقلده ، وكيف يحكم هذا التقليد ويضبطه ضبطاً دقيقاً " (ضيف ، 1987 : ص 79) .

وفي آخر مقامة عنده جعل بطله يتوب ويقلّع عن أفعاله التي مارسها في جميع مقاماته ، ولزم المسجد كما فعل أبو زيد السروجي عند الحريري .

تدريب (9)

اذكر سبب اختيارنا لكل من مقامات ابن نايقا ، والسرقسطي ، والزمخشري : والزينية ، والسيوطي ، واليازجي على التوالي في سياق حديثنا .



2.4.2 أثر المقامات العربية في الآداب الأخرى :

بعد أن عرضنا ، عزيزي الطالب ، لأهم المقامات وأصحابها عبر تاريخها الطويل عند العرب في المشرق والمغرب ، يحسن بنا أن نرى أصدقاء هذه المقامات والأثر الذي خلفته في اللغات الأخرى التي كان لها اتصال بالأدب العربي والثقافة العربية ؛ لذا فسننظر في أثرها في المقامات الفارسية ، ثم أثرها في الأدب الأوروبي.

أولاً : أثرها في الأدب الفارسي

سبق لنا أن دحضنا رأياً يذهب أصحابه إلى أن المقامة العربية أصلها فارسي ، وأوضحنا لك ، أخي الطالب ، أن اللغة الفارسية لم تعرف المقامات قبل اطلاع أدباء الفارسية على مقامات الحريري والهمذاني .

فقد صرح القاضي حميد الدين البلخي صاحب أول مقامات عرفها الفارسية أنه اطلع على مقامات الحريري ، فلم يرد أن يحرم أبناء لغته من الاطلاع على هذا الفن الرفيع ، فأبدع لهم مقامات شبيهة بها . فهو ألف هذه المقامات سنة 551 هـ ونص في مقدمتها على أنه لم يسبق إلى كتابة المقامات في الأدب الفارسي . أما عدد مقاماته فهو أربع وعشرون مقامة ، أراد أن يتمها خمسين مقامة مثل الحريري لكنه لم يوفق إلى ذلك (عرض ، 1986 : ص 333 - 335) .

جاءت مقامات حميدي هذه أدهية اجتماعية مثل مقامات الحريري وسابقه الهمذاني . ولم تخل من فكاهة ، وغاية تعليمية أو نقدية ، مع الاحتفاظ بشخصيتي البطل والراوي دون التقيد بأشخاص بأعيانهم . فالراوي عنده في كل مقامة هو أحد أصدقاء البطل الخالصين . أما البطل فهو ذو طبيعة مستترة ويتغير بحسب المواقف .

ثم توالى المقامات في الفارسية بعد مقامات حميدي مقلدة لها ، بالتزام أو بتحرر في جانب أن آخر . لكنها بقيت مثل مقامات الحريري في العربية ، أصلاً يتمتع منه الجميع مع الاحترام الكبير لمبدعها الأول . ومن المقامات الفارسية بعد حميدي :

- كتاب الكلستان لمؤلفه سعدي الشيرازي . وهو كتاب مقامات صوفية اتجه إلى المعاني وترك الصنعة اللفظية ما أمكن .

- حكايات بهارستان الجامي ، للشاعر الكبير الجامي ، وهي مقامات للدرس والتحصيل فيها الشعر والنثر .

- مقامات أخرى مثل " مقامات مجد خواني " و " حدائق الجنان " و " مقامات قآني " وغيرها .

وهكذا بقيت هذه المقامات الفارسية في جوهرها تقليداً لمقامات حميدي الذي قلّد هو بدوره مقامات الحريري العربية .

ثانياً : أثرها في الآداب الأوروبية :

يرى بعض المستشرقين أن المقامات العربية قد أثرت في الأدب الإسباني بشكل أو بآخر . يقول (بالنشيا) وهو مستشرق إسباني ، في كتابه " تاريخ الفكر الأندلسي ، في معرض حديثه عن مقامات الحريري : " وإنه مما يستلفت الذهن ، ويدعو إلى الدهشة ذلك الشبه العظيم بين هذا الأثر الأدبي وذلك الطراز المعروف في أدبنا الإسباني باسم قصص الصعاليك ، وهو موضوع جدير بالدراسة " (بالنشيا ، ترجمة حسين مؤنس ص 180) .

شبه المقامات

فهذا المستشرق ، كما ترى عزيزي الطالب ، يصرّح بتأثير المقامات العربية في الأدب الإسباني بشكل عام ، دون إجراء مقارنة مستقصية . وقد تبنّى هذا الرأي الدكتور محمد غنيمي هلال حين قال مفصلاً " وقد أثرت المقامات العربية كذلك في الأدب الأوروبي تأثيراً واسعاً متنوع الدلالة ، فقد غذت هذه المقامات قصص الشطار Picaresque الإسبانية بنواحيها الفنية وعناصرها ذات الطابع الواقعي ، ثم انتقل التأثير من الأدب الإسباني إلى سواه من الآداب الأوربية ، فساعد على موت قصص الرعاة وعلى تقرب القصة من واقع الحياة ثم على ميلاد قصص العادات والتقاليد في معناه الحديث ، وهي التي تطورت فكانت هي قصص القضايا الاجتماعية فيما بعد " (هلال . 1983 : ص 223)

إن الدكتور محمد غنيمي هلال ، كما ترى ، يؤكد ذلك التأثير للمقامات العربية في الأدب الإسباني والآداب الأوروبية الأخرى على المستوى الفني والشكلي والمضموني ، لكنه لم يذكر أعمالاً بعينها بل جعلها مطلقة في قصص الشطار .

أما المستشرق الإسباني فرناندو دي لاجرانخا فقد ربط المقامات ببعض الأعمال الأدبية الأوربية بصورة مباشرة فقال : " بطل المقامات القديمة هو الصعلوك ، البليغ ، المحتال ، المتسوّل المزيف ، العبقرى المستهتر ، وهو في النهاية الجد الرومي القديم لقزمان الفرانسي ، ولأصدقاء ميمي بنسون Mimi Pinson ¹ بطل رواية " مشاهد من الحياة البوهيمية " للكاتب الفرنسي هنري ميرجيه 1822 - 1861] أو فيليكس كرول Felix Krul ¹ بطل رواية " اعترافات المحتال الشاطر " لتوماس مان [(لاجرانخا ، 1981 : ص 13) . فهو يؤكد أثر المقامات في الأدب الفرنسي والإنجليزي عند كتاب معينين وفي أعمال محددة لهم :

ومن أثرها في تلك الآداب الغربية احتفال أصحاب تلك اللغات بترجمة نماذج منها . فعهدنا بالترجمات

أن تحدت آثاراً إن في زمن الترجمة أو بعده . فلا بأس بأن نستعرض بعض ما ذكر عن ترجمة المقامات إلى اللغات الأوروبية على اختلافها .

ترجمت مقامات الحريري مثلاً إلى الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية كما أنها ترجمت إلى الفارسية قبل ذلك .

" ترجمها إلى الإنجليزية Dr Steingass وذكر في مقدمتها أنه كان يوده أن تكون طبق الأصل من المقامات الحريرية العربية ، لولا أن السجع غير ميسور في الإنجليزية وترجمها كذلك إلى الإنجليزية توماس تشنري T. Chenery ، وكتب لها مقدمة طريفة قيمة تناول فيها بديع الزمان بالحديث ، وذكر أن الآداب الأخرى قد استفادت من مقامات الحريري خصوصاً الأدب الألماني الذي كسب ثروة لا بأس بها بما ترجمه Ruchert الألماني لنصوص المقامات وأدخل بها السجع في اللغة الألمانية لأول مرة " (الشكعة ، 1975 : ص 412) .

المترجمون المقامات الحريرية إلى الإنجليزية هم :
توماس تشنري - والتر كورتس

أسئلة التقويم الذاتي (4)

1. اذكر عدد مقامات كل من : ابن ناقيا ، والزمخشري ، والسرقي ، واليازجي .
2. باذا امتازت مقامات الزمخشري من حيث موضوعها على غيرها من المقامات .
3. لخص أثر المقامات العربية ولا سيما مقامات الحريري في الأدب الفارسي . (مدها محمد كريم ليل)
4. اذكر أسماء أربعة مستشرقين بحثوا في أثر المقامات في الآداب الأوروبية أو ترجموا مقامات عربية إلى لغاتهم .

توماس تشنري
والتر كورتس



5.2 الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للمقامات ، والوظيفة التربوية والتعليمية لها وصلة ذلك بخصائصها الفنية .

1.5.2 الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للمقامات :

قد توافقنا ، عزيزي الطالب ، إذا قلنا إن المقامات ، وعلى رأسها مقامات الهمداني تعد سجلاً صادقاً وأميناً لرصد الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الذي أنشئت فيه . فقد صورت مقامات الهمداني حياة الناس في القرن الرابع الهجري أحسن تصوير وأدق . ولعل المقامات التي أتت بعدها ، حتى اليوم ، قصرت عن بلوغ شأوها في هذا الباب .

لذلك لا نعجب إذا رأينا أحد الباحثين المحدثين هو الدكتور مازن المبارك ، يكتب كتاباً موسوماً بـ "مجتمع الهمداني من خلال مقاماته " استطاع فيه أن يرصد الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية في المقامات ؛ فأدرجها تحت العناوين التالية :

- 1- الزهد والوعظ واللمه والمجون وعقلية العامة .
- 2- المجالس الأدبية والمناظرات والمجدل والتقصص .
- 3- الدور والأسواق والمساجد والبيمارستانات والحمامات والمطاعم والحوانيت والحانات .
- 4- قلة الأمن وكثرة اللصوص .
- 5- خصائص الناس وعاداتهم من سداجة وصداقة وتقليد .
- 6- الكدية .
- 7- مناصب الدولة وأخبار الملوك .

لا يخفى عليك ، عزيزي الطالب ، ما في هذه الموضوعات من أهمية في تصوير غالبية الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، فالزهد والوعظ واللمه والمجون في مجتمع واحد تشير ، إذا اجتمعت ، إلى تناقضات ذلك المجتمع وعلى الأخص إذا أضيف إليها قلة الأمن وكثرة اللصوص . ولا أدل على طبيعة الحياة الاقتصادية من وجود ظاهرة الكدية مع كثرة اللصوص . وسوف نعرض لهذه الجوانب عند الهمداني مع الإشارة إلى وجود مثيل لها عند من جاءوا بعده من المقاميين .

وليس من شك في أن مؤلف المقامة له موقف خاص من مثل هذه المظاهر المتعددة بحيث يمكن للقارئ أن يستنبط ذلك الموقف من القراءة المتأنية لها وقد يراه بشك صريح أحياناً .

يصور الهمذاني في المقامة الخمرية التناقضات الاجتماعية وما تنطوي عليه من انحلال أخلاقي وفساد ، إذ يسود السكر والخلاعة والمجون حياة الناس ، حتى إن بعضهم ليكتمها متظاهراً بالعبادة ؛ فأبر الفتح الإسكندري يكون إماماً للمصلين في صلاة الفجر في أحد المساجد حيث تدخل جماعة من السكارى للصلاة بدفاع الهيس والمجون وعدم مراعاة حرمة الدين ، فما يلبث الإسكندري أن يشتم رائحتهم فيعرف أنهم سكارى فيغري بهم المصلين الذين يوسعونهم ضرباً ولكمأ ثم يسلبونهم " حتى مزقت الأردية ودميت الأفقية " (الهمذاني : ص 422) . بعدها يخرج هؤلاء السكارى ويظفرون بسبيل للخلاص . ويكون منهم أن يبحثوا في نهاية المطاف عن حانة ليسكروا فيها ، فيجدون فيها فتاة تفوق الشمس في جمالها " ربحانة النفس ، وضرة الشمس ، فتاة البرق ، عجوز الملق ، كاللهب في العروق وكبرد النسيم في الحلوق ، مصباح الفكر ، وترياق سمّ الدهر ، يمثلها عزز الميت فانتشر " (الهمذاني : ص ص 430 - 431) . فيسألون هذه الساقية عن مطرب الحانة فتقول لهم : إن لي شيخاً طريف الطبع ، طريف المجون " ... قال : ودعت بشيخها فإذا هو اسكندرينا أبو الفتح ... " (الهمذاني : ص 434) .

إن إمام المسجد في ساعة ومطرب الحانة في أخرى وتعمل معه ساقية تدير الخمر على الجلوس وهذه من تناقضات المجتمع الصارخة ، والمقامة هنا تعرض صورة واضحة من صور الفساد الاجتماعي قد لا نراها في مجتمعنا اليوم ، في هذه الصورة التي عرضت فيها .

ومن صور الانحلال ما نراه في المقامة الشامية التي لم يستطع أغلب ناشري مقامات الهمذاني إثبات ما فيها من مجون وخلاعة وفحش في القول ، فمحقق مقامات الهمذاني الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد وغيره كانوا يعتذرون عن إيرادها لأن ما فيها من فحش وسباب مخجل يدعوهم إلى حذفها ترفعاً عن ذكر فحش القول . وهذا ما جعل عدد مقامات طبعة عبد الحميد إحدى وخمسين مقامة ولم تكن اثنتين وخمسين كما هو وراود في طبعات أخرى . فالفحش المخجل يؤكد أن أصحابه كانوا يعيشون في فساد وانحلال حتى سفل كلامهم إلى هذا الحد .

وجدنا في المقامة الموصلية كيف أن الأسكندري يستخف بعقول أهل القرى فيتظاهر أمامهم بأنه طبيب حاذق ، فيخبرهم أن مبيتهم ما زال على قيد الحياة ، فيصدقون ويخلعون عليه من الهدايا الشيء الكثير لوعده لهم بأن يعيد مبيتهم إلى الحياة ، ولكنه ينكشف بعد انقضاء المدة المحددة فيتبينون غشه وخداعه ويهرعون إليه بالضرب هو والراوي الذي شاركه في بطولة تلك المقامة . لكنه بعد أن أفلت منهم لم ييأس فانطلق إلى قرية مجاورة كان الطوفان يتهدها ، ودخل معهم في حيلة جديدة وخدعهم . فالهمذاني يصور لنا في هذه المقامة وفي غيره سذاجة أهل القرى وسهولة انخداعهم بأي قادم جديد من المدينة .

أما المقامة الرصانية فقد جاء فيها ذكر لأصناف اللصوص ، إذ بلغ عدد أصنافهم أكثر من ثمانين

كما بلغوا ههنا

صنفاً. فمنهم المحتال الذي يخنق بالدف ، ومن هو من أهل الكف والقف ، ومن يأخذ بالمزح ، ومن يدعو إلى الصلح ، ومن يقرم بالبنج ، ومن يحتال بالنيرنج وهكذا فلهم من الحيل الكثير الكثير ، حتى إن بعضهم يفوق في حيله لصوص عصرنا الحاضر ، وما عندهم من وسائل كثيرة للنصب والاحتيال ، وهذه الفئة من الناس تصور تركيبة المجتمع وتشير إلى جوانب من الحياة الاقتصادية فيه .

ولعل المقامات التي تتحدث عن قلة الأمن وكثرة اللصوص كثيرة ، وهي ترتبط بالجوانب الاجتماعية وبالأمور الاقتصادية التي كانت تسود مجتمع الهمداني ، أما الظاهرة السائدة في المقامات بصورة لافتة للنظر وتشير إلى طبيعة الحياة الاقتصادية فهي ظاهرة الكدية .

(إن الكدية في الأصل) مظهر من مظاهر الفقر في المجتمع وعدم التكافل الاجتماعي بين الناس ، وربما تكون في بعض الأحيان مظهراً من مظاهر العجز أو الكسل الفردي " (المبارك ، 1981 : ص 87) .

ولعلك لاحظت ، عزيزي الطالب ، أن أصحاب المقامات أمثال الهمداني والحريبي والسرقسطي والجزري يحدثوننا عن الكدية حديثاً طريفاً يبتكرون له الأساليب ، ويعددون المذاهب ، فلا يدعون نموذجاً من الكدية إلا ويأتون بمثله عليه ، وأساليب الكدية ما زالت إلى اليوم في المقامات وفي واقع الحياة .

وقبل أن نخوض في الجانب الاقتصادي من خلال موضوع الكدية ، يحسن أن نشير إلى مقامة من مقامات السيوطي صورت جانباً من الحياة الاجتماعية في القرن العاشر الهجري ، وهذه المقامة تحت عنوان " رشف الزلال من السحر الحلال " يدور موضوعها حول عشرين عالماً تزوج كل منهم ، ثم وصف لبلته التي قضاها مع عروسه ، وعلى الرغم مما في هذه المقامة من إقذاع نحجم عن ذكره فقد كان الدافع في تأليفها عند السيوطي اجتماعي بحت ، إذ أراد من ورائها الترغيب في الزواج المباح شرعاً في مجتمع كثر فيه الشذوذ الجنسي ؛ فانصرف كثير من الشباب عن الزواج من النساء . وهذه غاية اجتماعية نبيلة لكنها توصل الكاتب إلى شيء من الإباحية في الأسلوب يهدف بالترغيب (انظر عوض ، 1986 ، ص 261) .

نعود إلى موضوع الكدية لنؤكد أن الهمداني ، قد عرض له مدلاً به على أحوال عصره الاقتصادية والاجتماعية ، لكننا لا نعرف على وجه التحديد ، هل موضوع الكدية عند المقاميين بعده جاء مصوراً جانباً من حياة عصر كل منهم في المجال الاقتصادي أم أنه تقليد للهمداني دعاهم إلى ذلك دون الالتفات إلى جوهر الموضوع . والذي نميل إليه أن الكدية لم تزل موجودة في كل عصر بأساليبها المتنوعة ؛ لذلك يجد المقامي مناسبة في تعليق مقاماته عليها محققاً تقليد من سبقوه ، ومعرضاً بجانب من أخلاق عصره الذي يعيش فيه ، وأحواله الاقتصادية .

فالمكدّي ، مثلاً ، عند الهمداني شخصية تنال التعاطف في كثير من الأحوال ؛ لأن الهمداني ينظر إليها من زاوية ظلم المجتمع وقسوة الحياة في عصره . لكن هذه الشخصية لم تنل عطفاً من السرقسطي مثلاً ، بل تسا عليها وأشعرنا أنها شخصية سيئة ولثيمة الطباع .



لماذا تُعدّ مقامات الهمذاني سجلاً صادقاً وأميناً لرصد الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الذي أنشئت فيه ؟

2.5.2 الوظيفة التربوية والتعليمية للمقامات

قد تتفق معنا ، عزيزي الطالب ، في أن الوظيفة التربوية للمقامات اتصلت منذ البداية بأحد أسباب تأليفها ، فقد روي أن الهمذاني كان يُعَلِّم في أواخر مجلسه في الجمع مقامات ينشئها بديهاً ... ويزورها على لسان راوية له يسميه عيسى بن هشام (ياغي ، 1985 ، ص 25) .

فالمقامات كانت تهدف إلى تنشيط الذهن بعد كدّه في العلم والنقاش ، وذلك من خلال هذا الحديث الفكه الذي لا يخلو من طرافة . وهذه الوظيفة للمقامة تعدّ وظيفة تربوية يروّج فيها المعلم عن التلاميذ . أو المحاضر عن السامعين ، بعد الذي يصيبهم من عناء الدرس والتحصيل .

ثم تلا ذلك عناية بالجوانب التعليمية المتعددة في المقامات ، وقد تكون مقامات الهمذاني طُنت فيها الأهداف الاجتماعية وقضايا الناس على الجوانب التعليمية على كثرتها . أما المقامات التي جاءت بعده فقد تحللت من الأهداف الاجتماعية بمقدار ما زادت فيها العناية بالجوانب التعليمية . وهذا واضح كل الوضوح .

ولإثبات هذا الرأي يكفي أن نقرأ المقدمات التي وضعها غير واحد من المقاميين بعد الهمذاني لتبیین مقدار اهتمامهم بالجوانب التعليمية تلك . فالحريري يشير إلى ذلك بوضوح إذ يقول : " فأني خرج على من أنشأ ملحاً للتنبيه لا للتمويه ، ونحا بها منحى التهذيب لا الأكاذيب ، وهل هو في ذلك إلا بمنزلة من انتدب لتعليم ، أو هُدي لصراط مستقيم " (الحريري : ص ص 14 - 15) .

ويقول الزمخشري في مقدّمة مقاماته " ولم يأتل فيما يعود على مقتبسه بجليل النفع ، وعظيم الجدوى ، في بابي العلم والتقوى ، من انتقاد ألفاظها ، وإحكام أسجاعها ، وتفوير نسجها ، وإبداع نظمها " (الزمخشري ، 1987 ، ص 14) .

أما ابن الصقيل الجزري صاحب المقامات الزينية فقد استرسل كثيراً في الحديث عن الغاية التعليمية التي قصد إليها في مقاماته التي عارض بها مقامات الحريري ، فانظر مقدّمته الطويلة ، وكذلك الأمر عند السرقسطي والبيازجي وغيرها .

ارجع إلى مقامات بحوزتك واقرأ المقدمة التي وضعها صاحبها وبين الأهداف التعليمية التي أشار إليها.



ولعلك تتفق معي في أن تقليد الغاية التعليمية عند المقامين أسهل من تقليد المضمون والأغراض الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الذي عاشت فيه المقامات السابقة ، أو الذي يعيش المنشئ هو فيه . ذلك لأن غرض التعليم والتعلم والغاية منهما تبقى هي ذاتها في كل العصور والمجتمعات ؛ فيسهل على اللاحق الافتداء بالسابق في هذا المجال دون عسر أو مشقة . وعليه فإنه يمكن لنا أن نتتبع المستويات المتعددة للتعليم في المقامات على مرّ العصور دون جهد أو عناء .

يبدأ الجانب التعليمي أولاً في لغة المقامات ذاتها ، فقد عمد أكثر المقامين إلى التزييق اللفظي والاهتمام بالأسلوب والصنعة البديعية ، خاصة عند الحريري ومن تلاه ، وليس يخفى أن الجانب التعليمي في الصياغة ذاته يعد مفخرة فنية للمنشئ ، إذ بها يخلد عمله ويُتناقل ، ويكون مدعاة لاستعراض الطلبة إن هم تمكنوا من حفظ نماذج من المقامات وما فيها من جمال الصياغة . وقد يظهر هذا جلياً في كثرة الشروح التي حظيت بها مقامات الحريري دون غيرها من المقامات .

وقد أدى هذا الكلف بالصنعة اللفظية عند الحريري ومن تلاه إلى اختراع ألوان من الفن البديعي لم تكن مطروقة من قبل . ويمكن تتبع ذلك في بعض مقامات الحريري من مثل : المقامة الرقطاء ، التي كلماتها أحد حروفها منقوطة والآخر بغير نقط ، و المقامة المغربية التي تتضمن رسالة تقرأ طرداً وعكساً ، و المقامة القهقرية التي تتضمن رسالة تُقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه آخر وهكذا . ونجد مثيلاً لذلك عند ابن الصبقل الجزري كما في مقامته التجنيسية والقزوينية والرقطاء وغيرها .

أما المستوى التعليمي الثاني في المقامات فهو وجود الأحاجي والألغاز في الشعر والنحو واللغة والفقه ، أو استعراض المعلومات في مثل هذه العلوم بصورة كبيرة ، بحيث تشكل ثروة معرفية لدى الطالب الذي يقبل على قراءة هذه المقامات . ونجد ذلك عند الهمذاني في المقامة الشعرية ، وعند الحريري في المقامة النحوية الطيبية والنجرانية ، وعند الزمخشري في المقامات العروضية والنحوية ومقامة الديوان ومقامة أيام العرب . ولو تتبعنا المقامات على مرّ العصور لما خلت من أمثلة كثيرة على هذه الأغراض وقد توجت عند ناصيف اليازجي في مجمع البحرين الذي يعد موسوعة في اللغة والنحو والصرف ، وهو اسم مقاماته جميعاً .

واتسع هذا المستوى التعليمي عند بعض المقامين حتى ابتعدوا إلى حد كبير عن الفذلكات اللفظية

من أجل الوصول إلى مستوى تعليمي ناجح . وخير مثال على ذلك مقامات السيوطي الأدبية والطبية ، التي وقفنا على التعريف بخواص الأشياء وفوائدها الطبية ، مستعیناً بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، وأقوال الأطباء السابقين والأقوال المأثورة . لذا ، فقد أبقى على السجع فقط مع إطالة الجملة ، ومن ثم تحرر من قيود اللفظ التي التزمها المقاميون قبله ليصل إلى إطالة الجملة ، ومن ثم تحرر من قيود اللفظ التي التزمها المقاميون قبله ليصل إلى إفادة الناس من الناحية الطبية غير محتفل بالفظلكة اللفظية .

وثمة مستوى آخر من التعليم لا يقل أهمية عن المستويين السابقين ، وهو اشتمال المقامات على أساليب الحجاج والمناظرة باستخدام شتى الوسائل المتعددة للإقناع والإمتاع معاً . وذلك لتدريب الناشئة على هذه الأساليب ومن ذلك ما نجد من تخاصم بين رجل وزوجه أمام القاضي ، وتقديم الحجج والحيل لكسب تأييد القاضي وكسب حكمه . وهذا تكرر في مقامات الهمداني والحريري والسرقسطي وغيرهم . ولعل أسلوب المناظرة والمحاكمة قد تبلر بصورة ناضجة في مقامات السيوطي التي قام بناؤها الفني والمضموني على المناظرة بين أصناف متعددة من الفواكه أو الخضروات أو المكسرات أو الورود فيما بينها ليحكم القاضي أخيراً مفضلاً أحدهما على البقية وهكذا .

إن الغاية التربوية والتعليمية في المقامات تمتد إلى آفاق أخرى كثيرة ، وتلتقي وتتشابه مع الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية التي كانت وراء نشوء المقامات وتطورت مع تطورها . ولا يسهل المقام بالحديث عنها جميعاً ، فلا مناص من الرجوع إلى المقامات ذاتها لإدراك أهدافها الدقيقة .

① الجانب لغوي (لغة بليغته وما فيها من مبرهنة)
② الأساليب والألفاظ
③ المحاجة والمناظرة

تدريب (11)

اذكر ثلاثة من المستويات التعليمية في المقامات على مر العصور .

وبعد :

الأسلوب جاهل مستحجج لا يلزمه الإحراق .

فقد جاء أسلوب المقامات منسجماً في كثير من الأحيان مع طبيعة الأغراض والأهداف التي ترمي إليها المقامات . فلما كان الهمداني يهتم بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع لم يكن يُعنى كثيراً بالصناعة اللفظية ، فجعل الأمر متوازناً بين الغرض المقصود ، والإطار الفني الذي يحمله .

ولما انتشر تقليد المقامات طغى جانب التصنيع اللفظي على أساليب المنشئين ؛ لأنهم اقتصروا ، إلى حد كبير ، على الجانب التعليمي بمستوياته المتعددة . فأصبح الأسلوب أكثر تعقيداً وفذلكة ، لما فيه من الألفاظ والأحاجي وحشد المعلومات في شتى العلوم .

ولما أصبح الجانب التعليمي مهماً فيها وهدفاً رئيساً لها ، وتناولت قضايا علمية مثل تعداد محاسن الأشياء أو مضار النباتات أو غيرها ، كان لا بد من التخلص من الصنعة اللفظية الزائدة . وتهذيب المقامة بتخليصها من الفذلكات اللفظية والغموض ، لأن هذه قد تضر بجوهر المعلومات المراد إيصالها ولم يبق من حاجة إلى شخصية الراوي أو البطل ، إلا ما جاء على سبيل التندر ؛ كأن يورد السيوطي في مقدمة مقامة الرياحين ، قوله " حدثنا الريان ، عن أبي الريحان ، عن أبي الورد أبان ، عن بلبل الأغصان ، عن ناظر الإنسان ، عن كوكب البستان ، عن واهل الهتان قال : ... " (السيوطي : 1988 : ص 39) .

كذلك الأمر لم يعد الزمخشري بحاجة إلى الراوي أو البطل عندما وقف مقاماته على الوعظ والإرشاد والتوجيه الصوفي .

بهذا يمكن القول إن المقامات استطاعت أن تنهض بدور خلاق في الثقافة العربية ، ولم تكن محض قوالب جامدة متحجرة ، إذا نظرنا إليها في أطوارها المتلاحقة ، فقد تنوعت أغراضها وتعددت أساليبها بشكل كبير يجعل من الصعب أن نتحدث عنها دون أن نراعي ذلك التنوع وهذا التعدد . وهي بذلك كله استطاعت أن تثري النثر العربي بروائع من الأعمال كتب لها الخلود .

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1. صل بين المقامات والأغراض التي اتسمت بها بوضوح

- | | |
|--------------------|-----------------------------------|
| 1- مقامات الهمداني | 1- الوعظ والإرشاد |
| 2- مقامات الزمخشري | 2- الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية |
| 3- مقامات الحريري | 3- الفوائد الطبية |
| 4- مقامات السيوطي | 4- الفوائد اللغوية والنحوية مكثفة |
| 5- مقامات اليازجي | 5- التزييق اللفظي وقوة الأسلوب |

2- اذكر الوظيفة التربوية للمقامات . *تنشيط الذاكرة*

3- كيف كانت الخصائص الفنية للمقامات متفقة مع طبيعة الوظيفة التي تؤديها عبر تاريخها الطويل.

4- ارجع إلى مقامات الهمداني واذكر أهم الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية التي عُنت بالحديث عنها .



6.2 شخصية البطل وشخصية الراوية في المقامات ، والخصائص الفنية لها وصلتها بفن القصة القصيرة في العصر الحديث

خلصنا ، عزيزي الطالب ، في المادة السابقة إلى أن فن المقامات قد مرّ في أطوار متعددة ، أثرى من خلالها النشر العربي ؛ لذلك علينا أن نراعي مظاهر التنوع والاختلاف بينه وبين الغاية التعليمية ، إلى مقامات تناقض ذلك إلى حدّ ما باهتمامها الكبير بالصناعة اللفظية وإبراز الغاية التعليمية دون نظر متمعن بأوضاع الواقع الاجتماعي في قالب فني ينتمي إلى المقامة في خطوطها العامة ولا يلتزم بالبناء الفني المعهود لها .

لكل ما سبق من إشارات ، فإنه يجدر بنا أن نحذر أشدّ الحذر عندما نتحدّث عن الخصائص الفنية أو نبحث في شخصية البطل أو شخصية الراوية في المقامات ذلك لأننا لا نتحدّث عن عمل مقامي واحد لمؤلف بعينه ؛ إنما نحن نتناول فناً أدبياً نشراً يربو عمره على التسعة قرون ، ومن ثم إذا أردنا أن نتحدّث عن صلة المقامة بفن القصة القصيرة فعلياً أن نحدد المقامة أو المقامات التي نتحدّث عنها ليكون البحث مستنداً إلى شواهد من الواقع لا إلى عموميات .

1.6.2 شخصية البطل والراوية في المقامة :

إذا استثنينا مقامات الزمخشري ومقامات السيوطي ، فإننا نجد البطل والراوية يشكّلان عنصرين أساسيين ومتكررين في غالبية المقامات . فهاتان الشخصيتان تدخّلان في جوهر البناء الفني للمقامة ، إذ يغلب أن يكون البطل شخصية تتكرر في أغلب المقامات إن لم يكن في جميعها ، وكذلك شخصية الراوية التي يتم افتتاح المقامة بإسناد القول إليها .

فأبو الفتح الإسكندري هو بطل مقامات الهمذاني وراويته عيسى بن هشام ، وأبو زيد السروجي هو بطل مقامات الحريري وراويته الحارث بن همام ، والسدوسي هو بطل مقامات السرقسطي وراويته هو المنذر بن حمام عن السائب بن تمام ، وأبو نصر المعري هو بطل المقامات الزينية التي راويتها القاسم بن جريان الدمشقي . ولم يخرج البياضي على هذا النمط فأسند بطولته مقاماته إلى ميمون بن خزام وجعل الراوية سهيل بن عباد ، وهكذا .



استعرض أسماء أبطال المقامات وأسماء الرواة فيها وحاول أن تتبين ما فيها من تقليد .

١٠ لهذا يبطل مع الرواية بهدف التعرف بينهما

يقوم أسلوب المقامين على تخصيص المقامة الأولى للقاء البطل بالرواية بهدف التعرف بينهما ، كما يجمع بينهما الاغتراب والسفر والتطورات في البلاد . ثم يكون الأمر في المقامات التالية أن يقوم الرواية بالتعرف على شخصية البطل في نهاية كل منها إذ يكون هذا الأخير متخفياً .
البطل يكون متخفياً ثم تعرف عليه الرواية
وإذا أردنا أن نتحرى ملامح البطل وصورته فيكفي أن نعود إلى شخصية أبي الفتح الإسكندري ، التي جعلها الهمداني تقوم ببطولة غالبية مقاماته . ثم عدت نموذجاً لكل ما تلاها من شخصيات الأبطال المقامين .

مضائق بطل الخزان

إن " بديع الزمان ارتقى ببطل مقاماته إلى السدة الإنسانية فجعل منه رمزاً للمكدي الماكر ، فدخل في جملة أبطال الأساطير والخرافات ، إلى جانب عطيل ودون كيخوني ورونار ، في نزعاته الإنسانية ، وسواهم ممن جسدوا فكرة ومثلوا وضعاً مسلكياً معيناً ... " (الكك ، 1960 : ص 105) .

فهو نموذج إنساني لأنه يتسم بصفات إنسانية عميقة بغض النظر عن قبولنا للخلق الذي يتحلى به أو عدم قبولنا . إن شخصيته غريبة متغير المظهر ثابتة الجوهر . فهو يظهر لنا أحياناً عالماً جليلاً ، وولياً صالحاً ، وقد يظهر طبيباً حاذقاً ، وقد يكون شحاذاً يلبس أسماً بالية ، وجوهره في النهاية ثابت أنه أشحد رجل عرفته عصابة بني ساسان ، لا يهدأ له بال ، ولا يقر له قرار حتى ينتزع الدرهم من جيب من يخاطبه بأي أسلوب .
البطل أشحد رجل عرفته عصابة بني ساسان

وعلى الرغم من سوء الخلال التي نجدها فيه إلا أن الهمداني يشعرنا بتعاطف معه لاعتقاده بأن هذه الشخصية قد صنعتها قسرة الحياة ، وطبيعة الظروف الاجتماعية والاقتصادية غير العادلة ، لكن الأمر يختلف عند بعض المقامين اللاحقين الذين نظروا إلى تلك الشخصية على أنها شخصية لثيمة الطبع مخادعة لا بد من أن تتوب في نهاية المطاف وترتدع عن أفعالها وتلتزم المسجد .

أما شخصية الرواية في المقامة فمزايها النفسية وخصائصها لا تظهر بوضوح كما هو شأن شخصية البطل . ~~فالموظيفة الأساسية للرواية~~ أن يسهل افتتاح الحديث في المقامة ، وأن يوهم بوجود أصل حقيقي للقصة ، ثم أن يكشف عن مغامرة البطل بصورة مفاجئة في ختام المقامة .

لكن ذلك ، عزيزي الطالب ، لم يمنع أن يكون الرواية بطلاً للمقامة أحياناً كما في المقامة البغدادية عند

الهمذاني ، أو أن يشارك البطل في البطولة كما في المقامة الموصلية . إذ يحبك الإسكندري الخدعة الأولى والثانية ورفقته عيسى بن هشام ، فيتعرضان للضرب معاً . كما تعرضا للسلب والنهب معاً في بداية المقامة .

والصفة العامة للراوية أنه " عالم مثقف بثقافة عصره " ، مغرم بالكلمة الحلوة ، والتعبير الجميل ، يطرب للشعر كالعصفور بلله القطر ، ويتسامر بأخبار الشعراء والعلماء ، محب للاستطلاع ، يتقصى الأمور، حتى يقف على وجهها الحقيقي " (الكك ، 1960 ، ص 117) .

ونلمح في تلك الشخصية بعض مظاهر الترف والغنى ، فهو يتصدق على المكذّين ويدفع لهم في كثير من الأحيان ؛ لأنه رقيق القلب يتأثر لمشاهدة الفقر والتعاسة ، وفي الوقت ذاته يشارك البطل في اللهو والمجون وشرب الخمر شريطة ألا ينكشف أمره أمام الناس .

أما ما يقلل من واقعية هذه الشخصية فهو أن صاحبها يسافر في البلاد بشكل كبير ؛ فهو لا يضع العصي عن عاتقه دون أن نعرف هدفه من تلك الأسفار . فإذا كان البطل يسافر كثيراً للكدية والاحتيال في شتى البقاع حتى لا ينكشف أمره ، فلماذا يسافر الراوية ويفترّب باستمرار ؟ لعل الجواب : أن الراوية شخصية فنية أصولها في الحياة الواقعية شاحبة إلى حد كبير ، لكن اضطرار المؤلف لها في مواقف كثيرة جعلها تشارك في الأحداث وأسبل عليها بعض صفات الواقعية في مرافق قليلة محددة .

ولعل هذه النقطة الفنية تصلح مدخلاً لبحث الخصائص الفنية للمقامة من خلال صلتها بفن القصة القصيرة في العصر الحديث ، وهي البند التالي :

2.6.2 الخصائص الفنية للمقامة من خلال صلتها بالقصة القصيرة في العصر الحديث

لقد سبق لنا أن عرضنا لبعض المقامات ، وفي أثناء ذلك تحدّثنا عن بعض الخصائص الفنية لها مثل السجع والتصنيع اللفظي بعامية . كما ألمحنا إلى تطور فن المقامة وتغير البناء ، وتعدد الأساليب ؛ مما يجعل من الصعب علينا أن نتحدّث عن خصائص فنية ثابتة للمقامة بإطلاق .

لذلك رأينا ، عزيزي الطالب ، أن يتم استخلاص الخصائص الفنية للمقامات من خلال بيان صلتها بفن القصة القصيرة في العصر الحديث ، إذ المقامات التي تُدرس في هذا المجال تشكل أرقى الصور الفنية وأكثرها تطوراً لفن المقامة بعامية ، فأوجه التلاقي بينها وبين القصة القصيرة تحدد بعض الخصائص الفنية لها ، كما أن كثيراً من أوجه الانتراق بينها سوف تشير إلى بعض الخصائص الأخرى للمقامات ، فيكون الجمع بين هذه الخصائص مثلاً للبناء الفني للمقامة .

من أوائل من أشار إلى وجود صلة أو أنكر تلك الصلة بين فن المقامة وفن القصة القصيرة ، جماعة من المستشرقين ؛ فقد أنكر المستشرق توماس تشنري T . Chenery ، مترجم مقامات الحريري أن تكون هناك أية صلة بين المقامات وفن القصة القصيرة . فهو رأى أن صدر المقامة لا غناء فيه ، وأن عنصر المخاطرة فيها تافه ، والأسلوب عنده هو كل شيء ، أما نيكلسون Nicholson فقد ناقض نفسه عندما عدّ المقامات نوعاً من القصص التمثيلي ، وهي مرتبة أعلى وأرقى من القصص العادي ، ثم عاد ليقول إن القصة في المقامة لا شيء . والأسلوب هو كل شيء ، لكننا نجد المستشرق الفرنسي إيوار C.Huart يعترف صراحة بأن المقامات هي في الحقيقة أقاصيص (انظر الشكعة ، 1975 : ص ص 391 - 392) .

يعتبر أن المقامة
أقاصيص

أما نحن ، عزيزي الطالب ، فلسنا نشك في أن العرب قد عرفوا ألواناً من الفن القصصي من حياة الجاهلية حتى ائتمال فن المقامات في القرن الرابع الهجري ، ومن ذلك قصص الجان ، وقصص الحيوانات ، أي تلك القصص التي كانت ترددي على السنة الحيوانات ، وأيام العرب ، ثم القصص الشعبي ، حيث امتزج الواقع بالخيال في أساليب ثرية متعددة ، ومتنوعة . ومن ذلك أيضاً وجود فن الخبر الذي ائتمل على يدي الجاحظ ، وبعض الأحاديث مثل حكاية أبي القاسم البغدادي وغيرها . وهذه الألوان مجتمعة تؤكد أن العقلية العربية قد عرفت القصة في أطوارها الأولية في إطار الثقافة العربية ذاتها . كما أن هذه الألوان كان لها الفضل في تطور فن المقامة واكتماله . ومن ثم يسهل علينا أن نقرر أنه لا بد من وجود نسب بين بعض المقامات والقصة القصيرة ، على صعيد البناء الفني ، وعلى صعيد تأثير بعض كتاب القصة القصيرة المحدثين بالمقامات العربية .

على صعيد البناء الفني نقول : إن القصة - كما تقرر أغلب الاتجاهات النقدية - " تعتمد على العقدة والعرض وعنصر التشويق والمفاجأة المشيرة والتفاصيل الدقيقة وتسجيل ألوان من الحياة الاجتماعية . فإذا ما تحققت هذه الأصول في المقامة أدخلتها في عالم القصة من أوسع الأبواب " (الشكعة ، 1975 : ص 393) .

فإذا أخذنا أمثلة على ذلك من المقامات ، نجد أن هذه الأصول متحققة في بعض مقامات الهمذاني ، مثل المقامة الموصلية والمقامة الحلوانية والمقامة الأسدية والمقامة المضيرية ، ويمكن أن نعثر على نماذج متعددة من مقامات الحريري ومن جاء بعده من المقاميين .. بحيث تحقق هذه الشروط إذا ما أحسن اختيارها لتجنب التعميم .

أم على الرغم من ذلك يمكن القول إن المقامة تشكل أول عمل قصصي عندما يتحقق فيها العنصران التاليان " 1- التكامل الفني الدرامي (2) والتعبير عن ظاهرة غير مستوردة أو مترجمة " (عوض ، 1986 : ص 147) وهذا واضح في مقامات بعينها ولا نزعم أنه يتحقق في كل المقامات .

أما على صعيد تأثر بعض كتاب القصة القصيرة المحدثين بالمقامات العربية فقد انقسم النقاد العرب إلى فريقين : أحدهما ينكر وجود ذلك الأثر تماماً . والآخر يثبت ذلك بالأمثلة والأدلة . فلا ضير أن نعرض للرأيين ممثلين لكل واحد النقاد أو أكثر .

يزعم ^{شردودار للمفاتيح} يحيى حقي ، ممثلاً للاتجاه الأول ، أن العرب لم يكن لهم نصيب من فن القصة قبل العصر الحديث ، وأن لا أثر للمقامات في نشأة القصة القصيرة ، عند العرب فيقول " فالموجود في اليد لا يخرج عن بعض السير " وقصص ألف ليلة وليلة ، ومقامات لم تدرس إلا باعتبارها وثائق لغوية ، غرقت في تحف النحر والبديع ، عناصر ضئيلة من قوام القصة بوصفها لشخصية خيالية أو ضبطها في موقف معين ، لا يخلو من الفكاهة أحياناً . كما في مقامات الحريري ، هي فتات فني تنقصه الوحدة وتبيان رأي أو مذهب ، كل هذه كتب ترسم العصور الماضية ، ولا تمت إلى المجتمع القائم بصلة " (حقي : ص 18) .

فهذه ، كما ترى عزيزي الطالب ، تعميمات وإطلاق لأحكام ، ووصف يفتقر إلى الدقة ، فليست كل المقامات غارقة في تحف النحر والبديع ، إذ بعضها يعالج واقعاً اجتماعياً ، ويأتي السجع فقط فيها من أجناس البديع ولا يطفى على المضمون الاجتماعي ، وقد توافقتني أنه ليس أدل على ضعف رأيه أن ينفي الصلة بين القصة والمقامة محتجاً بأن المقامة كتبت لعصر غير هذا العصر ، وأن القصص كتبت لهذا العصر لا للعصور السابقة ، فمن السمات الرئيسية للفن العظيم احتفاله بتصوير النماذج التي تكسبه الخلود على مر العصور ولا يبقى حبساً في حدود عصره أو أوانه .

وتقع على مثل هذه التعميمات كذلك عند الدكتور شوقي ضيف الذي يقول " وليس في القصة ^{التي} يقصد القصة الموجودة في المقامة [عقدة ولا حبكة ، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يُعن بشيء من ذلك ، فلم يكن يريد أن يؤلف قصصاً .. فالمقامة أريد بها التعليم منذ أول الأمر ، ولعله من أجل ذلك سماها بديع الزمان مقامة . ولم يسمها قصة ولا حكاية ، فهي ليست أكثر من حديث قصير ، .. وعُمي على كثير من الباحثين في عصرنا ، فظنوها ضرباً من القصص ، وقارنوا بينها وبين القصة الحديثة ، ووجدوا فيها نقصاً كبيراً ، وهل حمل بديع الزمان على معنى لم يقصد إليه " (ضيف ، 1987 : ص 8 - 9) .

إن هذا الكلام يبتى عاماً ، فهو لم يميز بين مقامة وأخرى ، على ما بين المقامات من اختلاف . وهذا التعميم جعله يسفه رأي من وازنوا بينها وبين القصة الحديثة ولو كان عادلاً لما وسمهم بما وسمهم من التسمية أو العمى ، ولا أظن الذين فعلوا ذلك قد حملوا مقامات البديع أكثر مما يحتمل . وحتى يتضح لك الأمر ، عزيزي الطالب ، دعنا نعرض لرأي أصحاب الاتجاه المقابل الذين يؤكدون وجود صلة بين الفنين .

تتلخص حجة أصحاب هذا الاتجاه في أن المقامة التي أصلها بديع الزمان ثم تلاه الحريري فنسج على منواله هي فن وليد المجتمع البورجوازي ، وكذلك فإن القصة القصيرة هي نتاج المجتمع البورجوازي في العصر الحديث .

وحجة أخرى تدعم رأيهم حول أثر المقامات في القصة الحديثة ، هي أن كتب المقامات على اختلافها كانت متداولة على مرّ العصور ، وأن المحاولات العربية الأولى في القصة في العصر الحديث قد اتخذت شكل المقامة حتى أن المولحي سُمّي بطل قصته أو حديثه عيسى بن هشام ، وهو اسم بطل الهمداني في مقامته ، فالتأثر مصرح به من قبل المبدعين القصصيين أنفسهم ، ويتضح ذلك بجلاء من ربط المولحي في مقدّمة حديثه أن هدفه من تأليفه تطوير لهدف الحريري ، الذي قال " إنه أنشأ ملحاً للتنبية لا للتمويه ، ونحا بها منحى التهذيب لا الأكاذيب " فالمولحي كذلك قصد إلي ؛ شرح أخلاق أهل العصر وأطوارهم ووصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم " (عياد ، 1968 : ص 79) .

ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن " عدداً قليلاً من هذه المقامات يصلح لأن يوضع في مجموعة مختارة من القصص القصيرة العربية من جميع العصور " (عياد ، 1968 : نص 28) . وعليه فإن فن المقامة " يمكننا من غير حرج أن نسميه قصة قصيرة " (عياد ، 1968 : ص 28) . ومع ذلك لا بد من الإقرار بـ " أن العيب الأساسي في المقامات هو تكرار الموضوع وجمود قالب " (عياد ، 1968 : ص 29) . ومن ثم فإن نماذج محددة حسب هي التي تصلح لأن تكون قريبة من القصة القصيرة أو مطابقة لها ، وهي في الوقت ذاته تتأذى من وجود بعض السلبيات التي تندرج على جميع المقامات من حيث الموضوع أو القالب .

أخيراً ، يمكن القول إن الذين ينكرون وجود صلة بين المقامة والقصة القصيرة يجهلون القول ، فيتحدثون عن المقامات بصورة عامة دونما تخصيص أو تمحيص . أما أصحاب الاتجاه المقابل فيعتقدون ولا يعدون كل المقامات قريبة من القصة القصيرة في فنيتهما ؛ لذا فهم يخصصون مقامات معينة يقتضون من خلالها أوجه التشابه بينها وبين القصة ؛ يقول عياد أحد ممثلي هذه الاتجاه " إن الهمداني يخرج عن هذا النمط الجامد أحياناً كما رأينا في مقامة الأسدية ، أما الحريري فإنه يدخل في بعض المقامات شخصيات ثانوية على قدر عظيم من الحيوية ... ويبلغ الهمداني في مقامته المضيرية مستوى رفيعاً يصلح أن يقارن بما بلغه كتاب القصة القصيرة العالميون في العصر الحديث " (عياد ، 1968 : ص 29) .

من الخصائص الفنية للمقامة إذن أنها جامدة ، ولا تحوي شخصيات ثانوية جيدة ، وتفتقر إلى وجود العقدة ، لكن ذلك لا يمنع أن تكون بعض المقامات حيوية وغير جامدة ، وبعضها الآخر يحوي شخصيات ثانوية حيوية ، وقد تتمثل فيها العقدة بشكل كبير يجعلها صالحة لأن تكون قصة قصيرة مقارنة بأعمال قصصية قصيرة عالمية توازها وتفوقها .

أسئلة التقويم الذاتي (6)



1. اذكر أسماء أبطال مقامات الحريري والهمذاني والسرقسطي وابن الجزري واليازجي وكذلك أسماء الرواة لكل منها .

2. ملخص صفات الراوية في المقامات بصورة عامة .

3. من أهم أول من بحثوا في صلة القصة القصيرة بالمقامة أو عدم صلتها به .
نوعك شيزي ، نيلسون ، أبو بكر

4. عدد الحجج التي احتج بها النقاد الذين أهدوا وجود صلة بين المقامة والقصة القصيرة وبين رأيك فيها .

عزيزي الطالب .

لعلك وقفت ، بعد قراءة هذه الوحدة ، على أظهر معالم فن المقامات الذي استوى فناً أدبياً على يد بديع الزمان الهمذاني الذي تأثر فيه بمجموعة من الأعمال الأدبية السابقة كأحاديث الأعراب ، والقصاص ، وحكاية أبي القاسم البغدادي . كما تأثر بالظروف الاجتماعية التي أحاطت به وبأهل زمانه ، فتفاعل ذلك كله مع عقل الهمذاني ومع خياله الخلاق فكانت نشأة هذا الفن الذي طوره الحريري ، فيما بعد ، فتفوق فيه ، ولذا كثرت شروح مقاماته ، كما كثر مقلدوها . وقد حاولنا ، أخي الطالب ، أن نتعرف على أهم أصحاب المقامات عبر تاريخنا الأدبي إن في المشرق أو في المغرب . وبيننا تأثر اللاحق بالسابق ، وكشفنا عن بعض أوجه السنة والاختلاف ، كما حاولنا تلمس الأهداف الرئيسة لتأليف المقامات .

ثم أقردنا حديثاً موجزاً لأثر المقامات العربية في آداب بعض الأمم ، وعرجنا على بعض الأبعاد للمقامات ، كالأبعاد الاجتماعية ، والوظيفية التربوية والتعليمية ؛ فلم تكن المقامات مجرد قوالب لفظية جامدة . ودراسة تطور هذا الفن عبر الزمن تبيّن أن اختلاف الأسلوب جاء نتيجة لاختلاف الهدف ، وأن المقامات ، في حقيقتها ، صياغة فنية درامية أثرت النشر العربي وأغننته .

وفي النهاية وقفنا ، أخي الطالب ، حول علاقة المقامة بالفن القصصي ولا سيما فن القصة القصيرة ، فبيننا العناصر المشتركة بينهما بعد أن عرضنا الآراء المختلفة حول هذه القضية .

أرجو ، أخي الطالب ، أن تكون قد وجدت في هذه الوحدة ما يُشري معلوماتك ويمتلك .

4. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية

عزيزي الدارس ،

بعد هذه الرحلة الطويلة في الوحدات السابقة مع النثر العربي القديم في نشأته ، ثم في أبرز فنونه : الرسائل والتوقيعات ، والخطابة والمناظرات ، والقصص والمقامات ، حان الوقت لنللم الصورة ونرى أبرز التيارات الفنية في هذا النثر وذلك من خلال البحث عن السمات المشتركة بين أبرز الكتاب ليندرجوا فيما يمكن أن نطلق عليه مدارس فنية . وقد تحدث الباحثون في تاريخ الأدب عن مدرستين أساسيتين هما : مدرسة الترسل ؛ ومدرسة البديع والصنعة ، وميزوا مدرسة ثالثة هي امتداد للثانية سموها مدرسة القاضي الفاضل ، وستقف على أبرز السمات الخاصة بكل مدرسة ، وتطلع على عوامل نشوئها ، وأبرز خصائصها الفنية ، وتعرف أهم أعلامها .

إجابات التدريبات

تدريب (1)

لا يمكن لنا وضع تعريف جامع للمقامة لأن هذا الفن تطور في عصور الأدب وتلوّنت أشكاله فلم حافظ دائماً على الخصائص الرئيسية فيه . فمقامات الهمداني تختلف في خصائصها اختلافاً بيناً عن خصائص مقامات الزمخشري ، وعن خصائص مقامات السيوطي كذلك . فإما أن نضع تعريفاً جزئياً فيكون للمقامة عند الزمخشري أو الحريري أو السيوطي كلٌ على حدة . أو أن نضع تعريفاً عاماً بحيث لا يكون دالاً على خصائص هذا الفن بدقة .

فقد رأينا أن محاولة تعريف المقامة الهمدانية موفقة ، وقد نقضنا بعض جوانبها في فن الكلام . وكذلك كانت محاولة تعريف المقامة بعمامة في آخر الكلام قاصرة على أضواء مقامات الزمخشري أو السيوطي .

تدريب (2)

* الدليل في التشبث من هذا الأثر أو ذاك هو شاهد من الشكل الفني الذي تتسم به المقامة . أو المضمون الذي تحمله .

** أوجه التشابه بين الفترتين .

1- الموضوع واحد وهو عند الأزددي وصف ثقيل بالشتم والسب بصورة ساخرة وهو عند الهمداني ملاحظة ووصف خصم بالشتم والسب بسخرية .

2- الأسلوب متشابه جداً

أ- استخدام أسلوب النداء في أول الجملة ، أي خطاب مباشر .

يا أول ليلة الغريب - يا برد العجوز

يا طلعة الرقيب - يا كربة تموز

يا يوم الأربعاء ... - يا سنة البوس

وهكذا .

ب- استخدام السجع بإفراط

- 1) الغريب .. الحبيب .. الرقيب .. صفر .. الحسر .. غلة .. بعلة .
 - 2) العجوز .. تموز .. الكوز .. لا يجوز .. البوس .. النحوس .. الكابوس .
- فالتشابه في مستوى الشكل الفني أولاً في مستوى المضمون أخيراً .

تدريب (3)

لقد كانت شخصية أحمد بن فارس تتمتع بميزات متعددة ، فهو إلى جانب شخصيته العلمية كان فكها ظريفاً طريفاً بحيث كان يصلح في سيرته الذاتية لئن يكون نموذجاً يصنع الهمداني مثيلاً لها في مقاماته .

أما أثر تلمذته على الصاحب بن عباد فقد أفادته في التعرف إلى مجموعة من شعراء الكندية أمثال ابن الحجاج ، وابن سكرة ، وأبي دلف الخزرجي الذين كانوا أمثلة احتداها في مقاماته ، كما أن سعة اطلاع الصاحب ، ومذهبه في التفكير والإنشاء ، كان لها الأثر في صقل موهبة التلميذ الهمداني .

تدريب (4)

البيت الذي لا يمكن حله كثير ، ومثاله قول الأعشى :

دراهمنا كلها جيدٌ فلا تحبسنا بتناقدها

والبيت الذي هو مطرح لم يعرف أهله كثير ، ومثاله قول الهذلي :

ولم أدر من ألقى عليه رداً على أنه قد سلَّ عن ماجد محض

أما البيت الذي سجع وضعه وحسن قطعه ، فقول أبي نواس :

فبتنا يرانا الله شرَّ عصابة فحجر أذبال الفسوق ولا فخر

وأما البيت الذي لا يرقأ دمه فقول ذي الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كل مفرية سرب

تدريب (5)

السبب في اختلافهم حول عدد مقامات الهمداني أن غير واحد من القدماء أمثال الثعالبي ، والحصري ، والهمداني ذاته قد ذكروا أن عددها أربعمائة ولم يصلنا منها سوى اثنتين وخمسين حسب .

أما الآراء فهي :

1- أنها اثنتان وخمسون حسب ، وهذا رأي زكي مبارك .

2- أنها أربعون في موضوع الكدية . وهذا رأي عبد الوهاب عزام .

3- أنها أربعمائة لكنها لم تكن بالمستوى الفني اللائق ؛ فحذف منها الكثير ، وبقي منها اثنتان وخمسون هي التي حققت هذا الشرط الفني . وهذا ما أشار إليه الشريشي في شرح مقامات الحريري ، ووافق عليه الرافعي ، وفيكتور الكك .

ولعل هذا الرأي الأخير هو الأقرب إلى الصواب . والله أعلم .

تدريب (6)

لأن الحريري لم يكن يعاني في حياته من ضيق ذات اليد فكان غنياً مترفاً ، وقصد إلى محاكاة أعمال الهمداني والتفوق عليها ؛ لإمتاع الناس وإمتاع الوزير ، فبرز جانب التعليم والترفيه أكثر من غيره من الجوانب .

تدريب (7)

من النماذج البديعية التي اخترعها الحريري :

1- تناوب الكلمات مهملة الحروف مع الكلمات معجمة الحروف بانتظام ؛ أي أن يجعل الكلام مكوناً من كلمات واحدتها حروفها منقوطة جميعاً ، والتالية لها حروفها غير منقوطة جميعاً ، ثم يعود إلى المنقوطة وهكذا .

مثال : " وآراؤك تشفي ، وهلاك يُغني ، وحلمك يفضي ، وآلاؤك تغني ، وأعدائك تشني ... " (الحريري ، ص 56) وانظر الصفحات 56 ، 57 ، 58 .

2- الترقيط ، وهو ما جاء في المقامة الرقطاء بحيث تتناوب الحروف المهملة والحروف المعجمة في الكلمة بانتظام .

مثال : " ... وقويم نهجه بان ، وذهنه قلب وجرب ، ونعته شرق وغرب

سيد قلب سبوق مبر

فطن مغرب عزوف عيوف

مخلف متلف أغر فريد

نابه فاضل ذكي أنسوف "

(الحريري ، ص 223)

3- ما لم يستحل بانعكاس ، وذلك أن تقرأ الجملة من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين فلا يتغير المعنى ، وقد استعمل في الشعر والنثر معاً .

مثال : " آس ارملا إذا عرا

وارع إذا المرء أسا

أسند أخا نباهة

ابن إخاء دنسا ؟

ومن النثر " سكت كل من نم لك تكس " (الحريري ص 39 - 141)

4- القهقرة وهي أن تقرأ الكلام من أوله بوجه ومن آخره بوجه ، ومن ذلك ما جعله في المقامة القهقرية .

مثال : ارجع إلى المقامة القهقرية في كتاب مقامات الحريري وتعرف إلى هذا الفن البديعي .

تدريب رقم (8)

تكون المقامة رقطاء حين تكون كلمات مكونة من حروف أحدها منقوطة والآخر بغير نقط . ومثالها المقامة الرقطاء عند الحريري وقد مرّت بك والمقامة الرقطاء في المقامات الزينية فانظرها هناك إن استطعت .

تدريب (9)

لقد راعينا في اختيارنا المقامات التي عرضنا لها أن تكون :

أ- ممثلة لمراحل تطور هذا الفن ، فكانت مقامات ابن نايبا ممثلة لمرحلة ما بين الهمداني والحريري ، والسيوطية لزمان متأخر ، واليازجية للعصر الحديث .

- ب- معرفة بالمقامات المشرقية والمغربية ، فكانت مقامات السرقسطي أندلسية .
- بينما كانت حكايات البافية ممثلة للمقامات للمشرقية ومنها مقامات الزمخشري . ابن الصقيل الجزري .
- ج- دالة على مقدار التنوع الحاصل في هذا الفن ؛ فكانت المقامة الوعظية عند الزمخشري والمقامة الحديثة في جوهرها وأسلوبها عند السيوطي ، مثل : المقامة التاريخية ، أو القائمة على المناظرة .
- وبهذا كان في النماذج المختارة في غناء وكفاية ووفاء بفرضنا الذي هدفنا إليه .

تدريب (10)

تعد مقامات الهمذاني سجلاً صادقاً وأميناً للمجتمع إذا ذاك ؛ لأنها صورت حياة الناس في القرن الرابع الهجري أحسن تصوير وأدق . ويتضح ذلك من استعراض الشرائع والموضوعات التي اشتملت عليها ومنها :

- 1- الزهد والوعظ واللهو والمجون وعقلية العامة .
- 2- المجالس الأدبية والمناظرات والجدل القصصي .
- 3- الدور والأسواق والمساجد والبيمارستانات والحمامات والمطاعم والحوانيب والحانات .
- 4- قلة الأمن وكثرة اللصوص .
- 5- خصائص الناس وعاداتهم من سداجة وصدقة وتقليد .
- 6- الكدية .
- 7- مناصب الدولة وأخبار الملوك .

تدريب (11)

من المستويات التعليمية للمقامات على مرّ العصور .

- 1- التعليم من خلال لغة المقامة وما فيها من بديع وصنعة .
- 2- التعليم من خلال الأحاديث والألفاظ في الشعر والنحو والفقه وغيرها .
- 3- التعليم من خلال أسلوب المناظرة والمحاجة .

تدريب (12)

نجد عند الهمداني أن اسم البطل يبدأ بكينية فهو أبو الفتح يعقبه اسم منسوب إلى منطقة ، فالإسكندري المنسوب إلى الاسكندرية . ولعل من تبعه قد حاول التقليد في الغالب . فالحريري يجعل اسم البطل أبا زيد السروجي ، والسرقسطي يجعله السدوسي ، والجزري يجعله أبا نصر المصري ، في حين نجد أن الاسم الراوية عندهم جميعاً لا يشتمل على كنية بل اسم يفصل بينه وبين الاسم الآخر كله . ابن ، ومن ذلك عيسى بن هشام ، والحارث بن همام والمنذر بن همام ، والسائب بن تمام ، والقاسم بن جريال ، وسهيل بن عباد . وقد نلاحظ تشابهاً في موسيقى اسم الراوية بين عيسى بن هشام ، وحماد وهمام وتمام . ولعل هذا يدل على ضالة هذه الشخصيات لا على وجودها الحقيقي .

6. المصادر والمراجع

- الأزدي ، أبو المطهر ، حكاية أبي القاسم البغدادي ، تحقيق آدم متز ، هيدلبرج ، كرل و فتر 1902 .
- البيهقي ، إبراهيم بن محمد ، المحاسن والمساوي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر .
- الثعالبي ، أبو منصور ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق مفيد محمد قمبحة ، بيروت دار الكتب العلمية ، 1983 .
- الجزري ، ابن الصيقل ، المقامات الزينية ، تحقيق عباس مصطفى الصالحى ، بيروت ، دار المسيرة 1980 .
- الحريري ، القاسم بن علي ، مقامات الحريري ، بيروت ، دار صادر .
- الحصري ، ابراهيم بن علي و زهر الآداب ، تحقيق زكي مبارك ، بيروت ، دار لجيل 1972 .
- حقي ، يحيى ، فجر القصة المصرية ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة .
- حمودي ، هادي حسن ، المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمداني ، بيروت ، دار الأفاق الجديدة ، 1985 .
- الحموي ، ابن حجة ، هامش خزانة الأدب ، بولاق 1299 هـ .
- الحموي ، ياقوت ، معجم الأديباء ، نشر د. س . مرجليوت ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .
- الزمخشري ، جار الله محمود ، مقامات الزمخشري ، بيروت ، دار الكتب العلمية 1987 .
- السعافين ، إبراهيم ، أصول المقامات ، بيروت ، دار المناهل ، 1987 .
- السيوطي ، جلال الدين ، مقامات السيوطي الأدبية والطبية ، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي تونس ، دار سحنون ، 1988 .
- الشريشي ، أبو العباس ، شرح مقامات الحريري ، تصحيح محمد عبد المنعم خفاجي ، بيروت المكتبة الثقافية 1952 .
- الشكعة ، مصطفى ، بديع الزمان الهمداني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية ، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية 1975 .

- ضيف ، شوقي ، المقامة ، فنون الأدب العربي ، الفن القصصي (1) ، القاهرة ، دار المعارف . 1987 .
- عوض ، يوسف نور ، فن المقامات بين المشرق والمغرب ، مكة المكرمة ، مكتبة الطالب الجامعي . 1986 .
- عياد ، شكري محمد ، القصة القصيرة في مصر ، دراسة في تأصيل فن أدبي ، القاهرة ، 1968 .
- فاعور ، إكرام ، مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد ، تحقيق ناديا فاعور ، بيروت دار اقرأ . 1983 .
- القالي ، أبو علي ، الأمالي ، مراجعة لجنة إحياء التراث في دار الأفاق الجديدة ، بيروت 1987 .
- الكك ، فيكتور ، بديعات الزمان ، بحث تاريخي تحليلي في مقامات الهمداني ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية .
- لاجرانغا ، فرناندو دي ، مقامات ورسائل أندلسية ، نصوص ودراسات ، ترجمة عبد اللطيف 1960 ، عبد الحليم ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، 1981 .
- مبارك ، زكي ، النشر الفني في القرن الرابع الهجري ، بيروت ، دار الجيل 1975 .
- المبارك ، مازن ، مجتمع الهمداني من خلال مقاماته ، دمشق ، دار الفكر 1981 .
- ابن منظور ، محمد بن مكرم ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، 1968 .
- هلال ، محمد غنيمي ، الأدب المقارن ، بيروت ، دار العودة 1983 .
- الهمداني ، بديع الزمان ، شرح مقامات بديع الزمان الهمداني لمحمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية بيروت .
- اليازجي ، ناصيف ، مجمع البحرين ، بيروت ، دار صادر .
- باغي ، عبد الرحمن ، رأي في المقامات ، عمان ، دار الفكر للنشر والتوزيع 1985 .

1.7 المقامة الحوانية

حدثنا عيسى بن هشام قال :

لما قفلت من الحجّ فيمن قفل .. ونزلت مع من نزل .. قلت لغلامي : أجد شعري طويلا .. وقد اتسخ بدني قليلا .. فاختر لنا حماما ندخله .. ورحمًا ما نستعمله .. وليكن الحمام واسع الرقعة .. نظيف البقعة .. طيب الهواه .. معتدل الماء .. وليكن الحمام خفيف اليد .. حديد المرمى .. نظيف الثياب .. قليل الفضول .. فخرج مليًا .. وعاد بطيًّا .. وقال : قد اخترت كما رسمت .. فأخذنا الى الحمام السمّ .. وأتيناه فلم نر قرّامه .. لكنني دخلت ودخل علي أنزي رجل .. وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبينني .. ووضعها على رأسي .. ثم خرج ودخل آخر .. فجعل يدلكني دلكا يكدّ العظام .. وينمّزني غمزا هتّ الأوصال .. ويصفر صفيرا يرش البزاق .. ثم عمد الى رأسي ينسله .. والى الماء يرسله .. وما لبث أن دخل الأول فحيّا أخدع الثاني بضمرة قمعت أنيابه .. وقال : يا لكع ما لك ولهذا الرأس وهو لي .. ثم عطف الثاني على الأول بمجموعة هتكت حجابيه .. وقال : بل هذا الرأس حقي وملكي وفي يدي .. ثم تلا كما حتى عيبا .. وتحاكى لما بقيا .. فأتيا صاحب الحمام .. فقال الأول : أنا صاحب هذا الرأس .. لأنني لطخت جبينه ووضعت عليه طينه .. وقال الثاني : بل أنا مالكه .. لأنني دلكت حامله .. وغمّزت مفاصله .. فقال الحمامي : انتوني بصاحب الرأس أسأله : ألك هذا الرأس أم له ؟ فأتيتاني وقال : لنا عندك شهادة فتجشم .. فتمت وأتيت .. شئت أم أبيت .. فقال الحمامي : يا رجل لا تقل غير الصدق .. ولا تشهد بهنير الحق .. وقل لي : هذا الرأس لأيهما ؟ فقلت : يا عافاك الله .. هذا رأسي .. فقد صحبني في الطريق .. وطاف معي بالبيت العتيق .. وما شككت أنه لي .. فقال لي .. اسكت يا فضولي .. ثم مال الى أحد الخسدين فقال : يا هذا ال كم هذه المنافسة مع الناس بهذا الرأس ؟ نسلّ عن قليل خطره الى لعنة الله وحرّ سقره .. رهب أن هذا الرأس ليس .. وأتالم نر هذا التيس ..

قال عيسى بن هشام : فقتت من ذلك المكاث خجلا .. ولبست الثياب
وجلا .. وانسلت من الحتام عجلا .. وسببت الغلام بالعض والمصر .. ودققته
دمى الجضى .. وقلت لآخر : اذهب فأتني بمجتم يحط عني هذا الثقل .. فجاءني
برجل لطيف البنية .. مليح الحلية .. في صورة الدمية .. فارتحت اليه ..
ودخل فقال : السلام عليك .. ومن أي بلد أنت ؟ فقلت : من قم .. فقال :
حيالك الله من أرض، النعمة والرفاهية .. وبلد السنة والجماعة .. ولقد حضرت في
شهر رمضان جامعها وقد أشملت فيه المصابيح .. وأقيمت التراويح .. فما
شعرنا إلا بمد النيل .. وقد أتى على تلك القناديل .. لكن صنع الله لي بحفة
قد كنت لبسته رطبا .. فلم يحصل طرازه على كتمه .. وعاد الصبي الى امه ..
بعد ان صليت العتمة واعتدل الظل .. ولكن كيف كان ححك ؟ هل قضيت
مناسكه كما وجب .. وصاحوا : العجب العجب ! فنظرت الى المنارة .. وما
أهون الحرب على النظارة .. ووجدت الهريفة على بحالها .. وعلمت ان الامر
بقضاء من الله وقدر .. والى متى هذا الضجر ؟ واليوم رغد .. والسبت والأحد ..
ولا أطميل .. وما هذا القال والقيل ؟ ولكن أحببت أن تعلم أن المبرد في
النحو حديد الموسى .. فلا تشتغل بقول العامة .. فلو كانت الامتطاعة قبسل
الفعل لكنت قد حلقت رأسك .. فهل ترى أن نبتدىء ؟

قال عيسى بن هشام : فبقيت متحيرا من بيانه .. في هذيانه .. وخشيت أن
يطول مجلسه .. فقلت : الى غد ان شاء الله .. وسألت عنه من حضر .. فقالوا :
هذا رجل من بلاد الاسكندرية لم يرافقه هذا الماء .. فغلبت عليه السرداء .. وهو
طول النهار يهذي كما ترى .. ووراءه فضل كثير .. فقلت .. قد سمعت به ..
وعز علي جنونه .. وأنشأت أقول :

أنا أعطي الله عهدا محكما في النذر عقدا
لا حلقت الرأس ما عشت ولو لاقيت جهدا

2.7 المقامة الصناعية

حدّث الحارث بن هشام قال : لما اتعدت غارب الاغتراب .. وأنا تني
المتربة عن الأتراب .. طوّحت بي طوائح الزمن .. الى صنعاء اليمن .. فدخلتها
خاوي الرفاض .. بإدي الانفاض .. لا أملك بلغة .. ولا أجد في جراي
مضفة .. فطنقت أجوب طرقاتها مثل الهائم .. وأجول في حوماتها جولات
الحائم .. وأررد في مسارح لماتي .. ومسايح غدواتي وروحاتي .. كريما أخلق
له ديباجتي .. وأبوح له بمجاجتي .. أو أدببا تفرج رؤيته غمّي .. وتروي روايته
غلي .. حتى أدتني خاتمة المطاف .. وهدتني فاتحة الألفاظ . الى ناد رحيب ..
محتو على زحام ونحيب .. فوجلت غابة الجمع .. لأسبر مجلبة الدمع .. فرأيت في
هيرة الحلقة شخصا شخت الحلقة .. عليه أهبة السياحة .. وله رنة النياحة ..
وهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه .. ويقرع الاسماع بزواجر وعظه .. وقد
أحاطت به أخلاط الزمر احاطة الهالة بالقمر .. والأكام بالثمر .. فدلقت اليه
لأفتبس من فرائده .. وألتقط بعض فرائده .. فسمعته يقول حين خبّ في
بجالة .. وهدرت شفاشق ارتجاله : أيها السادر في غلوائه .. السادل ثوب
خيلائه .. الجامح في جهالاته .. الجانح الى خزعبلاته .. إلام تستمر على غيك ..
وتستمرى مرعى بنيك .. وحتام تتناهى في زهوك .. ولا تنتهي عن لهوك ..
تبارز بمعصيتك مالك ناصيتك .. وتجترى بقبج سيرتك .. على عالم سريرتك ..
وتتوارى عن قريبك وأنت بمرأى رقيبك .. وتستخفي من مملوكك وما تخفي
خافية عن مليكك .. أنتظن أن ستنعمك حالك اذا آن ارتحالك .. أو ينقذك
مالك حين توبقك أعمالك .. أو يغني عنك ندمك اذا زلت قدمك .. أو يطف
عليك معشرك يوم يضحك محشرك .. هلاّ انتهجت بحجة اهتدائك .. وعجلت
معالجة دائك .. وفلت شاة اعتدائك .. وقدعت نفسك فهي أكبر أعدائك ..
أما الحمام ميعادك فما إعدادك .. وبالمشيب إنذارك فما اعدارك .. وفي اللحد
مقيلك فما قبلك .. والى الله مصيرك فمن نصيرك .. طالما أيقظك الدهر فتناعت ..
وجذبك الرعظ فتناعت .. وتجلّت لك العبر فتعاميت .. وحصص لك الحق
فتأريت .. وأذكرك الموت فتناست .. وأمكنك أن تواسي فما آسيت .. تؤثر
فلساً توّعيه على ذكر تميّه وتختار قصرا تغليه على برّ توليه .. وترغب عن هاد
تستهديه الى زاد تستهديه .. وتغلب حبّ ثوب تشتهيه على ثوب تشتريه ..
براقبت الصلّات أعلق بقلبك من مواقيت الصلاة .. ومغالاة الصدقات آثر عندك
من مغالاة الصدقات .. وصحاف الألوان أشهى اليك من صحائف الادبان ..

ودعابة الأقران آنس لك من تلاوة القرآن .. تأمر بالمعروف وتنتهك حماء ..
وتحمي عن النكر ولا تتحاماها .. وتزحزح عن الظلم ثم تغشاه .. وتحشى الناس
والله أحق أن تحشاه .. ثم أنشد :

تبا لطالب دنيا	ثنى إليها انصبابه
ما يستفيق غراما	بها وفرط صبابه
ولو درى لكفاه	مما يروم صبابه

ثم انه لبّد عجاجته وغيّض مجاجته .. واعتضد شكيتته وتأبط هراوته ..
لما رنت الجماعة الى تحفزه ورأت تأهبه لمزايلة مركزه .. أدخل كلّ منهم يده
في جيبه فأفهم له سجلا من سيبه .. وقال : اصرف هذا في نفقتك أو فرقه على
رفقتك .. فقبله منه مفضيا وانثنى عنهم مثنيا .. وجعل يودع من بشيعه ليخفى
عليه سيبه ويسرّب من يتبعه لكي يجهل مربعه ..

قال الحارث بن مّمام : فانبعته مواريبا عنه عياني .. وقفوت اثره من حيث لا
يراني حتى انتهى الى مغارة فانساب فيها على غرارة .. فأمهلته ريثما خلع نعليه ..
وغسل رجليه .. ثم هجمت عليه .. فوجدته مشافنا لتلميذ على خبز سميد وجدي
حنيد .. وقبلتها خابية نبيذ .. فقلت له يا هذا أياكون ذاك خبرك وهذا
خبرك .. فزفر زفرة القميظ وكاد يتميز من القميظ .. ولم يزل يخلق اليّ حتى
خفت ان يسطو عليّ .. فلما أن خبت ناره وقوارى أواره .. أنشد شعراً :

لبست الخبيصة أنبي الخبيصة	وأنثت شصّي في كل شيبه
وصيرت وعظي أحبولة	أريغ القنيص بها والقنيصه
والجاني الدهر حتى ولجت	بلطف احتياي على اللثيث عيصه
على أنبي لم أهب صرفه	ولا نبضت لي منه فريصه
ولا شرعت بي على مورد	يدنس عرضي نفس حريصه
ولو أنصف الدهر في حكه	لما ملك الحكم أهل النقيصه

ثم قال لي أدن فكل .. وان شئت فقم وقل .. فالتفت الى تلميذه وقلت :
عزمت عليك بمن تسدفع به الأذى لتخبرني من ذا .. فقال : هذا أبو زيد
السروجي سراج الغرباء .. وتاج الادباء .. فانصرفت من حيث أتيت .. وقضيت
العجب بما رأيت !

بديعات الزمان

بحسب تاريخي تجليلي في مقامات الهخاري

بتسلم

ثيمكتور البكابت

ليسانس تعليمية في اللغة العربية وآدابها

أصحاب المقامات

في اللغة العربية

- ١ - ابو الفضل احمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهذاني . - ولد في همدان سنة ٣٥٨/١١٩ وتوفي في هراة ٣١٨/١٠٠٧ . ٥٢ . مقامة .
- ٢ - ابو الأصعب عبد العزيز بن تمام العراقي . - مئانارتين ، القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . صاحب مقامة عن البعث .
راجع G.I.L ، م ١ ، ص ٥٢٤
- ٣ - ابو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباتة السعدي . - ولد في بغداد سنة ٣٢٧/٩٣٩ وتوفي في بغداد سنة ٤٠٥/١٠١٤
- ٤ - ابو الحسن المختار ابن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان . -
المتوفى سنة ٤٦٠/١٠٩٨ (?)
صاحب مقامة في مسألة طيبة . - راجع G.I.L. الملاحق ، م ١ ، ص ٨٨٥ .

(١) هذه اللائحة مستفاة من ترجمة بلاشير للغامات

وهذا تبسيط لبعض المصطلحات الواردة في اللائحة :

G.I.L : BROCKELMANN, *Geschichte der arabischen Litteratur*, 2 vol. in-8°; Weimar Berlin, 1898-1902.

Et : *Encyclopédie de l'Islam*.

J.1 : *Journal asiatique* (de Paris).

- أما المقالة المغنلة الترتيب في دائرة المعارف الاسلامية (النشرة الفرنسية) ،
 م ٢ ص ٣٩١ و LECLEERC في كتابه تاريخ الطب العربي (باريس ١٨٢٦) ،
 م ١ ص ٤٨٩ وما يليها ، فلم يشيرا اطلاقاً الى رسالة ابن بطلان .
- ٥ - ابو القاسم عبدالله بن محمد بن الحسين بن داود بن نائياً . - ولد في
 بغداد سنة ١٠٢٠/٤١٠ وتوفي سنة ١٠٩٢/٤٨٥ .
 راجع *G.A.L.* الملحق ، م ١ ص ٤٨٦ . نشرة اسطنبول ١٣٣١ .
 كلرد هرازر XII. (١٩٠٨) ص ٤٣٥ وما يليها . *Beiträge, RESCHER.*
 ص ١٢٣
- ٦ - ابو حُتَيْد محمد بن محمد النزالي . - ولد في طرس (خراسان) سنة
 ١٠٥٨/٤٥٠ وتوفي في طرس سنة ١١١١/٥٠٥
 راجع *G.A.L.* ، م ١ ص ٤٢٣
- ٧ - ابو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري . - ولد في البصرة سنة
 ١٠٥٤/٤٤٦ وتوفي سنة ١١٢٢/٥١٦
- ٨ - ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري . - ولد في زَمَخْشَر (خوارزم) سنة
 ١٠٧٤/٤٦٧ وتوفي في جرجان سنة ١١٤٣/٥٣٨ .
 خُأَتْ ٥٠ مقامة أَلْهَما سنة ١١١٨/٥١٢ . - راجع *G.A.L.* ، م ١ ص ٢٩٢
 والملحق م ١ ص ٥١١ . نشرات القاهرة ١٣١٢ ، ١٣٢٥ . نقلها
Reschen الى الألمانية : *Beiträge, VI.*
- ٩ - ابو الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله الشرنطبي المعروف بابن الأشتكر
 (لا الأشتكرني) . - توفي في قرطبة سنة ١١٤٣/٥٣٨ . راجع *G.A.L.*
 م ١ ص ٣٠٩ والملحق م ١ ص ٥٤٣ ؛ بروكلن ، مقامة ص ١٧١
 عمود ٢
- ١٠ - ابو سيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السعدي . ولد في مرو سنة
 ١١١٣/٥٠٦ وتوفي في مرو سنة ١١٦٧/٥٦٢ . لم يأت على ذكر
 مقامه غير حاجي خليفة ، *Lexicon Bibliographicum* ، نشرة فارجل

- رقم ١٢-٧٠٢؟ راجع بروكلن ص ١٧١ عمود ٢
- ١١ - شهاب الدين يحيى السهرورددي . - ولد في سُهرورد حوالي سنة ١١٤٠/٥٤٠ وتوفي في حلب سنة ١١٩١/٥٨٧ .
- ١٢ - ابر الباس يحيى بن ماري البصري . - توفي حوالي سنة ١١٩٣/٥٨٩؛ راجع *G.A.L* م ١ ص ٢٧٨ والملحق م ١ ص ٤٣٩؛ بروكلن، مقامة ٢ ص ١٧١ عمود ٢
- ١٣ - ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي . - ولد في بغداد سنة ١١١٦/٥١٠ وتوفي فيها سنة ١٢٠٠/٥١٧
- ١٤ - الصاحب صفا الدين . - مصر، توفي في ارائل القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي .
مقامة واحدة تبحث في مسائل شرعية. راجع *G.A.L* للملحق م ١ ص ٤٩٠؛
Beiträge, Reschen م ١٧ ص ١٥٣؛ نشرة اسطنبول ١٩١٣
- ١٥ - محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قرنس . حوالي سنة ١٢٧٢/٦٧٢؛ راجع *G.A.L* م ١ ص ٢٧٨
- ١٦ - شهاب الدين البراعي . - حوالي ١٢٧٥/٦٧٤ راجع *G.A.L* م ١ ص ٢٧٨
- ١٧ - محمد بن عفيف الدين اليلساني، الشاب الظريف . - ولد في القاهرة سنة ١٢٦٣/٦٦١ وتوفي في دمشق سنة ١٢٨٩/٦٨٨
- مقامات شعرية من وحي الحب - راجع *G.A.L* م ١ ص ٢٥٨ والملحق م ١ ص ٤٥٨
- ١٨ - القاضي حاشد . - حوالي ١٢٩١/٦٩٠ راجع *G.A.L* م ١ ص ٢٧٨
- ١٩ - محمد بن علي بن المبارك بن الأعمى . - توفي سنة ١٢٩٢/٦٩٢ راجع *G.A.L* للملحق م ١ ص ٤٤٥
- ٢٠ - معد بن نصران بن رجب الجزري المعروف بابن الصيقل (او الصيقل)؟

- راجع السيرطي ، ألبية ص ٣٩٥ . - توفي سنة ١٣٠١/٧٠١
- ٥٠ مقامة - راجع *G.I.L.* م ٢ ص ١٥٩ والملحق م ٢ ص ١٩٩
- ٢١ - الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن محاسن بن عبد الكريم بن الموتدي.
بأنه النجاشي . - حوالي ١٣٠٨/٧٠٨
راجع *G.I.L.* الملحق م ٢ ص ٢٠٢
- ٢٢ - احمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الواسطي الحنيلي الحزامي . - ولد في
في واسط سنة ١٢٥٨/٦٥٧ وتوفي في دمشق سنة ١٣١١/٧١١
راجع *G.I.L.* الملحق م ٢ ص ٢٠٣
- ٢٣ - ابو ألثنا محمود بن سلمان بن فهد الحلي الحنيلي . - ولد في دمشق
سنة ١٢٤٦/٦٤٤ وتوفي فيها سنة ١٣٢٥/٧٢٥
راجع *G.I.L.* الملحق م ٢ ص ٤٣
- ٢٤ - ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن ابي الطالب الأنصاري الدروني الدمشقي.
توفي سنة ١٣٢٧/٧٢٨
- ٥٠ مقامة - راجع *G.I.L.* م ٢ ص ١٦١
- ٢٥ - احمد بن محمد المعظم الرازي . - حوالي ١٣٢٩/٧٣٠
- ١٢ مقامة - راجع *G.I.L.* م ٢ ص ١٩٢ والملحق م ٢ ص ٢٥٥ . ثرة
الخرابري ، باريس ، ١٢٨٢/١٤٦٥ ، تونس ، ١٣٠٣
- ٢٦ - ابو الفتح محمد بن ابي بكر محمد البصري الأندلسي الشافعي ابن سيد
الناس . ولد في القاهرة سنة ١٢٦٣/٦٦١ وتوفي سنة ١٣٣٤/٧٣٤
راجع *G.I.L.* م ٢ ص ٧٢ والملحق م ٢ ص ٧٧ ؛ *I.L.* م ٢ ص ٤٣٩
- ٢٧ - ابو حنفى عمر بن المنقثر بن عمر القرشي البكر المصري ابن الوردي .
- ولد في المصرة سنة ١٢٩٠/٦٨٩ وتوفي في حلب سنة ١٣٤٩/٧٤٩ ؛
راجع *G.I.L.* م ٢ ص ١٤٠ والملحق م ٢ ص ١٧٤ و ١٧٥
- ٢٨ - ابو الفتح محمد بن محمد بن رفا . الاسكندري البكري الشاذلي . -
ولد سنة ١٣٠٢/٧٠٢ وتوفي سنة ١٣٥٨/٧٦٠

- راجع *GAL* الملحق م ٢ ص ١٤٨
- ٢٩- ابر الصفا خليل بن أيوب الصفي الصندي . - ولد في صَفَد سنة ١٢٩٦/١٩٦
وتوفي في دمشق سنة ١٣٦٣/٧٦٤ .
- راجع *GAL* الملحق م ٢ ص ٢٩
- ٣٠- پير محمد بن محمد بن محمد نَشَبْتَد البُخاري . - ولد في بخارى ؛ توفي
سنة ١٣٨٩/٧٩١
- راجع *GAL* الملحق م ٢ ص ٢٨٢
- ٣١- ابر الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد بن ابي بكر الشيرطي . -
ولد في القاهرة سنة ١٤٤٥/٨٤٩ وتوفي فيها سنة ١٥٠٥/٩١١
- راجع *GAL* م ٢ ص ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، والملحق م ٢ ص ١٨٣ ،
١٨٢ ، ١٩٧ ، ١٨٩ ؛ *ZDMG* ، (١٨٦٥) ، ص ٦٨ ؛ *Bulletin de*
Correspondance Africaine (الجزائر ١٨٨٤) ؛ نشره في القاهرة ، ١٢٧٢ ،
١٢٧٥ ؛ *VIII, Beiträge, Rescher* .
- ٣٢- ابراهيم بن محمد بن عبدالله المادوري بن الوزير . - ولد سنة ١٤٥٦/٨٦٠
وتوفي سنة ١٥٠٨/٩١٤
- راجع *GAL* م ٢ ص ١٨٨ والملحق م ٢ ص ٢١٨
- ٣٣- ابر العباس احمد بن محمد بن ابي بكر الخطيب السُّنْطَلَانِي . - ولد في
القاهرة سنة ١٤٤٨/٨٥١ وتوفي سنة ١٥١٧/٩٢٣
- راجع *GAL* م ٢ ص ٧٣
- ٣٤- ابن غياث الدين الحسيني . - توفي في هراة ١٥٢٢/٩٢٨
- راجع *GAL* م ٢ ص ١٩٣
- ٣٥- محمد بن پير البركزي (برغلي) الباليكسري . - ولد في باليسري
سنة ١٥٢٣/٩٢٩ وتوفي في برغلي سنة ١٥٧٣/٩٨١
- راجع *GAL* للملحق م ٢ ص ٦٥٨
- ٣٦- ابر الفضل محمد بن محمد الغازاني . - حوالي ١٥٨٩/٩٩٧

- راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٣٨٣
- ٣٧ - شرف الدين مجي المارديني . - حوالي ١٠٠٠/١٥٩١
- راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٣٨٣
- ٣٨ - القاسم بن محمد الدمشقي الحلبي القرواص . حوالي ١٥٩١/١٠٠٠
- ٩ مقامات - راجع *G.A.L.* م ٢ ص ٢٧٢ والملحق م ٢ ص ٣٨٣ . -
- ZDMG*, LXVIII ، ص ٣٨٢ .
- ٣٩ - عبد القادر بن محمد بن احمد النيرمي الحرّبي . - توفي سنة ١٠٢٢/١٦١٤
- راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٤٨٦
- ٤٠ - ابو علي فتح الله بن علّان بن بشاره الكعبي القباني . - حوالي ١٠٧٨ /
- ١٦٦٧
- راجع *G.A.L.* م ٢ ص ٣٧٣ والملحق م ٢ ص ٥٠١ . نشرة بغداد (١٩٢٤).
- ٤١ - محمد مرتضى مُلا فايد الكاشي (كاشاني) . - ولد سنة ١٠٠٧/١٥٩٨؛
- وتوفي في اصفهان سنة ١٠٩٠/١٦٧٩
- راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٥٨٥
- ٤٢ - عبد الباقي بن محمد بن مصطفى عريف . - توفي سنة ١١٢٥/١٧١٣
- راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٦٣٠
- ٤٣ - ابو بكر مُحَمَّد بن بُنبُود العَآري . - المند حوالي ١١٢٨/١٧١٥
- راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٦٠١
- ٤٤ - نعمة الله بن محمد بن حسين بن عبد الله الحسيني الموسوي الجزائري . -
- ولد في صَبَافِه (فارس) سنة ١٠٥٠/١٦٤٠ ؛ توفي في عُيدر سنة
- ١١٣٠/١٧١٨
- راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٥٨٦
- ٤٥ - عبد الله بن الحسين بن مُرمي البغدادي السُرَيْدي الدُرّي . - ولد قرب
- بغداد سنة ١١٠٤/١٦٩٢ ؛ وتوفي سنة ١١٧٤/١٧٦٠
- راجع *G.A.L.* م ٢ ص ٣٧٧ والملحق م ٢ ص ٥٠٨ ، القاهرة ، ١٣٢٤ .

- راجع *Beiträge. RESCHER, IV* ص ٢٨٦ وهو يذكر أحدهم باسم عبد
الحميد أحمد بن أبي البركات عبد الله المعروف بالشرفندي .
- ٤٦ - يوسف بن سليم بن أحمد الخنفي الشافعي أبو المحاسن المصري . - توفي
سنة ١١٧٨/١٢٦٤
- راجع *GAZ.* م ٢ ص ٢٨٣ والملحق م ٢ ص ٣٩٢
- ٤٧ - أبو الحسن عليّ التراب الشافعي . - تونس، حرالي ١١٨٠/١٢٦٦
- راجع *GAZ.* الملحق م ٢ ص ٦٩٠
- ٤٨ - عبد الله بن عبد الله بن سلامه الإذكاري المصري . - ولد في إذكرو
قرب مدينة الرشيد في مصر سنة ١١٠٤/١٦٩٢ وتوفي سنة ١١٨٤/١٢٧٠
- راجع *GAZ.* الملحق م ٢ ص ٥٠٠
- ٤٩ - أحمد بن إبراهيم الرّسمي . - ولد في جزيرة كريت سنة ١١٠٦/١٦٩٤؛
وتوفي سنة ١١٩٧/١٢٨٣
- راجع *GAZ.* م ٢ ص ٤٣٠
- ٥٠ - أبو الخير عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين الشّريدي . - ولد في بغداد
سنة ١١٣٤/١٢٢١ وتوفي فيها سنة ١٢٠٠/١٢٨٦
- راجع *GAZ.* م ٢ ص ٣٢٤
- ٥١ - عبد اللّيلف البربير الحسني البيروتي . - ولد في ديباط سنة ١١٦٠/
١٢٤٨ وتوفي في دمشق سنة ١٢٢٦/١٨١١
- راجع *GAZ.* الملحق م ٢ ص ٧٥٠
- ٥٢ - أبو الفيض خذرون بن عبد الرحمن بن حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج
الأسلامي المرّداسي النّاسي . - وُلد في ناس سنة ١١٧٤/١٢٦٠ وتوفي
سنة ١٢٣٢/١٨١٧
- راجع *GAZ.* الملحق م ٦ ص ٨٧٥
- ٥٣ - حسن بن محمد الطّار . - توفي سنة ١٢٥٠/١٨٣٤ (?)
- راجع *GAZ.* الملحق م ٢ ص ٢٧٠

- ٥٤ - ابو الثناء محمود بن عبد الله الألويسي الحسني الحسيني البغدادي . - ولد سنة ١٢١٨/١٨٠٣ وتوفي سنة ١٢٧٠/١٨٥٣
راجع *G.A.L.* م ٢ ص ٤٩٨ والملحق م ٦ ص ٧٨٦
- ٥٥ - ناصيف اليازجي . - ولد في كنفشيا (لبنان) سنة ١٨٠٠ وتوفي في بيروت سنة ١٨٧١ . راجع عن هذا الكاتب بـ *كزنتشوفسكي EI* ، م ٤ (مقال يازجي) ص ١٢٣٤
- ٥٦ - محمود بن محمد المبارك الجزائري . - ولد في الجزائر وتوفي في دمشق ؛ النصف الثاني من القرن التاسع عشر .
راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٧٥٨ ، م ٣ ص ٣٧٦
- ٥٧ - منصور الهنّس الماروني اللبناني . - النصف الثاني من القرن التاسع عشر .
راجع *G.A.L.* الملحق م ٣ ص ٢٣٨
- ٥٨ - احمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق - ولد في عشقوت (لبنان) سنة ١٨٠١ وتوفي سنة ١٨٨٧
راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٨٦٨ . نشر وترجمة ، الجزائر (١٨٩٣) .
- ٥٩ - عبد الله باشا بن محمود احمد الفكري . - ولد في مكة سنة ١٢٥٠ / ١٨٣٤ وتوفي في القاهرة سنة ١٣٠٧/١٨٩٠
راجع *G.A.L.* م ٢ ص ٤٧٥ والملحق م ٢ ص ٧٢٢
- ٦٠ - ابراهيم الأهدب الطرابلسي الحلبي . - ولد في طرابلس سنة ١٢٤٢/١٨٢٦ وتوفي في بيروت سنة ١٣٠٨/١٨٩١
راجع *G.A.L.* الملحق م ٢ ص ٧٦٠
- ٦١ - محمود رشيد أفندي . - الاسكندرية ، القرن العشرون .
راجع *G.A.L.* الملحق م ٣ ص ٨٥ - نشرة القاهرة (١٩١٣) .
- ٦٢ - محمد ابراهيم المريلحي . - ولد في القاهرة سنة ١٢٨٥/١٨٦٨ وتوفي فيها سنة ١٣٤١/١٩٣٠
راجع *G.A.L.* الملحق م ٣ ص ١٩٤

٦٣ - حافظ ابراهيم . - ولد حوالي ١٢٨٨/١٨٢٢ وتوفي سنة ١٣٥١/١٩٣٣
لبالي سطيح : نشرة القاهرة (١٣٢٦/١٩٠٨) . انظر فيما يتعلّق بالعلاقات
بين هذا العمل وعمل المويليحي GAL الملحق م ٣ ص ٦٩ ، ١٥٩ ؟
وخاصة PÉREs في : *Bulletin d'Etudes Orientales*, X (1943-1944)
ص ١٣ وما يليها .

كتاب غير معروف في التاريخ

- ٦٤ - عبدالله الشكري . راجع GAL الملحق م ٢ ص ٩٠٦
٦٥ - الحسن الحائني . راجع GAL الملحق م ٢ ص ٩٠٨
٦٦ - حسن بن السيد محمد امين الحسيني الحازي . راجع *Beiträge, RESCHER, IV*
٣٢٨
٦٧ - الحسن بن محمد القاغالي . راجع *Beiträge, RESCHER* م ٤ ص ٣٣٥
٦٨ - حسين بن مسعود الشافعي . راجع GAL الملحق م ٢ ص ٩٠٨
٦٩ - حسين بن سليمان بن ريان الحسيني . راجع GAL الملحق م ٢ ص ٩٠٩
٧٠ - ابراهيم بن علي بن احمد بن الحاروي . راجع GAL الملحق م ٢ ص ٩٠٩
٧١ - محمد بن عمر الأنطاكي . راجع *Beiträge, RESCHER* م ٤ ص ١١٦
٧٢ - محمد بن محمد الرّهرياني . راجع GAL الملحق م ٢ ص ٩١١ ؟
WZKM, XXVI ص ٧١
٧٣ - ناصر الدين المنتهري . راجع GAL الملحق م ٢ ص ١٠١٠
٧٤ - نصرالله الحسيني . راجع *Beiträge, RESCHER* م ٤ ص ٣١١
٧٥ - عمر بن ابراهيم بن الحسين الرّسعيّ القيسي (ار : المُثيني) .
راجع *Beiträge, RESCHER* م ٤ ص ٣٣٩
٧٦ - عثمان افندي العمري المرصلي . راجع *Beiträge, RESCHER* م ٤ ص ١٩٩

الوحدة السابعة

مدارس النشر الفني

المحتويات

345	1. مقدمة
345	1.1 التمهيد
345	2.1 أهداف الوحدة
346	3.1 أقسام الوحدة
346	4.1 القراءات المساعدة
346	5.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة
347	2. مدارس النثر الفني
347	1.2 مدرسة الترسيل : خصائصها وأبرز أعلامها
353	2.2 مدرسة البديع والصنعة : عوامل نشأتها وخصائصها وأبرز أعلامها
361	3.2 مدرسة القاضي الفاضل : خصائصها وأبرز أعلامها
368	3. الخلاصة
369	4 . لمحة مسبقة عن الوحدة التالية
370	5 . إجابة التدريبات
370	6. المراجع

1.1 التمهيد

لقد آن لك عزيزي الدارس بعد أن وقفت على فنون النثر العربي المختلفة أن تقف على المدارس الفنية التي ظهرت في تاريخنا الأدبي ، وأن تعرف خصائص كل مدرسة وأبرز من ينتمي إليها من الكتاب ، سواء منهم من مر بك نصوص لهم ، أو من لم يذكر من قبل . وستدرك أن الأدب مرتبط بالحياة ارتباطاً وثيقاً ، فهو صورتها بل مرآتها التي تنعكس فيها تطوراتها وتعقيداتها ، في مجال السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد . وسترى أن النخبة هي التي كانت تحدد مسار الأدب ترسلأ أو صنعة ، وكأن من طبيعة البشر أن يبحثوا عن قائد أو زعيم لا في مجال السياسة والاجتماع فحسب بل في مجال الأدب كذلك ، ومن هنا نشأت المدارس ، وظهر كبار الكتاب الذين كانوا قدوة لمن جاء بعدهم .

وأرجو أن يكون واضحاً في ذهنك أن قضايا الأدب ظنية لا قطعية ، وأن ما يراه باحث أو مؤرخ أدب قد يخالفه فيه غيره ، وقد يكون لك رأي فيما تقرأ من آراء المؤلفين ، بل ينبغي أن يكون لك ذلك ، حتى لا تكون مردداً لما يقال من غير بيّنة . ولعل كثرة النصوص التي سنعرض عليك تعينك على ذلك ، ويعينك عليه الرجوع إلى المصادر الأصيلة ، فما هذا المقرر إلا مفتاح للمعرفة ، ولا ينبغي أن يكون سداً بينك وبينها.

2.1 أهداف الوحدة

يتوقع أن تكون أيها الدارس الكريم بعد دراستك لهذه الوحدة قادراً على أن :

1. تدرك أهم مدارس النثر الفني في الأدب العربي القديم .
2. تميز بين النصوص النثرية وتحدد المدرسة التي تنتمي إليها .
3. تعرف السمات الفنية الخاصة بكل مدرسة من هذه المدارس .
4. تعرف العوامل التي أدت إلى نشوء كل مدرسة منها .
5. تعرف أهم أعلام النثر الذين ينتمون إلى كل مدرسة .

3.1 أقسام الوحدة

تقتضي طبيعة الدراسة أن ينظر إلى الأدب وتاريخه في إطار اتجاهات تتشابه خصائصها ، وتوجد هذه الخصائص أو أكثرها لدى عدد من الكتاب ، وقد اصطلح على تسمية هذا الاتجاه ومن يسلك فيه بالمدرسة أو المذهب .

وقد ميّز الباحثون في تاريخنا الأدبي مدرستين كبيرتين : مدرسة الترسل ، ومدرسة الصنعة . وقسم بعضهم مدرسة الصنعة إلى اتجاهات من أبرزها مدرسة القاضي الفاضل .

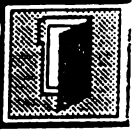
ولكي تكون على بينة من أمر هذه المدارس لا بد من الاطلاع على عدد كبير من النصوص التي تميز من خلالها خصائص كل مدرسة ، وتمتلك القدرة على تمييز أي نص يقع بين يديك . وتستنبط خصائصه بنفسك .

ولكي تكتمل الصورة لا بد أن تتقف على عوامل نشأة هذه المدارس ، وتتعرف على أعلامها . ومن خلال هذه الأقسام تتحقق الأهداف المرسومة في البند السابق .

4.1 القراءات المساعدة

يحسن عزيزي الدارس أن تطلع على ما يلي لتكتمل لديك الصورة عن بعض قضايا المقرر ، وتزداد معرفة بها :

1. مبارك ، زكي ، النشر الفني في القرن الرابع ، ج 1 ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ص 137 - 153 .
2. باشا ، عمر موسى ، الأدب في بلاد الشام - عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، ط 1 ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ص 854 - 876 .



5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة

لا تقتضي منك دراسة هذه الوحدة إلا قراءة المادة المقررة ، والقيام بالأنشطة المطلوبة ، واجابة التدريبات والتقويم الذاتي . والرجوع إلى ما أشير إليه من مراجع تعين على تمثيل صورة المدارس الفنية تمثلاً صحيحاً .

2. مدارس النثر الفني

2.1 مدرسة الترسل

حاول مؤرخو الأدب رصد مسيرة النثر الفني في أدهنا العربي ، وذلك بدراسة ما وصل إلينا من أقدم النصوص ، مع رصد التحولات التي أصابت هذا النثر على أيدي كبار الكتاب . وتختلف نظرات الدارسين وتسمياتهم لأبرز الظواهر أو المدارس الفنية :

فشوقي ضيف في كتابه الفن ومذاهبه في النثر العربي يرى أن مسيرة النثر العربي موزعة على ثلاث مدارس أو اتجاهات :

مدرسة (1) الإنصاعة ، والتصنيع ، والتصنع . *سومر هينس*

وأنيس المقدسي يجعلها مدرستين :

(1) مدرسة الأسلوب المتوازن أو المزدوج غير المسجع .

(2) ومدرسة الأسلوب البديعي المسجع .

ولا أظن أنه يخفى عليك أن المدرسة الثانية لدى المقدسي صارت مدرستين لدى شوقي ضيف ، والعمدة في ذلك الإيغال في هذا الأسلوب البديعي .

ولا بد أن يكون واضحاً في أذهاننا أن هذه الأساليب أو المدارس لا تسيطر سيطرة كاملة ، ففي الوقت الذي كان أسلوب الترسل وعدم التزام السجع وألوان المحسنات الأخرى ، شائعاً في العصر الجاهلي ، وجدنا سجع الكهان ، بما فيها من تعقيد وإغراب في استخدام الألفاظ غير المألوفة لدى السامعين . وفي مقابل هذا نجد بعض الكتاب في العصور المتأخرة خرجوا على طغيان البديع وكتبوا بأسلوب مترسل بعيد عن التعقيد كما سترى فيما بعد .

وأرجو أن تكون أيها الدارس الكريم مستحضراً في ذهنك أن أساليب التعبير الفني يصدق عليها القانون الذي يحكم الحياة الإنسانية ، حيث يبدأ الإنسان في معظم جوانب حياته بحدّ الحاجة في طعامه ولباسه ومسكنه وأسلوب تعبيره ، ثم ينتقل متدرجاً من حدّ الحاجة إلى حدّ الزينة ، فلا يكتفي بما يقيم حياته من طعام ، بل يسعى إلى التشكيل والتنوع والتجديد . ولا يكتفي بما يستر جسده من اللباس الخشن البعيد عن الزينة ، بل ينوع فيه ألواناً وأشكالاً ، وكذلك الحال في أساليب التعبير ، فيبدأ بما يبلغ ما يريده من غير تصنع أو تزيين ، ثم ينتقل إلى إشباع الحاجة الفنية له في مجال التعبير الأدبي .

وإذا التفتنا إلى التعبير الأدبي في تراثنا نجد البعد عن التعقيد في الأسلوب يغلب على ما وصلنا من نصوص نثرية من العصر الجاهلي ، وعصر صدر الإسلام (النبوة والخلفاء الراشدين) ثم جانب من العصر الأموي . ثم تبدأ مسيرة التزيين والتحسين على أيدي عدد من كتاب الرسائل في العصر الأموي لتصل إلى غاية بعيدة من التعقيد فيما بعد في العصر العباسي .

ولعلك تسأل عن المقصود بهذا المصطلح الذي جعلناه عنواناً للمدرسة الأولى في النثر العربي :

الترسل؟
ليعرض تكلف والولم لبروح

إن (إنتاج) نص أدبي نثري ليس عملاً عفويًا ، لا يصحبه تفكير أو تدبير ، ومحاولة إتقان للصياغة، بل لا بد فيه من التهيئة النفسية التي تستثير الطاقة الأدبية الكامنة (المهوبة) لتقدم النص في الصورة المرجوة من البلاغة المؤثرة . فإذا ما جاء هذا النص بعيداً عن تكلف ألوان البديع ، من سجع وجناس وطباق وغيرها .. فإنه يدخل في مدرسة الترسل ، ولو وردت فيه هناك وهناك بعض هذه الألوان . فالترسل يظهر في عدم تعمد الحسنات البديعية ، أو الإغراب اللغوي ، أو محاولة تضمين النص ألواناً من الإشارات الثقافية : اللغوية أو الدينية أو التاريخية أو العلمية .

ويتجلى لك مفهوم الترسل واضحاً عندما تراجع ما مر بك من نصوص جاهلية وإسلامية وأموية ، بل يمتد أثر هذا التيار إلى العصر العباسي نفسه إلى نهاية القرن الهجري الثاني بل يتقدم أكثر من ذلك في هذا العصر .

ولعلك توافق معي على رأي الدكتور شوقي ضيف الذي يقول فيه :

« ونظن ظناً أن عمر وغيره من الخلفاء الراشدين وولاتهم وقوادهم لم يقصدوا في كتاباتهم إلى أي ضرب من ضروب التزيين والتنميق ، فقد كان حسبهم أن يؤدوا أغراضهم في لفة جزلة متينة » .

(الفن ومذاهبه ، ص 98)

ولكننا لا نوافق فيما ذهب إليه من أن ما ورد من النصوص من ذلك العصر وفيها بعض ألوان البديع إنما دخلها ذلك بفعل بعض المؤرخين والأدباء الذين أدخلوا الزينة والتنميق على بعض ما ورد إليهم . لا نوافق لأن القرآن الكريم الذي نزل بلفظ العرب ، وجرى على أساليبهم في الكلام ، فيه من ألوان البديع ما لا يخفى.

نشاط :



ارجع إلى القرآن الكريم وحاول أن تتبين بعض ما ورد في السور المكية من ألوان البديع . وعلى سبيل المثال : سورة الفلق ، وسورة الناس .

ويقال الأمر نفسه في الحديث النبوي الشريف الذي تأثر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم حيث نجد أن السمة الغالبة على هذا الحديث البعد عن ألوان البديع ، ولكننا نجد نصوصاً غير قليلة وفيها شيء من ذلك . وإليك هذه النماذج :

* « أطلب الكلام ، وأفش السلام ، وصل الأرحام ، وصل بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام » .

(الألباني ، 1 / 234 - 235)

* « اللهم إني أعوذ بك من الجوع ، فإنه يثس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة ، فإنها بثست البطانة » .

(نفسه ، 1 / 275)

* « اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يُسمع ، ومن نفس لا تشيع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع » .

(نفسه ، 1 / 278 وانظر : مبارك ، 1 / 75 بحث أطوار السجع)

ولكن هذه النماذج وغيرها ليست شيئاً إلى جانب ما ورد خالياً من السجع وغيره من ألوان البديع . وقيمتها أنها تثبت وجود هذا الاتجاه في وقت مبكر ، وفي نصوص ثابتة .

نشاط :



ارجع إلى الجزء الأول من كتاب جمهرة رسائل العرب وانظر في عدد من الرسائل الصادرة عن العصر الجاهلي وصدر الإسلام لترى أن الترسل هو الغالب ، ولكن لا تخلو بعض الرسائل من ألوان البديع .

ثم إنك إذا نظرت في نصوص من العصر الأموي وبدايات العصر العباسي يتبين لك أن في أسلوب الكتابة تأتقاً ظاهراً ، لم يكن معهوداً فيما سبق . ولا يخفى عليك أنه كان لديوان الإتيشاء أثر في هذا الأمر . ولم يعد كاتب الإتيشاء ناسخاً يكتب ما يئليه عليه الخليفة أو الوالي ، بل صار هو المنشئ للرسائل ، وصار هذا المنصب غاية يتطلع إليها كبار البلغاء ، ويتنافس في الوصول إليها أصحاب الأقلام المتميزة ، بل إن عدداً من كتاب الدواوين ارتقوا إلى منزلة الوزارة . وبدلك على المنزل التي آلوا إليها أن كتباً ألفت في التاريخ لهم مقرونين بالوزراء ، ومنها كتاب : الوزراء والكتاب للجيشياري .

وقد مر بك القول المشهور : « بدئت الكتابة بعبد الحميد » وهذا القول يدل على أن عبد الحميد يمثل انعطافة واضحة في تاريخ الفن النثري العربي .

لقد كان الترسل هو المذهب السائد لدى الكتاب حتى منتصف القرن الثالث الهجري ، وهذا يعني أن أكثر كتاب هذا العصر كانوا مترسلين . ومن أبرز من يمثلون هذا المذهب :

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

عبدالله بن المقفع

سهل بن هارون

الجاحظ

أبو حيان التوحيدي

وقد مرت بك نصوص لعدد من هؤلاء الكتاب فيما سبق من الوحدات . ولعلك رأيت من خصائص أساليبهم ما يجعلك على يقين من أنهم يسلكون في مدرسة واحدة ، مع اختلاف يقتضيه التميز لدى كل شخصية بخصومية خاصة .

ولكن لا بأس أن أضع بين يديك نصوصاً أخرى تزيدك تبيناً لخصائص هذه المدرسة ، فنرى الازدواج ، وحسن تقسيم الكلام ، والحرص على الموازنة بين الجمل ، مع ميل إلى الإطناب ، ببسط المعنى في صور لفظية متعددة ، تظهر براعة كاتب دون آخر .

من كلام ابن المقفع

لقد مر بك نص لابن المقفع مأخوذ من كتاب (كلبلة ودمنة) ، وها أنا أضع بين يديك نصين أحدهما من (الأدب الصغير) والآخر من (الأدب الكبير) .

ولعلك تلاحظ أنه في النص الأول يميل إلى تولية المعاني بعضها من بعض ، مع الحرص على التوازن بين الجمل ، مع ملاحظة غلبة القصر عليها . انظر في النص التالي :

« أما بعد ، فإن لكل مخلوق حاجة ، ولكل حاجة غاية ، ولكل غاية سبيلاً ، والله وقت للأمر وأقدارها ، وهياً إلى الغايات سبيلها . وسبب الحاجات ببلاغها ، فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد ، والسبيل إلى دركها العقل الصحيح ، وأمانة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر ، وتنفيذ البصر بالعزم ، وللعقول سجحات وغرائز بها تقبل الأدب ، وبالأدب تنمى العقول وتزكو . »

(الأدب الصغير ، ص 31)

ولعل مما يلفت النظر في هذا النص هذه الهندسة الدقيقة للمعاني حيث تحس أنك أمام عقل منظم ، لا يصدر عنه الكلام إلا بعد تفكير وحسن تدبير . ولكن الصنعة اللفظية لا تظهر فيه ، ولا تحاش المعاني .

وأضع بين يديك نصاً آخر مأخوذاً من مقدمة الأدب الكبير تلحظ فيه شيئاً من السجع ، والإطناب فيه واضح :

« وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساماً ، وأوفر مع أجسامهم أحلاماً ، وأشدّ قوة ، وأحسن بقوتهم للأمر إتقاناً ، وأطول أعماراً ، وأفضل بأعمارهم للأشياء اختباراً ، فكان صاحب الدين منهم أبلغ في أمر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا ، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل ، ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل لأنفسهم حتى أشركونا فيما أدركوا من علم الأولى والآخر ، فكتبوا التجارب والفظن .. »

(الأدب الكبير ، ص 97)

وأظن أن ما قلته في نهاية النص السابق من هندسة الكلام الواضحة ظاهر لك في هذا النص كذلك .

من كلام سهل بن هارون *كان سهل بن هارون شيخاً من الصنف والواهب ليدع مدغير الترام*

لم يبق من آثار سهل بن هارون إلا القليل الموزع في كتب الأدب كالحجوان والبيان والتبيين والبخلاء وزهر الآداب وغيرها . ويبدو أن سهلاً قد خطا بأسلوب الترسل خطوات نحو أسلوب الصنعة ، فلديه بسط العبارة ، والتقطيع الصوتي ، والتوازن الموسيقي ، والترادف ، وتجدي في كلامه شيئاً من الصنعة وألوان البديع من غير التزام (انظر : ضيف ، الفن ومذاهبه ، ص 148) .

اقرأ هذا النص :

قال سهل بن هارون ، وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفرأ ، فقال : لو كان الكلام متصوراً ذُراً ، وبلقيه المنطق جوهرأ ، لكان كلامهما ، والمنتقى من ألفاظهما . ولقد غبرت معهما ، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهما ، وهم يرون البلاغة لم تستكمل إلا فيهما ، ولم تكن مقصورة إلا عليهما ، ولا انقادت إلا لهما . وإنهما للباب الكرم : عتق منظر ، وجوده مخبر ، وسهولة لفظ ، وجزالة منطق ، ونزاهة نفس ، وكمال خصال؛ حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهما ، والمأثور من خصائصهما ، جميع أيام من سواهما ، من لدن آدم إلى أن يُنفخ في الصور ، ويبعث من في القبور ، حاشا أنبياء الله الكرام ، وسلف عباده الصالحين ، لما باهت إلا بهما ، ولا عوكت في الفخر ، إلا عليهما ، ولقد كانا - مع تهذيب أخلاقهما ، ومعسول مذاقهما ، وسنا إشراقهما ، وكمال الخير فيهما ، في محاسن المأمون كالنقطة في البحر ، والخردل في القفر ..

(الحصري ، 1 / 420)

سئل لا يعني هجر السجع والولاه البديع هجرأ تامأ
 ولعله قد اتضح لك بعد النظر في هذه النصوص ، وما سبق أن اطلعت عليه من قبل في الوحدات السابقة ، أن الترسل لا يعني هجر السجع وألوان البديع هجرأ تامأ ، بل يعني ترك الالتزام به ، وعدم اتخاذه منهجأ متبعأ لا محيد عنه . وقد تتبع الدكتور زكي مبارك ظاهرة السجع في النشر العربي ولدى كثير من المترسلين من لدن العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري . وقد أورد نماذج من سجع كثير من كتاب الترسل ، وأورد آراء مختلف الأدباء في هذا الأسلوب . (انظر : مبارك ، 1 / 75) .

لقد كان الأسلوب الذي نشأ منذ عهد عبد الحميد حتى منتصف القرن الثالث للهجرة أسلوبأ وسطأ بين ما كان سائداً قبل عبد الحميد وما شاع من نهاية القرن الثالث وظهر جليأ في القرن الرابع وما بعده . وقد سمي شوقي ضيف هذا الأسلوب بالأسلوب المولد . (ضيف ، النشر الفني ، 143) . وسماه أنيس المقدسي الأسلوب المتوازن أو المنبسط المزوج (المقدس ، 140) وهذا الأسلوب يظل في إطار مدرسة الترسل التي تضم في جنباتها النشر العربي منذ نشأته إلى أن سيطرت مدرسة البديع .

وأبرز الخصائص التي يمكن أن نرصدها لهذا الأسلوب ما يلي :

1. التوازن غير الملتزم بالسجع . والمقصود بالتوازن تشابه الإيقاع الموسيقي في نهايات الجمل ، بل أحياناً بين أجزاء الجمل المتجاورة ، مما يولد لدى القارئ إيقاعاً موسيقياً واضحاً ، وقد ساعد على ذلك قصر الجمل .
2. الإطناب المتمثل في تكرار الكلام ، بتصوير المعنى الواحد في أكثر من صورة لفظية .
3. اختيار اللفظ المناسب للمعنى ، وذلك بالاستناد إلى ثقافة لغوية واسعة تمكن الكاتب من الاختيار السليم البعيد عن الإغراب الذي ينفّر القارئ .

4. الدقة في التصوير ، وذلك باستخدام ألوان البيان من استعارة وتشبيه وكتابة .

وفي الوقت الذي كان هذا الأسلوب يتراجع قليلاً قليلاً ، كان أسلوب جديد يتشكل ، هو الأسلوب الذي يتكلف له الكاتب ألواناً من الصنعة البديعية وأبرزها السجع .

تدريب (1)

1. تمثل مدرسة الترسل الذوق العربي في الكتابة . وضّح هذا القول .

2. هل يعني الترسل خلل النثر من ألوان البديع خلواً تاماً ؟ فصلّ القول في الإجابة .

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1. ما المقصود بمدرسة الترسل ؟ ومن أبرز من يمثلها من الأدباء في تاريخنا ؟

2. هل كان النثر العربي في صدر الإسلام خالياً من السجع ؟ وضّح جوابك بالأمثلة .

3. اذكر أبرز خصائص أسلوب الترسل .

2.2 مدرسة البديع والصنعة

سبق أن ذكرت لك في بداية الحديث عن مدرسة الترسل وجهة نظر الدكتور شوقي ضيف في تقسيم مدرسة البديع والصنعة إلى قسمين : التصنيع والتصنع . وهذا يعني أن التصنع أشدّ إيفالاً في البديع وفي ألوان أخرى من التعقيد مما هو واضح في التصنيع . (انظر : ضيف ، النثر الفني ، ص 227) وهناك وجهة نظر أنيس المقدسي الذي يجعلها مدرسة واحدة . والخلاف في التقسيم شكلي لا يمس جوهر القضية التي تعني السير في الطريق البديعي والالتزام بأنواعه المختلفة .

لقد كان التوجه إلى البديع وبخاصة السجع ، وإظهار التأنيق في الكتابة صدى لما حدث في الحياة من التعقيد على مختلف مستوياتها ، ولم تعد الكتابة لإرضاء الحاجة العملية فحسب ، بل خطت خطوات لإرضاء النزعة الفنية لدى الإنسان .

وقد برز تيار الصنعة البديعية واضحاً في العصر العباسي ، في نهاية القرن الثاني الهجري ، ثم أخذ ينمو شيئاً فشيئاً ليظهر في صورة جليلة في منتصف القرن الثالث وفي القرن الرابع الهجري . ويبدو أنه كان

للعناصر غير العربية أثر في تنمية هذا الاتجاه . كما أن الثقافات التي أطلع عليها العرب ، وما جدّ من علوم عقلية ، وما استنبط من علوم البلاغة ، كل ذلك أسهم في تنمية النزعة البديعية .

لقد كان السجع أبرز ألوان البديع وأسبقها إلى الظهور . وقد كان جعفر اليرمكي رائداً في هذا الميدان، وقد بنى توقيعاته الشهيرة على السجع . وقد سبق أن عرضت علينا نماذج منها في وحدة سابقة .

وكان لكتاب الدواوين الأثر الأكبر في إشاعة السجع في الكتابة ، وبخاصة الكتابة الديوانية . ولا نصل نهاية القرن الثالث حتى « نجد السجع يصبح عادة في كل ما يصدر عن الدواوين . فليس هناك وزير ولا كاتب إلا وهو يتخذ السجع في صياغته » .

(ضيف ، الفن ومذاهبه ، 199)

وكان للدول التي نشأت في شرق العالم الإسلامي وبخاصة في إيران أثر في سير النزعة البديعية إلى غايتها . وفي ظل هذه الدول نشأ أبرز الكتاب أصحاب هذه النزعة . ومنهم : ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، ويديع الزمان الهمذاني ، والشعالبي ، وفابوس بن ودشمكير ، وأبو بكر الخوارزمي . وغيرهم كثير . وقد سبق أن اطلعت على نماذج من النصوص التي تمثل هذه المدرسة ولكننا نضيف إليك هنا نماذج أخرى تزيدك بصراً بها .

من كلام الصاحب بن عباد

كتب أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب إلى أبي سعيد الشيبيني :

« قد رأى شيخ الدولتين كيف الكلف بسادتي من أهل ميكال - أيدهم الله - بين ود أظهره على البعد، وإبشار أظهره على تراخي المزار ، وتقريظ يمليه عليّ الملوان ، ومدح أنطق فيه بلسان الزمان ، حتى إن ذكرهم إذا جرى على لساني اهتزت له نفسي ، وفضلهم إذا جرى على سمعي انفرج له صدري ، فتلك عصبه خير فضلها باهر ، وشرفها على شرف النماء زاهر ، وشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ناظر . والله يتم أعدادها ، ولا يعدمني ودادها .

وإذا كان إكباري لهم هذا الإكبار ، فكل منتسب إلى جنبيهم أثير لدي ، كثير في يدي ، وطراً علي فلان منتسباً إلى جملتهم ، وحبذا الجملة ، ومعتزياً إلى خدمتهم ، ونعمت الخدمة ، فقرنائه عن طبع سمح ، ولفظ عذب ، وصلة نشر بنظم . فإن شاء قال : أنا الوليد . وإن شاء قال : أنا عبد الحميد . ولم أعظم بمن خرجته تلك النعمة ، ونتجت تلك السدة ، أن يأخذ من كل حسنة بعروة ، ويقدح في كل نار بجذوة ، وأنسنا

بالمقام مدة ، أكدتها شوافع عدة ، إلى أن تذكر معاهد رأى فيها الدهر طلقا ، والزمان غلاماً ، والفضل رهنا ، والإفضال لزاماً ، فحن حنين الركاب ، وركب عزيم الإياب .

(الحصري ، 1 : 167)

أظن أنك لن تخطئ إدراك الفرق بين هذا النص وما سبق من نصوص تمثل المدرسة السابقة ، مدرسة الترسل . فنحن أمام نص غلب عليه السجع حتى لم يفلت منه إلا جمل قليلة . بل أكثر من ذلك نرى نوعاً من محاولة إيجاد تناسب إيقاعي في بعض الجمل بنوع من (السجع الداخلي) إن صح التعبير في قوله :

بين وذا أضمره على الهد

وإبخار أظهره على تراخي المزار .

وهناك لون من المجانسة بين بعض السجعات مثل :

باهر - زاهر .

لدي - يدي .

مدة - عدة .

وفي النص اقتباس من القرآن الكريم مع زيادة اقتضاها مراعاة السجع في قوله :

(شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) وقد زاد في آخرها لفظة (ناظر) ليتم له السجع مع

الجملة السابقة . وفي النص كذلك إشارات ثقافية تتمثل في قوله :

فإن شاء قال : أنا الوليد .

وإن شاء قال : أنا عبد الحميد .

وفي الجملة الأولى إشارة إلى البحري (الوليد بن عبيد الطائي) الشاعر المشهور ، وفي الجملة الثانية

إشارة إلى عبد الحميد الكاتب المشهور .

هذه الملامح نكاد نلمسها لدى كتاب مدرسة الصنعة عموماً على تفاوت بينهم فيها مع إجماعهم على

السجع .

من كلام أبي إسحاق الصابي

فصل له كتاب إلى عضد الدولة في التهنية بعام جديد :

« أسأل الله تعالى مبتهلاً لديه ، ماداً يدي إليه ، أن يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات ، وبالزائدات الغامرات ، ليكون كل دهره يستقبله ، وأمد يستأنفه موفياً على المتقدم له ، قاصراً عن المتأخر ، ويرفيه من العمر أطوله وأبعده ، ومن العيش أعذبه وأرغده ، عزيزاً منصوراً ، محمياً موفوراً ، باسطاً يده ، فلا يقبضها إلا على نواصي أعداء وحساد ، سامياً طرفه ، فلا يفضه إلا على لذة غمض ورقاد ، مستريحة ركابه ، فلا يُعملها إلا لاستضافة عز ، وملك فائزة قداحه ، فلا يجبلها إلا لحيازة ملك ومال ، حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جامحاً ، وتسمر له همته طامحاً » .

(الشعالي ، 2 : 293)

ألا ترى في هذا النص ما رأيت في سابقه ؟

السجع لا يخفى . ويضاف إليه هذا التوازن في كلمات متجاورات في الجملة الواحدة :

بالصالحات الباقيات ، وبالزائدات الغامرات .

أطول وأبعده - أعذبه وأرغده .

والتوازن كذلك بين عدد من السجعات حيث تجد السجعة على وزن شبيهتها .

الباقيات - الغامرات .

أبعده - أرغده .

جامحاً - طامحاً .

وفي النص حرص على الإيقاع ، فمن جملة قصيرة يقفز إلى جملة طويلة ، ويظهر الإيقاع واضحاً

عندما تتجاور جملتان بالصيغة نفسها :

باسطاً يده ، فلا يقبضها إلا على نواصي أعداء وحساد ،

سامياً طرفه ، فلا يفضه إلا على لذة غمض ورقاد ،

مستريحة ركابه ، فلا يُعملها إلا لاستضافته عز وملك فائزة قداحه ...

ولعلك تلاحظ أنه على قصر جملة يحرص على شيء من الإطناب المتمثل في مترادفات أو متقابلات

من الألفاظ :

الزائدات الغامرات / أطوله وأبعده /

أعذبه وأرغده / محمياً موقوراً ...

وفي النص مقابلة في بعض مواضعه ، ومنها :

موفياً على المتقدم له ، قاصراً عن المتأخر .

مستريحة ركابه ، فلا يُعملها إلا لاستضافة عز ..

من رسائل بديع الزمان الهمذاني

مر بك الهمذاني في الوحدة الخاصة بالمقامات ، ورأيت هناك ألواناً من صنعته التي بلغ بها المدى .
وشأن البديع في رسائله كشأنه في مقاماته غراماً بألوان البديع ، وأضع بين يديك نصين قصيرين لتري شيئاً
من أسلوبه الذي سار بهذه المدرسة شوطاً بعيداً هو ومن مضى معه في هذا السبيل :

فصل من كتاب إلى أبيه :

« للشيخ لذة في العتب والسب ، وطبيعة في العنف والعسف ، فإذا أعوزه من بغضب عليه ، فأنا بين
يديه . وإذا لم يجد من يصونه ، فأنا زبونه ، والولد عبد ليست له قيمة ، والظفر به هزيمة ، والوالد مولى
أحسن أم أساء . فليفعل ما يشاء . »

(الشعالي ، 4 : 297 - 298)

نشاط :



انظر في هذا النص واستخرج ما فيه من ألوان البديع .

وهذا نص آخر مضى فيه البديع إلى غاية جديدة سار عليها عدد من الكتاب من بعده ، وهو تضمين
الرسالة أبياتاً من الشعر ، على النحو التالي . وهذا النص فصل من رقعة له إلى الخوارزمي :

أنا لقرب دار الأستاذ - أطال الله بقاءه - كما طرب النشوان مالت به الخمر

ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاز بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب

(الشعالي ، 4 : 296)

إن هذا اللون الذي يمثله هذا النص يدل على أن الكتابة لم تعد للتعبير عما في النفس في صورة حميلة مؤثرة فحسب ، بل صارت معرضاً لثقافة الكاتب بالإضافة إلى مهارته الفنية .

وقد اشتدت موجة التعقيد في الأسلوب على يد عدد من الكتاب ، ومنهم أبو العلاء المعري الذي مر بك نموذج من كتابته في رسالة الغفران . ورأيت كيف يعمد إلى الإغراب في اللغة ، بل لقد امتد التعقيد إلى شعره فلزم ما لا يلزم فيه .

وسار في الطريق نفسه الحريري صاحب المقامات المشهورة ، وله رسائل جاء فيها بأعاجيب في التعقيد . ومنها الرسالة السينية التي ألزم نفسه أن يكون في كل كلمة منها حرف السين . ومثلها الرسالة الشينية . وأظهننا لا يخفى عليك أن اللغة عندما تصل إلى هذا الحد تفقد الغاية منا ، وتصبح الصنعة الفنية هي الأصل ، ويصير الكاتب كناسج ثوب مزخرف أو صانع سجادة مزركشة .

لم يقتصر أثر الصنعة البديعية على الرسائل الديوانية ، ولا الرسائل الأدبية ، ولا المقامات ، بل امتد إلى بعض ألوان الكتابة التأليفية ، وبخاصة مقدمات الكتب . بل إن بعض المؤلفين كتبوا مؤلفاتهم بلغة مسجوعة مصنوعة . ونجد شيئاً من الصنعة في مقدمات حديث الشعالي عن كتب عنهم في الخريدة . وإليك هذا النموذج منه :

من كلام الشعالي في يتيمة الدهر :

« كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصبحا ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدول مشهور بسيادتهم ، وواسطة قلاذتهم ، وكان - رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مأواه - غرة الزمان ، وعماد الإسلام ، ومن به سداد الثغور ، وسداد الأمور ، وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها ، وتنزع لباسها ، وتفل أنيابها ، وتذل صعابها ، وتكفي الرعية سوء آدابها ، وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار ، وتحسم شرهم المثار ، وتحسن في الإسلام الآثار ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرجال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء » .

(الشعالي ، 1 : 37)

إن من الواضح في هذا النص التزام الشعالي باليسج التزاماً صارماً ، وقد أضاف إلى ذلك هذا التقسيم الذي يولد إيقاعاً موسيقياً يُظهره قصر الجمل ، والموازنة بينها . بل إن الموازنة بين السجعات بادٍ في أكثرها .

هذا بالإضافة إلى الجناس في كلمتي :

سداد الثغور وسداد الأمور .

ولم يُسرف الشعالي في ألوان الصنعة إسرافاً يطفئ على المعنى ، بل بقيت زينة غير طاغية . ومن الملاحظ أن الشعالي لم يلتزم أسلوب الصنعة في كتابه كله ، بل اقتصر على مدمات تراجمه عمّن كتب عنهم .

نشاط :



ارجع إلى كتاب بتيمة الدهر وانظر في كلام الشعالي في أكثر من موضع وانظر هل يلتزم الأسلوب البديعي أم لا ؟ واكتب تقريراً عن ذلك .

من كلام ابن رشيقي في مقدمة العمدة :
لم يلدن السجع ولم يولد السجع على الموازنة بين
جمع سجع ، ألوان السجع .

« أما بعد : فإن أحق من جنى ثمر الألباب ، واقتطف زهر الآداب ، متنزهاً في عقول الحكماء ، متفكهاً في أقاويل العلماء ، بالفأ بهمته أعلى المراتب ، خاطباً لنفسه أسنى المطالب ، مستقراً في أعلى ذروة ، متمسكاً بأوثق عروة ، من عرف للعلم حقه وفضله ، وسلك به طرقه وسبيله ، وأكرم في الله مشواه ونزله ، وخص بالتقرب ذويه وأهله ، فاستوجب من جميل الذكر ، وجزيل الذخر ، ما هو أزين في الدنيا ، وأبقى في الأخرى ، كالسيد الأمجد ، والفذ الأوحى ، حسنة الدنيا ، وعلم العليا ، وباني المكارم ، وآبي المظالم ، رجل الحُظب ، وفارس الكُتب .. » (ابن رشيقي 1 / 10) .

بل إن السجع وألوان البديع لتتسلل إلى بعض مقاطع من الكتاب فيما وراء المقدمة :

قال في باب فضل الشعر :

« العرب أفضل الأمم ، وحكمتها أشرف الحكم ، ولفضل اللسان على اليد ، والبعد عن امتهان الجسد ، إذ خروج الحكمة عن الذات ، بمشاركة الآلات ، إذ لا بد للإتسان من أن يكون تولى بنفسه ، أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه » ...

وبلاحظ في هذا النص أن ابن رشيقي لم يكتف بالسجع ، بل حرص على الموازنة بين الجمل ، مع حرص

على قصرها . وهناك جمع بين السجع والجناس في عدد من مواضعه . ومنها :

ذروة - عروة .

الذكر - الذخر .

خصائص مدرسة البديع :

1. شيوع السجع في الرسائل الديوانية والأدبية وتفاوت الأدباء في ذلك بين معتدل في استخدامه ومسرف فيه إسرافاً طغى على المعنى ، كما يروى عن الصاحب بن عباد الذي عزل قاضياً في سجعه حين قال له :

« أيها القاضي بقم » ثم أراد سجعة يتم بها كلامه فكانت « قد عزلناك فقم » !!

2. خروج الكتابة عن غايتها من التعبير عن المعاني إلى إظهار البراعة البلاغية في ميدان البديع، بل تحولت لدى بعض الكتاب إلى غاية تعليمية يقرؤها المتأدبون لينسجوا على منوالها . كما وجدناه لدى بديع الزمان والحريري في المقامات والرسائل .

3. التهويل والمبالغة والإطناب بالعبارات المرصوفة . مع ظهور آثار الثقافة من إشارات تاريخية، وتضمنين للشعر في بعض الرسائل . وإدخال مصطلحات العلوم في الكتابة .

4. ميل بعض الكتاب إلى إظهار القدرة اللغوية بإيراد الغريب من الألفاظ كما ظهر لدى المعري.

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1. كان للكتاب من غير العرب أثر في إشاعة أسلوب البديع في النثر العربي . وضّح ذلك .
2. اذكر خصائص مدرسة البديع .
3. تحدث عن المواضيع التي اشتد فيها ظهور البديع في النثر العربي القديم .



تدريب (2)

1. كان لكتاب الدواوين الأثر الأكثر في نقل النثر العربي من الترسل إلى البديع .
2. ما العوامل التي أدت إلى ظهور مدرسة البديع وغرورها ؟



3.2 مدرسة القاضي الفاضل ^{ابن سنانة} ^{ابن لادبر}

لم يكن القاضي الفاضل بدءاً في عصره ، بل هو امتداد للمدرسة الصنعة ، وقد كانت له لمسات خاصة في هذه المدرسة ، كما كانت له منزلة متميزة في ديوان الإنشاء منذ أواخر العهد الفاطمي ، وارتفعت هذه المنزلة في دولة صلاح الدين . وقد أدى اجتماع القدرة الفنية وعلو المنزلة السياسية والاجتماعية إلى أن يتبوأ القاضي الفاضل الإمامة الفنية للنشر في عصره . وقد أدرك القداماء هذا الأمر فتحدثوا عنه . فقد وصفه النويري في نهاية الأرب بأنه « كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة ، والفاضل بغير إطالة » (النويري ، 8 : ص 1) .

وقال ابن حجة في ثمرات الأوراق « ولعمري إن الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية ، والأيام العباسية نُسي وألغي بإنشاء الفاضل ، وما اخترعه من التكت الأدبية ، والمعاني المخترعة ، والأنواع البديعة ، والذي يؤيده قول العماد الكاتب في الخريدة : إنه في صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع » (ابن حجة الحموي ، ص 97) . وقد نص أكثر من مؤلف على الربط بين القاضي ومن جاء بعده من الكتاب . ومن ذلك ما ذكره ابن حجة الحموي في حق القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر :

« القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر خليفة القاضي الفاضل »

(ابن حجة الحموي ، ص 233)

وحاء في فوات الوفيات :

« القاضي محيي الدين بن القاضي رشيد الدين ، الكاتب الناظم النائر ، شيخ أهل الترسل ، ومن سلك الطريق الفاضلية في إنشائه » .

(الكتبي ، 2 : ص 179)

ومن يُدرج في مدرسته العماد الأصفهاني الكاتب ، الذي كان معاصراً له ، وعمل تحت يده في دولة صلاح الدين . وقال عن نفسه وعلاقته بالقاضي الفاضل :

« وكنت من حسناته محسوباً ، وإلى مناسب الآية منسوباً ، أعرف صناعة ويعرف صناعتي ، وأعارض بضاعة التنمية بمزجاة بضاعتي » (الأصفهاني ، الخريدة قسم مصر ، 1 : 36)

ومن سلكه مؤرخو الأدب في المدرسة الفاضلية جمال الدين بن نباتة وضياء الدين بن الأثير .

(سلام ، الأدب الأيوبي ، 206 - 207)

وسأضع بين يديك أبرز خصائص هذه المدرسة ثم ننطلق معاً لننظر في عدد من النصوص التي تتجلى فيها .

خصائص مدرسة القاضي الفاضل :

لا بد أن أشير إلى أن ما وجدناه من خصائص في مدرسة البديع نجدها هنا ، ولجئنا زيادة ، ولن أكرر ما ورد من قبل ، بل سأشير إلى ما تميزت به هذه المدرسة :

1. الاقتباس من القرآن الكريم . وقد تنوعت أساليب الاقتباس بين إيراد نص الآية بلفظها ، أو إيراد بعض اللفظ في ثنايا الكلام ، أو الإشارة إلى المعنى .

2. إطالة العبارة وسعة الترميل وإليك إلى العطف والترادف والإطناب . وذلك لإظهار القدرة البلاغية في التعبير عن المعنى الواحد في صور لفظية متعددة تتيح للكاتب إيراد ألوان من البديع المختلفة .

3. التشخيص باستخدام أساليب البيان المختلفة وبخاصة الاستعارة .

4. إدراج مصطلحات العلوم في ثنايا الكلام واستخدامها استخداماً مجازياً ، ومن ذلك مصطلحات النحو والصرف والفقه وغير ذلك .

5. استخدام الغريب في بعض الأحيان للوصول إلى السجع والجناس وغير ذلك من أساليب البديع .

6. تضمين الكلام من الحديث النبوي والشعر القديم والمثل السائر والنوادر وقصص العرب وحكاياتهم وما له صلة بهم .

وإذا كانت هذه هي الخصائص العامة لهذه المدرسة فإنك قد تجد بعض عناصرها تظهر أكثر من غيرها في نص دون نص ، ولدى كاتب دون كاتب . فقد يميل كاتب إلى الجناس ، ويميل آخر إلى التورية .

وقد ظهر بعد القاضي الفاضل كتاب كبار لا يقلون عنه في المنزلة ، ومنهم أبناء الأثير ، وآل فضل الله العمري ، وشهاب الدين محمود وصلاح الدين الصفدي .

نشاط :

ارجع إلى كتاب : الأدب في العصر المملوكي للدكتور محمد زغلول سلام ، ج 2 ، الباب العاشر ، ص 45 - 104 حيث تحدث المؤلف عن هؤلاء الكتاب وغيرهم ولخص ما ورد فيه .



والآن لننتقل إلى النظر في نماذج تمثل هذه المدرسة . لقد سبق لك أن اطلعت على نماذج من رسائل القاضي الفاضل في وحدة سابقة ، وسيمر بك شيء من نشره في الوحدة التالية ، ولذلك لن أطيل النقل من رسائله ، ولكنني سأضع بين يديك مقتطفات تتجلى فيها بعض خصائص مدرسته .

جاء في نهاية الأرب للنويري في الجزء الثامن عدد كبير من رسائل القاضي الفاضل الديوانية والشخصية . وإليك هذا النص .

« كتب إلى بعضهم :

أحبابنا هل تسمعون على النوى تحية عانٍ أو شكاية عاتب

ولو حملت ريح الشمال إليكم كلاماً طلبنا مثله في الجنائب

أصدر العبد هذه الخدمة وعنده شوق يغور وينجد ، ويستغيث من ناره بماء الدمع فيجيب وينجد ، ويتعلل بالنسيم فيغري ناره بالإحراق ، ويرفع النواظر إلى السلوان فيعيدها الوجد في قبضة الإطراق ، أسفاً على زمن تصرم ، ولم يُبق إلا وجداً تضرم ، وقلباً في يد البين المشت يتظلم :

ليالي نحن في غفلات عيش كأن الدهر عنا في وثاق

فلا تنفس خادمه نفساً إلا وصله بذكره ، ولا أجرى كلاماً إلا قيده بشكره ، ولا سار في قفر إلا شبهه برحيب صدره ، ولا أطل على جبل إلا احتقره بعلي قدره ، ولا مر بهروضة إلا خالها تفتحت أزهارها عن كريم خلقه ونسيم عطره ، ولا أرقد المصطلحون ناراً إلا ظنهم اقتبسوها من جمره ، ولا نزل على نهر إلا كاثر دمعه ببحره » .

(القلقشندي ، 8 : 18)

أظن أنك ستلمح في هذا النص على قصره أكثر خصائص أسلوب القاضي الفاضل واضحة . فالاستشهاد بالشعر واضح لا يحتاج إلى دليل . والسجع المقرون بالجناس بين ، ومنه :

ينجد - ينجد ، الاطراق - الإطراق ، تصرم - تضرم ، بذكره - بشكره ، صدره - قدره ..

والتشخيص يغشى النص في أكثر أجزائه : فالشوق يغور وينجد ، وماء الدمع يجيب وينجد ويعيدها الوجد في قبضة الإطراق . وهكذا تجد المعاني شاخصة أمام عينيك في صورة محسوسة .

والإطناب المسترسل هو الأسلوب الغالب على النص ، ولو أردت للخصت الفكرة التي دار حولها النص في كلمات قليلة ، ولكنه زاد وأعاد ، وعبر وصور ، في أساليب شتى ، أظهر من خلالها معالم فنه الكتابي .

وفي النص إلماح إلى ما ورد في القرآن الكريم من قصة موسى ورؤيته النار ، وذلك في قوله « ولا أوقد المصطلحون ناراً إلا ظنهم اقتبسوها من جمره » والإلماح هنا يعيد ، وليس المقصود قصة موسى بل الإشارة إلى الاصطلاء بالنار هذه التي استفادها من النص القرآني .

وانظر في هذا النص للقاضي الفاضل ، وأظنه يذكر بما سبق أن اطلعت عليه من قريب من إنشاء بديع الزمان الهمداني الذي حشد في نصه أنصاف أبيات يتمم بها إنشاءه . ما قال التويري مقدماً لنص القاضي الفاضل :

« ومن كلامه رحمه الله تعالى ما ركب نصف قرآنه على نصف بيت نحو قوله :

« وصل كتاب مولانا بعدما - أصوات المناادي للصلاة فأعتما ، فلما استقر لدي - تجلى الذي من جانب البدر أظلم ، فقرأته - بعين إذا استمطرتها أمطرت دماً ، وساملته - فساملت مصروفاً عن النطق أعجماً ، ولم يرد جواباً - وماذا عليه إن أجاب متبماً ، ورددته قرامة - فعوجلت دون الحلم أن أحلماً ، وحفظته - كما يحفظ الحر الحديث المكتما ، وكررته - فمن حيثما واجهته قد تبسما ، وقبلته - فقبلت دراً في العقود منظماً ..

(التويري ، 8 : 47)

والنص لا يحتاج إلى تعليق ، وانظر إن شئت بقيته وأشباهاً له في نهاية الأرب في الصفحات اللاحقة له .

ولنتقل إلى النظر في نصوص أخرى لكتاب آخرين ساروا على منهج القاضي الفاضل ، فقد أطلنا الرقوف معه من قبل ومن بعد .

وهذا نص مما كتبه العماد الأصفهاني في رسالته التي بعثها على لسان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر لدين الله في بغداد ، بعد فتح القدس :

« والحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه ، بعد أن كان جديداً حبله ، مبيضاً نصره ، مخضراً نصله ، متسعاً فضله ، مجتمعاً شمله ، والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ، ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الجبرر لكافة المسلمين ، ويكرر البشري بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ، سخرها الله على الكفار ، (فترى القوم فيها كأنهم أعجاز نخل خاوية) ورايتها إلى الإسلام ضاحكة ، كما كانت من الكفر باكية ، فيوم الخميس الأول فتحت طبرية ، وفاض ري النصر من بحيرتها ، وقضت على جسرهما الفرنج فقضت نجبها بحيرتها ، وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدي

أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة ، وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالأمان ، ورفعت بها أعلام الإيمان ، وهي أم البلاد ، وأخت إرم ذات العماد ، وقد أصبحت كأن لم تغن بالكفر ، وكأنها لم تفتقر من الإسلام .

(القلقشندي ، 6 : 518 - 519)

لعل أبرز ما يلفت النظر في هذا النص هو هذا الاقتباس الكثير من القرآن الكريم ، ولعلك تلاحظ أن هذا الاقتباس مما لا يمكن أن يوضع بين قوسين ، لأنه تداخل مع كلام المؤلف ، وقد جاء في ثلاثة مواضع أرجو أن تتنبه إليها .

والسجع واضح في النص وإلى جانبه ألوان أخرى فمنه الجناس ، انظر : جديداً ثوبه = جديداً حبله .

وأظن أن من المعلوم لديك أن جديداً الأولى من الجدة ، والثاني من جد أي قطع .

وانظر إلى الموازنة في السجعة وما قبلها في قوله :

متسعاً فضله - مجتمعاً شمله .

ومن السجع والجناس : بُحيرتها ، بِحيرتها (بزيادة الباء على الحيرة ليكون الجناس تاماً) .

وانظر في هذا النص من كلام القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كيف تلاعب فيه بمصطلحات النحر ووظفها في غير معانيها .

« هذه المفاوضة إليه - أعزه الله - تفهمه أنا بلغنا أن فلاتاً أضمر سيدنا له فعلاً غداً به منتصباً للمكان ، وليس موصولاً كالذي بصلة وعائد ، وما زال إلا لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير ، ونعوت صحبته تكررت ، فجاز قطعها بذلك التكرير ، وسيدنا يعلم بالعلمية المدكون من الإنافة ، وما لإضافته إلى جلالاته من الاتماء الذي يجب أن يكون لأجله عيشه به خفضاً على الإضافة ، وكان الظن أن الأشغال التي جمعت له لا تكون جمع تكسير بل جمع سلامة . »

(القلقشندي ، 1 : 177)

تأمل هذا النص نجد أنه محشورٌ بمصطلحات النحر ، ولكن هذه المصطلحات استخدمت في وصف العلاقة بين الكاتب ومن خاطبه . ويبدو أنه كتبها باقتراح من صاحبه ، ليظهر قدرته وأساليب فنه !!

ومن كلام محيي الدين بن عبد الظاهر ، من رسالة بعث بها إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وزير السلطان الملك الظاهر بيبرس ، يتحدث فيها عن غزو الملك لقيسارية من بلاد الروم ، واقتلاعها من أيدي التتار ، ولعل مما يلفت نظرك فيها وفي غيرها من الرسائل الديوانية في هذا العصر ، هذه الألفاظ التي تحمل الخضوع والتذلل من الكاتب لمن يكتب له من سلطان أو وزير أو غيره من أصحاب المناصب :

« يقبل الأرض بساحات الأيواب الشريفة السيديّة ، صاحبيّة البهائيّة لا زالت ركائب السيّر تحت إلى أرجائها السيّر ، وصروف الزمن تسالم خدامها ومحلّ الغيّر بالغيّر ، ولا برحت مواطن البر ومعدن الجود وبحر الكلام وعكاظ الخير ، ويُنهي بعد رفع أدعيته التي لا تزال من الإجابة محوطة ، ولا تبرح يدها بها ميسوطة ، أن العبيد من شأنهم إتحاف موالبيهم بما يشاهدونه في سفراتهم من عجائب ، وإطلاعهم على ما يرونه في غزواتهم من غرائب ، ليقتضوا بذلك حقوق الاسترقاق ، وتكون نعم ساداتهم قد أحسنت لأفواههم الاستنطاق ، ويتعرضوا لما عساه يعن من مراحمهم التي ما عندهم غيرها ينفذ وما عندها باق . »

(القلقشندي ، 14 : 139)

إنه يبدو لك في هذا النص أكثر من خصيصة من خصائص هذه المدرسة فالسجع هو القاعدة ، وإلى جانبه الجناس :

السيّر - السير ، الغيّر - الغير .

وفي النص إشارة تاريخية إلى سوق عكاظ في قوله : عكاظ الخير . وأظن أن أسلوب الاقتباس الذي اتبعه يتضح لك بأنه ليس يأخذ الآية بنصها بل بالإشارة إليها واستخدامها على غير ما وردت في القرآن الكريم . فقوله « ولا تبرح يدها ميسوطة » مأخوذ من قوله تعالى « بل يدها مبسوطتان يتفق كيف يشاء » . وقوله « لما عساه يعن من مراحمهم التي ما عندهم غيرها ينفذ ، وما عندها باق . »

ومن كلام جمال الدين بن نباتة هذا النص الذي يتحدث فيه عن شفاء السلطان :

« أورد الله عليه من الهناء كل سري يسره ، وكل سني يقرّ أمام ناظره الكريم ويقره ، وكل وفي إذا طلع في افاق حلب قيل : لله دره ! ولا زالت البشائر تلقاه بكل وجه جميل ، وبكل جلي جليل ، وبكل خير تصح الدنيا بصحته ، فليس بها غير النسيم عليل ، تقبيلاً يزاحم عقود الشفور ، ويكاد يمنع ضم الشفتين للثم طول الابتسام للسرور ، وينهي بعد رفع اليد بدعائه ، وضم الجوانح على ولاته ، وجزم الهناء المشترك بمسرة مولانا وهنائه ، أن المثال الشريف زاده الله شرفاً ، وزاد فضل سلطانه على العباد سرفاً ، ورد بالبشارة العظمى ، والنعماء التي ما ضاقتها الأيام قبل بنعمى ، والمسرة التي يأكل حديثها أحاديث المسرات أكلاً لما ، وحبها الإسلام حباً جما ، بسلامة جوهر الجسد الشريف من ذلك الغرض ... » .

(القلقشندي ، 8 : 362)

السجع واضح في هذا النص بلا خفاء . ومع السجع يبدو الجناس الذي أولع به ابن نباتة جرياً على منهج القاضي الفاضل :

سريّ - بسرّ ، يقرّ - يُقرّ ، جليّ - جليل ، النعمى - النعماء ... وأظن أن استخدامه لبعض مصطلحات النحو لا يحتاج إلى بيان ، ومنها : الرفع ، والضم ، والجزم .

والإطناب بترديد المعنى الواحد في صور لفظية متعددة لا يحتاج إلى بيان .

عزيزي الدارس

أرجو ألا تكون قد ضقت ذرعاً بكثرة ما أوردنا لك من النصوص ، وأظن أنك تدرك أننا لم نورد لك إلا القليل على سبيل التمثيل !! وفيما ورد في الوحدات السابقة ما يغني عن المزيد ، وستمر بك في الوحدة التالية الأخيرة نصوص أخرى .

نشاط :

اختر نصين : لابن العميد نصاً وللقاضي الفاضل آخر ، ثم وازن بينهما من حيث الخصائص .

أسئلة التقويم الذاتي (3)

1. ما المقصود بمدرسة القاضي الفاضل ؟ وما العوامل التي ساعدت على ظهورها ؟ ومن أبرز من يمثلها ؟ اكتب بـ (بم لا يتر)
2. اذكر خصائص مدرسة القاضي الفاضل .
3. هل ترى أن أثر الرسائل في عصر انتشار البديع كان عاماً أم مقصوراً على النخبة ؟

تدريب (3)

1. مدرسة القاضي الفاضل هي امتداد لمدرسة البديع . وضّح هذا القول .
2. تجاوز أسلوبا البديع والترسل حتى في أشد عصور انتشار البديع . ناقش هذه القضية .

عزيمي الدارس ،

لقد طفنا في هذه الوحدة في رحلة طويلة مع النثر العربي ووقفنا على أبرز مدارس ، وليست هذه هي المدارس كلها . ففي مدرسة الترسل مدارس فرعية تتعدد بتعدد الكتاب الكبار ، فعبد الحميد صاحب مدرسة تبعه كتاب الرسائل دهرأ من الزمن ، والجاحظ زعيم مدرسة تبعه عدد من المؤلفين .. وهكذا ...

وفي مدرسة البديع اتجاهات أكثر ، لأن المدة التي سيطرت فيها أطول ، وليس القصد من هذه الدراسة الاستقصاء ، بل الوقوف على المعالم الرئيسة .

وإذا كانت مدرسة الترسل قد سيطرت في العصر الجاهلي و صدر الإسلام وبنى أمية وشطراً من العصر العباسي ، فإنها لم تتلاشى حين سيطرت مدرسة البديع ، وبقي لها أنصار ، وبخاصة في النثر التأليفي .

وأما مدرسة البديع فإن الجامع بين أطرافها هو الالتزام باللون من البديع وأهمها السجع . وتتعدد الاتجاهات فيها بعد ذلك ، وفق سيادة بعض ألوان البديع الأخرى ، حسبما يتفق والمزاج الفني للكاتب . وقد وجه المتأخرون أن البديع مما تركه الأول والآخر فأسرفوا فيه وتفننوا ، حتى طغت الصنعة لدى بعضهم على المعنى .

ولعله لا يغيب عن بالك أن مدرسة الصنعة قد أخذت بالتراجع منذ عصر النهضة الأدبية الحديثة ، ونحن اليوم لا نكاد نجد من يلتزم بالبديع ، بل لا يكاد الناس يسيغون أسلوب الصنعة ، وإذا ورد البديع في نص فإنه يأتي من غير تكلف أو قصد .

4. لمحة مسبقة عن الوحدة التالية

إذا كنا قد وقفنا في هذه الوحدة على أبرز مدارس النثر الفني فإننا سنقف في الوحدة التالية على أبرز كتاب النثر الفني ، وقد يحدث نوع من التداخل بين هذه الوحدة والتي تليها ، ولكننا سنسعى إلى ألا يحدث ذلك .

وإذا كان تاريخنا الأدبي عامراً بالشخصيات التي تستحق الدراسة فإن ضرورة الدراسة تقتضي الاختيار . وقد تم اختيار شخصيات تمثل كلاً من مدرستي الترسل والبديع . فعبد الحميد والجاحظ من مدرسة الترسل . وابن العميد والقاضي الفاضل من مدرسة البديع والصنعة . وإلى جانبهم سندرس شخصية أدبية أندلسية هي ممن يدخل في مدرسة البديع ، ولكنها تمثل الجناح الغربي للأدب العربي .

وأرجو أن تعينك الوحدة التالية على الاطلاع على لمحات من حياة تلك الشخصيات وأدبها ، كما تطلع على مصادر دراستها .

5. إجابة التدريبات

تدريب (1)

تمثل مدرسة الترسل الذوق العربي في الكتابة . وضع هذا القول .

للإجابة عن هذا السؤال لا بد أن نتذكر أن مذهب الترسل قد ساد في نشرنا العربي منذ عرف النشر الفني في تاريخنا حتى القرن الثالث الهجري : منتصفه أو أواخره . والأدباء الكبار الذين حملوا رايته كانوا من العرب أو من الأدباء غير العرب الذين تشبعوا بأساليب العرب .

وأظنك قد لاحظت أنه كلما ابتعد المجتمع عن البيئة العربية وتأثر بالبيئات الجديدة ، والحضارات الجديدة، ازداد البعد عن أسلوب الترسل واقترب النشر من الصنعة . ولقد تولى الأدباء الفرس وبخاصة منذ جعفر اليرمكي رفع راية الصنعة التي أنجبت كبار الأدباء الذين ساروا في مذهب الصنعة شوطاً بعيداً ، ومنهم أبو بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمداني ، وابن العميد والصاحب بن عباد وغيره .

تدريب (2)

هل يعني الترسل خلو النشر من البديع خلواً تاماً ؟

ظهر من دراستنا لمدرسة الترسل أنه في الفترة التي سادت فيها كان الغالب البعد عن البديع باعتباره حلية وزينة للكلام ، يرد فيه حيناً بعد حين ، بما يطرب ويُعجب ؛ وقد رأينا أنه قد ورد السجع في القرآن الكريم ، ولكن من غير التزام أو طفيلان على المعنى ، وكذلك الحال في الحديث النبوي الشريف ، وفي كثير مما أثر عن العرب من رسائل ومن خطب وأقوال . فالبديع زينة للكلام إن ورد فيه بقدر معقول كان مقبولاً ، ولا يخرج النص من مذهب الترسل . وأما مذهب البديع فإن العمدة فيه القصد إلى التزام ألوانه ، واعتبار الخروج عنه نقصاً في البلاغة ، والسير فيه شوطاً يجعله لازماً ومحاولة التجريد في ألوانه البديع المستعملة ليكون لكل كاتب شخصيته البديعية الخاصة ...

تدريب (3)

1. تحدث عن أثر كتاب الدواوين في نقل النشر العربي من الترسل إلى البديع .

يبدو لنا من دراسة تاريخ النشر العربي أن النشر الفني يقصد فيه أول ما يقصد الرسائل الديوانية ، وتليها الرسائل الأدبية ، ثم الرسائل الأخوانية ، ويضاف إلى ذلك المقامات . ويأتي النشر التأليفي بعد ذلك . ولو نظرنا فيمن نهض بهذا النشر وتولى تطويره ، وتجديد أساليبه لوجدنا أن كتاب الدواوين في الطليعة .

وساعدنا في هذا الفهم القول المشهور « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » فابن العميد وأستاذه سالم هما اللذان حملتا راية التجديد في أساليب الكتابة الديوانية ، وكما ذكر الدكتور إحسان عباس انتقل الكاتب من متلق لما يمليه عليه الخليفة أو الوالي إلى منشى يريد أن يظهر أسلوبه الخاص في كتابته . وقد بلغ من علو شأن الكتابة أن صارت هدفاً يُسعى إليه كما يُسعى إلى الوزارة ، وصار لا بد للكاتب أن يكون ذا ثقافة عالية ليكون أهلاً للكتابة .. ومع الثقافة المتميزة لا بد من التميز في الأسلوب ، ومن هنا أخذ كل كاتب يحاول التجديد والتحسين .. وكان البديع وألوانه بالإضافة إلى استحداث الصور الجديدة في البيان ميدان التنافس .. ومن يذكر من كتاب الدواوين سهل بن هارون وعمرو بن مسعدة ، وابن العميد وأبوه وابنه ، والصاحب بن عباد وغيرهم وإذا رجعت إلى كتاب « الفن ومذاهبه في النشر العربي » لشوقي ضيف وجدته قد عقد فصلاً بعنوان « التصنيع والدواوين - فيه مزيد بيان .

تدريب (4)

ما العوامل التي أدت إلى ظهور مدرسة البديع وفنوها ؟

إذا سلمنا بأن الأدب صورة للحياة ، وأنه يتأثر بما فيها من تطورات وتغيرات ، فإننا ندرك لماذا تغير الأسلوب من الترسل إلى الصنعة والبديع . فعندما انتقل العرب من حياة البادية والحواضر البعيدة عن التعقيد إلى حواضر جديدة ، اختلطت فيها أجناس عديدة ، واطلع أهلها على ثقافات جديدة ، وأساليب تعبير لم يكن لهم بها علم . طرأت لهم حضارة جديدة فرضت لوناً جديداً من التعبير !

فالذي تغير نمط سكنه ، وتغيرت ملبسه ، وتغيرت ألوان طعامه ، لم تكن أساليب التعبير بعيدة عن التعبير لديه ...

يضاف إلى هذا تلك الحركة العقلية التي قادها علماء الكلام من زعماء المعتزلة ، التي ولدت نمطاً جديداً من التفكير ، واقتضت نمطاً جديداً في التعبير ...

إذا .. هناك عوامل اجتماعية .. وعوامل فكرية ... وعوامل فنية .. كلها أسهمت في الاتجاه إلى هذا (اللون المترف) من التعبير .. الذي اختلفت درجات الترف فيه من البساطة إلى التعقيد المسرف ...

تدريب (5)

1. مدرسة القاضي الفاضل هي امتداد لمدرسة البديع . وضّح هذا القول .

مدرسة القاضي الفاضل في إطارها العام تدخل في مدرسة الصنعة والبديع ، بل بلغت درجة متقدمة في هذا الميدان ، دفعت بالدكتور شوقي ضيف إلى تسميتها هي وما شاكلها بمدرسة التصنع ، أي الإغراق في الصنعة . فالسجع والجناس والتورية والطباق .. ورد الأعجاز على الصدور .. وغير ذلك من ألوان البديع التي تفنن المتأخرون في استنباط الجديد منها حتى جاوزت العشرات إلى المئات ، في تفرع لكل إلى أجزاء صغيرة !

فلم تكن مدرسة القاضي الفاضل جديدة كل الجدة ، ولكن تميزها بما كان للقاضي الفاضل من غرام بالجناس ، وطرق في الاقتباس عن القرآن الكريم ، وغير ذلك من أساليب التقديم في الرسائل وطرق خطاب من بوجه إليهم رسائله .. كل ذلك مع كونه رأساً في دولة صلاح الدين أعطى هذه الكوكبة من الكتاب اسم مدرسة القاضي الفاضل ، وإلّا فهي امتداد طبيعي لمدرسة البديع والصنعة .

تدريب (6) ^{اجتماعي}نقري

كيف تعلق تجاور أسلوب البديع والصنعة مع أسلوب الترسل في أشد عصور انتشار البديع ؟

يبدو أن أسلوب الترسل هو الأقرب إلى الفطرة ، وكلما ارتقى الإنسان في سلم الحضارة واقترب من التعقيد في الحياة انعكس ذلك على أسلوبه في الأدب . ولكن الناس لبسوا سواء في حياتهم . ففي الوقت الذي يفرق فيه بعض الناس في ترف الحياة وترف الأسلوب ، نجد من يعيش في الفقر المدقع ، أو في حياة أقرب إلى الفطرة والبساطة ، وذلك الحال ينعكس على أسلوبه الأدبي .

وهناك أمر آخر هو أن الناس يحبون الخروج على المألوف فيوم كان الترسل هو السائد ظهر من رغب في الخروج عليه . وكذلك الحال عندما طغى سلطان البديع . ومن الكتابات التي خرجت على ذلك ما سطره ابن القيم وقبله ابن الجوزي وابن خلدون وغيرهم من كبار الكتاب الذين تحرروا من البديع في كثير من كتاباتهم وإن جاوا ذوق عصرهم في بعض ما انتجوه .

فمرد هذا التجاور نفسي من جهة إذا نظرنا إلى الكتاب . واجتماعي إذا نظرنا إلى ذوق العصر العام وعلاقة الكاتب الذي يخرج على ما هو مألوف بمجتمعهم ونمط حياته ...

6. المصادر والمراجع

1. الأصفهاني ، العماد ، خريدة القصر ، وجريدة العصر ، قسم شعراء مصر ، تحقيق د. شوقي ضيف ، وأحمد أمين و د. إحسان عباس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1951 .
2. الألباني ، ناصر الدين ، صحيح الجامع الصغير ، ط 2 ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1986 .
3. باشا ، عمر موسى ، الأدب في بلاد الشام ، عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، ط 1 ، دار الفكر ، دمشق ، 1989 .
4. الثعالبي ، أبو منصور ، يتيمة الدهر ، تحقيق مفيد قميحة ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983 .
5. الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم ، زهر الآداب ، تحقيق زكي مبارك ، ط 4 ، دار الجيل ، بيروت ، 1972 .
6. الحموي ، ابن حجة ، ثمرات الأوراق ، شرحه وضبطه د. مفيد قميحة ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983 .
7. سلام ، محمد زغلول ، الأدب في العصر الأيوبي ، دار المعارف ، 1983 .
8. سلام ، محمد زغلول ، الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف بمصر .
9. ضيف ، شوقي ، الفن ومناهبه في النثر العربي ، ط 10 ، دار المعارف .
10. القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الأعشى ، منشورات وزارة الثقافة بمصر - القاهرة ، 1963 .
11. القيرواني ، ابن رشيقي ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت .
12. الكتبي ، محمد بن شاکر ، فوات الوفیات ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
13. مبارك ، زكي ، النقد الفني في القرن الرابع ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت .

14. المقدسي ، أنيس ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، ط 3 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1965 .
15. ابن المقفع ، عبدالله ، الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة ، ط 3 ، مكتبة البيان ، بيروت .
16. النويري ، شهاب الدين أحمد ، نهاية الأرب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

الوحدة الثامنة

من أعلام النشر الفني

المحتويات

الصفحة	الموضوع
379	1. مقدمة
379	1.1 التمهيد
379	2.1 أهداف الوحدة
380	3.1 أقسام الوحدة
380	4.1 القراءات المساعدة
381	5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة
382	2. من أعلام النثر الفني
383	1.2 عبد الحميد الكاتب : حياته وخصائصه
390	2.2 الجاحظ شيخ مدرسة الترسل : حياته وخصائص كتابته
399	3.2 ابن العميد : حياته وملامح أسلوبه
404	4.2 القاضي الفاضل : حياته وخصائص نثره
408	5.2 العماد الأصفهاني : حياته وخصائص أدبه
414	6.2 لسان الدين بن الخطيب : حياته وخصائص أسلوبه
421	3. الخلاصة
422	4. إجابة التدريبات
433	5. المراجع

1.1 التمهيدي

لقد عشت أخي الدارس مع هذا المقرر في وحداته السابقة ، واطلعت على فنون النثر العربي القديم ، من رسائل وتوقيعات ، وخطب ومناظرات ، وقصص ومقامات . ووقفت على أبرز مدارس النثر الفني التي ظهرت في تاريخنا الأدبي ، وأرجو ألا يكون ما ستقف عليه في هذه الوحدة من المكرر من المعلومات ، حيث ستكون لك وقفة مع عدد من أعلام النثر الفني .

وقد سبق لك أن اطلعت على الخطوط العامة لحياتهم من خلال التعرف بهم في الوحدات السابقة . ولكن ما ستقف عليه هنا يزيد على ما سبق ، ذلك لأن لدي الحرص على أن أضع بين يديك - بالإضافة إلى المعلومات - مفاتيح للوصول إلى طريقة الوقوف على حياة الشخصيات ، حتى إذا مرت بك شخصية ما استطعت من خلال هذه المفاتيح أن تصل إلى مرادك من المعلومات . وإن من العيوب التي يقع فيها كثير من الدارسي أنهم يتطلعون إلى المعلومات الجاهزة التي لا تكلفهم عناءً إلا عناء الاستظهار للحصول على درجة في الامتحان ، لا لتحصيل المعرفة التي ينبغي أن تكون ظمناً دائماً يلزم الدارس مدة حياته ، وهذا ما ينبغي أن يسعى إليه المؤلفون والمدرسون والطلاب معاً . وإني لأرجو أن تكون هذه الوحدة الختامية مسك الختام ، الذي يدفعك إلى إدامة الصلة بالنثر العربي القديم وأعلامه .

2.1 أهداف الوحدة

أرجو أن تكون بعد دراستك لهذه الوحدة قادراً على أن :

1. تعرف المصادر والمراجع التي تعينك على دراسة الشخصيات القديمة والحديثة ، بامتلاك مفاتيح المعرفة الخاصة بذلك .
2. تميّز أساليب الكتاب المعروفين من خلال الوقوف على ما يميّز كل واحد منهم لتكون قادراً على معرفة صاحب النص من خلال ذلك .
3. تكون قد اطلعت على نصوص جديدة لأعلام النثر الفني القديم تزيدك قدرة على الفهم والتذوق للأدب القديم .
4. تكون قد اطلعت على ملامح جديدة من أعلام النثر الفني القديم .. فتزداد معرفة بتاريخنا الأدبي .

3.1 أقسام الوحدة

يتكون المحتوى الأساسي لهذه الوحدة من ستة أقسام وسيتيح لك كل قسم منها أن تتعرف على شخصية من أبرز كتاب النثر الفني القديم وخصائص أدب كل منهم ، وأبرز ما ترك من آثار أدبية . ولعلك تلاحظ أنه قد تمّ ترتيب دراسة هذه الشخصيات وفق التسلسل الزمني :

فأولها عبد الحميد بن يحيى الكاتب

ثم الجاحظ

ثم ابن العميد

ثم القاضي الفاضل

ثم العماد الأصبهاني

ثم لسان الدين بن الخطيب .

وستجد في نهاية الحديث عن كل شخصية من هذه الشخصيات نصوصاً جديدة غير التي درستها من قبل ، وضعت بين يديك لتطلع على شيء جديد من آثار كل كاتب ، وتزداد معرفة بأسلوبه وشخصيته الأدبية.

وهذه الأقسام جميعها تتساوى في تحقيق الأهداف المرسومة في البند السابق .

4.1 القراءات المساعدة

إن من المفيد لك أن تطلع على الصفحات المحددة من الكتب التالية لتطلع على مناهج المؤلفين المعاصرين في الترجمة لأعلام النثر القديم .

1. المقدسي ، أنيس ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، ط 3 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1965 ، ص 163 - 174 .

2. ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط 10 ، دار المعارف ، القاهرة . ص 333 - 337 .

3. مبارك ، زكي ، النثر الفني في القرن الرابع ، ج 2 ، ط المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ص 235 - 255 .



5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة

ما تحتاج إليه أيها الدارس الكريم هو قراءة المادة العلمية ، والقيام بالأنشطة المطلوبة ، والإجابة عن التدريبات وعرضها على المرشد ، وإجابة التقويم الذاتي . وإدامة الصلة بالمكتبة بالنظر في المراجع التي تعينك على الإحاطة بالموضوع .

2. أعلام النثر الفني

مدخل إلى الدراسة

يحسن بنا قبل أن نبدأ بدراسة أبرز أعلام النثر الفني القديم أن نقف على الطريقة التي تعيننا على معرفة مصادر هذه الدراسة ، لنستخدمها كلما احتجنا إليها .

إن طلاب المعرفة قسمان : فمنهم من يريد أن يعرف عن شخصية ما معلومات قليلة تعرفه بهذه الشخصية : الولادة وخطوط الحياة وأبرز المنجزات والآثار التي تركها من بعده ، ثم سنة الوفاة .

والقسم الآخر هو الذي يريد المعرفة الواسعة التي لا تنشأ عن هذه العجلة التي اكتفى بها القسم الأول. ولكل من القسمين ما يريد من مصادر المعرفة .

إن من أهم المصادر المعينة على معرفة حياة الشخصيات في تراثنا وعصرنا الحاضر :

1. الأعلام : لخير الدين الزركلي .

وهذا الكتاب يقدم خدمة جليلة للباحثين وطلاب المعرفة ، ولعلك تدرك مضمون هذا الكتاب من عنوانه:

الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين .

وإذا رجعت إليه تجد أن المؤلف يقدم لك معلومات موجزة عن الشخصية ، يختلف طولها وفق أهميتها ، وما يتوافر عنها من معلومات في المصادر . ويورد بعض منجزات الشخصية وما تركت من آثار من بعدها . وإذا كانت هذه المعلومات ذات أهمية لطالب المعرفة العجلان ، فإن ما يورده من المصادر والمراجع التي استمد منها المعلومات والتي تحوي تفصيلات أخرى ذات أهمية للباحث الذي يريد المزيد .

بمؤلفه

2. معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة :

وهذا الكتاب يقرب في منهجه من الأعلام ، ولكن الفرق الجوهرى بين الكتابين هو أن معجم المؤلفين متخصص ، وعنوانه يدل على ذلك . حيث لا يرد فيه إلا من ترك من بعده مؤلفات .

ولعلك من خلال دراستك للمكتبة العربية اطلعت على الكثير من المصادر القديمة التي تخدم الباحث

عن الشخصيات في التراث ، ومن أبرزها :

وفيات الأعيان - لابن خلكان

وفوات الوفيات - لابن شاعر الكتبي

والوفاي بالوفيات - لصلاح الدين الصندي .

وان من المفيد لدارس اللغة العربية أن يكون على صلة بدائرة المعارف الإسلامية التي تقدم معلومات عن كثير من الشخصيات البارزة في تراثنا . وكذلك تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، وكتاب : تاريخ التراث العربي لفيضان سيزكين ، الذي استوعب ما أورده بروكلمان وزاد عليه .

نشاط (1)



ارجع إلى كتابين من الكتب التي وردت في هذا المدخل واستخرج المعلومات الواردة عن شخصية أو أكثر وقدم ذلك إلى مرشدك .

سؤال التقويم الذاتي (1)



ما الطريق الذي تسلكه إذا أردت أن تعدّ بحثاً عن شخصية من الشخصيات ؟

1.2 عبد الحميد الكاتب

إن من العبارات المألوفة لديك التي يتناقلها الخلف عن السلف في ميدان دراسة الأدب تلك المقولة : بُدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ! وعلى الرغم مما في هذه الجملة من حكم قابل للبحث ، فإنها تدل على مكانة متميزة لعبد الحميد الكاتب . وقد لقي عبد الحميد شهرة واسعة واهتماماً من الكتاب عبر العصور ، ولو رجعت إلى كتاب الأعلام لوجدت بعض هذه المصادر ، ومنها : الوزراء والكتاب للجهمي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وفي كتب تاريخ الأدب الحديثة فصول عن عبد الحميد . ومن الكتب المهمة كتاب « عبد الحميد بن يحيى الكاتب - وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء : للدكتور إحسان عباس .

والكتاب في قسمين : الأول دراسة عبد الحميد وترسله ، وهو مكون من فصلين : أولهما عن سيرة عبد الحميد وشخصيته وثقافته . والآخر عن ترسل عبد الحميد . تناول فيه رسائله في سياقها التاريخي ثم رسائله

وشؤون العصر ، ثم نظرة في ترسل عبد الحميد من الجانب الفني ، ثم المميزات الفنية لنثره ، والقسم الثاني :
نصوص ، هي ما تبقى من رسائل عبد الحميد ، وأستاذه سالم .

هذه بعض المداخل إلى دراسة عبد الحميد ...

فمن هو هذا الكاتب الذي تبوأ في تاريخ أدبنا مكاناً عالياً ؟!

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد ، مولى بني عامر بن غالب ، ومعنى كونه مولى (أنه غير عربي) ،
وكان من العادة المتبعة في هذا العصر أن يعطي غير العربي ولاءً للعرب ، مراعاة لما كان سائداً في الحياة
العربية من التقسيم القبلي للمجتمع ، فلا بد للمرء أن يكون من قبيلة معروفة ، أو أن يعطي ولاءً لقبيلة
معروفة . (ابن خلكان ، 3 : 228) .

وقد اختلف العلماء في أصله ، فمنهم من جعله فارسياً ، ومنهم من جعله أنبارياً . (انظر : عباس ،
1988 ، 25 ، ضيف ، العصر الإسلامي . ص : 473) .

وكغيره من الذين تتاح لهم الشهرة بولد الواحد منهم في الظل ، فلا تكاد تعرف يقيناً شيئاً كثيراً عن
طفولته ونشأته ولا عن ثقافته وبيئته ، والذي نعرفه أنه كان يعمل معلماً صبياً ينتقل في البلدان . ومعنى
هذا أنه كان لديه من الثقافة ما يؤهله للتعليم ، وما رفعه ليكون من كتاب ديوان الرسائل ، بل قيل فيه :

« كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب إماماً »

(ابن خلكان ، 3 : 228)

وهذه الإمامة لا تنال إلا بمؤهلات ثقافية عالية .

وكان من أسباب ارتقائه قيام الصلة بينه وبين أستاذه سالم ابن عبد الله كاتب هشام بن عبد الملك . وقد
أدرك سالم ما لدى عبد الحميد من القدرات المتميزة ، فجعله من كتاب الديوان ، وزوجه ابنته ، ولا يخفى
عليك أن عبد الحميد قد أفاد من الصلة بسالم وسلك سبيله في الكتابة ، ثم تميز عنه .. وصار أشهر منه !
حتى قيل :

« وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا ، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل »

(ابن النديم ، 170)

وقد انعقدت صلة مودة بين عبد الحميد ومروان بن محمد ... وذلك قبل أن تزول إليه مقاليد الخلافة .

ويمكن أن تقسم حياة عبد الحميد ثلاث مراحل :

الأولى : حين كان كاتباً مساعداً لسالم في ديوان هشام بن عبد الملك .

الثانية : حين صار كاتباً لمروان في ولايته على أرمينية .

الثالثة : حين صار كاتباً لمروان آخر خلفاء بني أمية .

وقد ترك عبد الحميد من بعده تراثاً كبيراً من الرسائل يقع في ألف ورقة . (ابن خلكان ، 3 : 228)

ولكن أين هذا التراث الذي تركه ؟

لقد جدّ الدكتور إحسان عباس في جمع تراث عبد الحميد ، فما الذي وجدته ؟ بلغ ذلك ستين نصاً ، منها الرسائل الطوال والأقوال والحكم ، وهناك ثلاثة نصوص رجح أنها لعبد الحميد .

فلماذا ضاع هذا التراث ؟

يستبعد الدكتور إحسان عباس العامل السياسي ، لأن رسائله بقيت حتى عهد الجاحظ ، وأورد ثناء بعض العباسيين عليه . ورأيه هو أن رسائل عبد الحميد هي أشبه بالوثائق التي لا يحتاجها الكاتب إلا لمعرفة أساليب أسلافهم ، ثم بعد مدة من الزمن تتكاثر رسائل السلف ، فيكتفي الخلف بنماذج منها . وهناك جانب آخر هو ضخامة هذه الرسائل التي تبلغ ألف ورقة ، وقلة الطلب لها ، والإحجام عن نسخها ، مما سبب ضياعها . وما بقي منها إنما بقي في كتب المختارات أو كتب الأدب العامة أو كتب التراجم . (عباس ، 65 - 66) .

وقد درس الدكتور إحسان عباس ما بقي من رسائل عبد الحميد ، واستنطق ما فيها مما يتعلق بشخصيته وشؤون عصره ، ورأى فيها جوانب تتصل بالأسرة الحاكمة ، والشؤون السياسية ، والثورات التي اندلعت في نهاية العصر الأموي ، والشؤون العسكرية والشؤون الاجتماعية ، من قضايا الزواج وبعض قضايا اللهو وقضاء الفراغ كالشطرنج والصيد ، والشؤون العقائدية ، وبخاصة فيما يتعلق بالقدر . (انظر : عباس ، 74 - 129) .

ومما يستحق الوقوف عنده معرفة أسباب هذه المنزلة التي نالها عبد الحميد في تاريخ الكتابة الفنية حتى قبلت تلك الكلمة المشهورة التي افتتحنا بها هذا القسم من الوحدة « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » . وابتداءً نورد ما قاله د. شوقي ضيف بأن الرسائل بدئت قبله ، « فقد بدأت منذ فاتحة العصر الإسلامي ، وقام عليها بلغاء كثيرون أتاحوا لها النماء وضروياً من الازدهار » (الفن ومذاهبه ، 120) .

ولكن عبد الحميد كان القمة التي وصلت إليها الكتابة في العصر الأموي . وإذا كان شوقي ضيف يرفض أولية عبد الحميد في الرسائل الديوانية وغير الديوانية فإنه يرى أن الكتابة وصلت القمة على يديه ، بما صارت إليه من يسر ومرونة في أداء المعاني التي استفادها من الأدب الفارسي التي عبّر عنها تعبيراً

منظماً لا استطراد فيه ولا حشو . وكذلك بما اشتملت عليه رسائله من الأسلوب التصويري الذي جعل الكتابة عنده تروق العين والأذن كما تروق العقل والقلب . (الفن ومذاهبه ، 120) .

ويرى كذلك أن النشر الفني تطور تطوراً واسعاً على يديه ، بحيث تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية ، تُكتب في موضوعات شتى من الإخاء وقيادة الحروب والصيد ... وغير ذلك من الموضوعات ، ولم تعد الكتابة وحدها كافية ، بل أصبح أساساً فيها أن تسند بالتفنن في القول وتشعيب المعاني . (العصر الإسلامي ، 478) .

ويرى إحسان عباس أن التطور الذي ظهر على يد عبد الحميد وأستاذه سالم هو استقلال الكاتب بالكتابة ، وارتفاعه عن كونه قلماً في اليد الخليفة أو الوالي ، يُملئ عليه ما يريد قوله ، فقد تطورت الكتابة من كونها أداة تعبير إلى أن صارت أداة تفنن كذلك . ويقول « لم تعرف الرسالة الديوانية مستوى فنياً قبل سالم أبي العلاء في عهد هشام بن عبد الملك » (عباس ، 145) .

وقد وقف القدماء عند تميّز عبد الحميد ، فرأوا أنه أول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات في فصول الكتب ، فاستعمل الناس ذلك بعده . (ابن خلكان ، 3 : 228) .

لقد عاش عبد الحميد الكاتب حياة حافلة ، وتقلب في ألوان النعيم من خلال صلته بمروان بن محمد ، وشهد انتفاض أرجاء الدولة الأموية بالثورات المتتالية ، التي انتهت بالثورة العباسية التي نقضت بنيان بني أمية ، وإن مما يذكر له أنه وقد رأى جيش الأمويين يتشتت ، وشملهم يتفرق ، لم يتحول عنهم إلى الدولة الجديدة الصاعدة ، مع كونه يمتلك من المؤهلات ما يجعله مقبولاً لديها . ولم يكن يعدم وسيلة اعتذار عما كان له من صلة مع الأمويين . ولكنه لم يفعل ذلك ، بل ضرب مثلاً في الوفاء . ويروى أن مروان قد قال له حين أيقن بزوال الدولة :

« قد احتجت أن تصير مع عدوي ، وتُظهر الغدر بي ! فإن إعجابهم بأدبك ، واحتجتهم إلى كتابتك ، يُحوجهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعي في حياتي ، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي » .

فماذا كان جواب عبد الحميد على هذا الطلب ؟

« فقال عبد الحميد إن الذي أشرت به علي أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما بي . وما عندي إلا الصبر حتى ينتج الله تعالى ، أو أقتل معك » (ابن خلكان ، 3 : 229) .

رُتد كان ... قتلت عبد الحميد مع مروان سنة اثنين وثلاثين ومئة ، بقرية بوسير في مصر .

خصائص أسلوب عبد الحميد :

إن دراسة ما بقي لنا من رسائل عبد الحميد تكشف عن عدد من الخصائص الأسلوبية التي تتجلى في كتابة عبد الحميد ، ومن أبرز هذه الخصائص :

1. التأثر بالأسلوب القرآني ، وذلك بأشكال متعددة ، منها استخدام الآيات القرآنية ، أو استخدام بعض الألفاظ القرآنية ، أو الإيحاء إلى بعض الآيات القرآنية بإيراد ما يدل عليها من الكلام (انظر تفصيل ذلك في عباس ، 158 وما بعدها) .

2. النزعة التنظيمية في الكتابة :

لم تعد الرسالة لدى عبد الحميد خطرات ناهضة بالانفعال ، بل أصبحت نظاماً متدرجاً متسلسلاً ، فهو الذي وضع لمن بعده صورة النظام الخاص بالكتابة فتابعوه عليها . (انظر أمثلة لذلك ، عباس ، 162 - 173) .

3. النزعة التصويرية وذلك بإبراز ألوان من الصور البلاغية من تشبيه واستعارة . وفي هذا ما يكشف أن الكتابة لم تعد وسيلة لعرض الفكرة فحسب ، بل هي معرض للقدرة الفنية للكاتب . (انظر : عباس ، 173 ، 178 ، 198 ، الفن ومذاهبه ، 119) .

4. الإطناب ، وذلك بعرض الفكرة الواحدة في عبارتين أو أكثر ، ولذلك طالت الرسائل لديه ، وتولد عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى وهي الترادف ، وهو لون من ألوان الإطناب . (انظر : المقدسي ، 1965 ، 165 ، 167) .

5. توازن الجمل والترادف الموسيقي ، فكأنما لديه حرص على أن تكون جملة متوازنة الإيقاع ، مما يولد لديه ضرباً من التوقيع الصوتي الذي يولد موسيقى رائعة ترضي الأذن والشعور . (انظر : ضيف ، الفن ومذاهبه ، 119 ، المقدسي ، 166) .

وفيما يلي نماذج من رسائل عبد الحميد أرجو أن تكون مبدئياً لاستخراج هذه الخصائص .

من رسالة عبد الحميد إلى الكتاب

1 - أما بعد ، حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن الله جل وعز جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين سوقاً وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم ، فجعلكم

معشر الكتاب في أشرفها صناعة ، أهل الأدب والمرومة والحلم والروية ، وذوي الأخطار والههم وسعة الذرع ، في الإنضال والصلة ، بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك أمورهم ، ويتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، ويجتمع فيهم ، وتعمر بلادهم ، يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السني والدني من ولايته ، لا يستغني عنكم منهم أخذ ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم منهم موقع أساعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون . أنتم إذا آلت الأمور إلى موثلها ، وصارت إلى محاصلها ، ثقاتهم دون أهليهم وأولادهم وقرباتهم ونصائحهم فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم سريال النعمة عليكم .

2 - وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلها أخرج إلى استخراج خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة ، منكم أيها الكتاب ، إن كنتم على ما سبق به الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره ، إلى أن يكون حليماً في موضع الحلم ، فقيهاً في موضع الحكم ، مقداماً في موضع الإقدام ، ومحجماً في موضع الإحجام ، ليناً في موضع اللين ، شديداً في موضع الشدة ، مؤثراً للعفاف والعدل والإتصاف ، كتوماً للأسرار ، وفيماً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي ويذر ويضع الأمور في مواضعها قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه ، فإن لم يحكمه شدا منه شداً يكتفي به ، يكاد يعرف بفريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيبعد لكل أمر عدته ، ويهيء لكل أمر أهبتة .

3 - فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقات ألسنتكم ، وأجيدوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم . ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج منكم .

4 - وارغبوا بأنفسكم عن المطامع ، سئها ودئها ، ومسارئ الأمور ومحارها ، فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتّاب . ونزهوا صناعتكم عن السعابة والنميمة ، وما فيه أهل الدنائة والجهاالة ، وإياكم والكبر والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة بغير إحنة . وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصلوا عليها فإنها شيم أهل الفضل والنبل من سلفكم . وإن نبا

الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حاله ويشوب إليه أمره، وأن
أقعد الكبر أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا
بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته .

(عباس ، 281 - 284)

رسالة في الشطرنج :

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بانهاج سبيله ، وإيضاح معالنه بإظهار فرائضه ، وبعث رسله
إلى خلقه ، دلالة على ربوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، وتقدماً إليهم بإنذاره
ووعيده ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، ثم ختم بنبيه صلى الله
عليه وحيته ، وقفى به رسله ، وابتعثه لإحياء دينه الدارس ، مرتضياً له ، على حين
انطمست الأعلام مختفية ، وتشتت السبل متفرقة ، وعفت آثار الدين دارسة ، وسطع
رهج الفتن ، واعتلى قتام الظلم ، واستنهد الشرك ، وأسدف الكفر ، وظهر أولياء
الشیطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل بسكنة الحق ، واستطرق الجور ،
واستنكح الصدوف عن الحق ، واقمطر سلهب الفتنة ، واستضرم لقاها ، وطبقت الأرض
ظلمة كفر ، وغياية فساد ، فصدع بالحق مأموراً ، وبلغ الرسالة معصوماً ، ونصح
الاسلام أهله ، دالاً لهم على المرشد ، وقائداً لهم إلى الهداية ، ومنيراً لهم أعلام الحق
ضاحية ، مرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة ، وإعلاق عروة النجاة ، موضعاً لهم سبل
الغواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم الهلكة ، موعزاً إليهم في التقدمة ،
ضارباً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ،
صابراً نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ، حريصاً عليهم ،
متحنناً على كافتهم ، عزيزاً عليه عننتهم ، رؤوفاً بهم رحيماً ، تقدمه شفقتهم عليهم ،
وعنايته برشدهم إلى تجريد الطلب إلى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم ، وسلامة
أديانهم ، وتخفيف أواصير الأوزار عنهم . حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم
ناصحاً متنصحاً أميناً مأموناً وقد بلغ الرسالة وأدى النصيحة ، وقام بالحق وعدل عمود
الدين حتى اعتدل ميله ، وأذل الشرك وأهله ، وأنجز الله له وعده ، وأراه صدق أسبابه
في إكماله للمسلمين دينه ، واستقامة سنته فيهم ، وظهور شرائعه عليهم . قد أبان لهم
مربقات الأعمال ، ومفطعات الذنوب ، ومبهطات الأوزار ، وظلم الشبهات ، وما يدعرو
إليه نقصان الأديان ، وتستهريهم به الغوايات ، وأوضح لهم أعلام الحق ، ومنازل
المرشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالق العصمة ، غير مدخر لهم نصحاً ، ولا
مبتغ في إرشادهم غنماً .

فكان مما تقدم إليهم في نهيه ، وأعلمهم سوء عاقبته ، وحذرهم إصره ، وأوعز إليهم ناهياً
وراعظاً وزارجرأ ، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصله عليها ، لما في
ذلك من عظيم الإثم ، ومرىق الوزر ، مع مشغلتها عن طلب المعاش ، وإضرارها
بالمعقول، ومنها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع المسلمين .

(عباس ، 265 - 266)

نشاط (2)

ارجع إلى كتاب « عبد الحميد الكاتب » للدكتور إحسان عباس ، وانظر تحليله لرسالة عبد الحميد إلى
الكتاب واكتب تلخيصاً له .



أسئلة التقييم الذاتي (2)

1. ما المنزلة التي تبرأها عبد الحميد في تاريخ النشر العربي ، وما أسباب ارتقائه إليها ؟
2. لماذا ضاع أكثر رسائل عبد الحميد ؟



تدريب (1)

تتبع خصيصتين من خصائص أسلوب عبد الحميد في الفقرة الأولى من رسالته إلى الكتاب .



2.2 الجاحظ شيخ مدرسة الترسل

حظي الجاحظ قديماً وحديثاً بعناية الباحثين ومؤرخي الأدب ، وقد احتل في الأدب العربي مكاناً قل أن
زاحمه فيه غيره ، أما في كتب الأقدمين ، فله ترجمات في كتب كثيرة منها :

- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .
- ومعجم الأدباء لياقوت الحموي .
- ووفيات الأعيان لابن خلكان .

- وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي .

وأما في العصر الحديث فإنك تجد كتباً كثيرة عنوان كل منها « الجاحظ » ، ومنها ما كتبه :

حنا فاخوري ، وأحمد كمال زكي ، وجميل جبر ، وشارل بيلا ، ووديعه طه نجم ، وخليل مروم .

ومن الكتب التي درست الجاحظ :

أدب الجاحظ لحسن السندوي ، وفن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ لمحمد مبارك ، وسخرية الجاحظ من بخلائه لمحمد بركات أبو علي ، ولعله لا يخفى عليك أن كتب تاريخ الأدب أو الكتب التي درست أعلام الأدب لا تكاد تخلو من ذكر الجاحظ عند التأريخ للعصر العباسي ، ومنها :

العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف .

والفن مذاهبه في النثر العربي للمؤلف نفسه .

وتطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المقدسي .

وأمرأ البيان محمد كرد علي .

وكنوز الأجداد للمؤلف نفسه .

فمن هو الجاحظ .. الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ؟

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني اللبني . ولقبه الجاحظ ، وذلك لجحوظ عينيه ، ولقّب كذلك بالحدقي . لم يتفق المؤرخون على سنة ميلاده ، ولكن كما قال شوقي ضيف المظنون أنه ولد في العقد السادس من القرن الثاني الهجري . (ضيف ، العصر العباسي الثاني ، 387) .

ويقول محمد كرد علي « ولد من أبوين فقيرين في البصرة حوالي سنة ستين ومئة » (كنوز الأجداد ،

. (72)

وهناك آراء أخرى في سنة ميلاده .

وقد كان العصر الذي ولد فيه الجاحظ يعج بالعلماء الكبار في تراثنا في شتى العلوم ، وبخاصة في البصرة التي ولد فيها ، والعراق عامة ، حيث قضى حياته . وقد اتصل بالأصمعي وأبي زيد الأنصاري ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، والأخفش ، والنظام وثمامة بن أشرس ، وغيرهم من أعلام العصر الذين كان كل منهم رأساً في ميادنه . فمنهم الرواة وعلماء الأدب والنحاة وعلماء الكلام والفقهاء والمحدثون ولو لم يكن الجاحظ ذا قدرة عقلية متميزة لما تحققت له الاستفادة من عصره وبيئته . وقد كان الجاحظ ذا عقل متفتح ، وذكاء وهّاج ، وحافظة نادرة ، مع شغف بالمطالعة التي لا تستثنى أي لون من ألوان المعرفة .

ولم تقتصر معرفته على الكتب فحسب ، بل كان حريصاً على استمدادها من الطبقات كافة ، من الأعراب في البادية ، والعامية في المدن . وقد تجلّى أثر ذلك في كتبه مضموناً وأسلوباً ؛ حيث نجد كتبه موسوعة علمية متميِّزة .. تضم صورة عصره وما فيها من المعارف .

ولعل مما يدل على تعلق الجاحظ بالعلم ما روي أنه كان يستأجر دكاكين الوارقين (ناسخي الكتب الذين يوازنون الناشرين في عصرنا) ، يبيت فيها يقرأ ما تقع عليه يده . فهل من العجب بعد هذا كله أن نجد آثار هذه الثقافة الواسعة تتجلّى في عدد كبير من الكتب والرسائل التي خلفها الجاحظ ، وفي تنوع موضوعاتها ؟ لعل مما يلفت نظرك حرص الناس على التوجه إلى العاصمة والإقامة فيها . فما تفسير ذلك ؟

إنه لا يخفى أن الفرص المتاحة لسكان العاصمة في العلم والعمل والترقي في درجات المناصب الرسمية أكبر بكثير مما هو متاح لغيرهم .. فالعاصمة تستقطب رجال العلم ورجال المال ورجال السياسة ؛

وقد تحققت هذه السنة في الجاحظ ، الذي قصد بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، وقد لقي هناك الحظوة والإكرام ، وقد عينه المأمون في ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع العمل فيه أكثر من ثلاثة أيام ، ولعله لم يطق الصبر على قيود العمل الوظيفي (ياقوت ، 16 : 78 - 79) .

ويبدو أنه قد أصبح منذ وقت مبكر كاتباً رسمياً متفرغاً للدولة ، ينال راتباً ، ويتصدى في كتاباته لكل ما يخالف الخط الفكري لها ، وبخاصة في عهد المأمون . (ضيف ، العصر العباسي الثاني ، 591) . وكان ينال إعطيات كافية من الوزراء الذين يهدي إليهم كتبه الجديدة . فنال خمسة آلاف دينار مكافأة على كتاب الحيوان من الوزير ابن الزيات . وحصل على مثلها من ابن أبي دؤاد على كتاب البيان والتبيين . وكذلك فعل إبراهيم بن العباس الصولي رئيس ديوان الإيتشاء حين أهده كتاب الزرع والنخيل .

ولعلك تدرك قلة حاجة الجاحظ للمال حين تعلم أنه لم يتزوج ، ولم يكن له أولاد ، بل كانت له جاريتان تكفيانه أمر معاشه . (ياقوت ، 16 : 106) .

ولعله لا يخفى عليك أن طول عمر الجاحظ بالإضافة إلى ما أوتي من عقل وما حصل من ثقافة ، كل ذلك ساعده على إنتاج عدد كبير من الكتب والرسائل المتنوعة الاتجاهات .

وقد ابتلى الجاحظ في أواخر حياته بالمرض ، ولكن ذلك لم يعته عن التأليف ، ولم يقعد به عن الحركة ويدللك على ذلك أن أهم كتابين من كتبه ألفهما في مرضه ، وهما : الحيوان ، البيان والتبيين . (ضيف ، العصر العباسي الثاني ، 591) .

ولما اشتد به المرض ، وطال به العمر ، آثر أن يرجع إلى مسقط رأسه في البصرة ، وأمضى فيها بقية

حياته ، وعزف عن السفر والترحال لصعوبته عليه . وحين استدعاه الخليفة المتوكل سنة 247 هـ ، قال لرسول الخليفة معترداً :

« ما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذي شق مائل ، ولعاب سائل ، وعقل حائل ؟ »
(ياقوت، 16 : 113) .

ومع طول العمر ، وهرم الجسم ، وتنوع الأمراض ، ساءت حالة الجاحظ ، واسمع وصفه لحاله في قوله :
« اصطلحت على جسدي الأضداد ، إن أكلت بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي » وكان يقول:

« أنا من جانبي الأيسر مفلوج ، فلو قرض بالمقاريض ما علمت به ، ومن جانبي الأيمن منقرس ، فلو مرّ به الذهب لألت ، وبني حصاة لا ينسرح لي البول معها ، وأشدّ ما عليّ ست وتسعون سنة » (ابن خلكان ، 3 : 473) .

لقد عاش الجاحظ بين الكتب ، وأمضى حياته في تأليفها ، ومن غريب أمره .. ما يروى أنه مات تحت الكتب ، حيث سقطت عليه مجلدات كثيرة من كتبه ، فقضت عليه ، (ابن العماد ، 2 : 122) .

لقد عرف القديم منزلة الجاحظ ، وأقرّبها من وافقه في مذهبه الاعتزالي ، ومن خالفه من أهل السنة ، والبيك بعض أقوالهم فيه :

قال ابن خلكان :

« العالم المشهور ، صاحب التصانيف في كل فن ، له مقالة في أصول الدين ، وإليه تنتسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة » (ابن خلكان ، 3 : 471) .

وقال أبو هفان :

« لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب . العلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبهر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا . وله كتب كثيرة مشهورة جلييلة في نصرة الدين ، وفي حكاية مذهب المخالفين ، وفي الآداب والأخلاق ، وفي ضروب من الجد والهزل ، وقد تداولها الناس وقرؤوها وعرفوا فضلها ، وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تليق العقول ، وشحد الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ، ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة ، الذين يعرفون الرجال ، ويميزون الأمور » (ياقوت ، 16 : 76) .

ويحسن بك أن توازن بين قول أبي هفان في كتب الجاحظ ، ورأي ابن العميد فيها : كان ابن العميد بين أصحابه ، وجرى ذكر الجاحظ ، فتناوله أحد الجلساء بالسوء وذم كتبه ، وسكت عنه ابن العميد ! فتعجب من ذلك بعض أصحابه لعلمهم أنه شديد التعصب له ، والغيرة عليه ! وسأله عن ذلك بعد خروج ذلك الشاتم للجاحظ ، فقال :

« لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله ، ولو وافقته وبينت له لنظر في كتبه وصار بذلك إنساناً ... فكتب الجاحظ تعلم العقل أولاً ، والأدب ثانياً ، ولم أستصلحه لذلك » .

(ابن خلكان ، 3 : 473)

ولعلك إذا نظرت في قائمة كتب الجاحظ التي أوردها ياقوت في معجم الأدباء تدرك ما كان عليه من الثقافة الواسعة ، والانتاج الأدبي والفكري المنوع ، ومن هذه الكتب :

كتاب الحيوان وهو سبعة أجزاء . « ألفه باسم محمد بن عبد الملك الزيات . قال ميمون بن هارون ، قلت للجاحظ : ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم وقال : إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها . وخادم وحمار . أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار . فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد » .

(ياقوت ، 6 : 106)

وكتاب نظم القرآن ، وكتاب الرد على النصارى ، وكتاب إمامة بني العباس ، وكتاب البخلاء ، وكتاب العرجان والبرصان ، وكتاب التربيع والتدوير ، وكتاب أخلاق الملوك ، وكتاب الرد على اليهود ، وكتاب السودان والبيضان ، وكتاب النساء ، وكتاب السلطان وأخلاق أهله ، وكتاب في فضل اتخاذ الكتب ، وكتاب الملوك والأمم السالفة والباقية .

ويذكر ياقوت كتباً كثيرة في موضوعات شتى ، وأرجو أن ترجع إلى كتاب معجم الأدباء ، لياقوت لتقرأ فهرست كتب الجاحظ كاملاً ، وترى ألوان كتبه . ولا يخفى عليك أن كتب الجاحظ ليست كلها في مستوى واحد من الأهمية ، ولذلك لم تنل كل هذه الكتب الشهرة نفسها . ولا يخفى عليك أن أشهر كتبه ثلاثة : البيان والتبيين ، والحيوان ، والبخلاء .

خصائص أسلوب الجاحظ :

لقد مر بك الحديث عن الجاحظ وأسلوبه في هذا المقرر أكثر من مرة ، حتى خشيت عليك الملل ، وخنث أن تجد تكراراً في المعلومات ، وأرجو ألا يكون شيء من ذلك قد وقع . وقد مر بك أن الجاحظ شيخ مدرسة الترسل ، تلك المدرسة التي جاءت وسطاً بين الأسلوب الذي يجعل المعنى هو هدفه الأول ، ويؤديه في أسلوب ليس فيه إلا القليل من التفنن في العرض ، والأسلوب الذي يجعل الألفاظ وزخرفها هي الهدف الأول ، ويغيب المعنى وراء تلك الألفاظ .

وقد مرت بك السمات العامة لمذهب الترسل في الأدب العربي ، ولنقف هنا على ما يخص الجاحظ من

الخصائص :

(1) الواقعية :

مر بك في الحديث عن شخصية الجاحظ وثقافته حرصه على كل لون من ألوان الثقافة ، سواء في ذلك ما كان مأخوذاً من الكتب ، أو مستمداً من أفواه الناس على مختلف طبقاتهم ، وقد أكسبه هذا الأمر واقعية الأسلوب ، سواء في ذلك الألفاظ الدالة على المعاني أو الصور المعبرة عنها .

وقد مر بك في الحديث عن كتاب البخلاء وما درست من نصوصه ، ما يكشف لك شيئاً من هذا . وهو أمر غير خاص بالبخلاء ، بل يتجلى في كثير من كتبه الأخرى (انظر : ضيف ، الفن ومذاهبه ، 162 - 166) .

وقد أدرثته هذه الصفة إمتاع القارئ ، ذلك لأنه لا يتكلف في اختيار ألفاظه ، بل يكتب كما يتكلم ، فجاءت كلماته كلها غمطاً واحداً في البلاغة والفصاحة . وكان ذا قدرة على إعطاء كل موضوع حقه من الألفاظ والمعاني .

(كرد علي ، 1984 ، 78)

2. الاستطراد :

ومعنى ذلك أنه ينتقل من موضوع إلى آخر ، ثم يعود إلى الموضوع الأول ، وهذا ناشئ عن كثرة معلوماته ، وسعة ثقافته ، فهي تتدافع بين يديه ، يزاحم بعضها بعضاً ، وناشئ كذلك عن مذهب في التأليف ، يقصد إلى إزالته السآمة عن القارئ ، فهو ينقله من باب إلى آخر ، وقد صرح بهذا الجاحظ نفسه فقال « قد عزمت - والله الموفق - أن أوشح هذا الكتاب ، وأفصل أبوابه بنوادير من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ، ليسخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيت الأسماع تملّ

الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة ، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير في ما طال وكثر أصلح . (الجاحظ ، الحيوان ، 3 : 7) .

ولعلك تدرك أن هذه الصفة من صفات أسلوب الجاحظ مجدها في المؤلفات لا في الرسائل الصغيرة .
(انظر : ضيف ، الفن ومذاهبه ، 166 - 169) .

3. قصر العبارة والتلوين الصوتي :

ومع قصر العبارة نجد حرصاً على الموازنة ، التي تولد نوعاً من الإيقاع الموسيقي المطرب ، هذا بالإضافة إلى ما يرد في كلامه من السجع الجميل الذي لا تكلف فيه مما يزيد الإيقاع ظهوراً ووضوحاً . ومما يميّز أسلوب الجاحظ ويسهم في بروز هذه الخصيصة لجوء الجاحظ إلى التكرار ، وإيراد المعنى الواحد في ألوان من الجمل . ومما يفسر هذه الظاهرة أنه لم يكن يكتب بل يملئ على كاتب ، فهو يحرص على أن يكون لكلامه وقع في الأذن ، كما يكون له تأثير في العقل . (ضيف ، الفن ومذاهبه ، 169) .

4. التدفق :

إنك وأنت تقرأ للجاحظ تحس أنك أمام كاتب يمتلك ناصية الكلام ، كما يمتلك المعاني . فلا تجده يتلصق أو يتردد ، أو يعجزه التعبير عن الفكرة التي يريد ، بل أكثر من ذلك ، نجده يغطي الفكرة الواحدة في صور لغوية متعددة .. في إمتاع وإقناع .

وأرجو أن تتبين هذه الخصائص جلية في النصوص التالية ، وتضع يدك عليها من خلال النشاط والتدريب.

ومن كتاب البيان والتبيين اخترت لك من الجزء الأول الصفحات التالية :

« والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصله كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام ؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع .

ثم أعلم - حفظك الله - أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ؛ لأن المعاني مبسطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة .

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصبة . والنصبة هي الحال الدالة ، التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات ، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبها ، وحلية مخالفة لحلية أختها؛ وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ، ثم عن حقائقها في التفسير ، وعن أجناسها وأقذارها ، وعن خاصها وعامها ، وعن طبقاتها في السار والضار ، وعمّا يكون منها لغواً بهرجاً ، وساقطاً مطرحاً.»

(ج 1 ، ص 76)

من كتاب الحيوان اخترت لك النصوص التالية من الجزء الثاني :

(ردُّ على ما زعموا من أعراض الكلب)

وأنا حفظك الله تعالى ، رأيت كلباً مرة في الحيّ ونحن في الكتاب فعرض له صبي يسمى مهدياً من أولاد القصابين ، وهو قائم يحو لوحه فعض وجهه فنقع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خدّ ، فرمى به ملقياً على وجهه ، وجانب شدقه ؛ وترك مقلته صحيحة ؛ وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه ، وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس ، وأسكته الفزع وبقي طائر القلب ، ثم خبط ذلك الموضع ؛ ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكتاب ، وليس في وجهه من الشتر إلا موضع الخبط الذي خبط ؛ فلم ينبح إلى أن برى ، ولا هر ، ولا دعا بما ، حتى إذا رآه صاح : ردّوه ، ولا بال جرّواً ولا علقا ، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير . ولم أجد أحداً من تلك المشايخ ؛ يشكّأنهم لم يروا كلباً قطُّ أكلب ولا أفسد طبعاً منه فهذا الذي عاينت ...

وأما الذي بلغني عن هؤلاء الثقات فهو الذي قد كتبتك لك .

(ج 2 ص 14)

(بحث في السعادة)

ومن الناس من يقول : إن العيش كله في كثرة المال ، وصحة البدن ، وخمول الذكر .

وقال من يخالفه : لا يخلو صاحب البدن الصحيح والمال الكثير ، من أن يكون بالأمور عالماً ، أو يكون بها جاهلاً . فإن كان بها عالماً فعلمه بها لا يتركه حتى يكون له من القول والعمل على حسب علمه ؛ لأن المعرفة لا تكون كعدمها ؛ لأنها لو كانت موجودة غير عاملة لكانت المعرفة كعدمها ، وفي القول والعمل ما أوجب النباهة ، وأدنى حالاته أن تخرجه من حد الخمول فقد صار معرضاً لمن يقدر على سلبه .

وكما أن المعرفة لا بد لها من عمل ، ولا بد للعمل من أن يكون قولاً أو فعلاً ، والقول لا يكون قولاً إلا وهناك مقول له ، والفعل لا يكون فعلاً إلا وهناك مفعول له ، وفي ذلك ما أخرج من الخمول وعرف به الفاعل .

وإذا كانت المعرفة هذا عملها في التنبيه على نفسها ، فالمال الكثير أحق بأن عمله الدلالة على مكانه ، والسعاية على أهله . والمال أحق بالنميمة ، وأولى بالشكر ، وأخذ لصاحبه ، بل يكون له أشد قهراً ، ولحيه أشد فساداً .

وإن كانت معرفته ناقصة فيقدر نقصانها يجهل مواضع اللذة . وإن كانت تامة فيقدر تمامها ينفي الخمول ويجلب الذكر ،

(الحيران ، 2 : 96 - 97)

أسئلة التقويم الذاتي (3)

1. ما الأسباب التي أدت إلى شهرة الجاحظ ؟

2. اذكر أبرز خصائص أسلوب الجاحظ .



تدريب (2)

ارجع إلى النص المعنون بـ « بحث في السعادة » وبيّن خصيصة من خصائص أسلوب الجاحظ فيه .





ارجع إلى كتاب من كتب الجاحظ : البيان والتبيين ، أو الحيوان ، واكتب تقريراً عنه .

3.2 ابن العميد حياته وملامح أسلوبه

لا شك أنك تذكر ذلك القول الذي مر بك من قريب لدى الحديث عن عبد الحميد وهو : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

ولا يخفى عليك أن الكتابة قد كانت قبل عبد الحميد ، وأنها استمرت بعد ابن العميد . ولكن لهذا القول مغزاه الواضح في إبراز مكانة الرجلين في تاريخ الكتابة ، أعني كتابة الرسائل من ديوانيته وشخصيته .

فمن هو ابن العميد ؟

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، اشتهر بابن العميد ، والعميد أبوه ، حصل على هذا اللقب عند عمله كاتباً في بخارى لدى حاكمها الملك نوح بن نصر الساماني . وأما هو فتوجه إلى الري ، وتدرج في المنزلة حتى صار وزير ركن الدولة البويهبي . (الثعالبي ، 1983 ، 3 : 184 - 185) .

وقد أهل ابن العميد لهذا المنصب الذي بقي فيه أكثر من ثلاثين عاماً ، ذكاء وقاد ، وثقافة واسعة ، وقلم ذو أسلوب متميز استحوذ على إعجاب معاصريه . (ضيف ، عصر الدول والإمارات ، العراق وفارس ، ص :) .

جاء في يتيمة الدهر : « عماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، أوجد العصر في الكتابة ، وجمع أدوات الرياسة ، وآلات الوزارة ، الضارب في الأدب بالسهام الفائزة ، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدعى الجاحظ الأخير ، والأستاذ ، والرئيس ، يُضرب به المثل في البلاغة » (الثعالبي ، 3 : 183) .

وفي « الكامل في التاريخ » كان أبو الفضل بن العميد من محاسن الدنيا ، قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حُسن التدبير ، وسياسة الملك ، والكتابة التي أتى فيها بكل بديع . وكان عالماً في عدة فنون ، منها الأدب ، فإنه كان من العلماء به ، ومنها حفظ الأشعار ، فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله . ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها ، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل ، ومع حسن خلق ، ولين عشرة مع أصحابه ، وجلسائه ، وشجاعة تامة ، ومعرفة بأمر الحرب ، والمحاصرات ، وبه تخرَّج عضد الدولة ، ومنه تعلم سياسة الملك ، ومحبة العلم والعلماء » (ابن الأثير ، 8 : 606) .

وقد كان بابه مفتوحاً لأهل العلم والأدب وقصده الشعراء ، فمدحوه ، ومن مدحه المتنبي . ومن ذلك

قوله :

بأبي وأمي ناطق في لفظه	ثمن تباع به القلوب وتشتري
من لا تربه الحرب خلقاً مقبلاً	فيها ، ولا خلق يراه مديراً
قطف الرجال القول وقت نباته	وقطفت أنت القول لما نوراً
وإذا سكت فأنت أبلغ خاطب	قلم لك اتخذ الأنامل منبرا
من مبلغ الأعراب أني بعدهم	لاقيت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه	متملكاً متبدياً متحضرا
ولقيت كل الناطقين كأنما	رداً الإله نفوسهم والأعصرا

(ديوان المتنبي ، 523 - 526 ، الشعالي ، 3 : 185 - 186)

وقال فيه من قصيدة أخرى :

عربي لسانه ، فلسفي
رأيه ، فارسية أعبادة

(ديوان المتنبي ، 527)

لقد طالت مدة أبي الفضل بن العميد في الوزارة ، وبقي حتى آخر عمره مكرماً . وقد أصيب بأمراض منها القولنج والنقرس . ومن طريف ما يروى عنه في هذا الباب أنه رأى أكاراً في بستان يأكل خبزاً يبصل ولبن فقال : وددت لو كنت كهذا الأكار آكل ما أشتهي . (ابن خلكان ، 5 : 110) .

وقد مات ابن العميد عام 360 أثناء توجهه إلى مقاتلة حسنويه الكردي .

ومع ما يذكر ابن العميد من الفضل فقد ألف أبو حيان التوحيدي كتاباً سماه « مثالب الوزيرين » تحدث فيه عن ابن العميد والصاحب بن عباد ، وتحامل فيه عليهما ، وعدد نقائصهما ، وسلبيهما ما اشتهرا به من المحاسن وبالغ في التعصب عليهما وما أنصفهما . (ابن خلكان ، 5 : 112) .

وقد كان ابن العميد شاعراً إلى جانب كونه كاتباً . وقد روى الشعالي في البيتامة مجموعة من شعره . وله مجموع رسائل في مجلد ضخيم . (الزركلي ، 1990 ، 6 : 98) .

منزلته الأدبية :

يقول زكي مبارك « كان ابن العميد إماماً لكتاب القرن الرابع ، وما نظن أنه أدخل في فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد . ولكنه يمتاز بميزة عجيبة هي إعزاز القلم ورفعته إلى أشرف الدرجات . فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجبابرة ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفننه كما كان يفعل معاصروه ، وإنما يطالعك بقلبه وروحه وعقله ، بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق ، أو روح بشور ، فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفاً براقاً يلهو به ، ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتاب ، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمي بها كما يرمي البركان بأقباس الهلاك !! وقد يرق فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل ، وهو في رفته وجزالته وغضبه وحنانه ، عبقرى لا يعث برجع الحديث المعاد ، وإنما يجد بإبداع الرأي الصائب ، والقول الرصين » . (مبارك ، 2 : 245 - 246) .

وعلى الرغم مما تجده في هذا القول من المبالغة والنفس الشعري والانفعال الذي يخرج عن حد النقد المنضبط ، فإنه لا يخفى عليك أنه يمثل ذوق رجل بصير بالأساليب ، ويعبر عن رأي شخصي في فن ابن العميد النثري .

وقد عرف القدماء منزلة ابن العميد فوصفه الثعالبي بأنه « أوجد العصر في الكتابة » و « يدعى الجاحظ الأخير » و « يضرب به المثل في البلاغة ، وتنتهي إليه الإشارة بالفصاحة والبراعة » (الثعالبي ، 3 : 183) .

فما الذي رفعه إلى هذه المنزلة ؟ أكان ذلك لمنزلته السياسية في كونه وزيراً ؟ والجواب أن ما وصل إليه ابن العميد من منزلة أدبية ممتازة لم يكن لعامل سياسي ، بل عن طريق فنه الخالص ، إذ كان ينحو نحواً بديعاً من التصنيع والزخرف في كتابته . (ضيف ، الفن ومذاهبه ، 208) . ويرد شوقي ضيف إمامة ابن العميد إلى أنه هو الذي أعطى الكتابة في عصر الدول والإمارات صيغتها التي ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها ، وهي صيغة تقوم على أساسين كبيرين :

الأول : السجع ، والسجع معروف من قبله في الدواوين ، العباسية ، ولكنه أدخل عليه ضروباً من الموازنة بين السجعتين المتوالتين وانظر في ذلك قوله :

« كتابي إليك وأنا متأرجح بين طمع فيك ، وبأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك . فإنك تُدلي بسابق حرمة ، وتمتُ بسالف خدمة ، أسرها بوجوب حقاً ورعاية ، ويتتضي محافظة وعناية » (الثعالبي ، 2 : 193) .

فإذا أنت نظرت إلى السجعات : منك وعنك - وحرمة وخدمة - ورعاية وعناية . وجرت أنها تشمل السجع والموازنة معاً .

والأساس الثاني : استخدامه المحسنات البديعية مع السجع ، فالسجع وحده لا يكفي بل نراه يضيف إليه الجناس أو الطباق ، وما إلى ذلك من محسنات البديع بالإضافة إلى الاستعارة التي يزين بها كلامه . وأنت إذا نظرت في المثل الذي أوردته لك قريباً وجدت هذه الصورة الطريفة :

متأرجح بين طمع فيك ويأس منك !

ولا يخفى ما في هذه الصورة من الطرافة !

وترى الطباق في قوله : طمع فيك - ويأس منك ، وإقبال عليك - وإعراض عنك .

ويرى أنيس المقدسي أن أهم المزايا الإنشائية التي تمثل خصائص أسلوب ابن العميد هي :

1. عدم التقيد المطلق بالسجع مع كونه شائعاً في كتابته ، فهو يرى أن ابن العميد معتدل في استخدام السجع لا يتقيد به تقيد المتأقنين الذين عاصروه ، أو أتوا بعده . ومن ذلك قوله في وصف شهر رمضان :

« أسأل الله أن يعرفني بركته ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته ، وأرغب إليه في أن يقرب علي الفلك دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرتة ، ويزيل بركة الطول عن ساعاته ، ويرد علي غرة شوال ، فهي أسنى الغرر عندي ، وأقربها لعيني ... » (الخصري ، 2 : 581) .

فهو يمزج السجع بغير السجع مزجاً معتدلاً . أما سجمه فأكثره من القصير الفقرات الحسن الازدواج .

2. تكلف ابن العميد البديع أحياناً . كقوله :

« وصل كتابك فصادفني قريب العهد بانفلاق ، من عنت الفراق ، ووافقني مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق ، فإن الدهر جرى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال »

انظر كيف أورد إلى جانب السجع ، كيف جانس بين الجوى والجوانح ، وتحويل وأحوال .

3. الميل إلى الإهراب في الإشارات اللغوية .

ومن ذلك رسالته التي تحدث فيها عن معاناته من الصوم في شهر رمضان ، ومنها قوله :

« ومتمحن بهواجر يكاد أوارها يذهب دماغ الضب ، ويصف وجه الحرباء عن التحنف ، ويزويه عن التبصر ، يقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق ، وممنو بأيام تحاكي ظل الرمح طولاً ، وليال كإبهام القطاة قصرأ ، ونوم كلا ولا قلة ... » (الثعالبي ، 3 : 190 - 191) .

ولعلك تلاحظ أن هذا النص يفيض بالصور المستقاة من الحرّ وما يتصل به مما يناسب موضوع الرسالة ، ويحتاج فهم هذا النص إلى إدراك تلك الصور : كالحرباء وحالها مع الحر ، والضب وحاله في الصحراء ، والقطاة وقصر أصابعها وبخاصة الإبهام ! ...

4. الميل إلى العراء والإطناب :

والترادف لون من ألوان الإطناب ، ولعلك إن تأملت النصوص السابقة في الفقرات الماضية تبين لك ذلك ، حيث إن ابن العميد يعبر عن المعنى الواحد في أشكال لفظية وصور مختلفة .

وقد سبق أن اطلعت على رسائل لابن العميد ، ولا أظن الحاجة تدعو إلى إثبات نماذج أخرى منها ، ففيما سبق كفاية .

أسئلة التقويم الذاتي (4)



1. اذكر خصائص أسلوب ابن العميد .

2. ما الذي تفهمه من القول « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » .

تدريب (3)



وازن بين الشخصية الأدبية لكل من الجاحظ وابن العميد .

نشاط (4)



ارجع إلى كتاب زهر الآداب للحصري ، وتتبع ما أورد من رسائل لابن العميد ، وبين ما كان منها ديوانياً ، وما كان منها شخصياً .

4.2 القاضي الفاضل : حياته وخصائص نشره

هو أبو علي عبد الرحيم بن القاضي بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد ... اللخمي ، العسقلاني المولد ، المصري الدار ، المعروف بالقاضي الفاضل (ابن خلكان ، 3 : 158) ولد سنة تسع وعشرين وخمسئمة بمدينة عسقلان ، وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان ، فلهذا نسبه إليها . (ابن خلكان ، 3 : 161) وقد أرسله والده إلى مصر هو صغير لينشأ في ديوان الإنشاء ، ويتدرب على أيدي كبار المنشئين فيه ، ليؤهله ذلك للعمل في الإدارة ، وكان رئيس ديوان الإنشاء في ذلك الوقت يوسف بن الخلال . وقد حفظ في مطلع حياته القرآن الكريم وكتاب الحماسة لأبي تمام (ابن خلكان ، 7 : 219 - 220) .

وبعد أن اكتسب المهارة في الإنشاء توجه إلى الإسكندرية وعمل فيها كاتباً ، واشتهر أمره مما جعل الوزير العادل بن الصالح رزيك يستدعيه إلى القاهرة ليعمل في ديوان الجيش . ثم ترقى في العمل حتى صار كاتباً مقدماً في بلاط الفاطميين . ولما جاء أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين في الجيش الشامي الذي ورد إلى مصر ، في الخلاف بين الوزيرين ضرغام وشاور ، وتولى أسد الدين الوزارة ، اتخذ القاضي الفاضل كاتباً ، ثم صار وزير صلاح الدين المقدم لديه عندما أقام صلاح الدين الدولة الأيوبية ، بعد أن قضى على الدولة الفاطمية ، وبقي في مكانة مقدمة لدى صلاح الدين حتى وفاة السلطان ، ثم وزر لولده العزيز» .

(ابن خلكان ، 3 : 162 - 163 ، ابن العماد الحنبلي ، 4 : 325)

ولم يكن القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء في عهد صلاح الدين فحسب ، بل كان الوزير الذي لا يبرم صلاح الدين أمراً من غير مشورته ، بل كان ينوب عنه في مصر ، عند انشغاله بشؤون الشام ، وجهاد الصليبيين فيها .

(ضيف ، عصر الدول ، 412)

وكان من منزلة القاضي الفاضل أنه كان يقول لمن معه :

« لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل » (ابن ثغري بردي ، 6 : 157) .

وقد اجتمع في القاضي الفاضل من الصفات ما حبيبه إلى صلاح الدين ، فقد كان نزهاً نظيفاً قليل اللذات ، كثير الحسنة ، دائم التهجد ، ملازماً للقرآن ، والاشتغال بعلم الأدب (ابن العماد والحنبلي ، 4 : 325) .

ومن مظاهر الخبر لدى القاضي الفاضل أنه أقام مدرسة في القاهرة ، ووقف الأوقاف لطلبة العلم (ابن خلكان ، 3 : 162 ، أبو شامة ، 2 : 241) .

وقد كان القاضي الفاضل شاعراً إلى جانب كونه ناثراً ، وقد طبع له ديوان شعر .

ولا بد من الإشارة إلى أن تراث القاضي الفاضل النثري ، ذو قيمة تاريخية وثائقية ، أكثر من قيمته الأدبية ، لأن ذلك التراث رسائل مرتبطة بأحداث تاريخية ، وبخاصة أحداث الحروب الصليبية ، وهي تكشف صورة الواقع السياسي في ذلك العصر الذي كتبت فيه ، وما يزال كثير من هذه الرسائل موجوداً تحت أسماء متعددة في عالم المخطوطات ، ومنها : « ترسل القاضي الفاضل » ، و « رسائل القاضي الفاضل » ، والدر التنظيم في ترسل عبد الرحيم » ولاين سناء الملك كتاب « فصوص الفصول وعقود العقول » (الزركلي ، 1990 ، 3 : 346) .

وقد ذكر المؤرخون أن رسائل القاضي الفاضل تقع في مئة مجلد ، (ابن خلكان 3 / 159 ، ابن العماد الحنبلي ، 4 / 324) .

وإذا أردت المزيد من المعلومات عن القاضي الفاضل فإنك تجدها في كتاب الروضتين لأبي شامة مبثوثة في أماكن كثيرة ، وكذلك في القسم المصري من خريدة القصر للعماد الأصبهاني .

خصائص أسلوب القاضي الفاضل :

لقد وقفت في الوحدة السابقة على الخصائص العامة للمدرسة التي يمثلها القاضي الفاضل ، والتي تجلت في نشره ونثر عدد من الكتاب الذين ساروا على منهجه . ولكي تتبين هذه الخصائص واضحة في رسائل القاضي الفاضل ، فإنني أضع بين يديك رسالة شهيرة من رسائله ، هي الرسالة القدسية التي بعث بها إلى الخليفة في بغداد إثر فتح القدس . والمطلوب منك أن تدرسها ثم تستخرج منها أمثلة للخصائص التي تبيتها في الوحدة السابقة .

من رسالة القاضي الفاضل في فتح بيت المقدس

وهذه نسخة كتاب كتب به القاضي الفاضل عن السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » صاحب الديار المصرية ، إلى الناصر لدين الله الخليفة يومئذ ببغداد ، بفتح القدس وما معه ، واقتلاع ذلك من أيدي الفرنج وإعادته إلى ما كان عليه من الإسلام ، وهي :

« أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولا زال مظفر الجدد بكل جاحد ، [غني]
التوفيق عن رأي كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ
النصر والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد

مساعي الفضل وإن كان لا يلتقى إلا بشكر واحد .¹ ماضي حكم القول بعزم لا يمضي إلا بنسل غوي وريش راشد [ولا زالت غيوث فضله² إلى الأولياء] أنواء إلى المرائع وأنواراً إلى المساجد ، ويعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيلاً إلى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التبشير بصبح هذه الخدمة ، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة : فإنها بحر للأقلام فيه سبج طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، ويسرى للأسرار في إظهار مسارب ؛ ولله في إعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب ؛ ولله في إعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى . وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرهم ؛ ولص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط ؛ وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضاً فقد بُذلت الأنفس في ثمنه ، وأمر أمر الحق وكان مستضعفاً ، وأهل رعبه وكان قد عيف حين عفا ؛³ وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة [فأدجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة ، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين ؛ واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم أبقاً ، وظفروا بقطعة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً ؛ واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة ؛ قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غلغلم .

ولما قدم الدين عليها عرف منها سروداء قلبه ، وهنأ كفوها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه ؛ وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى ، ولا يتاسى تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ؛ ولا يناجز من استمظله في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه ؛ إلا لكون الكلمة مجموعة ، والدعوة إلى سامعها مرفوعة ؛ فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ؛ وكانت الألسنة ربما سلقته فانضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأظفأها بالاحتمال والاصطبار ؛ ومن طلب خطيراً خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر ؛ وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها ، ويضعف في أيديها مهر القوائم فتفضها ؛ هذا إلى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ، ولا يُرعى به حق الله في العباد ؛ ولا يوفى به واجب التقليد

الذي تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء الله كانوا في مثل هذا اليوم لله يسألون ؛ لا جرم أنهم أورثوا سرورهم وسريرهم خلفهم الأظهر ، ومجلهم الأكبر ؛ وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المنيفة ، وعلوان صحيفه فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة ، فما غابوا لما حضر ، [ولا غضوا] لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً ومنه مقبولاً ، وخلص إليهم إلى المضاجع ما اطمأنت به جنوبها [وإلى الصفائح ما عبقت به جيوبها] وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميراً ، والنهار به بصيراً ؛ والشرق بهتهدي بأنواره ، بل إن أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأن واره ؛ فإنه نور لا تكنه أغساق السدف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف .

(القلقشندي : 6 : 496 - 498)

نشاط (5)



ارجع إلى كتاب « بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية » للدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، واكتب تقريراً عن دراسته لرسالة القاضي الفاضل في فتح بيت المقدس .

سؤال التقويم الذاتي (5)



ما رأيك في أسلوب القاضي الفاضل ؟ وهل تجد له في نفسك من المنزلة ما تقرؤه عنه في كتب الأدب والتاريخ ؟

تدريب (4)



ادرس ظاهرة الجناس في الفقرة الثانية من رسالة القاضي الفاضل في فتح بيت المقدس ، من قوله : « كتب الخادم هذه الخدمة إلى قوله : « وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غلهم » .

5.2 العماد الأصبهاني : حياته وخصائص أديه

ليس اسم العماد بغريب عنك ، فقد تردد اسمه في الوحدة الماضية باعتباره واحداً من مدرسة القاضي الفاضل التي انتشرت في العصر الأيوبي وعهود المماليك .

ولا يخفى عليك أن في اسم العماد ما يلفت النظر ، فهو أصبهاني ، وأنت بلا شك تعلم أن أصبهان مدينة عظيمة من مدن إيران ، وقد أنجبت الكثير من كبار العلماء وأهل الأدب ، وقد تجد النسبة إليها بلفظة: أصبهاني أو أصفهاني . واسم أبي الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني غير بعيد عن ذاكرت؛ . وكذلك أبو نعيم الأصبهاني صاحب الكتاب المشهور في تراجم الصالحين المعروف بحلية الأولياء .

لم تكن في هذا العصر حدود تمنع من انتقال رعايا الدولة الإسلامية من جهة إلى أخرى ، على الرغم من الاختلاف السياسي ، وانقسام بلاد المسلمين إلى وحدات سياسية متعددة . فقد ولد عماد الدين الكاتب الأصبهاني كما قلت في أصبهان سنة تسع عشرة وخمسة . وانتقل به أبوه إلى بغداد ، وبها نشأ وتفقّه ، ودرس على كبار علمائها مختلف الفنون ، وقد تفوق في الفقه على المذهب الشافعي . ثم عاد بعد ذلك إلى بلده أصبهان ومكث بها مدة . ثم عاد إلى بغداد ، وانعقدت صلة المودة بينه وبين الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الذي ولّاه النيابة عنه في البصرة ثم في واسط . وأقبلت الدنيا عليه إلى أن نكب الوزير ابن هبيرة وزال زمان عزّه ، فأصابت نكبته أعوانه ، ومنهم العماد الذي اعتقل ، ثم استعطف بعض الرؤساء المقربين من الخليفة فأطلق سراحه .

وبدأت مرحلة جديدة في حياته بانتقاله إلى دمشق ، واتصاله بالقاضي الشهرزوري ، وزير نور الدين محمود . وهناك جدد الصلة بنجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، الذي كانت له صلة يوم كان نجم الدين والياً على تكريت ، وكان عم العماد على صلة به .

وأعجب القاضي الشهرزوري بالعماد ، فعرفه على نور الدين ، الذي استخدمه في ديوان الإنشاء ، وارتفعت مكانته لدى نور الدين ، فأرسله سفيراً إلى الخليفة في بغداد ، ثم فوّض إليه التدريس في مدرسة سمّاها العمادية ، تكريماً له .

ولم تزل أموره طيبة في عهد نور الدين ، ولما مات وتولى بعده ابنه الصالح إسماعيل ، انعكست أحواله ، وأحس بالوحشة ، فانتقل إلى الموصل ، ومكث فيها مدة مرض فيها . ولما استولى صلاح الدين على دمشق ، وضمّ بلاد الشام إلى ملكه عاد إلى دمشق ، واتصل بصلاح الدين ، ومدحه بقصائد عديدة ، فاستكتبه صلاح الدين وقرّبه ، وصار من خاصته المقربين لديه ، فكان ينوب عن القاضي الفاضل عند انقطاعه عن صلاح الدين لرعاية شؤون الدولة في مصر .

وكانت بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات ، ومن طريف ما يروى في ذلك أن العماد لقي
القاضي الفاضل

فقال له : سر فلا كبا بك الفرس !

فأجابه القاضي : دام علا العماد !

ولعلك إن تأملك الجملتين أدركت أن كلا الرجلين أظهر قدرة تلفت النظر في صياغة جملة تقرأ من
اليمن إلى اليسار وتقرأ من اليسار إلى اليمن لتكون الجملة نفسها ، وهذا ما يعرف في علم البديع باسم :
ما لا يستحيل بالانعكاس . وقد تفنن الكتاب والشعراء فيه إظهاراً للبراعة والإبداع اللفظي !!

ولم يزل عماد الدين في عز وسعادة حتى توفي صلاح الدين ، ولم يجد عند ملوك بن أيوب بعده
المكانة التي كانت له من قبل ، فانقطع للتأليف ، وكان يجد في نفسه غصة . فقد أصيب بأكثر من نكبة في
حياته ، مع ابن هبيرة ، ثم بعد نور الدين ، ثم بعد صلاح الدين . وكان إذا دخل عليه من يزوره يقول :

أنا ضيف برعكم أين أين المضيف ؟

أنكرتني معارفي مات من كنت أعرف !!

وتوفي العماد بدمشق سنة سبع وتسعين وخمسة .

(انظر : ياقوت ، 19 : 11 - 19 ، ابن خلكان : 5 : 147 - 152)

آثاره الأدبية والعلمية :

كان العماد بحكم نشأته يعرف الفارسية إلى جانب معرفته العربية . وقد تعددت جوانب شخصيته :
فهو كاتب رسائل ، ومؤلف كتب ، وشاعر . ومن أشهر مؤلفاته :

1. خريدة القصر وجريدة العصر : وهذا الكتاب حلقة في السلسلة التي بدأها الثعالبي في يتيمة
الدهر، وقد أرخ فيه للشعراء الذين وجدوا بعد المئة الخامسة ، إلى ما بعد سنة سبعمين وخمسة في
الشام والعراق ، ومصر والجزير ، والمغرب وفارس .

2. البرق الشامي : وقد أرخ فيه لنفسه ، بذكر نشأته ثم رحلته من العراق إلى الشام ، وأخباره مع نور
الدين ، وصلاح الدين ، وما جرى له في خدمتهما ، وذكر بعض فتوحات صلاح الدين .

3. الفيج القسي في الفتح القدسي : وموضوعه فتح صلاح الدين للقدس .

4. السيل على الذيل : وهو ذيل على خريدة القصر .
5. نصره الفطرة ، وعُصره القطرة : وهوتاريخ للدولة السلجوقية .
6. رسالة عتبي الزمان : وتسمى : العتبي والعتبي .
7. نحلة الرحلة : ذكر فيه اختلال أحواله وتغيّر أمره بعد صلاح الدين .
8. ديوان رسائل في مجلد .
9. ديوان شعر في مجلدين .
10. ديوان دوبيت (رباعيات) ، صغير . .

(انظر : الرومي ، 19 : 19 - 20)

أسلوب العماد ومنزلته الأدبية :

غلبت الصنعة على كتابة عماد الدين إلى درجة التكلف الواضح ، وإذا كنا في زمن لا يروقنا فيه الأسلوب المثقل بالصنعة البديعية ، ولذلك قد لا نتقبل أسلوب العماد ، فإن مما يدل على شدة تكلفه أن أدباء عصره ومن جازوا بعده شكروا من ذلك التكلف !

اقرأ هذا النص من كلام العماد :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل فيضه المستفيض ، وتبّج وجه وجاهته ، وتأرجح نبأ نياهته ، وما عرفه من عوارفه البيض » !!

واقراً تعليق الصفدي على هذا النص إذ يقول :

« انظر إلى قلق هذا التركيب ، وتعسفه في هذا الترتيب » !!

ولعله يلفت نظرك تكرار الفاء والضاد في كلمات :

أفاض ، وفضل ، وفيض ، والمستفيض ، طلباً للجناس ، وكذلك تكلف الجناس في قوله :
وجه وجاهة ، ونبأ نياهته ، وعرفه من عوارفه .

ولم يقتصر أمر انتقاد التكلف على صلاح الدين الصفدي ، بل ها هو السبكي ، يعلق على كلام الصفدي فيقول :

« الأمر كما وصف ، ولقد مجّ سمعي فواتح أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثُر فيها من الجناس ، ورد العجز على الصدر » .

ولكن الصفدي ينصف العماد بقوله :

« حين يخلو كلام العماد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير ، يعذب في السمع وقعه ، ويتسع في الإحسان صنعه ، ويرشف اللب مذاقه ، ويكون عند من له ذوق أطيب من تفريد حمامة » .

وإذا ما وازنا بين القاضي الفاضل والعماد ، رجحت كفة القاضي بلا خلاف . فإذا كان العماد يكثُر من الاستعانة بالاستعارة فإنها استعارات جزئية لا تشكل صورة متكاملة ، كما هي الحال لدى القاضي الفاضل . ومعانيه دون معاني القاضي الفاضل تغلب عليها أحيانا الصناعة والسطحية الظاهرية . (سلام ، 217 - 220) .

وقد وافق رأي بعض المعاصرين رأي القدماء في العماد ، ومن ذلك رأي محمد كرد علي حيث يقول فيه :

« أما إنشأه فسجع ، وفي الفتح القسي منه مثال يأتي على حلم الحليم ، لما أكثر فيه من الجناس ، وأتى بأنواع البديع . ونحن نقول : إن شهرته أعظم من حقيقته . لا جرم أنه متمكن من اللفظة ، يصرّفها كما يشاء قلمه ، وتكلفه لا يخفى على صاحب هذا الفن .. وما قيل في نشره يقال في شعره ، فإنه يكثُر فيه الجناس أيضاً ، حتى يفقد سلاسته . ولنا أن نقول : إنه شاعر أرقى من الوسط ، ونائر كذلك ، هيأت له الأيام شهرة طالما تخطّت من بدّوه ، ومن ساواهم في أدبهم وأخلاقهم » . (كنوز الأجداد ، 320)

ولعلك عزيزي الدارس توافق على ما قيل في هذا الكاتب ، وقد تجد رأياً آخر ، ولكن انظر في النماذج التالية من إنشأ العماد ثم كوّن رأيك الخاص !

بسم الله الرحمن الرحيم

* الحمد لله مودع أرواح المعاني أشباح الألفاظ ، ومطلع ذكاء الذكاء من أفلاك الإدراك للقرائح الأيقاظ ، ومظهر أسرار الحكم لأحداق الضمائر الناظرة ، ومنوّد أزهار الكلم في حدائق الخواطر الناضرة ، وحافظ نظام البلاغة في كل عصر ، وحاصر أقسام البراعة في نوعي نظم ونثر ، الذي أفاض على الأفاضل حلال الكرامة ، وخصهم بخصائصهم بالفخار والفخامة ، وأرسل محمداً - صلوات الله عليه - بالفصاحة المعجزة في البيان ، والحكمة

الواضحة البرهان ، وأنزل عليه الذكر العربي المبين ، وجعله لحمل أمانة وحيه القوي الأمين ، وأيده بذوي الفضائل الغر ، والفواضل الغزر ، من آله وصحابه ؛ وعين أهل العلم لورائته ، وأصفى بشرعه مشرع أمته ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته.

أما بعد ، فإنني لما رأيت الفضل في عصرنا هذا ، وإن ضاع عرفه ، قد ضاع عرفه كما أنه ، وإن زان ضعفه ، فقد زاد ضعفه ، لفساد أمره ، وكساد سعره ، وهبوط نجمه ، وسقوط رسمه ، وحطّ حظه ، وقلة عناية أهله بحفظه ، آثرت أن أثر من مآثر أهل العصر ما يخلد آثارهم ، ويجدد منازلهم ؛ فإنني ألفت أبحاثاً وأفكاراً أفتكرهم قد عنست ، وآرام شواردهم في خميلة الخمول كنست ، وعرائس نفائسهم عند الأكفاء ما عرست ، وبعد الوحشة ما أنست ، والبواعث قلت بل عدمت ، والحوادث جلت بل عظمت ، وكنت منذ شمت بارقة الأدب ، وركبت في استفادة العلم صهوة الطلب ، ذاك وصبا الصبا في ريعان الهبوب لها مسرى ومسير ، وشبا الشباب الطري طرير ، وأنا أحب أن أجمع محاسن من محاسنهم الدهر المسيء ، وأظهر مزايا من غفل عن التحلي بمزاياهم الزمان البذيء ؛ وكنت قد طالعت كتابي (يتيمة الدهر) و (دمية القصر) للشعالبي والباخرزي في محاسن أهل عصرهما الشعراء ، وقد بلغا الجهد في إظهار اجتهاد البلغاء ، وما وجدت بعد ذلك من عني بذلك كعنايتهما ، ولا من حدث نفسه أن يبلغ إلى غايتهما ، فصنفت هذا الكتاب وألفته ، ورقمت هذا الرشي وفوقته ، وسميته (خريدة القصر وجريدة العصر) ؛ لأنها حسناء ذات حلي وحلل ، غانية تغبطها على الحسن أثمار الكلل . فهذا الكتاب كالروض الأنف يجمع أنواع الزهر ، وكالبحر تضمن على نواصع الدرر ؛ وكالدهر يأتي بهجائب العبر ، يشتمل على فنون وعيون ، وأبحاث للمعاني وعون ، وأصناف فوائد ، وضروب ضرب ، وضروع أرب ، وظروف ظرف ، وحروف لطف ، فكلم [فيه] من يتيمة لتاج قدره ، وكريمة في خدره ، وديمية لودفه ، وهلال لأفقه ؛ ويتضمن من شريف الكلام وحره ، ودره ودره ، ولطيف القول وبيده ، وغريبه وصنيعه ، ما إذا اجتلبت أنواره ، واجتنبت أثماره ، ونظرت إلى استقامة سمته ، وسلامة نحته ، وجدته محمي الحرم بالصون ، مفري الأديم عليّ الحسن ، منبع الجناب للعاكف ، حلو الجنى للقاطف ، لا يطلب إذناً على أذن ، ولا يلتمس رهناً من ذهن ، ولا يحتجب عنه قلب ، ولا يحتجر معه لب ، بل يعانق القلوب بقبوله معانقة ، ويعانق الأرواح براحه معانقة .

وقد ذكرت أهل عصري ، وأهل عصر آبائي وأعمامي ، فالكتاب مشتمل على العصرين

السالف الماضي ، والحاضر النامي . وأكثر ما أوردته شعر من أروي عن واحد ، عنه ، إن لم يكن أدركته وسمعت منه ، ولم أقتصر على المنتقى المنتقد ، والمتنخل المنتخب ، بل ذكرت لكل شاعر ما وقع إليّ من شعره ، وأثبتته : إما لمعنى غريب ، أو لفظ مستحسن ، أو أسلوب رائق ، أو حديث بحال من الأحوال لائق ، وطلبت الاستكثار من الفوائد ، وضمنت الشذور إلى الفرائد .

والذي بعثني أولاً على جمع هذا الكتاب أنني وجدت المعاصرين لعمي الصدر الشهيد عزيز الدين أبي نصر أحمد بن حامد من الشعراء ما فيهم إلا من أمّ قصده ، وطلب ووقد عليه بدمه ، واسترقده من منعه ، وفاز عنده بنجحه ، وأدرك في ليل الأمل من الفوز ضوء صبحه ، حمل إليه بضائع فضله فحصل من إفضاله بريحه ، وكلهم تمتدحه ، ومستميحه ومستمنحه ، فأحبت أن أحيي ذكرهم ، وأقابل بمجازاة شكري شكرهم . وكانت المدائح المجموعة في عمي العزيز مجلدات ، غير أن العدو لما نكبه ، نهبها ، وذهب بها وأذهبها ، لكنه لم يسلب الأصل والمحتد ، ولم ينهب المجد والسؤدد . وقد كتبت منها بعض ما حصلته ، ومهدت به ذكره على قاعدة الخلود وأثلته .

(الأصفهاني ، الخريدة - قسم العراق ، 1 : 3 - 8)

أسئلة التقويم الذاتي (6)



1. اذكر خصائص أسلوب العماد الأصفهاني .

2. ما رأيك في أسلوب العماد ، وهل يروقك ؟ حدّد الأسس التي تبني عليها مرقفك .

نشاط (6)



وازن بين نصين أحدهما للقاضي الفاضل والآخر للعماد الأصفهاني ، وبين أوجه الاختلاف .



ادرس ظاهرة السجع في مقدمة الجزء الأول من القسم العراقي لخريدة القصر .

6.2 لسان الدين بن الخطيب وخصائص أسلوبه

ليس اسم لسان الدين بن الخطيب بغريب عنك . فلا بد أنك قرأت عنه أو قرأت له فيما سبق من مراحل التعليم . فاسم لسان الدين من أشهر الأسماء في تاريخ الأدب الأندلسي . وقد خُلد ذكره فيما ألقاه من آثار أدبية وعلمية ، وكان الأثر الأكبر في خلوده راجعاً إلى كتاب « نفع الطيب » .

فمن هو هذا الوزير الأديب الشهير ؟

هو أبو عبد محمد بن عبدالله بن سعيد .. أصله من بلدة لوشة على مقربة من غرناطة ، ولد سنة 713 هـ . وانتقل أبوه إلى غرناطة ، عمل في خدمة سلاطينها من بني الأحمر . وكان والده من أهل العلم والأدب والطب ، وتوفي في وقعة طريف عام واحد وأربعين وسبعمئة التي وقعت بين المسلمين والإسبان . وذلك بعد أن نال في الدنيا مكاناً عالياً ، وحصل مرتبة الوزارة . (المفري ، 5 : 7 - 8 ، 11 ، 16 - 17)

وقد نشأ لسان الدين على حالة حسنة ، سالكاً سبيل أسلافه فقرأ القرآن والعربية والفقهاء والتفسير والطب وغير ذلك من العلوم على يدي كبار أهل العلم في عصره . (المفري ، 5 : 75)

وبعد أن توفي والده اتخذ السلطان أبو الحجاج أميناً لسره ، وسفيراً لدى ملوك عصره ، وألقى إليه بمقاليد حكمه . وبقي على حاله حتى توفي السلطان أبو الحجاج ، فانتقل إلى خدمة ولده السلطان الغني بالله ، ثم نشبت ثورة سنة 755 هـ لجأ بعدها إلى وادي آش ، وسجن ابن الخطيب ، ثم تدخل سلطان المغرب أبو سالم المريني وتشفع له ، فأطلق سراحه ، واستقدمه إلى بلاطه . وبقي لسان الدين في المغرب بعيداً عن الوزارة ومكائدها حتى عاد السلطان الغني بالله إلى غرناطة ، واستعاد ملكه ، فاستقدم لسان الدين إلى غرناطة ، ومالت إليه الدنيا ، وذاع صيته ، وأقبل عليه الخاصة والكافة ، ولكن ذا النعمة محسود ، وللسياسة وأهلها مكاييد ، لأن كلاً منهم يريد أن يظفر بالمنصب الأعلى ، وهكذا كان مع لسان الدين بن الخطيب ، فأخذت حاشية السلطان تكيد له ، ورأى أن غرناطة قد ضاقت به ، فرحل إلى المغرب سنة 772 هـ ، وأقام لدى سلطانها . وأخذ يزين له قمل الأندلس ، ونزع غرناطة وما يتبعها من بني الأحمر الذين عمل في خدمتهم قبل أن تسوء علاقته بهم ، وكان دافعه إلى ذلك الانتقام مما حل به من ضياع المكانة ، والغربة . ولما علم سلطان غرناطة بكيد لسان الدين له ، أرسل إلى السلطان المغربي يطلبه . وبدأ الكيد للسان الدين من جديد ، من أهل الأندلس وأهل المغرب معاً . ثم دارت أحداث في المغرب ، اضطرت معها الأحوال السياسية ،

إلى أن تولى الحكم فيها سلطان موالٍ لبني الأحمر ، وكان شرط سلطان غرناطة لمساعدته أن يسلم إليه ابن الخطيب . وعقد لسان الدين مجلس محاكمة حضرها ابن زمرك ، تلميذ لسان الدين الذي ولي الوزارة بعده . وقد ناله في ذلك المجلس من الأذى والتوبيخ والإهانة ما لم يكن بالحسبان . ثم أُلقي به في السجن ، ولم يمهله أعداؤه ، فأرسلوا إليه من خنقه ، وذلك سنة (المقري ، 5 / 110 - 111) .

وهكذا طويت صفحة حياة هذا العلم الذي ذاق حلو الحياة ومرّها ، عرف حياة القصور ، وأهين في غياهب السجون ، وذاق نعيم السلطة والاستقرار ، كما ذاق عذاب الغربة والتشريد والخوف .

منزلة لسان الدين وآثاره :

كان لسان الدين أبرع كاتب أخرجته الأندلس في عصورها الأخيرة ، حتى قيل إنه كاتب الأرض إلى يوم العرض .. وإذا كان لسان الدين لم ينجح في حياته السياسية فقد نجح نجاحاً عظيماً في حياته الأدبية التي كانت متنوعة ، إذ لم يقف بكتابات عند الرسائل الديوانية أو الشخصية ، بل تعداها إلى التاريخ ، والتصوف والموسيقى والفقه والطب . (ضيف ، الفن ومذاهب ، 334) .

وقد خصص المقري لسان الدين ثلاثة أجزاء من كتابه نفع الطيب . وكان مما قال فيه :

« هو الوزير الشهير الكبير لسان الدين ، الطائر الصيت في المغرب والمشرق ، المزري عرف الشناء عليه بالعبير والعبير ، المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب ، ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها . ومصنفاته تخبر عن ذلك ، ولا يثبتك مثل خبير . علم الرؤساء الأعلام ، الوزير الشهير الذي خدمته السيوف والأقلام ، وغني بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والأعلام ، اعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة والأحلام » . (المقري 5 / 7) .

وقد ذكر المقري كتب لسان الدين وقال في مقدمة ذلك « اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمت نحو الستين ، وكلها في غاية البراعة » (المقري ، 7 / 97) .

من هذه الكتب :

الكتيبة الكامنة في أدباء المئة الثامنة .

الإحاطة بما يتسر من تاريخ غرناطة .

روضة التعريف بالحب الشريف - في التصوف .

اليوسفي في صناعة الطب .

المسائل الطبية .

كتاب عمل من طب لمن حب - في الطب

رسالة تكوين الجنين .

الوصول لحفظ الصحة في الفصول .

كتاب الوزارة .

مقامة السياسة

(انظر أسماء باقي الكتب في : المقرئ ، 7 / 97 - 101)

خصائص أسلوبه الكتابي :

1. السجع : ليس من السهل أن تصدر حكماً عاماً على أسلوب لسان الدين بن الخطيب ، ذلك لأن نثره متعدد المجالات ، فهناك النثر التأليفي ، وهناك نثر الرسائل الديوانية ، والنثر التأليفي متعدد المجالات بين الأدب والتاريخ والطب والموسيقى . وهذا يعني بالضرورة تعدد الأساليب لديه ، فهو يسرف في استخدام السجع وألوان البديع حيناً ، ويعتدل حيناً آخر ، ويتحرر منه في بعض ما يكتب .

2. الإطناب المسرف ، وبخاصة في رسائله حتى قهّل فيه :

وهو خليق بالتعظيم ، جدير بالتمجيد والتكريم ، كيف لا وهو شاعر مفلق ، وخطيب مصقع ، وكاتب مترسل بليغ ، لولا ما في إنشائه من الإكثار الذي لا يخلو من عثار ، والإطناب الي يفضي إلى الاجتناب ، والإسهاب الذي يقدر الإهاب ، ويورث الالتهاب وقد يتسع بالإطناب ويسرف فيه حتى يفقد قارئه نشاطه لأن منظر المعاني فيبسط أمامه انبساطاً يخرجها من حيز إلى حيز الاستمرار والإملال (انظر: شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ، 334) .

3. كثرة الإشارات التاريخية ، واستخدام المصطلحات الخاصة بالعلوم ، من نحو وصرف وفقه وفلسفة وغير ذلك .

- ومن نثر لسان الدين - رحمه الله تعالى - ما أنشأه عن سلطانه الغني بالله تعالى -
حين وصله ابنه الذي كان بفاس - يخاطب سلطان فاس ، ما نصّه :

« المقام الذي تقلد نافلة الفضل شفعا ، وجود سورة الكمال إفراداً وجمعاً ، واستولى وجمع بیره المنع ، والتهنئة والفتح ، فأحرز أصلاً وفرعاً ، واستحق الشكر عقلاً وشرعاً ، وأغرى أيدي جوده ، بالقصد الذي هو حظ وليه من وجوده ، فأثار من جيش اللقاء نقعاً ، ووسط به جمعاً ، مقام محل أخينا الذي أقلام مقاصده درية بحسن التوقيع ، وعيون فضله مذكاة لإحكام الصنيع ، وعذبات فخره تهفو بذروة العلم المنيع ، ومكارمه تتفنن فيها مذاهب التنوع ، أبقاه الله تعالى وألسن فضله ناطقة ، وأقيسه سعده صادقة ، وألويته بالنصر العزيز خافقة ، وبضائع مكارمه في أسواق البر نافقة ، وعصائب التوفيق لركائب أغراضه موافقة : السلطان الكذا ابن السلطان كذا ابن السلطان كذا : سلام كريم ، طيب برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وطريقتكم المثلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، مجل قدركم ، وملتزم بركم ، وموجب حمدكم وشكركم ، فلان .

« أما بعد حمد الله تعالى الذي جعل الشكر على المكرمات وقفاً ، ونهج منه بإزاتها سبيلاً لا تلتبس ولا تخفى ، وعقد بينه وبين المزيد سبباً وحلفاً ، وجعل المودة في ذاته مما يقرب إليه زلفى ، مريح تجارة من قصد وجهه بعمله حتى يرى الشيء ضعفاً ، وناصر هذه الجزيرة من أوليائه الكرام السيرة بمن يوسعها فضلاً وعظماً ، ومدني ثمار الآمال فتتمتع بها اجتناء وقطفاً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي العربي الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذي مدّ الرحمة على الأمة سجفاً ، وملأ قلوبها تعاطفاً وتعارفاً ولطفاً ، القائل « من أيقن بالخلف جاد بالعطية » ووعد من عامل الله تعالى بريح المقاصد السنية ، وعداً لا يجد خلفاً ، والرضى عن آله وأصحابه الذين كانوا من بعده للإسلام كهفاً ، وعلى أهله ظلاً ملتفاً ، غيوث الندى كلما شاموا سماحاً وليوث العدى كلما شهدوا زحفاً ، والدعاء لمقام أخوتكم الأسعد بالنصر الذي يكف من عدوان الكفر كفاً ، والمجد الذي لا يفادر كتابه من المفاخر التي ترك الأول للآخر حرفاً ، وإلى هذا - أيديكم الله بنصر من عنده ، وحكم لملككم الأسمى باتصال سعده ، وأنجز في ظهوره على من عاند أمره سابق وعده - فإننا نقرر لدى مقامكم وإن كان الغني بأصالة عقله ، عن اجتلاء الشاهد ونقله ، وجلاء البيان وصقله ، أن الهدايا وإن لم تحل العين منها كما حلت ، أو تناولها الاستنزار فما نهبت في لحظ الاعتبار ولا جلّت ، أو كانت زيفاً كلما أشري بها الاختبار قلّت ، لا بد أن تترك في النفوس ميلاً ، وأن تستدعي من حسن الجزاء كيلاً ، وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نيلاً ، وأي دليل أوضح محجة ،

وأبين حجة ، من قوله صلى الله عليه وسلم « تهادوا تحابوا » من غير تبين مقدار ، ولا إعمال اعتبار ، ولا تفرقة بين لجين ولا نضار ؛ فكيف إذا كانت الهدية فلذة الكبد التي لا يلد العيش بعد فراقها ، ولا تضيء ظلم الجوانح إلا بطلوع شمسها وإشراقها ، وجمع الشمل الذي هو أقصى آمال النفوس الألفة ، والبواطن المصاحبة للحنين المحالفة ، لا سيما إذا اقتعدت محل الهناء ، بالفتح الرائق السناء ، وحثت بها من خلفها وأمامها صنائع البر وقومة الاعتناء ، فهنالكَ تفخر ألسن الثناء ، وتتطابق أعلام الشكر السامية البناء .

« وإتانا ورد علينا كتابكم الذي سطره البر وأملأه ، وكنفه اللحظ وتولاه ، ووشحه البيان وحلأه ، مهنتاً بما منح الله جلّ جلاله من رد الحق ، وتعيين الجمع ورفع الفرق ، وتطوير الأمان وأمان الطوق ، وإسعاد السعد ، وبلوغ القصد ، وقطع دابر من جحد نعمة الأب والجد ، وسلّ سيف البغي دامي الحد ، والحمد لله تعالى حمداً يلهمه ويتيحجه ، ونسأله إمداداً يسوغه ويبيحجه ، على أن أحسن العقبى وأعقب الحسنى ، وأرى النعم بين فرادى ومثنى ، وجمع الشمل الذي قد تبدد ، وجدّد رسم السعادة لهذا القطر فتجدّد ، وأخذ الظالم فلم يجد من محيص ، وجمع لنا الأجر والفخر بين تخصيص وتمحيص ، وقلّد برؤوس الفجرة الغدرة الفرضة التي فرعوها ، وأطفأ براق دمائهم نار الضلالة التي شرعوها ، وكتب لقبيلكم الفضل الذي يحمد ويشكر ، والحق الذي لا يجحد ولا ينكر ، فلقد أوى لما تبرأت الخلصان ، وتحفى عندما تنكر الزمان ، وسبب الإدالة ، وطاوع الأصالة والجلالة ، حتى فرج الله تعالى الكربة ، وأنس الغربة ، وأقال العثرة وتقبل القرية ، له الحمد على آلائه ، وصلة نعمائه ، ملء أرضه وسمائه .

« ووصل صحبته الولد مكنوفاً بجناح اللطف ، مهدداً له ببركتكم مهاد العطف ، فبرزنا إلى تلقيه تنويهاً لهديتكم وإشادة ، وإبداء في برکم وإعادة ، وأركبنا الجيش الذي آثرنا لحين استقلالنا عرضه ، وقررنا بموجب الاستحقاق فرضه ، فبرز إلى الفضاء الأفيح حسن الترتيب ، سافراً عن المرأى العجيب ، ولولا الحنان الذي تجده النفوس للأبناء وتتشعره ، والشوق إلى اللقاء الذي لا يجحده منصف ولا ينكره ، لما شق علينا طول مقامه في حجركم ، ولا ثوازه لصق أريكة أمركم ، فجواركم محل لاستفادة رسوم الإمارة ، وتعلم السياسة والإدارة ، حتى يرد علينا يقدم كتيبة جهادكم ، ويقود إلينا طليعة نصركم إباناً وإمدادكم ، فنحن الآن نشكر مقاصدكم التي اقتضى الكمال سياقها ، وزين المجد آفاقها ، وقدرها فأحكم طباقها ، ونقر لديكم أن حظنا من ودادكم ، ومحلنا

من جميل اعتقادكم ، حظاً بأن رجحانه وفضله ، ولم يتأت بين من سلف من السلف مثله ، من الصحبة في المنزل الخشن وهي الوسيلة ، وفي رعيها تظهر الفضيلة ، والإشراك في لازم الوصول إلى الحق ، وضم أشتات الخلق ، والمودة الواضحة الطرق ، إلى ما بين السلف ، من الود الأمن بدره من الكلف ، المذخورة أذمته للخلف ، فإذا كانت المعاملة جارية على حسبه ، وشعبها راجعة إلى مذهبه ، جنى الإسلام ثمرة حافلة ، واستكفى الدين إيالة كافلة ، فالله ، عز وجل ، يمهّد البلاد بيمن تدبيركم ، ويجري على مهيب السداد جميع أموركم ، ويجعلكم ممن زين الجهاد عواتق أعماله ، وكان رضى الله تعالى عنه أقصى آماله ، حتى تربي مآثركم على مآثر أسلافكم الذين عرف هذا الوطن الجهادي إمدادهم ، وشكر جهادهم ، وقبل الله تعالى فيه أموالهم وأولادهم ، وحسن من أجله معادهم .

« وقد حضر بين يدينا رسولكم الذي وجهتم الولد - أسعده الله تعالى - لنظره ، وتخيرتموه لصحبة سفره ، فلان ، وهو من الأمانة والفضل ، والرجاحة والعقل ، بحيث طابق اختباركم ، واستحق إيثارك ، فأطنب في تقرير ما لديكم من عناية بهذه الأوطان عينت الرfid ، وضربت الوعد ، وأخلصت في سبيل الله تعالى القصد ، وغير ذلك مما يؤكد المودة المستقرة الأركان ، المؤسسة على التقوى والرضوان ، فأجبناه بأضعاف ذلك مما لدينا لكم ، وقابلنا بالثناء الجميل قولكم وعملكم ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام الكريم بخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته . »

(المقرّي ، 6 : 340 - 343)

نشاط (7)

ارجع إلى كتاب « نفع الطيب » واكتب تقريراً عنه من خلال استعراض مقدمته وفهارسه والاطلاع على بعض صفحاته .

تدريب (6)

الإطناب من خصائص أسلوب لسان الدين بن الخطيب . وضّح هذه التخصيصة في رسالته التي أنشأها عن سلطان الغني بالله - حين وصل ابنه الذي كان بفاس - يخاطب سلطان فاس .

أسئلة التقويم الذاتي (7)



1. كان مجد لسان الدين الأدهي خيراً من مجده السياسي . بيّن ذلك .
2. لسان الدين بن الخطيب أنموذج للعالم الموسوعي في عصره . وضّح ذلك .

3. الخلاصة

عززي الدارس

أرجو أن تكون قد تبينت السبيل إلى الكتابة عن الشخصيات . كما أمل أن تكون قد تبينت حياة عدد من كبار الأدباء في تراثنا الأدبي ، ولعله قد ظهر لك أن هناك فرقاً بين الشهرة التاريخية للعلم والشهرة الممتدة . فبعض أعلام الأدب لا يجاوز أثرهم الفني عصرهم ، ويكونون أئمة للأدب في عصورهم ، وبعضهم تمتد آثارهم إلى العصور التالية ، فينتفع أهل العربية بنتائج عقولهم عصوراً عديدة . ولعل أبرز مثل لهذا الصنف الأخير الجاحظ ، الذي كانت كتبه مثار إعجاب أئمة البيان والساسة في عصره ، كما أنها ما تزال مورداً لطلاب الأدب والمعرفة حتى عصرنا ، وستبقى كذلك إلى ما شاء الله .

4. إجابة التدريبات

تدريب (1)

تنبع خصيبتين من خصائص أسلوب عبد الحميد في الفقرة الأولى من رسالته إلى الكتاب
إذا تأملنا رسالة عبد الحميد إلى الكتاب وجدناها تجمع خصائص أسلوبه كافة ، ففيها التنظيم ،
والأسلوب التصويري ، والإطناب ، وتوازن الجمل والترادف الموسيقي ، والتأثر بالأسلوب القرآني .

ولنتقف عند خصيبتني :

الإطناب وتوازن الجمل والترادف الموسيقي في فقرات نختارها .

لو أخذنا الفقرة الأولى من رسالة ويحسنا عن ظاهرة الإطناب ومن ثمراتها الترادف لوجدنا ما يلي :
نجد به يخاطب الكتاب ويدعو لهم ونجد الإطناب في الدعاء بقوله : حفظكم الله - وحاطكم

ورفقتكم - وأرشدكم

فالحنظ والحبيطة ، والتوفيق والإرشاد معانٍ متقاربة ومن الإطناب في وصفه للكتاب بهذه الصفات :

أهل الأدب والمروءة والحلم والروية .

والأدب في اصطلاح العصر الأموي كان يحمل المعنى الأخلاقي وكلمة الأدب تدل على مجمل الصفات
الحسنة ، وكذلك المروءة التي هي اسم جامع لمكارم الأخلاق . والحلم والروية من باب واحد في المعنى .
والإطناب يتجلى في ذكر الخاص بعد العام من صفات الأخلاق ، وفي حديث عبد الحميد عن منزلة الكتاب
لدى الملوك يورد معنى واحداً في عدة جمل على النحو التالي :

بكم ينتظم الملك .

وتستقيم للملوك أمورهم .

ويتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم .

ويجتمع فيهم .

وتعمر بلادهم .

ألا ترى أن المعنى الواحد عبّر عنه في صور لفظية متعددة فانظام الملك كاستقامة أمور الملوك ،

وصلاح سلطانهم واجتماع فيئهم ، وعمران بلادهم . ثم بعيد هذا المعنى وهو أهمية الكتاب للملوك في الصورة التالية :

يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه .

والوالي في القدر السني والدني من ولايته .

لا يستغني عنكم منهم أحد .

ولا يوجد كاف إلا منكم !

فالمعنى مكرر يراد منه تأكيد الأهمية . وهكذا يمضي في تشبيه مكانتهم من الملك بالسمع والبصر واللسان واليد .

وهكذا يمضي في رسالة ..

وإذا بحثنا عن الخصيصة الثانية :

توازن الجمل والتراشق الموسيقي فإننا نجد قبل كل شيء أن عبد الحميد لم يتكلف في كتابته صنعة واضحة ، ولم تطغ حلية الألفاظ على المعاني . ولذلك لا نجد ملتزم السجع وإن كان ورد عنده . وفي السجع إيقاع موسيقي يزن الكلام ، وبخاصة عندما يأتي عفواً من غير تكلف . تأمل الإيقاع الذي تجده في هذه الجمل :

بكم ينتظم الملك .

وتستقيم للملوك أمورهم .

ويتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم .

ويجتمع فيئهم .

وتُعمر بلادهم .

يحتاج إليكم في القدر السني والدني من ولايته .

لا يستغني عنكم منهم أحد

ولا يوجد كاف إلا منكم .

فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون

وأبصارهم التي بها يبصرون
وألستهم التي بها ينطقون
وأيديهم التي بها يبطنون
أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلاها
وصارت إلى محاصلاها
ثقاتهم دون أهليهم وأولادهم
وقرابتهم ونصائحهم

فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم
ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم .

إذا تأملت الجمل التي كتبتها لك على هذه الصورة ليسهل عليك تبين الإيقاع والتوازن الموسيقي ،
رأيت أنه لا يحرص على الإيقاع في كل الجمل ، وإنما في بعضها دون بعض . ومن أوضح صورة :
ويجتمع فيئهم - وتعمر بلادهم .

ولا يستغني عنكم منهم أحد - ولا يوجد كاف إلا منكم .

وأوضح من ذلك هذه الجمل الأربعة التي بدأت بقوله :

موقع أسماعهم التي بها يسمعون وما تلاها ، حيث نجد التوازن الموسيقي في أوضح صورة .

وهكذا نجد في باقي الرسالة ، يحرص على لون من الإيقاع الموسيقي ، ولكن من غير التزام ولا
تكلف مما يزيد جمال أسلوبه ويجعله ممتعاً للسمع والعقل معاً .

تدريب (2)

ارجع إلى النص المعنون بـ « بحث في السعادة » وبين خصيصة من خصائص أسلوب الجاحظ فيه .

للجاحظ أسلوب متميز ، تحس وأنت تقرؤه أنك أمام أديب عالم ، يملك المعرفة وأدوات التعبير ،
يتصرف بما عنده من العمل أتم التصرف ، ويعبر عن المعاني كما يحلو له التعبير ، لا يتكلف ، ولا يسعى
إلى إظهار حذافة أو براعة مدعاة .

ولنقف على نص مختار من كتاب الحيوان ، الذي جعل عنوانه (بحث في السعادة) ولنر ما فيه من قصر العبارة والتلوين الصوتي .

يحرص الجاحظ أن تكون جملة قصيرة ، وفي قصر الجمل عذوية الإيقاع ، ووضوح المعنى ، وقدرة على إيراد ألوان متعددة من أشكال التعبير التي إذا قرأتها بصوت عالٍ وجدت لها في أذنك وقعاً حسناً .

واقراً معي بصوت عالٍ النص التالي :

إن العيش كله في كثرة المال ،

وصحة البدن

وخمول الذكر .

ولعلك تلاحظ أننا أمام جملة واحدة ، استخدم فيها رابط العطف ، مع قصر المعطوف ، مما ولد إيقاعاً جميلاً . والجاحظ يعتمد إلى هذه الطريقة كثيراً ... فيحقق ترابط المعاني ووضوحها وجمال التعبير . . فلتتابع:

« وقال من يخالفه : لا يخلو صاحب البدن الصحيح ، والمال الكثير ، من أن يكون عالماً أو يكون بها جاهلاً . فإن كان بها عالماً - فعلمه بها لا يتركه حتى يكون له من القول والعمل على حسب علمه / لأن المعرفة لا تكون كعدمها . وفي القول والعمل ما أوجب النباهة ، ومتى خرج من حد الخمول فقد صار معرضاً لمن يقدر على سلبه » .

لعلك تلاحظ هنا أن الجاحظ أورد فكرة لا تعالج في جملة واحدة ، بل في فقرة طويلة . ولعلك تلاحظ أن الإيقاع قد غاب عن هذه الجملة . ولكنه لا يلبث أن يستعيده بقوله :

وكما أن المعرفة لا بد لها من عمل .

ولا بد للعمل من أن يكون قولاً أو فعلاً .

والقول لا يكون إلا وهناك مقول له .

والفعل لا يكون فعلاً إلا وهناك مفعول له .

وفي ذلك ما أخرج من الخمول وعُرف به الفاعل . إنك تحس أنك أمام أسلوب منطقي ، وحجاج عقلي ، يعطيك المقدمة ، ويتدرج بك بالبراهين حتى يوصلك إلى النتيجة . ولذلك تأتي هذه الجملة القصيرة التي تحتاج إلى تنبه العقل ويقظته لتظل متابعة لتسلسل المعاني .

وقد لا يلجأ الجاحظ إلى مثل هذا التطويل ، بل تجده يفرغ من المعنى في جمل قصيرة لا تحتاج إلى
فقرة طويلة .

وأضع بين يديك الفقرتين التاليتين :

وإذا كانت المعرفة هذا عملها في التنبيه على نفسها ،

فالمال الكثير أحق بأن عمله الدلالة على مكانه ،

والسعاية على أهله ،

والمال أحق بالنميمة ،

وأولى بالشكر ،

وأخذع لصاحبه ،

بل يكون له أشد قهراً ،

ولحبه أشد فساداً !!!

لعلك إن وازنت هذه الفقرة بالفقرة السابقة تبين لك كيف يلون الجاحظ أساليب التعبير لديه طولاً
وقصراً وفق ما تقتضيه المعاني .

وانظر إلى الفقرة التالية ووازنها في سبقتها :

« وإن كانت المعرفة ناقصة ،

فبقدر نقصانها يجهل مواضع اللذة ،

وإن كانت تامة فبقدر تمامها

يُنْفَى الخمول

ويُجلب الذكر .. »

ولعلك تلاحظ أنه مما يساعد على هذا التلوين الصوتي ما يمتاز به أسلوب الجاحظ من استخدام
الأسلوب المنطقي ، مما يؤدي إلى استخدام أسلوب الشرط كثيراً ...

وهكذا تمضي في دراسة بقية النصوص لتبين خصائص الأسلوب ..

تدريب (3)

وازن بين الشخصية الأدبية لكل من الجاحظ وابن العميد .

يبدو أنه تشبيه ابن العميد بالجاحظ كان أمراً مشتهراً في عصره . وها هو أبو حيان التوحيدي يقول في كتابه الإمتاع والمؤانسة (ج 1 : 66) روياً رأي ابن ثوابة : « فأما ابن العميد فإنني سمعت ابن الجمل يقول : سمعت ابن ثوابة يقول : أول من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظن أنه إن تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه ، فوق بعيداً من الجاحظ ، قريباً من نفسه . ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبرٌ بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ، ولا تجتمع في صدر كل أحد بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ . وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد ، وسواها مغالقة قلما ينفك منها واحد » .

والواقع أن الموازنة بين الجاحظ وابن العميد تستقيم من وجه ولا تستقيم من وجه آخر . فيبدو أن ابن العميد قد نال من الشهرة في عصره ما ناله الجاحظ في حياته . وأما الأسلوب فابن العميد يميل إلى الصنعة التي لم نجدها في أسلوب الجاحظ . وكتب للجاحظ من طول العمر ، وغزارة الإنتاج ، وتنوعه ما لم يكن لابن العميد منه نصيب . وما تركه ابن العميد يقتصر على النشر الديواني ، أو لنقل على الرسائل من ديوانيه وإخوانية . وأما الجاحظ فقد ترك رسائل كما ترك مؤلفات . وشهرة الجاحظ شهرة تاريخية واقعية ، ما تزال كتبه مورد المتأدين . وأما ابن العميد فشهرته تاريخية وأثره في أهل الأدب محصور محدود .

تدريب (4)

ادرس ظاهرة الجناس في الفقرة الثانية من رسالة القاضي الفاضل في فتح بيت المقدس ..

المحسنات البديعية ظاهرة بارزة من نشر القاضي الفاضل ، وأبرز هذه المحسنات الجناس . وهي ترتبط بالسجع كذلك . وإذا أخذنا الفقرة الثانية من رسالة وتبعنا الجناس على وجه الخصوص فإننا نجد الأمثلة التالية فيها :

الخادم - الخدمة

يجري - مجرى

بُشرى - يُسرى

بُسرى - الأسرار

مسارِب - مآرِب

صارت - مصاير

مصايرها - بصائرها

الشرط - الشروط

أمرٌ - أمرٌ

عيف - عفا

حيان - الحن

على - الأعلى

ونلاحظ أن الجناس في هذه الأمثلة ناقص ، وبعضه جاء في وسط الجملة ، وبعضه وقع في الفاصلة -
(نهاية الجملة ليكون سجعاً) .

وفي الفقرة التي تليها نجد الأمثلة التالية للجناس :

سويداء - الأسود

خطيراً - خاطر

غمرة - غامر

فتعضها - فتقضها

سرورهم - سريرهم

منقولاً - مقبولاً

جنوبها - جيوبها

بأنواره - بأن واره

ولعل ما يلاحظ في بعض أنواع الجناس التي أوردتها أنها تعتمد على التصحيف مثل :

جنوبها - جيوبها

ومنها ما يعتمد على التصحيف مع قلب حرفٍ مكان حرفٍ :

منقولاً - مقبولاً

ومن الجناس التام الذي ورد :

بأنواره - بأن واره

ولعلك تلاحظ أن مثل هذا الحشد من ألوان الجناس لا تأتي عنو الخاطر ، وإنما لا بد لها من الإعداد والترتيب واستحضار المخزون اللغوي والفكري ، ومع ذلك تجد أنها هي وألوان البديع الأخرى ترهق القارئ ، ويتوارى المعنى وراءها .

تدريب (5)

ادرس ظاهرة السجع والجناس في مقدمة الجزء الأول من القسم العراقي لخريدة القصر .

لو أخذنا مقدمة العماد لكتابه الخريدة ، في جزئها الأول الخاص بالعراق مثلاً لوجدنا أن العماد يُغرق بل يُسرف في استخدام المحسنات إلى درجة تورث التعقيد في اللسان . والتعب للذهن وهو يلاحق تداخل الألفاظ وتشابه الكلمات جناساً وسجعاً ، وكذلك تداخل المعاني وخفاها من خلال ما يورده من الصور المتراكبة .

وسنتف على ظاهرتي السجع والجناس في هذه المقدمة وسأعرج على ألوان أخرى من البديع . انظر إلى الجمل التالية وتأمل كيف حرص العماد على التجنيس والمطابقة والموازنة :

الحمد لله مودع أرواح المعاني أشباح الألفاظ ،

ومطلع ذكاء الذكاء من أفلاك الإدراك للقرائح الأيقاظ .

في الجملة الأولى : وازن وجانس بين : أرواح وأشباح .

ووازن بين : مودع في الجملة الأولى ومطلع في الجملة الثانية . وكذلك جانس بين ذكاء (بمعنى الشمس) وذكاء .

وفي نهاية الجملتين سجع مع جناس وموازنة :

الألفاظ - الأيقاظ

وهكذا تلاحظ في جملتين هذا الكمّ من المحسنات البديعية . وانظر في الجملتين التاليتين :

ومظهر أسرار الحكم لأحداق الضمائر الناظرة ،

ومنور أزهار الكلم في حدائق الخواطر الناضرة ،

ولعلك تلاحظ التوازن الدقيق بين الجملتين :

انظر : مُظهر : منور موازنة

أسرار : أزهار موازنة

الحِكم : الكلم موازنة

لأحداق : في حدائق جناس

الضمائر : الخواطر موازنة

الناظرة : الناضرة سجع وجناس

وكان الكاتب أراد أن « يسجع » بين كل كلمة وأخرى من هاتين الجملتين !! ولا يخفى عليك ما في

هذا العمل من الجهد المتعب !

ونقفز عن بعض الجمل إلى بداية الرسالة التي تلي الافتتاحية وذلك بقوله :

أما بعد : فإنني لما رأيت الفضل في عصرنا هذا

وإن ضاع عرّفه فقد ضاع عرّفه !

كما وأنه وإن زان ضعفه فقد زاد ضعفه

لفساد أمره ، وسقوط رسمه

وحطّ حظه ، وقلة عناية أهله بحفظه

آثرت أن أثر من مآثر أهل العصر ما يُخدّد آثارهم ويحدّد منارهم .

لاحظ حرص العماد على الإتيان بكل ما يمكنه من المحسنات !

ضاع عرّفه - فقد ضاع عرّفه !

المعنى : انتشرت رائحته - نُسِيت معرفته أمر صار مجهولاً .

فقد جانس جناساً تاماً بين : ضاع وضاع

وجناساً ناقصاً بين : عَرَفه وعُرِفَه

والأمر هنا لم يقتصر على جناس وسجع بل أضيف إليه موازنة بين جملتين .

ولاحظ : زان ضَعَفَه - زاد ضَعُفَه

المعنى : حسن منظره - اشتد هزاله !

والأمر هنا كما سبق مجانسة وموازنة وسجع .

ولن أمضي في تتبع كل الشواهد ، ولكن لعله يلفت نظرك هذا التكلف المثير في قوله :

أثرت أن أثر من مآثر أهل العصر ما يخلد آثارهم !!

ففي هذه الجملة تكلف الجناس .

وما يسمى بردّ الأعجاز على الصدور ، أي ختم الجملة بما يشبه ما سبق فيها من الكلام .

وهكذا تمضي في تتبع الحناس والسجع وغيره من ألوان البديع .

تدريب (6)

الإطناب من خصائص أسلوب لسان الدين بن الخطيب ، وضّح هذه الخصيصة في رسالته التي أنشأها

عن سلطانه الغني بالله ..

من خصائص أسلوب لسان الدين بن الخطيب : الإطناب المسرف ، وذلك بإيراد المعنى الواحد في صور

لُغْظِيَّة متعددة بعضها تغني عن بعض .

اقرأ هذا النص المأخوذ من النص الوارد في النصوص المختارة - من الرسالة التي أنشأها عن سلطانه

ألفني بالله تعالى - حين وصله ابنه الذي كان بفاس - يخاطب سلطان فاس :

أما بعد حمد الله تعالى الذي جعل الشكر على المكرمات وقفاً ، ونهج منه بإزالتها سبيلاً لا تلتبس ولا

تُخْفَى وعقد بينه وبين المزيد سبباً وحلفاً .

انظر كيف تحدث عن الشكر ومنزلته ! في جمل ثلاث ! وكرر في قوله : « لا تلتبس ولا تخفى » معنى واحداً وكذلك فعل في قوله : سبباً وحلقاً .

ثم انظر كيف يتحدث بعد ذلك بأسطر عن الهدية ومكانها ، في جمل مكررة المعنى لا تزيد القارئ عمقاً في المعرفة :

« فإننا نقرر لدى مقامكم وإن كان الغني بأصالة عقله ، عن اجتلاء الشاهد ونقله ، وجلاء البيان وصقله ، أن الهدايا وإن لم تحل العين منها كما حلت ، أو تناولها الاستنزار فما نبهت في لحظ الاعتبار ولا جلّت ، أو كانت زيفاً كلما أغري بها الاختبار قلّت ، لا بد أن تترك في النفوس ميلاً ، وأن تستدعي من حسن الجزاء كيلاً ، وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نيلاً » .

انظر كيف عبر عن المعنى الذي هو (مقدمة) وهو منزلة الهدية في النفوس ؟ وانظر كم جملة أورد قبل أن يصل إلى (النتيجة) وهو أثرها .

وهنا نتذكر ما قاله الدكتور شوقي ضيف من أن القارئ يضيع أحياناً من سعة استطراد المؤلف في عرض المعاني في صور لفظية متعددة .

والأمر نفسه يقال في تعبيره عن أثر الهدية في جمل ثلاث تدور حول معنى واحد .

وهكذا يمضي المؤلف على هذا المنوال وقرأ في ضوء ما قدمته لك قوله :

« وأي دليل ، أوضح محجة ، وأبين حجة ، من قوله صلى الله عليه وسلم (تهادوا تحابوا) ، من غير تبين مقدار ، ولا إعمال اعتبار ، ولا تفرقة بين الجين ولا تضار ... » .

5. المراجع

1. الأصبهاني ، العماد ، خريدة القصر ، قسم شعراء العراق ، تحقيق محمد بهجة الأثري وجميل سعيد ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1955 .
2. ابن ثغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة ، مصر .
3. الثعالبي ، أبو منصور ، يتيمة الدهر ، تحقيق مفيد قميحة ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983 .
4. الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن محمد ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، 1990 .
5. الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط 1 ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
6. الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم ، زهر الآداب ، تحقيق زكي مبارك ، ط 4 ، دار الجيل ، بيروت ، 1972 .
7. الحنبلي ، ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الفكر ، بيروت ، 1988 .
8. ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
9. الزركلي ، خير الدين ، الأعلام ، ط 9 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1990 .
10. سلام ، محمد زغلول ، الأدب في العصر الأيوبي ، دار المعارف ، 1983 .
11. ضيف ، شوقي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، مصر .
12. ضيف ، شوقي ، العصر العباسي الثاني ، ط 2 ، دار المعارف ، مصر .
13. ضيف ، شوقي ، عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ، دار المعارف ، مصر .
14. ضيف ، شوقي ، عصر الدول والإمارات ، العراق ، دار المعارف ، مصر .
15. ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط 10 ، دار المعارف .
16. عباس ، إحسان ، عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، ط 1 ، دار الشروق ، عمان 1988 .

17. القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الأعشى ، منشورات وزارة الثقافة بمصر - القاهرة ، 1963 .
18. كرد علي ، كنوز الأجداد ، ط 2 ، دار الفكر ، بيروت ، 1989 .
19. مبارك ، زكي ، النشر لافني في القرن الرابع ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت .
20. المتنبي ، أحمد بن الحسين ، ديوان المتنبي ، دار بيروت دار صادر ، بيروت ، 1958 .
21. المقدسي ، أنيس ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، ط 3 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1965 .
22. المقدسي ، أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين .
23. المقري ، أحمد بن محمد ، نفع الطيب ، إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1988 .
24. ابن النديم ، محمد ، الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت .
25. ياقوت ، معجم الأدهاء ، دار المستشرق ، بيروت .

الفهرس

الصفحة

	الموضوع	
	الوحدة الاولى	
	المحتويات	
3	النثر العربي قبل الاسلام	
5	المقدمة	1.1
8	العرب والكتابة	2.1
17	موضوعات النثر الفني	3.1
27	من اعلام النثر الفني في الجاهلية	4.1
30	الأجزاء الختامية	5.1
	الوحدة الثانية	
	الرسائل والتوقيعات	
	المحتويات	
39	المقدمة	1.2
41	الرسائل : نصوص ودراسة	2.2
43	التوقيعات	3.2
77	الأجزاء الختامية	4.2
83		
	الوحدة الثالثة	
	الخطابة	
	المحتويات	
93	المقدمة	1.3
95	الخطابة في صدر الاسلام	2.3
98	الخطابة في العصر الاموي	3.3
111	الخطابة في العصر العباسي	4.3
131	الخطابة في عصر الحروب الصليبية	5.3
142	الأجزاء الختامية	6.3
153		
	الوحدة الرابعة	
	المنظرات	
	المحتويات	
163	المقدمة	1.4
165	المنظرات	2.4
168	الأجزاء الختامية	3.4
201		

الوحدة الخامسة

القصص

209	المحتويات	
211	المقدمة	1.5
214	تاريخ القصة في تراثنا	2.5
222	نصوص قصصية : دراسة وتحليل	3.5
254	الأجزاء الختامية	4.5

الوحدة السادسة

المقامات

261	المحتويات	
265	المقدمة	1.6
268	المقامات	2.6
318	الأجزاء الختامية	3.6
328	الملاحق	7.6
328	المقامة المحوانية	1.7.6
330	المقامة الصنعانية	2.7.6
332	بديعات الزمان	3.7.6

الوحدة السابعة

مدارس النثر الفني

343	المحتويات	
345	المقدمة	1.7
347	مدارس النثر الفني	2.7
368	الأجزاء الختامية	3.7

الوحدة الثامنة

من أعلام النثر الفني

379	المحتويات	
379	المقدمة	1.8
382	من أعلام النثر الفني	2.8
421	الأجزاء الختامية	3.8